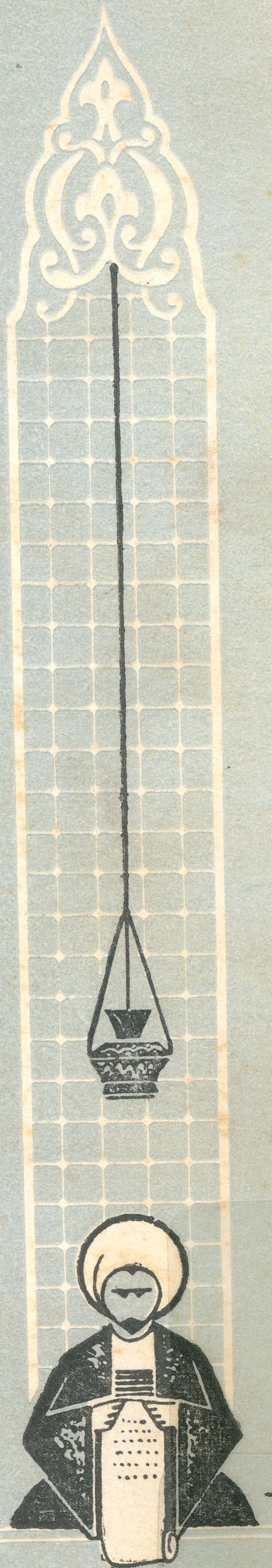
دراسات أندلسية



دراسات عن ابن حزم (أبو محمد) وكتابه "طوق الحمامة"

الدكتور الطاهر أحمد مكي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية
بعابدين

الطبعة الثانية ١٩٧٧

الدكتور الطاهر أحمد مكى
دكتوراة دولة بامتياز من جامعة مدريد
أستاذ الأدب في كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

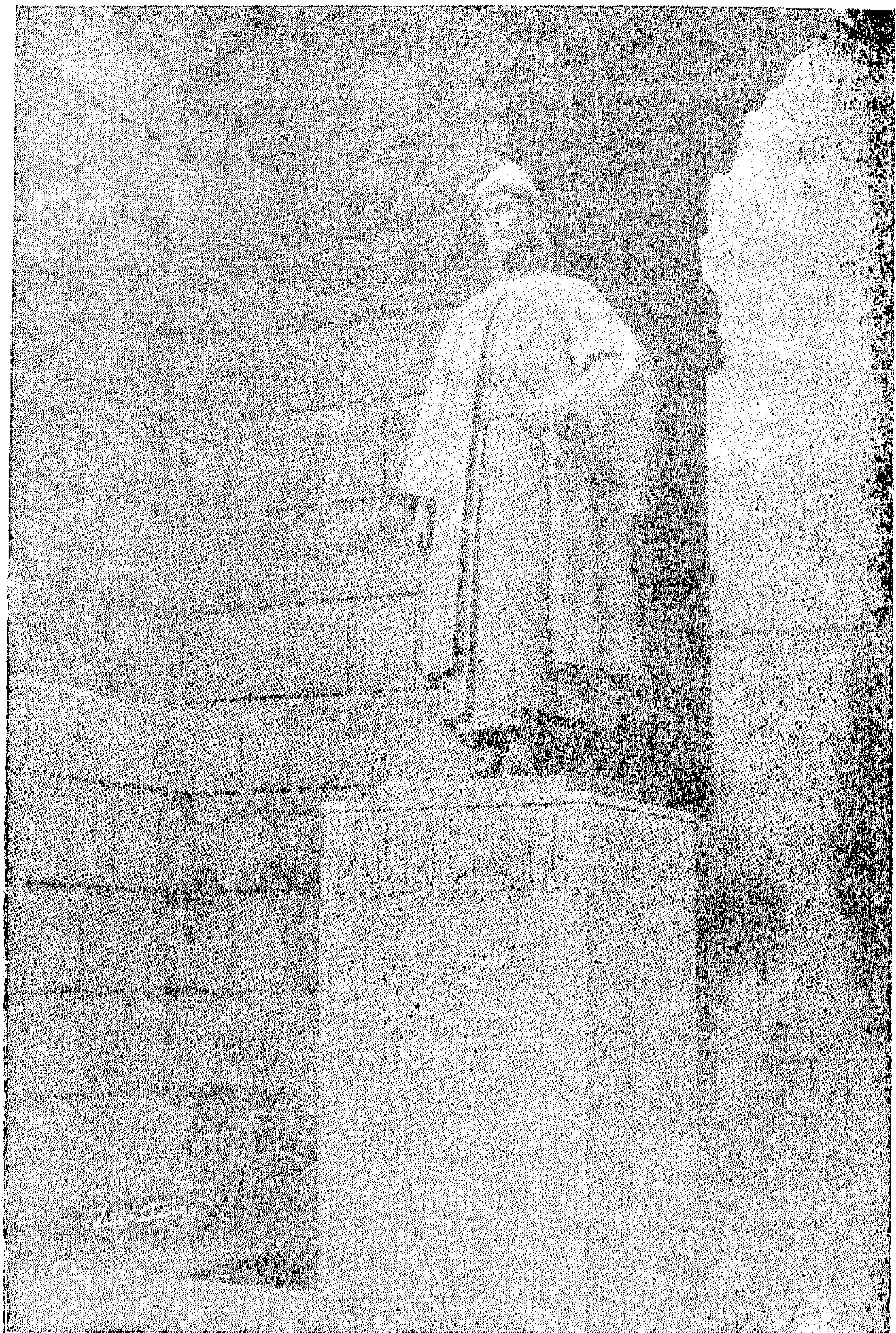
دراسات عن ابن حزم
وكتابه «طوق الحمامة»

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الثانية :
ربيع الأول ١٣٩٧ هـ
مارس ١٩٧٧ م

الإهــداء

إلى والدىَّ ، فى رحاب الله . . .



تمثال ابن حزم ، أقامته بلدية قرطبة عام ١٩٦٣م ، أمام باب أشبيلية ، أو العطارين ، وكان يؤدى إلى بلاط مغيث ، الحى الذى نشأ فيه ابن حزم ... من هنا كان طريقه اليومى إلى المسجد الجامع ، طالبا ، وأستاذا ، أو للصلاة !

كلمات فى البدء

كان مقدراً لهذه الدراسة أن تكون مقدمة لكتاب « طوق الحمامة » ، لابن حزم ، وقد حققته ، وصدرت طبعته الأولى عن دار المعارف منذ شهور ، ونفدت ، وتصدر الطبعة الثانية منه خلال أيام .

لكننى وجدت المقدمة طالت ، ووجدتها تتجاوز حجم الكتاب نفسه ، ولم أرد أن اختصرها لأنها دراسة للطوق ، ومقدمة له ، وتعريف بصاحبه ، ودراسة الطوق يجب أن تتناول ، على الأقل ، الجوانب الهامة فيه ، وما أكثرها ! ، والصفحات التى تمهد له ، وحياة كاتبه ، تعينان القارىء على تصور جوه ، وتسهمان فى تذليل صعابه ، والكتاب حافل بها .

لقد تصورت فى البدء — مثلا — ألا حاجة بى لأن أكتب عن عمران قرطبة ، الشوارع والميادين والحياة والناس ، ثم وقعت عينى على كتاب للدكتور زكريا إبراهيم بعنوان : « ابن حزم الأندلسى » ، وصدر فى سلسلة « أعلام العرب » فأدركت على الفور ، من النظرة الأولى فيه ، أن جهله بتخطيط مدينة قرطبة ، أوقعه ، كما أوقع ناسخ مخطوطة الطوق الوحيدة قبله ، وكل الذين نشروا الكتاب بعد ذلك ، فى خطأ مريع : تقول الفقرة فى غير نسختنا المحققة ، والتى اعتمد عليها الدكتور زكريا إبراهيم : « ... سألنى يوما أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان ، أيام كونى بالمدينة ، وكان طويل اللسان جدا ، متقفا للسؤال فى كل فن ... »

هكذا جاءت الفقرة فى كل الطبعات العربية ، باستثناء طبعتنا المحققة ، واعتماداً عليها مضى الدكتور زكريا إبراهيم يعلق على النص ويستنطقه : « ولكن ابن حزم لم يذكر لنا سبب انتقاله إلى القيروان ، فضلا أنه لم يشر إلى أى اضطهاد وقع عليه من جانب أهل المغرب عموما ، وأهل تلك المدينة خصوصا ، وأغلب الظن أن يكون أمامنا قد رحل إلى القيروان للدفاع عن مذهبه الظاهرى ، ومجادلة الفقهاء وأهل الفرق » . وهذا كلام باطل كله ! . فابن حزم لم يغادر

الأندلس أبدا ، لا إلى القيروان ولا إلى غيره ، ولم يقع عليه اضطهاد من أهل المغرب ، ولا ذهب إليه لينشر مذهبه : وأخيراً فالقيروان فى تونس وليست فى المغرب ، كما وهم الدكتور. ولو كان مؤلف كتاب ابن حزم ، والذين نشروا مخطوطة «الطوق» قبلى ، يعرفون أن كلمة «مدينة» إذا جاءت مرسلة عند الحديث عن قرطبى ، فإنما تعنى الحى القديم من عاصمة الخلافة ، وتميز فى عماره وحياته بملامح خاصة ، ولو عرفوا أن ابن حزم لم يسكن هذا الحى القديم أبدا من قرطبة ، أى المدينة ، لفكروا فى تقويم النص. «والمرية» مما سكن ابن حزم حقا ، أقرب الألفاظ رسما إلى كلمة المدينة ، وليس ثمة شك فى أن هذه تحريف عن تلك ، جرى بها قلم ناسخ المخطوطة الوحيدة جهلا ، لأنه مشرقى على غير علم بأسماء الأمكنة الأندلسية. وهو تصويب يمكن الوصول إليه بشىء من التأمل ، وللحق فإن الأستاذ الجليل الدكتور طه الحاجرى أدرك هذا الخطأ وصوبه منذ أعوام طويلة ، فى كتابه القيم : «ابن حزم : صورة أندلسية» . ولم يقرأ أحد ممن نشروا الطوق هذا الكتاب واستفاد منه .

وكان ذلك دافعا لكتابة الفصل الأول عن قرطبة ، عمرانها وتخطيطها والحياة فيها على أيام ابن حزم ، وألحقته بمصور تخطيطى وتقريبى للمدينة فى القرن العاشر الميلادى ، ودون ادعاء ، يرسم وينشر لأول مرة فى اللغة العربية .

وأمام حياة ابن حزم ، شاهد عصر ، ترددت لحظات ! . لأنى ترجمت كتاب المستشرق الإسبانى العظيم ميجيل أسين بلاثيوس عن ابن «حزم القرطبى» ، وسوف ينشر قريبا ، وفيه الغناء كل الغناء ، ولكنه كتاب موسع وشامل ومتعمق ودراسة مستقلة ، ونحن هنا فى حاجة إلى علامات هادية فحسب ، على طريق حياة ابن حزم ، تعين على فهم «الطوق» ، وليس إلى حياته كلها ، ثم هممت أن أقدم ترجمة للدراسة الجميلة والموجزة التى قدم بها غرسية غومث ترجمته الإسبانية للطوق ، ولكن الرجل يتحدث فيها إلى إسبان ، يكتب لهم أحيانا ماليس القارىء العربى فى حاجة إليه ، ويتجاوز أحيانا قضايا فوق طاقة القارىء الإسبانى غير المتخصص ، ولكنها ضرورية للقارىء العربى ، ومن ثم تقدم استهلاليته

في دراستي ، وأفدت مما كتب ، وهو يعتمد أصلا على أسين بلاثيوس ، دون أن أسير على دربه دواماً .

وقد وجدت الفيلسوف الإسباني الكبير أورتيجا إي جاسيت (١٨٨٣ — ١٩٥٥) ، وشهرته تتجاوز إسبانيا إلى عالم الفلسفة بأسره ، قدم لترجمة الطوق الإسبانية ، بدراسة مركزة ورائعة ، فآثرت نقلها إلى العربية برمتها ، ليكون لدى قارىء الطوق العربي ، وجهة نظر أخرى غير عربية ، قد يرضى عنها أو يختلف مع صاحبها ، ولكنها مفيدة فى كل الأحوال .

وعن هوية ابن حزم كتب المؤرخ الإسباني ، الحجة فى دراسات العصر الوسيط ، الأستاذ سانتشيث البرنس (١٨٩٣ —) دراسة مستفيضة ، رد فيها عبقرية ابن حزم إلى خصائص سلالته الإسبانية ، وقد ترجمت هذه الدراسة برمتها أيضاً ، دون تعليق منى أو مناقشة ، ودون أن يعنى هذا موافقتى على رأيه ، لأنى فضلت ، كعادتى فيما أترجم ، أن أترك القارىء العربى حراً ، مطلق الفهم ، فى مواجهة ما يقرأ من نصوص مترجمة ، وأن يبدى رأيه فيها دون تطفل منى . وثمة كثيرون من المفكرين الإسبان المعاصرين يشاركون سانتشيث البرنس رأيه ، ولكنه الوحيد الذى درس القضية ، وعبر عن فكره ، وربما عن فكرهم أيضاً ، فى هذه الدراسة المستفيضة .

أما أن ابن حزم من أصول غير عربية فحقيقة لا نرفضها ، وكان عالم قرطبة العظيم مسلما طيبا ، والإسلام فوق عصبيات الجنس واللون والدم ؛ وأما أنه من سلالة يمكن أن توصف بأنها إسبانية ففيه شك كبير . لأن لفظة « إسبانيا » لحظة الفتح الإسلامى كانت تعنى امتداداً جغرافيا فحسب ، دون أن تكون لها دلالة أبعد من هذا ، قومية أو دموية أو فكرية . والقول بهذا ليس من عندى ، وإنما هى فكرة اهتدى إليها المفكر والمؤرخ الفيلسوف أميركو كاسترو ، وظل يبشر بها طوال حياته (١٨٨٥ — ١٩٧٣) ،

ويرى فى تجاهل الإسبان لها تضليل وتحريف للتاريخ ، وانحراف بسير الثقافة فى وطنه ، وألف فى ذلك كتابا قيما : « حقيقة إسبانيا التاريخية » ، وكانت دراسة سانتشيث ، وكتاب آخر له ، رد على نظرية كاسترو هذه ، ولقد حرم القارئ من فكر أميركو كاسترو الرائع فى هذه الدراسة التى نقدمها ، لأن نظريته لاتقف عند ابن حزم وحده ، وإنما تتجاوزه إلى القضية فى جوهرها : لمن ينتسب هؤلاء الذين عاشوا فى الأندلس ، على امتداد دولة الإسلام التى ظلت تسعة قرون ؟ وإجمالها غير متاح ، ومن ثم فقد ترجمت الكتاب كله ، وينتظر الناشر ليأخذ طريقه إلى القارئ قريباً .

ورأيت مفيداً إلى جانب ما تناولت من أفكار « الطوق » ودلالاته المتنوعة ، أن أتتبع آثاره فى الآداب التى عايشته ، أو تلته ، فى الأندلس ، فى الأدبين العبرى والإسبانى ، وأن ألقى نظرة على الدراسات المماثلة التى سبقته إلى هذا المنحى فى اللغة العربية ، والتى جاءت بعده وسارت على دربه ، أو أفادت منه ، وترجمت دراسة لغرسية غومث تناولت جانبا من هذه القضية ، وأكملت الجوانب الأخرى التى لم يتعرض لها المقال .

ثم وقفت عند شاعرية ابن حزم ، وأهمية الطوق كمصدر لتأريخ الحياة الأدبية فى قرطبة ، إلى جانب ما يقدم من معلومات أخرى ضافية ، اجتماعية وسياسية ، والمرأة فى قرطبة الخلافة من خلاله ، والحياة مؤلفه نفسها . وتلك هى الخطوط العامة للدراسة ؛ وما أريد أن أقف عندها تفصيلا ، وفى الفهرسة آخر الكتاب ما يغنى .

* * *

أنهيت هذه الدراسة مع بداية الصيف ، ثم حملتها إلى المواطن التى عاش فيها ابن حزم منذ ما يزيد على ألف عام ، أمضيته بين والبة وإشبيلية وقرطبة والمرية وشاطبة وميورقة ، وغيرها . وفى ضوء ما رأيت على الطبيعة وحياة الناس ، وفيها ما لم يتغير أصلا

أو ما تغير قليلا ، وما استلهمت من روح التاريخ ، واستهديت من حدمى بين هذه المعالم ، صححت وراجعت ، وأضفت وحذفت ، فكانت هذه الصفحات :

قلت وأنا أقدم الطبعة الأولى من تحقيقى « الطوق الحمامة » ، إن النص والدراسة التى سوف أعدها مستقلة عنه ، كمقدمة له ، تربط بينهما أقوى الوشائج ، ولا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر . وأعيد هذه السطور هنا مرة أخرى إبراء لذمتى ، لأن فى هذا ما يفسر ذاك ، والعكس صحيح أيضا .

ومن الله الجزاء ، ومنه التوفيق .

قرطبة — الأندلس

شعبان ١٣٩٦ هـ
أغسطس ١٩٧٦ م

الطاهر أحمد مكى

مخطط تقريبي لمدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي

قرطبة على أيام ابن حزم

● السكان :

حين زحف مغيث الرومي ، غلام الوليد بن عبد الملك ، يريد قرطبة عام ٩٢ هـ=٧١١م ، وحاصرها حتى فتحها ، لم يدر بخلده ، ولا بخلد أحد ممن كانوا معه ، أن هذه المدينة الصغيرة القابعة فى سفح جبل العروس ، نصف همجية ونصف متبدية ، يمكن أن تصبح فى مدى قرنين ونصف من الزمان ، كبرى مدن الأندلس ، موطن الإمارة ، وحاضرة الخلافة ، تنافس بغداد ، وتطاول القاهرة ، وتكسف ماحولها من مدائن ، وتبلغ شهرتها الخافقين ، فتصبح موضع الإعجاب من راهبات منقطعات فى دير منعزل بألمانيا ، وتقول عنها الأخت الشاعرة السكسونية روز فيتا Hroswita فى قصيدة لها : «جوهرة العالم الساطعة ، مدينة جديدة ورائعة ، فخورة بقوتها ، شهيرة بمباهجها ، مزهوة بما تملك من خير وفير».

ليس من غرضي ، ولا فى نطاق بحثى ، أن أعرض لقرطبة فى طفولتها وتطورها على امتداد القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وغاية ما أطمح فيه أن أعطى صورة مصغرة فحسب ، لجوانبها المختلفة ، خلال القرن العاشر الميلادى ، حين طرق ابن حزم أبوابها وليدا .

كانت قرطبة القرن العاشر الميلادى مدينة كبيرة ، يتجاوز سكانها المليون عددا ، تتحدث العربية ، إلى جانب لغات أخرى ، وتدين بالإسلام ، إلى جوار المسيحية واليهودية ، ويسكنها أقوام ينتمون إلى أصول مختلفة .

كان هناك العرب ، مضريون أو يمنيون ، جاءوا قديما مع موسى بن نصير ، أو مع بلج بن بشر القيسى بعده ، أو فى أفواج قليلة العدد أيام عبد الرحمن الداخل ، وانتشروا فى كل الأندلس ، وأورد لنا ابن حزم معلومات مستفيضة

عن منازلهم فى كتابه « جمهرة أنساب العرب » واتخذ عدد منهم مكانه إلى إلى جانب الإمارة أو الخلافة ، ولم تكن أعدادهم فى المدينة كبيرة ، ويمكن القول أنهم كانوا أقل عددا من أية طائفة أخرى ، ويتولون الوظائف الهامة ، وعكف بعضهم على التجارة ، وقلة تدير من العاصمة مزارعها الواسعة فى الريف ، وحافظوا على أصولهم التى انحدروا منها ، وحرصوا على أن يتميزوا بألقابهم العربية ، وظلت ذكريات قبائلهم حية فى حكاياتهم وسمرهم ، وهى خصائص أخذت تختفى مع الزمن ، ونتيجة الزواج المختلط ، فقد جاء العرب فرادى عادة ، وكان النصف الثانى من بيوتهم ، زوجة أو جارية أو عشيقة ، إيبيريا فى الأعم الأغلب ، ومن ثم بدأت « الأندلسية » تأخذ طريقها إلى وجدانهم إحساسا ، فأصبح الفرد منهم يحس بأنه قرطبى ، قبل أن يكون مخزوميا أو قرشيا . وبدأ ثقلهم السياسى يضعف مع عبد الرحمن الناصر ، فقد كان ميالا إلى قيام سلطة مركزية قوية ، ورأى المنصور بن أبى عامر بعده خطر قيام طبقة تعتمد على الدم وحده طريقا إلى النبل ، فقرر أن يهبط بهم إلى حيث بقية الناس ، وقضى نهائيا على نظام الجند القبلى ، وأحل مكانه مفهوما جديدا يجعل العصبية للأندلس .

وكان هناك البربر ، من زناتة أو صنهاجة ، وهم أول من دخل الأندلس ، واحتملوا صدمة الفتح الأولى ، واتصلت هجراتهم إليه ، لقرب بلادهم منه ، وتشابه مناخ أوطانهم به ، وكثرة القلاقل السياسية عندهم ، حتى فاقوا العرب عددا ، وأورد لنا ابن حزم فى كتابه « جمهرة أنساب العرب » فصلا عنهم أسماه : « بيوتات البربر فى الأندلس » ، ونجد عنهم معلومات وافرة فى تاريخ ابن خلدون . وقد اتجه معظم البربر الى الريف ، وامتزجوا بالسكان الأصليين ، ولعبوا دورا هاماً فى نشر الإسلام ، وآثرت قلة منهم البقاء فى العاصمة ، تعمل فى المهن المتواضعة ، على حين سمت بآخرين مواهبهم ، فتبوأوا أعلى المناصب ، وباشروا نفوذا سياسيا أو علميا أو أدبيا مرموقا . لقد عرف القرن العاشر منهم فى قرطبة أبناء يحي بن يحيى الليثى ، كبير فقهاء

المالكية ، ومنذر بن سعيد شيخ الخطباء وإمام عبد الرحمن الناصر ، وابن دراج القسطلى شاعر المنصور بن أبى عامر . وحافظ بعضهم على نسبه البربرى ، واصطنع آخرون لهم نسبا عربيا ، على ما سنرى .

أما الكثرة الغالبة من السكان فى قرطبة ، فممن وجدهم المسلمون لحظة الفتح ، ويعودون إلى أصول مختلفة ، لاتينية وقوطية وإيبيرية وسلتية وحتى أفريقية وفينيقية ، وقد أطلق على من أسلم منهم لحظة الفتح اسم « المسالمة » ، وعلى أبنائهم اسم « المولدون » ، وكان منهم الحرفيون وصغار التجار ورجال الأعمال . وبعضهم كان يعمل فى المزارع التى حول قرطبة ، وهم العنصر الأكثر فعالية فى الاقتصاد ، لأنهم أعرف من غيرهم بالبلد ، وأكثر احتمالا لأجوائه وجوائحه . وقد دعمت الدولة فى سياسة بعيدة النظر هؤلاء المسلمين الجدد وحمتهم ، وفتحت أمامهم باب الأمل والعمل واسعاً وعريضا ، لكى يعملوا ويثروا ويحتلوا مكانتهم فى المجتمع ، وبرزت من بينهم مواهب عظيمة ، وحرص الكثيرون منهم ، كالبربر ، على أن يصطنعوا لهم نسباً عربياً ، عن طريق الزواج والمصاهرة ، أو الولاء ، أو باصطناع نسب مزيف ، وثمة متخصصون فى صنع أشجار النسب يصنعونها ويبيعونها لمن يريد ، هروباً من ماضيهم غير الإسلامى ، وثنياً كان أم مسيحياً أم يهودياً . وكان بينهم من يتعصب لطائفته ، وقد كتب أبو عامر أحمد بن غرسية ، وأصله من الباسك ، رسالة فى فضائلهم والدفاع عنهم .

وقد احتفظ عدد كبير من هؤلاء المولدين بأسماء أسرهم القديمة ، واتخذوا منها ألقابا ، فلدينا ابن بشكوال Ibn Pascual صاحب كتاب « الصلة » وبنو قومس Banu Comes ، وبنو مرتين Banu Martin وبنو غرسية Banu Garcia ، وآخرون كثيرون . وبعضهم عرب اسمه اللاتينى ، فأصبح Félix يدعى سعيداً ، و Victor يدعى الظاهر ، وأخذت الأسماء اللاتينية المستمدة من التوراة الشكل العربى ، فاسم Moisés أصبح موسى ، و Jesuis عيسى ، وهكذا .

ثم السود والصقالبة ، وكانوا أقل عدداً من العرب والبربر ، والسود أقل من الصقالبة ، وهما على النقيض لونا . ويطلق على الرقيق القادم من بلاد السودان اسم العبيد أوالسودان ، ولا صلة للتسمية بما يطلق الآن على جنوبي وادى النيل، وإنما تعنى تلك المناطق التى تمتد من جنوب المغرب وما وراءه من غربي إفريقية ووسطها . وقد اتخذمنهم الخلفاء حرسهم الخاص، وبلغوا عدداً لا بأس به ، وبخاصة فى عهد الحكم الثانى ، وأصبحوا يكونون جانباً من المهرجانات العامة ، بين فرسان ومشاة ، وبخاصة فى البيعة،وأكثر منهم المنصور بن أبى عامر ، لأنهم اشتهروا بالقوة والاحتمال ، والقدرة على العدو ، حتى أن البريد ويطلق عليه فى لغة الأندلس الإدارية اسم « الرقاص » كان وقفا عليهم ، وكان يتبع المنصور فى كل حملاته الحربية ، حمل أوامره إلى مرءوسيه فى بقية العاصمة أو بقية الكور .

ولا يزال أحد شوارع قرطبة يحمل اسمهم مترجما حتى يومنا هذا : زقاق السود Calleja de Los Negros .

والسوداوات كن أكثر عدداً من الرجال ، ويتمتعن بشهرة عالية فى الأعمال المنزلية ، وكان الرجال يقدرون فيهن صفات أنثوية لا يجدونها فى غيرهن ؛ وكان اللون الأسود لأبناء من آباء بيض شائعا بين الطبقة الحاكمة والمقتدرة ، « وإنه لشيء يشرف هؤلاء المسلمين أنهم لم يعرفوا التفرقة العنصرية بسبب اللون أبداً ، لا فى العصر الوسيط ، ولا فى أيامنا هذه » .

وكان الصقالبة خصيانا فى أكثر الأحوال ، ويعملون فى حرس الخليفة ، والطريق مفتوح أمامهم إلى المناصب العليا ، وإلى أن يصبحوا فى مرتبة الرجال الأحرار ، رغم أنهم جاءوا إلى الأندلس رقيقا ، وبينهم من احتفظ بلغته ، ومن اعتزل المجتمع ، وحافظوا على خصائصهم ، واتخذوا لهم موقفا خاصا ، رغم أنهم أسلموا ، وفتحوا قلوبهم للمجتمع الذى يعيشون فيه ، وعندما سقطت الخلافة أصبحوا عنصراً مستقلا فى

مواجهة العناصر الأخرى ، وتميزوا بروح التضامن فيما بينهم . وفى البدء كان يطلق لفظ الصقالبة على الذين يؤتى بهم من وسط أوربا ، ويقوم اليهود على خصائهم فى مدينة بجانة ، وكل سكانها من اليهود ؛ وكان يهود فرنسا يباشرون المهنة فى مدينة « فردان » ، ويربحون من ورائها أموالا طائلة ، وفيما بعد أطلق الاسم على كل الرقيق الأبيض اللون ، حتى أولئك الذين يؤتى بهم من جنوب فرنسا أو شمال الأندلس.

وكان الأسيرات القادمات من بلاد الإفرنج، فى جنوب فرنسا . أو من مقاطعات قطلونية والباسك وغاليسية فى شمال الأندلس ، حظوة كبيرة فى قرطبة ، لأنهن بيضاوات البشرة ، شقراوات الشعر ، زرقاوات العيون ، ومن بينهن كان الأمراء يختارون عشيقاتهم المدللات ، فإذا أنجبت الواحدة منهن صارت أم ولد ، أى حرة . وقد مارست الجوارى نفوذا كبيراً فى الحياة السياسية ، ولم يكن اتخاذهن وقفا على الأمراء ، وإنما شاع ذلك فى بيوت الخاصة ، وأعلى الطبقة الوسطى ؛ من كبار الموظفين : ورجالات الدولة ، وأبناء البيوتات . وتميز هؤلاء الجوارى بالثقافة والرقة والصقل ، وأدين دورا بالغ الأهمية كأمهات ، وأعطين المجتمع الأندلسى طابعه الخاص ، ولعبن دورا كبيراً فى تحسين مكانة المرأة فى الأندلس. ويحمل شارع فى قرطبة اسم شارع الرقيق ، أو الجوارى Las esclavas حتى يومنا .

هذه العناصر على اختلافها كانت تأخذ طريقها ، تدريجيا ، نحو اندماج كلى ، سهّله ومهّده ، عقيدة واحدة كانت تظل الناس جميعا ، وتحدد لهم أنماط السلوك فى حياتهم العامة والخاصة ، دون أى تمييز طبقى أو عنصرى . ويمكن القول ، إن القرن العاشر الميلادى ، فى النصف الثانى منه تقريبا ، وفى ظل السلام الوارف الذى بسط عبد الرحمن الناصر ربوعه على الأندلس ، تمت عملية المزج بين العناصر الأصيلة والوافدة ، وكنت إذا سرت فى الشوارع ، أو تجولت فى الأسواق ، تلتقى بأناس ألوانهم مختلفة ، شقر وسمر وبيض وسود ومخلطون ، يعيشون فى وئام مع بعضهم ، ومع الذميين من الكاثوليك

واليهود ، » ونجم عن اختلاط الأجناس ، وتجاور الديانات ، جو سمح جميل ، إنساني وشفاف ، هو الجو الحضاري نفسه الذي نعرفه في بغداد كما تصورها قصص ألف ليلة وليلة ، خالصا من كل مايرتبط بالشرق في أذهاننا ، من جلافة يشوبها الغموض » .

في هذا القرن كانت الخلافة الفاطمية في المغرب ، والعباسية في بغداد ، تدفع بالأندلس دفعاً نحو الإنطواء على نفسه ، فكلاهما كان خصماً سياسياً عنيفا ، ومن ثم كان اهتمامه بالوحدة الفكرية للعالم الإسلامي فاترا . وبدأ يتكون في وجدان الأندلسي شيء غامض ، بإحساس ذاتي مبهم ، من المبالغة أن نقول عنه إنه قومي ، لأن مثل هذا التعبير يتجاوز ماأحس به الأندلسيون ، ولايتناسب وطبيعة العصر ، ويمكن تحديده بأنه إحساس بوحدة الأمل والغاية والحياة بين سكانه ، وبعزلة جغرافية شعورية عن بقية العالم الإسلامي ، ومع شدة العداء السياسي من الفاطميين والعباسيين أخذ هذا الاتجاه شكلا أكثر قوة ووضوحا ، وبدأ الأندلسي ، إيبريا من شبه الجزيرة ، أو قادما من المغرب ، أو مهاجرا من المشرق ، يحس بشخصيته الأندلسية ، ويعبر ابن حزم عن هذا المعنى تعبيرا قويا في بيت من الشعر :

وياجوهر الصين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس

لقد بدأ الأندلسيون يستشعرون أندلسهم وطنا ، يتعبدون به دواما ، يتغزلون فيه شعراء حين يكونون على بساطه ، ويحنون إليه وجدا حين يكونون بعيدين عنه ، وليس مهما بعد ذلك أنه لم يعرفوا كيف يدافعون عنه فيما بعد : ذلك أن الأندلسي كان كثير الكلام وجدلا ، قوي الإحساس بالطبيعة وشاعرا ؛ قادرا على التمتع بالحياة ، ولكنه كأي متحضر تنقصه الخشونة التي تجعل منه قادرا على الصمود والنضال .

وكان هناك المستعربون ؛ وتطلق عليهم المصادر العربية ، نصارى الذمة ، أو العجم ، أو بمجرد كلمة نصارى ، وتطلق عليهم المصادر اللاتينية

اسم : المستعربون ، أخذا من من كلمة مستعرب Mozarabes مضافا إليها أداة الجمع في اللاتينية . وهم أولئك الذين ظلوا على كاثوليكيتهم ، ولكنهم فيما عدا ذلك شاركوا المسلمين الكثير من عاداتهم وثقافتهم وألوان حياتهم . ولانستطيع أن نستنتج عددهم ، ومن الواضح أنه كان يقل مع الزمن بفضل تقدم الإسلام ، وباستثناء رؤسائهم الدينيين ، فإن المصادر العربية قلما تتحدث عنهم . وبينهم من كان يتمتع بوضع اجتماعي ممتاز ، ولم يكونوا يتعرضون لأية مضايقا من الخليفة ، أو من المنصور بن أبي عامر عندما أصبح حاجبا ، ولامن الخاصة ، وبرهنوا من جانبهم على انضمامهم للمجتمع ، وحاولت الدولة أن تكسب ثقتهم ، ولكن ما إن نمت القوى الكاثوليكية في الشمال حتى اهتز ولاؤهم ، وأصبح مجاملة وتقية وانتظاراً أكثر من إخلاصا .

وقد استقلوا بشئونهم الدينية ، أصبح لهم رئيس ينتخبونه من بينهم ويعينه الخليفة ، يدعى قومس Comes ، وقاض ينظر في أمورهم الخاصة ، يعرف باسم «قاضي العجم» ، وكان لهم كنائس في داخل المدينة ، وعدد آخر خارجها ، تضم كل واحدة منها ديراً ، وفي هذا القرن ألغي القرار الخاص بحظر دق أجراس الكنائس ، وكانوا يؤدون طقوسهم الدينية في بهرج يشد إليه فضول حتى أولئك المسلمين الطيبين من العامة ، ووصف لنا ابن شهيد ، في رسالته « التوابع والزوابع » ، انطباعه عن دير زاره . ورغم أن بعض المسلمين كان يتهم رجال الدين الكاثوليك بأنهم ليسوا طيبين ، وأن بعض الأديرة تحولت إلى حانات للشراب ، وأمكنة لممارسة الحب ، لايمكن القول بأنهم جميعاً ، وبأن الأديرة كلها كانت كذلك . وأياً ما كان الأمر فإن مثل هذا الاتهام لم يكن يسبب أية متاعب للمستعربين .

وبعض هؤلاء المستعربين كان على ثقافة عالية ، وموضع ثقة الخليفة ، وكان ربيع بن زيد ، واسمه المسيحي Recemundo يستخدم

اللاتينية والعربية بمستوى واحد ، وقد اتخذ منه الناصر سفيراً متجولا له : فأرسله إلى أوتون الأول Otoni ملك جرمانيا ، ثم إلى القسطنطينية وسورية للحصول على مواد يحتاج إليها فى بناء مدينته الزهراء ، ولكى يضفى عليه احتراماً زائداً فى سفارته عينه أسقفاً لمدينة إلبيرة ، وهى وظيفة شرفية ، فلم يكن لديه فى الواقع وقت ليباشر وظيفته هذه . وكان الحكم الثانى يقدر معارفه الفلسفية والفلكية ، وله ألف ربيع بن زيد كتابه «الأنواء» وكان المستعربون طبقات اجتماعية مختلفة ، يقف على قمتها النبلاء الذين ينحدرون من القوط ، ثم الطبقة العليا وكانت وقفاً على رجال الدين ويأتى العبيد فى نهاية السلم ، وكان المسيحيون واليهود شأنهم كالمسلمين يمتلكون الرقيق .

وكان فى قرطبة يهود ، ومعلوماتنا عن نشاطهم فى القرن العاشر محدودة للغاية ، وما وصلنا من أخبار وفيرة عنهم يعود إلى القرن التالى ، ولقد وجدت عنتاً فى الوصول إلى معرفة عدد من اليهود كان يعرفهم ابن حزم ، وتتردد أسماؤهم فى « طوق الحمامة » . ومع ذلك يمكن القول أنهم كانوا يكونون جالية كبيرة ، تقطن حياً خاصاً بها ، يقع بين شارع القنطرة وقصر الخلافة ، ويحمل اسمهم . وأن أحد أبواب المدينة كان يطلق عليه اسم باب اليهود ، وأن الربض المجاور له يحمل اسمهم أيضاً ، ويبدو رغم صمت المؤرخين أنه حى يهودى آخر يختلف عن الأول ، وربما كان موطن الأغنياء منهم .

وقد سكن اليهود الأندلس قبل مجىء المسلمين ، وساعدوهم فى حركة الفتح ، واعتنق بعضهم الإسلام ، وظلت غالبيتهم على دينها ، وفيما بعد جاء يهود آخرون من أفريقية وآسيا . وقد تركوا أحراراً تماماً فى حياتهم الدينية ، وكانت لهم بيعهم داخل المدينة ، ولهم مجلس شورى يرعى شئونهم يسمى « الجماعة » . ورئيس هو الصلة بينهم

وبين السلطات الإدارية ، ورئيسهم فى عهد عبد الرحمن الناصر ، وهو الوحيد الذى نعرف عنه شيئاً ذا قيمة فى هذه الفترة ، حسداى بن إسحاق بن شبروط ، كان طبيبا للخليفة ، ومن مستشاريه المقربين ، ويسفر له لدى ملوك الشمال المسيحيين ، وإليه يرجع فضل إقامة الدراسات التلمودية فى قرطبة وإزدهارها ، على حين كانت تخبو فى المشرق ، وبدأ اليهود يصوغون لهم تشريعاً خاصاً وقوانين ، وأخذ الشعراء ينشدون الشعر العبرى ، ويتخذون من العروض العربى قالباً يصبون فيه أشعارهم العبرية .

وفيما قبل القرن العاشر حاول اليهود أن يتمردوا ، وأن يغذوا الحركات الثائرة ، أو ينضموا إليها ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن هذه ليست مهمتهم ، وأن التآمر والدسائس ودفع الآخرين إلى الثورة ، والتمرد على الحكومة ، لن يؤدى إلى شيء ، فآثروا السلامة ، وانصرفوا إلى أعمالهم . وعندما جعل الناصر من نفسه خليفة ، ومن قرطبة عاصمة الخلافة ، وغرق الناس فى الترف ، ووسعت الحياة كل عامل ، انصرف اليهود إلى جمع الثروات الكبيرة ، وآثروا أن يربحوا ثقة الدولة ، وكانوا يعملون فى تجارة المجوهرات ، والذهب والفضة والرقيق ، والسوق السوداء ، والرهونات والصياغة ، والربا ، وفى التزييف أحيانا ، ويعملون مترجمين وأطباء وصيادلة ، وفى التنجيم والفلك ، وبعض وظائف الإدارة ، وخاصة ما اتصل منها « بخزانة المال » .

• الطبقات الاجتماعية :

اندمج سكان قرطبة عنصريا ، ولكن الطبقية الاجتماعية ظلت قائمة على النحو الذى كانت عليه فى بقية العالم الإسلامى ، فقد كان هناك الأحرار والموالى . وفى نطاق الأحرار هناك الخاصة ، أو الطبقة العليا بلغة العصر الحديث ، والعامة ، أو الجماهير كما نقول فى أيامنا هذه .

تتكون طبقة « الخاصة » من أبناء الأسر العربية ، وبخاصة أولئك الذين يرتبطون من قريب أو بعيد بنسب مع الأسرة المالكة ، ويطلق عليهم أحيانا « بنوهاشم » ، أو « أهل قريش » ، إشارة إلى أصولهم النبيلة ، ويتلقون رواتب من بيت المال إلى جانب أملاكهم الخاصة ، وكانوا موضع احترام كبير من عامة الشعب ، وبعيدون عن المناصب العامة ، ويتولى شئونهم نقيب لهم ، هو صوتهم والصلة بينهم وبين الخليفة. وتأتى مكانتهم في الحفلات الرسمية أو العامة ، أو الأعياد الدينية ، أو استقبال السفراء ، قبل الوزراء وكبار الموظفين ؛ ويليهم رجال القضاء ، وعلى رأسهم قاضى الجماعة ، ثم كبار الموظفين ، ويعدون من الخاصة ، إلى أى عنصر انتموا . ومنذ نهاية القرن التاسع الميلادى بدأ كثيرون ممن كونوا ثروات طائلة ، قديما أو حديثا ، يشترون وضعا اجتماعيا أفضل ، يدفعون ثمنه ذهبا ، لكى ينتسبوا فى هذه الطبقة ذات الأهمية الاجتماعية ، وكانت تتمتع بامتيازات مادية محدودة ، ومعنوية أكبر ، ولها الحق فى معاملة خاصة من موظفى الدولة . وعلى أية حال فقد كانت طبقة متجددة ، ومحدودة العدد ، وغير مستقرة ، لأن عمليات الإقطاع والمصادرة تتم فجأة ، وتخضع لأهواء الحاكم دواما .

كان أبناء « البيوتات » أوضح عناصر هذه الطبقة فى القرن العاشر ، وهم الذين كانوا يتوارثون الوظائف الكبرى منذ القرن التاسع ، ويحتكرون الإدارة المركزية فى العاصمة ، وتميز من بينهم خمسة ، أصولهم شرقية هم : بنوعبدة ، وبنو حدير ، وبنو شهيد ، وبنو عبد الرءوف ، وبنو فطيس ، وأبناء الأسر الثلاثة الأولى تتردد أسماؤهم كثيراً فى طوق الحمامة ، وفى القرن العاشر ، على أيام الناصر ، سوف تلحق بهم بيوت أخرى ، لموظفين كبار ، أو موال محدثين ، نجحوا فى مهمات وكلت إليهم . من طراز بدر ابن أحمد الذى انتصر على أوردنيو الثانى Ordonio ملك ليون ، فى موقعة متونية Mitonia ، وكان يتولى الحجابة للناصر منذ أصبح أميراً إلى أن توفى خليفة ، وخلفه فى بعض مناصبه إبناه : عبدالله وعبد الرحمن . وظهر عدد

من الفتيان الصقالبة ، أمثال : درى ، وأفلح . وطرفة ، وجعفر ، ويظهرون في الوثائق تحت اسم «أبناء الخلائف » ، وبدهي أنهم أصبحوا أحراراً قبل أن يعهد إليهم بالوظائف العالية ، والتي ارتفعت بمستواهم إلى أشهر البيوتات العربية القديمة ، والتي أحست على التأكيد بأن شيئاً تتوارثه قد انتزع منها فجأة . وفيما بعد ، في خلافة الحكم الثاني وابنه الضعيف هشام الثاني ، سوف نلتقي بالحاجب المصحفي ، والمنصور بن أبي عامر ؛ وأحمد بن سعيد ابن حزم ، والد ابن حزم صاحبنا .

جرت العادة أن يحمل كبار الموظفين لقب وزير ، وأن يتلقوا الراتب المقرر له ، وكانوا إلى جانب ذلك يجمعون ثروات طائلة ، من الضياع الواسعة ، والعقارات الهامة ، والجواهر الغالية ، وكان الخليفة يسأل الذين تطول أعناقهم فجأة عن مصادر ثرائهم ، وبعضهم لا ينتظر حتى يسأل ، وإنما يسبق الأحداث فيقدم بعض ما جمع إلى الخليفة ، أو بيت المال ، وكلاهما كان واحدا .

ثم تأتي الطبقة الوسطى ، ويتحدث عنها المؤرخون عرضا ولماما ، وتجيء طبقاً لنظم المراسم في آخر القائمة ، ويطلق عليهم اسم « الأعيان » ، وهم أغنياء الأحياء ، وكبار تجار الأسواق ، ممن استطاعوا أن يرتفعوا بمستواهم في سلم الطبقات الاجتماعية ، ومعظمهم من المولدين . ولانستطيع في ضوء النصوص التي بين أيدينا تحديد الدور الذي قامت به هذه الطبقة في حياة العاصمة ، ولكن الأقرب إلى التصور أن الأغنياء منهم كانوا يحاولون أن يقفزوا إلى مرتبة الخاصة ، ولم يكن للبقية دور حتى يكون لهم وضع خاص .

وكانت الطبقة الدنيا ، أو العامة كما تسميهم المصادر القديمة ، وقل ما تتحدث عنهم ، تتكون من الحرفيين والعمال ، وكلها من البربر أو المولدين أو الموالي ، إلى جانب المستعربين واليهود . وفي مدينة كقرطبة ، تجرى الأموال بين يدى الخاصة أنهارا ، كان على هذه الطبقة أن تتحمل ضير المجتمع

وقسوة الحياة ، وأن ترزح تحت أعباء ضرائب باهظة كانت تفرض عليها. وكانت تقوم بينهم وبين الدولة هوة سحيقة من سوء الظن وعدم الثقة ، لأن الغرم يقع عليهم دائماً ، وكانوا دواماً ،وربما على حق ، مادة معدة للانضمام إلى أية ثورة أو تمرد أو عنف ، ووراء أي قائد أو دعوة ، وظلوا يخضعون دائماً لرقابة مشددة من الدولة ، ودرج الأمير أو الخليفة على أن يتملق عواطفهم عند توليه السلطة ، يؤكد أمنهم ، ويخفف الضرائب عنهم ، وقد يعفيهم عما تأخر منها .

• اللغة :

هذه الجماهير المتدفقة عبر شوارع قرطبة ، أو الهاجعة فى بيوتها ، أو المتحلقة فى الكتاتيب والمساجد ، أو العاملة فى المصانع والحقول ، أى اللغات كانت تتحدث ؟.

خارج عن قصدى أن أتتبع العربية فى زحفها وراء راية الإسلام المندفعة ، وأن ألم بخصائصها ، وما أصابها من تحوير أو تحريف أو تطور ، إنما أريد أن أقصر نظرتى على نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ، أى الفترة التى سبقت أو عاصرت أو تلت ابن حزم ، وهى فى الوقت نفسه الفترة التى بلغت فيها الحضارة الأندلسية قمة توهجها .

كانت اللغة العربية الفصحى اللغة القومية ، ولأنها لغة ثقافة ، وعاء حضارة ، لم تجد على بطحاء شبه الجزيرة الإيبيرية لغة أخرى تدخل معها فى صراع ، أو تقاوم زحفها ، ولأنها لغة القرآن فرضت نفسها لغة للإدارة أيضاً . وأصبحت لغة الحديث فى اجتماعات الأصدقاء المثقفين ، وفى « الصالونات » الأدبية ، وتحرير الرسائل ، والوثائق الرسمية ، وفى الإبداع الأدبى شعراً ونثراً ، ولغة التعليم بنوعيه ، المبتدىء والعالى على السواء . وفى العلاقات الدولية ، ومع المشرق بخاصة ، أفراداً أو على مستوى الدول ، وكان التمكن منها شرطاً لتولى أى من المناصب العامة ، والتفوق فيها الطريق

الوحيد إلى النبل المكتسب والوظائف العليا . ومن ثم كان على الأندلسيين من غير المسلمين ، يهوداً أو مستعربين ، أن ينبغوا فيها إذا أرادوا أن يجدوا لهم مكاناً مرموقاً تحت شمس الخلافة ، ونعرف من بينهم أدباء وشعراء كانوا يكتبون فيها شعراً جميلا ونثراً راقيا . ويعبر عن هذا لها الواقع زفرة أرسلها ألفارو ، مطران قرطبة ، عام ٨٥٤ م ، أى قبل الفترة التى نعرض لها بنحو قرن كامل ، ولما يمض على الفتح الإسلامى غير مائة وأربعين عاما ، يقول : « من الذى يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين على دراسة الكتب المقدسة ، أو يرجع إلى كتاب أى عالم من علمائها ، ممن كتبوا فى اللغة اللاتينية ؟ من منهم يدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الرسل ، إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبا باللغة العربية ، يبحثون عن كتبها ويقتنونها ، يدرسونها فى شغف ، ويعلقون عليها ، ويتحدثون بها فى طلاقة ، ويكتبون بها فى جمال وبلاغة ؛ ويقولون فيها الشعر فى رقة وأناقة . يا للحزن : مسيحيون يجهلون كتابهم وقانونهم ولاتينيتهم ، وينسون لغتهم نفسها ، ولا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يكتب رسالة معقولة لأخيه مسلماً عليه ، وتستطيع أن تجد جمعا لا يحصى يظهر تفوقه وقدرته وتمكنه من اللغة العربية ».

وكانت البربرية ، بلهجاتها المختلفة ، تتحدث فى الأعوام الأولى من الفتح ، وحتى زمن متأخر نسبياً ، مع الجنود البربر ، والمهاجرين من شمال إفريقية ، وكانوا أكثر عدداً من العرب ، ويذكر ابن القوطية فى كتابه : « افتتاح الأندلس » : أن عبد الرحمن الداخل « ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر ، فسمع البربر يتكلمون فى العسكر بالبربرية ، فدعا بمواليه من البربر ، وقال لهم : خاطبوا بنى عمكم وعظوهم ، وأعلموهم أنه إن تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم ، فلما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبوهم بالبربرية » ولكنها ما لبثت أن تقهقرت أمام العربية ، ولا نبلغ المرحلة التى نحن بصددها من تاريخ الأندلس حتى نجدها قد تلاشت تماما ، فيما عدا كلمات قليلة ليست بذات أثر ، وأسماء

بعض الأطعمة أو الملابس ، ولو أنها سوف تعود فيما بعد ، ودون أن تترك أيضا أثرا يذكر ، مع بعض دول الطوائف ذات الأصل البربرى ، ومع المرابطين والموحدين .

وكانت هنالك اللغة اللاتينية ، لغة رجال الدين من المستعربين ، يعرفونها إلى جانب ما يعرفون من العربية الفصحى والعامية ، والرومانثية ويطلق عليها اللاتينية الواطية ، لأنها تختلف عن اللاتينية الأدبية فى تراكيبها وصوتياتها ومفرداتها ودلالاتها ، وتتباين مناطق وعصوراً ، وتأثرا باللغات القديمة فى المناطق التى عاشت فيها ، وما وصلنا فيها من أدب قليل للغاية ، لأنها لم تكن لغة ثقافة ، وإنما تستخدم فى الطقوس الدينية ، وفى الوثائق الإدارية فحسب ، ولم تكن مفهومة لغير رجال الدين ، وقد اضطر سعيد المطران ، أو Juan Hispalense كما يرد فى المصادر اللاتينية ، إلى شرح الكتاب المقدس باللغة العربية ليسهل فهمه على عامة المستعربين ، وفيما بعد ترجمت التوراة نفسها ، وتحتفظ مكتبة مدريد الوطنية بمخطوطة تضم ترجمة عربية للقوانين الكنسية كتبت عام ١٠٤٩ م ، وإذا عرفنا أن الكتاب وضع خاصة لكبار رجال الكنيسة أدركنا المستوى الذى انتهت إليه اللغة اللاتينية فى الأندلس .

وكان عامة المستعربين ، ومعظم المسلمين ، وجل اليهود ، يتكلمون الرومانثية ، أو يعرفونها ، أو يلمون بشىء منها ، إلى جانب الفصحى وعامية أهل الأندلس ، وهى لغة انحدرت من اللاتينية العامية ، أو اللاتينية الواطية ، وابتعدت عنها كثيراً ، وأخذت فى كل منطقة تطوراً خاصاً ، صوتاً واشتقاقا وتركيبا ، سوف يصبح فيما بعد اللغات اللاتينية الحديثة ، وهى الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والقطلونية والبروفنسالية والرومانية (نسبة إلى رومانيا الحديثة) ، وما تفرع عن هذه من لهجات . ويطلق عليها المؤرخون الأندلسيون اسم : لسان العجم ، أو العجمية ، أو اللطينية قليلا . وقد عجب ابن حزم فى كتابه « جمهرة أنساب العرب » ، من أن

بنى بَلِىّ لا يتحدثون الليطينية ، لانساؤهم ولا رجالهم . وبعض جمل منها كان يتردد فى مجالس الخليفة تروحا وتخففاً ، ويجرى على ألسنةالمتخاصمين والشهود فى مجالس القضاء . وهى تمثل مصدرا هاماً لعامية أهل الأندلس ، على نحو ما سيجىء . غير أنها رغم هذا كله لم تكن لغة الحياة اليومية ، فقد حاصرتها عامية أهل الأندلس ، ودفعت بها إلى ركن قصى لاتتجاوزه ، فى أروقة الكنائس ، أو الحياة الخاصة للمستعربين ، أو بين قلة منهم مثقفة أو منعزلة أو تسكن مناطق نائية ، ويرى ميننديث بيدال .أنه لا يمكن الجزم بأن المستعربين فى القرن العاشر وما بعده ، قد احتفظوا بلغتهم الرومانثية أداة تخاطب ، أو لغة أدب .

وعرف العصر عدداً من كبار المفكرين اليهود فى قرطبة ؛ وفى غيرها ، وفيه بدأت الدراسات اليهودية تزدهر ، ومع ذلك لا يمكن القول بأن اللغة العبرية كانت لغة ثقافة أو محادثة لأحد . صحيح أن عدداً محدوداً من علماء اليهود كان على معرفة بها ، ولكنها معرفة المتخصص الراغب فى الدراسة ، أكثر منها معرفة المتمكن يجعل منها محملا لأفكاره أو مشاعره ، أو أداة وصل بينه وبين الآخرين.

ومن المؤكد أن الصقالبة ، وجاءوا من أمكنة عديدة من وسط أوربا ، كانوا يعرفون لغاتهم الأصلية أو مفردات منها ، وأن أدوات النطق عندهم تكونت على نحو يترك أثره فى نطقهم للغة التى سوف يتحدثون بها . ورغم أن الكثرة الغالبة منهم كان يؤتى بهم أطفالا ، ويربون على إتقان اللغة العربية وإجادتها ، فإن عددا منهم ليس بالقليل ، كان يجىء فى سن فتية لايتأتى معها أن يتعلم اللغة العربية بسهولة ; وكان جهلهم بها يقيم بينهم وبين عامة الناس سورا عالياً من العزلة ، فلا يشاركون غيرهم فى حديث أو حوار ، فكان يطلق عليهم اسم « الخرس » . لكننا لا نعرف أنهم تركوا أثرا واضحا ، أو غير واضح ، فى أى من لغات الأندلس : العربية أو العامية أو الرومانثية ، أو حتى الإسبانية فيما بعد ، ولو أن

ديوان ابن قزمان ، وكتب فى عامية أهل الأندلس بعد ذلك بقرن من الزمان ، يضم عددا كبيرا من ألفاظ غير عربية ، الجانب الأكبر منها من أصل رومانثى ، ولكن عددا من المفردات يمكن — ظنا — أن يكون مصدره هؤلاء الصقالبة ، لأننا لا نعرف له معنى ، ولم نتوصل له إلى أصل يمكن أن يرد إليه .

وإلى جانب هذه اللغات كلها عرف الأندلس عربية عامية ، ذات دائرة أوسع منها جميعاً ، ولها خصائص متميزة ، وسوف تعرف باسم « عامية أهل الأندلس » ، وجاءت نتيجة طبيعية لقلة العنصر العربى ، وللزواج المختلط، فكل العرب الذين وفدوا على الأندلس ، إلا ما ندر ، جاءوا رجالا ، وتزوجوا فيه من إسبانيات . أو تسروا من الجوارى ما وسعتهم الحال ، وكان عدد الجوارى كبيرا ، وينتمين فى جنسيات مختلفة ، ومن مناطق متنوعة فى الأندلس نفسه ، فمنهن القادمات من قطالونية ، أو الباساك ، أو جليقية ، ومن جنوب فرنسا ، ويطلق عليهن فى المصادر القديمة اسم « الفرنج » ، وكن مرغوبات ومحبوبات ، لبياض بشرتهن ، وشقرة شعرهن ، ويمثلن الأغلبية ، إلى جانب قلة من الصقلبيات أو السودانيات ، وكانت الجارية التى تجهل العربية ، وتطلب للمتعة ، أغلى ثمنا من غيرها .

والرجل مع زوجه ، أو جاريته ، فى لحظاتهما الودود ، لا يتحدث الفصحى ولا يسمعها ، يعبر عن عواطفه بلغة مفهومة لمن معه ، وتجسد هى مشاعرها فى لغتها الأصلية ، أو فى لغة هجين ، لأن الكتب والثقافة والتعليم لا تمدها ، ولا غيرها ممن على شاكلتها ، بألفاظ هذه الأحاسيس ، إنما يتعلمها التى من أنداده ، وتتلقاها الفتاة عن أترابها . وكل ذلك إلى جانب مفردات البيت المتصلة بالطعام والشراب . وهى تلقن هذه الألفاظ وما تحب من لغتها لأطفالها ، فتأتى لغة الأبناء ، على الأقل فى المرحلة التى تسبق المدرسة ، خليطا من لغة الأب ومن لهجة الأم .

وإذا تجاوزنا الجوارى ، فإن الباعة وأصحاب المهن الصغرى ، وكلهم ليسوا بعرب ، تخلف فى نطقهم ، وفى معجمهم اللغوى ، الكثير مما ورثوا ، ومن الرومانثية ، ومن ثم فإن عامية الأندلس كانت خليطا من ألفاظ عربية فى مجملها ، فى صورتها الصحيحة أو تطورت نطقا ودلالة ، ومن كلمات رومانثية تمثل نسبة عالية ، قد تبلغ حد الثلث منها ، ومن ألفاظ بربرية أو من لغات أخرى قليلة للغاية ، وليست بذات أهمية ، وكانت هذه اللغة معروفة للناس جميعا ، عربا وبربرا وإسبانا مسلمين ويهودا ومستعربين ، ولكل من يعيش فى قرطبة ، إنها لغة الحياة اليومية فى البيع والشراء ، والسمر والتوادد ، والتخاطب بين عامة القوم ، ولم يصلنا من هذه اللغة ، أو اللهجة إن شئت الدقة ، فى الفترة التى نعرض لها ، نصوص تعين على تحديد ملامحها ، ولكن ابن حزم أشار إلى بعض هذه الملامح ، ويرى أن البربر لعبوا دوراً حاسما فى التحريف البنائى والصوتى الذى أصاب اللغة العربية فى الأندلس ؛ ويقول المقدسى ، وهو جغرافى غير أندلسى من القرن العاشر الميلادى ، إنه التقى فى مكة بحجاج أندلسيين ، « لغتهم عربية ، غير أنها منغلقة ، مخالفة لما ذكرنا فى الأقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومى » . أما هذه العربية المنغلقة ، فهى عامية أهل الأندلس ، وأما اللغة التى تقارب اللسان الرومى (أى اليونانى) فهى الرومانثية . ويمكن القول إجمالا أن هذه العامية ، إذا استثنينا الكلمات الرومانثية التى اختلطت بها ، تشبه فى صوتياتها ، والجانب الأكبر من دلالاتها ، عامية أهل المغرب والجزائر ، فى أيامنا هذه ، إلى حد بعيد .

وهذا التيار العامى كان يمكن أن يودى بالعربية ؛ لولا أنه أدى فى الوقت نفسه إلى رد فعل معاكس ، فكانت عناية الدولة والمجتمع الراقى والمثقفين بالفصحى كبيرة ، الخلفاء ورجال الدولة يقربون من يحسن العربية ، ويتنافسون هم أنفسهم فى إجادتها ، ويغدقون العطاء على الشعراء والكتاب ، ويحرص هؤلاء من جانبهم على التزامها ، ويبالغون فى مراعاة القواعد ، والتأنق فى التعبير ، ومن ثم ازدهرت الدراسات اللغوية ، وعرف الأندلس عددا من كبار النحاة ، كابن مالك صاحب الألفية ، وأبى بكر الزبيدى صاحب « الواضح فى النحو » ،

وغيرهم. وعرفت الدراسات الخاصة بمقاومة اللحن، وتصحيح النطق، وإرشاد الناس إلى الصواب.

● العمران :

تحتل قرطبة بوصفها عاصمة الأندلس المكانة الأولى فى المصادر التاريخية والجغرافية، غير أن التفصيلات التى تقدمها لنا هذه المصادر عن تخطيط المدينة والحياة فيها قليلة للغاية، والكتاب الوحيد الذى نستخلص من عنوانه أنه عنى بهذا الجانب، وهو «كتاب وصف قرطبة» لمؤرخ الأندلس الكبير أحمد بن محمد الرازى (ت ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م)، وفيه تفصيلات وافية عن شوارعها وقصور الأعيان فيها، ضاع ولم يصلنا. ولقد أوقف المقرى الجزء الثانى من كتابه «نفح الطيب»، طبعة الشيخ محيى الدين، على مدينة قرطبة، وحشد فيه نصوصا كثيرة، كاملة أو مبتسرة، جغرافية وتاريخية وأدبية، غير أن المؤلف وهو مغربى، وحرر كتابه فى القاهرة، ويتحدث عن مجتمع أندلسى قد اندثر، لا يقدم لنا، إذا حذفنا الأشعار والتكرار وما لا صلة له بالموضوع، إلا معلومات قليلة للغاية، وحاضر المدينة، وزرتها مرارا، صورة مشوهة لما كانت عليه فى ماضيها، نعم إن بعض المعالم لا تزال قائمة، وبخاصة تلك التى تقع على شاطىء الوادى الكبير، كالمسجد الجامع، والرصافة، وبقايا أطلال العصر الأموى فى السهلة، أو سفح الجبل، أو مدينة الزهراء، كما أن السور الذى كان قائما حول المدينة فى القرن العاشر يمكن تحديد معالمه كاملة. إن قرطبة المعاصرة، مبانى وسكانا، جزء صغير عما كانت عليه فى عصر الخلافة، لقد تلاشت أحياء وأرباض كاملة برمتها، وأصبح ماحول قصر الناصر فى مدينة الزهراء أعشابا مخضرة، مراعى للثيران.

كانت قرطبة القرن العاشر صنو بغداد، فيما يرى ابن حوقل، ولم يجدلها فى مصر أو الشام شبيها، ويختلف المؤرخون المعاصرون فى عدد سكانها، فبعضهم يتجاوز به المليون، ويهبط به آخرون إلى مائة ألف، وفى غيبة

الوثائق القاطعة كل شيء محتمل ، ولو أن الرقم الأدنى يبدو غير معقول ، لأن قرطبة الآن تضم من السكان مائتى ألف ونيفا ، وكان امتدادها مدينة ، ومركزها عاصمة ، يجعل منها فى العصر الوسيط أضعاف أضعاف ماهى عليه الآن . وإذا استخدمنا الأرقام ، وما الدينا منها كاف لإلقاء ضوء على حجم المدينة ، قلنا : كان بها ٣٨٧٧ مسجدا فى رواية ، و ٢٨ ربضا ؛ و ٩١١ حماما ، وطبقاً لإحصاء تم بأمر المنصور بن أبى عامر فى نهاية القرن العاشر ، كان فيها ٢١٣٫٠٧٧ داراً يسكنها العامة ، و ٦٠٫٣٠٠ بيت يسكنها الخاصة وكبار الموظفين ، و ٨٠٫٤٥٥ دكانا ، ولا يدخل فى هذه الأرقام البيوت المؤجرة ، ولا الحمامات ولا الفنادق ، وسبعون دارا للكتب .

وكان يطلق على الجانب القديم من قرطبة اسم « المدينة » مرسلا ، أو « المدينة العتيقة » أو « القصبة » ، ويحيط به سور يرمم من حين من لآخر ، وتقوم عليه عدة أبواب ، أهمها : باب القنطرة ، ويقوم على مقربة من المسجد الجامع ، ومن قصر الخلافة ، ويربط المدينة بربض شقندة ، وكان الحكم الأول (٧٩٦ — ٨٢٢ م) قد أمر بهدمه وتحويله إلى مقبرة ، بعد أن تزعم سكانه ثورة عليه عرفت باسم « فتنة الربض » . وباب الوادى أو الجزيرة ، وفيها يقول البكرى كان عليه تمثال لمريم العذراء ، والباب الجديد ، وباب طليطلة ، ويطلق عليه أيضاً باب رومية ، على حين كانت العامة تسميه باب عبد الجبار ، نسبة إلى عبد الجبار بن الخطاب مولى الخليفة المشرقى مروان بن الحكم . والباب الرابع فى الشمال الغربى ويسمى باب ليون أو باب طليرة أو باب اليهود ، واستقبح بعضهم هذا فكانوا يطلقون عليه باب الهدى ، والأبواب الأخرى توجد فى الجانب الشرقى ، وهى : باب عامر ، أو باب الجوز ، ويسمى باب بطليوس أيضا ، وباب إشبيلية أو العطارين ، وعلى مقربة منه كان يوجد مصنع سك العملة ، ويطلق عليه اسم « دار الضرب » ؛ وكانت عدة دور الرعايا والسواد الذين يسكنون داخل السور ١١٣ ألف دار ، حاشا دور الوزراء وأكابر الناس والبياض .

غير أن المدينة ، وبخاصة منذ القرن التاسع ، بدأت تفيض بسكانها نحو أحياء جديدة بين الجانب الأيمن والمنطقة التي تبدأ من باب عبد الجبار وتمتد حتى الكولية ، وتسمى الشرقية ، أو الجانب الشرقي ، وما زالت تعرف باسمها العربي حتى يومنا هذا في شكله الإسبانى الحديث Ajarquia ، (في الإسبانية القديمة Axerquia) ، ومنها يبدأ الطريق الموصل إلى مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر .

وفي أقدم مخطط وصلنا لمدينة قرطبة ، ورسم عام ١٨١١ م ، نلتقي بعدد من المعالم العربية وبخاصة ما اتصل منها بالحي التجاري مثل : القيصرية ، وهي سوق الأقمشة ، وتتفرع منها على الطريقة القديمة شوارع : الجزارين والخبازين والخياطين ، والصفارين . ونلحظ أن حي الشرقية الحديث احتفظ بعدد من أسماء الشوارع العربية ، في صورتها العربية أو مترجمة إلى الإسبانية ، وترتبط بنشاط تجاري أو صناعي كان يشتهر به الشارع في قرطبة العربية ، فهناك شارع الوراقين Librerias ، والخلالين vinagreros ، والحبالين Los Cordoneros والخياطين Alfayatas ، وزقاق الحدادين Herradores ، وأسماء أخرى كثيرة . وبقي القليل في صورته العربية ، كالمحور الذي تلتقي عنده عدة شوارع صغيرة ويسمى الزنيقة Azonaica ، أو ميدان المغرة Al gra ، وشارع الساقية Accquia ، وزقاق عائشة calleja Aixa ، وغيرها .

وكأية مدينة إسلامية في العصور الوسطى لها حي وسيط يشغله أرباب التجارة ، ويرتبط بشوارع تتصل بأبواب المدينة ، وبأحياء أخرى يعمل فيها أصحاب الحرف ويعيشون أيضا . وإلى جوار السور ، حيث يتيح الخلاء أرضاً واسعة لمن يريد ، تسكن الطبقة العليا في بيوت متسعة أكثر منها مرتفعة ، تطوقها حدائق غناء ، ومع ازدياد السكان بدأ الناس يبنون بيوتهم خارج الأسوار ، على نحو ما أشرنا ، وبدأ ما أطلق عليه اسم « الربض » ، وهي كلمة

أخذت طريقها إلى اللغة الإسبانية لفظاً ومعنى ، مع تحريف يسير ، فأصبحت «Arrabal» والكلمة مستخدمة فى لغة الحياة اليومية حتى يومنا ، وقد ينتقل السور مع الحى الجديد ، وقد تتعدد الأرباض ، على حين أن الأصل ، وهو مابين الأسوار القديمة ، ظل يعرف باسم المدينة ، ومع الزمن أصبح كل ربض مدينة مستقلة ، له حياته ومتطلباته الخاصة ، وأورد لنا ابن بشكوال قائمة بأرباض قرطبة ، وكانت تبلغ فى روايته ستة وعشرين ، وقد اندثرت هذه الأرباض اليوم ، وقامت على أنقاضها مزارع وحدائق . ولم يكن امتداد المدينة يخضع لتخطيط من الدولة ، وإنما ترك للمبادأة الشخصية ...

ويخترق المدينة شارع كبير ، طويل وعريض ، يطلق عليه اسم : « السكة الكبرى » أو « المحجة العظمى » ، وسوف يصبح مثل هذا الشارع من معالم قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، كبرت أم صغرت ، وحتى الآن ، بعد أن ترجم حرفياً إلى اللغة الإسبانية، فأصبح Calle mayor . ويطلق على الشوارع غير الرئيسية اسم « زقاق » ، ويؤدى الزقاق وهو متعرج وضيق إلى « درب » ، ويكون هذا مسدودا عادة فى نهايته ، وانتقل اللفظ بصورته العربية إلى الإسبانية Adarve . ومجموعة الشوارع تصبح « حومة » أو « حارة » ، ودخلت هذه إلى اللغة الرومانثية فى صورة مصغرة على الطريقة الإسبانية «Harella» ، وتحمل الحارة أو الحومة اسم المسجد الخاص بها ، والذى يؤدى فيه سكانها الصلاة . ويتوسط الشارع مجرى مركزى محدد ، ومغطى أحياناً ، تصب فيه المياه القذرة ، ومياه المطر ، ويقوم على تنظيفه عمال من قبل الدولة ، يدقون الأجراس قبل عملهم تنبيها للمارة كى يبتعدوا ؛ أما الزبالة فكان موكولا أمرها لسكان الحى أنفسهم ، يستأجرون من يحملها خارج المدينة . وكان فيها أميال من الطرق المرصوفة ، التى تضاء من بيوت تقوم على جانبى الشارع ، وذلك « على حين لم تكن تتمتع بمثل هذا لندن أو باريس حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ ، وبعد ذلك

يقررون كان الذي يجرؤ على الخروج من عتبة بيته في باريس في يوم مطير يخوض في الوحل إلى عقبيه » .

وكانت قرطبة ، شأنها في ذلك شأن أية مدينة أندلسية كبرى ، تضم خارج أسوارها حدائق واسعة ، يطلق عليها اسم : « الشريعة » ، مخضرة وذات خمائل ، وتستخدم لأغراض عديدة ، ففي جانب منها يقام السوق الأسبوعي ، وفي آخر مصلى لإقامة الصلوات في الفضاء ، وبخاصة في الأعياد والحفلات الدينية ، وإلى جانبها الحور ، طريق ممتد تحفه الأشجار العالية ، ويتخذه المتنزهون والعشاق والمتبطلون ملتقى لهم . وخارج أسوار المدينة كانت المقابر أيضا ، وعليها يتردد السكان رجالا ونساء ، ليزوروا مقابر أسلافهم ، ولتكون قبل ذلك وسيلة الالتقاء ، حيث يلتقي الأصدقاء ، وتتبادل السيدات آخر الأنباء والإشاعات ، وحيث تتاح الفرصة للعشاق أيضا .

وكان للخاصة ، أو الطبقة العليا ، بيوت ريفية ، تقوم وسط جنان ممتدة وعامرة ، يطلق عليها اسم « المنية » ، وإذا كبرت جداً واتسعت أطلق عليها اسم « حير » ، وتفتح عادة في وجه الراغبين من عامة الشعب ، وأشهرها في قرطبة « حير الزجالي » ، وتملكه أصلا أسرة بربرية ، وتميز بأنه كان يفتح في وجه العامة من المثقفين والأذكياء وأصحاب الذوق الرفيع فحسب . ونعرف من هذه البيوت الفاخرة « منية نصر » ، نسبة إلى الفتى الصقلبي نصر ، وكان خصيا ، وموضع ثقة عبد الرحمن الثاني ، وبعد موته المأسوي صادرها الأمير محمد ، ومنحها زرياب المغني ليسكن فيها ، وحفظ لنا ابن حيان في كتابه « المقتبس » قصيدة ليحيى الغزال يسجل فيها الحادث والمناسبة ، وفيها أيضاً كان ينزل السفراء القادمون في مهمات لدى عبد الرحمن الناصر .

وخارج المدينة تقوم « المشافي » للمرضى الذين يستعصى علاجهم ، أو

يبطىء ، أو مصابين بأمراض معدية ، فى حى قائم بنفسه يطلق عليه : « ربض المرضى » ، ويقع قريباً من « منية عجب » ، وتقوم عليها جماعات متطوعة إشرافاً وإنفاقاً ، مما تتلقاه من أهل الخير ، أو مما يوقف عليها من مال أو أرض أو عقار .

ومن معالم قرطبة المسجد الجامع ، ولا يزال قائماً بعد ألف عام من بنائه ، يطاول الزمن ، ويقاوم المحن ، والإلمام بتاريخه ، والوقوف عند أوصافه ، يخرج بنا إلى إطناب ليس هنا مكانه . وقد ترك لنا الشريف الإدريسى ، وهو أندلسى من سبتة ، وتوفى عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٦ م ، وصفاً له ، شاملا ودقيقاً ؛ فى كتابه : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، كما أن المقرى جمع فى كتابه « النفح » نصوصاً عديدة متصلة به .

وعندما يهبط المرء من أعلى المدينة ، سالكاً طريق « المحجة العظمى » ، ويمر بين قصر الخلافة والمسجد الجامع ، ينتهى به الأمر إلى القنطرة القائمة على نهر الوادى الكبير ، وهى قديمة وشهيرة ، ويقال إن الإمبراطور الرومانى أغسطين أول من أمر ببنائها ، وما تزال قائمة حتى يومنا هذا .

وعلى جانبى النهر كانت تقوم النواعير ، والطواحين التى تعمل بقوة اندفاع الماء ، وأمكنة الصلاة فى الهواء الطلق ، ومكان متسع يعلق فيه المحكوم عليهم بالصلب .

● المهن والحرف :

فى القرن العاشر ، وتحت مظلة شاملة من الأمن والسلام ، لكل الأرض وكل الناس ، بلغت قرطبة قمة الازدهار الاقتصادى ، وتحولت المدينة إلى خلية عاملة ؛ تقوم على التخصص فى المهن ، والتعاون فيما بينها فى الوقت نفسه ، فكانت هناك مهن كثيرة ، وحرف متعددة ؛ تجعل الحياة أكثر سهولة ويسراً وإمتاعاً .

كانت هناك أفران عامة وكثيرة ، توجد فى كل شارع مهما صغر ، وأحصيت فى قرطبة المعاصرة خمسة شوارع يحمل كل منها اسم فرن Horno مضافاً إلى صاحبه أو منشئه ، ويرسل الناس بخبزهم إليها ، ولكل فرن صبى معين يمر بالبيوت فى ساعة معينة ، يحمل منها الخبز عجينا ويعود به مستويا ، ويتلقى أصحاب الأفران أجرهم عجينا ، فيصنعونه خبزا ، ويبيعونه بدورهم لمن لا عجين عنده . وفى كل حى شارع يتميز بالحوانيت الخاصة ببيع الطعام والشراب ، من خضرى وجزار وفاكهى وبقال وعطار وسماك ، وإلى جانبهم من يقوم بالطبخ أو الشواء ، أو عمل الحلوى ، لمن يحب وعلى مرأى من طالبه ، وما يجرى فى الشارع موضع رقابة كاملة من الدولة ، نظافة وصنعة وسعرا .

وتنظم الدولة صناعة النسيج والاتجار فيه وتراقبها ، وكانت تحتل جانباً هاماً من نشاط الناس ومن اتساع المدينة ، فتشغل حياً كبيراً يسمى « الطرازين » ، وتفتح فى أطوارها المختلفة ، من نسج وصبغ وتطريز وتفصيل ، الباب واسعاً أمام آلاف العمال ، ومثلهم من الصبيان الراغبين فى التعليم والتدريب . وجمهرة العاملين فيها من المسلمين المولدين ، ومن المستعربين المسيحيين . كانت الأقمشة تباع نسيجاً لمن يحب ، أو ملابس جاهزة ، وكان . . ه سوق خاصة بها يطلق عليها اسم « السقاطين » ، وهى لفظة انتقلت إلى الإسبانية لتؤدى المعنى نفسه ، وما زال سوق « السقاطين Zactin » قائما فى غرناطة ، وزرته مرارا ، تجدد النسيج ، وتعددت الألوان ، وتغيرت أنواع الملابس ، ولكن الحى ، حياة وتقاليدا ، لم يبعد كثيراً عما كان عليه بالأمس . وكانت الرسوم متأثرة فى جانب منها بالرسوم الفاطمية ، أو القبطية المصرية ، وقد غزا النسيج المصرى قرطبة ، وشاع فيها ، وعرف باسم « القباطى » .

وعلى هذا النحو من الاتساع كانت صناعة الجلود ، صباغة وعملا ، وبلغت فى قرطبة شهرة عالمية فى العصر الوسيط ، حتى أن الكلمة الفرنسية

الخاصة بصانع الأحذية Cordonnier أخذت من لفظ قرطبة فى صورته الفرنسية Cordoue ، وتخضع هذه الصناعة بدورها لرقابة الدولة ، وتعكس فى أشكالها وألوانها ، فضلا عن الدقة ، قدراً من الترف المصقول الذى كان لدى القادرين والأغنياء وعامة الناس .

وكانت الملابس الملكية ، وما تحتاجه دار الخلافة ، والهدايا التى يمنحها الأمير أو الخليفة ، تتم فى مصانع خاصة ، متصلة بالقصر ، يطلق عليها « دار الصناعة » ، وترسم وتزخرف فى عناية بالغة ، ويكتب عليها بأحرف من ذهب اسم الأمير ، أو الخليفة ، المهدى لها .

وبلغت صناعة الفخار ، إلى جانب صناعة الزجاج ، قدرا عالياً من التقدم ، وعثر فى حفائر مدينة الزهراء على بقايامنه تؤكد هذا التقدم ، وأول من اكتشف أسرار صناعة الزجاج قرطبي من القرن التاسع ، عباس بن فرناس ، وهو شاعر أيضا ، وأشرف بنفسه على إقامة مصانعه وأفرانه فى قرطبة .

ومع نهاية القرن العاشر بدأت قرطبة تحتل مكانة عالمية تفوق بيزنطة ، فى صناعة الجواهر ، من عقود وخواتم ومعاصم مرصعة ، وفى تزيين الجلود ، وصناعة التماثيل من العظم والعاج والخشب .

ولم تكن فى قرطبة مصانع كبيرة للورق أو الرق ، وكانت تعيش منها على ما تنتجه المصانع الكبرى التى أقيمت فى شاطبة jativa قريباً منها ، وكان الورق ميسورا ورخيصا ، والنوع الجيد منه يسمى الشاطبى ، ولا تزال شاطبة حتى اليوم مركزا هاما لصناعة الورق فى إسبانيا .

ولا يمكن أن نرسم صورة صادقة للمناخ الذى عاش فيه صاحب « طوق الحمامة » ، ما لم نتحدث عن سوق الرقيق ، وليس هنا مكان دراسة الظاهرة نفسها ، وكانت من معالم المجتمع الإنسانى حتى وقت قريب . فقد كان فى قرطبة ، كما كان فى غيرها من كبريات المدن ، سوق للرقيق تسمى

« المعرض » ، يعرض فيها الرقيق من رجال وإناث للبيع . وفيما يتصل بالإناث هناك صنفان : المتميزات ويطلق عليهن اسم « مرتفعات » ، و« وحش الرقيق » . والبيضاوات منهن كن يعرضن طبقاً لمصدرهن : الصقلبيات ، ويؤتى بهن من وسط أوربا ، والإفرنجيات وهن القادمات من جنوب فرنسا ، وإيطاليا ، ومنطقة قطاونية فى شمال شرقى الأندلس ، والغاليسيات ، أو الجليقيات فى المصادر القديمة ، وموطنهن شمال غربى الأندلس ، والبربريات . على حين يطلق اسم « السودانيات » على كل السوداوات ولم يكن هؤلاء بأقل احتراما من البيضاوات ، فقد تميزن فى أعمال البيوت ، والشىء نفسه يمكن أن يقال عنهن كعشيقات . والإفرنجيات ، والصقلبيات القادمات حديثاً ، ولما يزلن يجهلن لغة وتقاليد من اشتراهن ، أغلى ثمناً من غيرهن . ويطلق اسم « قينة » على التى تجيد الغناء والرقص ، ولما كان المجتمع القرطبى يهفو للشعر الجيد ، ويطرب للموسيقى الجديدة ، ويهتز للرقص الرفيع ؛ أكثر مما يعنى بألوان الفنون الأخرى ، فقد عظم شأن الجوارى الموهوبات المتعلمات وسمت قيمتهن . وقد كثر عددهن فى قصر الخلافة ، ومارسن نفوذا قوياً فى الحياة الخاصة للأمير أو الخليفة ، والعامة للدولة ، وكان يؤتى بهن فى البدء مدربات من المشرق ، وفيما بعد ، حين أقام زرياب عدداً من معاهد الموسيقى فى الأندلس ، كان الإعداد يجرى فى قرطبة نفسها .

• الحياة الخاصة :

وتقيم الأسرة فى بيت ، والأب صاحب الكلمة فيه ، وداخل البيت لا صلة له بالشكل الخارجى ، فإذا كان المظهر الخارجى متواضعا ، فإن الداخل يعكس قدرا كبيرا من الرفاهية والترف ، ويعامل الزوج زوجته باحترام شديد ، والعكس صحيح ، وبخاصة أمام الأبناء ؛ وهؤلاء يوقرون أباهم ، لا يقتربون منه إلا بقدر ، ولا يتحدثون مجلسه إلا بإذن ، وعندما تسكن

الأم مع ابنها المتزوج ، تصبح المسئولة عن اقتصاد البيت ونفقاته . وتعدد الزوجات نادر بين الفقراء والطبقة الوسطى ، ويحدث أحياناً حين لا تكون الزوجة جذابة أن يشترى الزوج جارية بيضاء أو سوداء ، تعاون فى أعمال البيت ، وترضى رغائبه حين يحب ، ويمكن أن ينجب منها ، وتصبح أم ولد ، ولا يجوز للرجل أن يبيعها حينئذ ، وتحصل على حريتها يوما ، بعد موت زوجها . ومنذ زمن مبكر جداً يعرف الأطفال بالدقة ما تعنى العلاقة الزوجية ، فإذا بلغوا سن الحلم ، كان نضجهم العاطفى كاملا ، وليسوا فى حاجة إلى أية إثارة .

ويقوم الأب بشراء متطلبات البيت ، وحين يذهب إلى عمله تتنفس الأسرة الصعداء ، وتستأجر البيوت المقتدرة خادماً ، ومن بين الوثائق التى وصلتنا صورة لعقد بين أسرة وخادم ، يحدد الحقوق والواجبات : كان عليها العجن والخبز وعمل الطعام ، والنظافة وترتيب الأسرة ، وإحضار الماء ، وغسل الملابس ، والخياطة . ويدفع أجرها سنوياً إلى جانب الغذاء والإقامة والملابس .

أما فى بيوت الخاصة فتلتقى ، طبقاً لمستوى الزوج الاقتصادى ، بعدد من الزوجات ، وسحابة من الجوارى ، سود وبيض ، وحاشية من الخصيان تحت رئاسة «قهرمان» ، وثمة رئيسة للخدم فى بيوت العلية تسمى «قهرمانة» يعمل تحت إمرتها الخادمات والطباخات والحاضنات ، وكان يطلق على الأخيرات اسم « الرشيدات » ، ويتوزعن على بيت متسع ؛ كثير الحجرات ممتد الحديقة ؛ وفى غيبة الأب تسمع المناقشات الصاخبة بين هذا العديد من البشر ، على حين يلعب الأطفال فى الأبهاء أو الحديقة ، ولكن ما إن يصل رب البيت حتى يسترد المنزل هدوءه كاملا ، هدوء يمزقه من حين لآخر خطو الخدم الأصم ، أو وشوشة النوافير الناعمة ، أو هديل الحمام الغرد . إنها اللحظة المخصصة للراحـــة ، أو الاسترخاء ، أو المتعة . والجانب المخصص للأسرة لا تكاد تقع عليه عين الغريب ، فمقابلات الزوج لأصدقائه ،

أو للعمل ، أو مع الباعة ، ، تتم فى غرفة توجد عند مدخل البيت ، ومخصصة لمثل هذه المقابلات . والبيت مملكة تكاد تكون مستقلة ، وتبلغه أخبار الشارع ، وما يجرى فى البيوت الأخرى ، من فضائح وجديد فى الأزياء ، موشاة بالزيادة والأكاذيب .

وتجرى الحياة فى البيت رتيبة ، يوماً وراء آخراً ، عمل وتنظيف ، وتهيئة كل وسائل الراحة لربه أولا ، ولمن فيه أخيرا وكلهم سعداء ، لا أحد يشكو سوء الحظ ، ومن حين لآخر تقوم الزوجة بعمل ما يدفع الحسد أو الشياطين عن البيت . وقل ما تخرج الأسرة للنزهة ، فلديها بستانها وكثير ما تخرج لزيارة أصدقائها ، وتخرج إلى الهواء الطلق فى الأعياد الدينية والقومية ، وتقوم بزيارة أسبوعية للمقابر للصلاة على أرواح الذاهبين من الأهل ؛ وتذهب مرة أو مرتين إلى الحمام ، إذا لم يكن لديها حمام خاص ، وهى فرصة ذهبية للسيدات لكى يلتقين ، ويتبادلن آخر الإشاعات : سوياً وبعيداً عن أية عين أو رقابة .

وتتركز الأحداث الهامة فى حياة الأسرة فى ثلاثة : الزواج والإنجاب والموت . وفى الحدث الأول يكون الاحتفال كبيراً وبهيجاً فى بيت العروس ، ويتكلف نفقات طائلة ، مما أدى إلى حملة قوية من الفقهاء على ذلك النمط ، وتشغل حفلات الزواج أسبوعاً كاملا ، وترك لنا ابن حزم فى كتابه « الطوق » وصفاً لحفلة كهذه جرت فى الشارع ، وهو منظر يسعد المارة ، والفارغين من العمل وما كان أكثرهم فى قرطبة . وتتم عملية الوضع على يد القابلة ، وتستدعى الطبيبة فى الحالات المستعصية ، وكانت تتقاضى أجراً عالياً . وتقوم على الطفل حاضنة خاصة فى بيت أبيه ، إذا كان مقتدراً ، وفى حالات كثيرة يعهد به إلى قروية تحمله إلى الريف ، و يبقى معها حتى الفطام ، ووصلتنا عقود تحدد الشروط الواجب توفرها فى الحاضنة وأهل الطفل ، فكان على الأب أن يدفع للحاضنة راتباً شهرياً وملابس ، وعليها إرضاع الطفل ونظافته جسماً وملبساً ، وتقام « العقيقة »

فى اليوم السابع ، وتأخذ شكلا يرتبط بمستوى الأسرة الاقتصادى ، حينئذ يحلق شعره للمرة الأولى ، ويأخذ الطفل اسمه ، ويستخدم مصغراً تدليلا له ، وتأصلت هذه العادة فى الأندلس ، وتخلفت بعد جلاء الإسلام والمسلمين عنه ، فهى شائعة حتى يومنا هذا ، وغالباً ما يطلق عليه اسم جده ، أو الجد الأعلى للأسرة ، أو اسم أشهر شخصية فيها . وفى هذا اليوم تعطى له كنيته أيضاً ، وحين يكبر سوف ينادى بها فى الأسرة أكثر مما ينادى باسمه . ويطلق على الفتاة اسم إحدى شهيرات الإسلام فى أيامه الأولى ، وكنية أيضاً تنادى بها ، مثل : أم كلثوم ، أم الحكم ، وهكذا . ومنذ القرن العاشر بدأت قرطبة تتخلى عن هذا التقليد المشرقى لتعطى أسماء وصفية للفتيات الحرائر ، وكانت قبل وقفاً على الجوارى فأصبح لدينا أسماء مستمدة من الزهور ، ونعرف للمنصور بن أبى عامر ثلاث بنات كانت أسماؤهن : بهار ، ونرجس وبنفسج .

وكانت حفلات الإعذار للذكور كبيرة ، والعادة أن يجمع المقتدر اقتصادياً عددا من الأطفال من المستوى الاجتماعى لطفله ، أو دونه ، لكى يعذروا معه ، وتتم الحفلة للجميع ، ويتولى نفقاتها بمفرده .

وعلى العكس ، كان تشييع الموتى ودفنهم يتم فى ظروف بسيطة ، وطبقاً لأحكام المذهب المالكى ، ويدفن فى أقرب مقبرة إلى بيته ، وبعضهم كان يعد شاهدا يوضع على قبره ، لايضاف إليه غير تاريخ الوفاة واسم المتوفى ، ويتضمن بعض الآيات القرآنية المناسبة ، ودعوة لمن يقرأه أن يطلب الرحمة لصاحبه وأن يقرأ الفاتحة لروحه ، ويضم متحف قرطبة الآن عدداً من هذه الشواهد . .

ولايتميز البيت ،عادة ،فى خارجه عن بقية البيوت حوله ؛ سواء أكان فى شارع عام أم درب نافذ، وللبيت باب بمفتاح من خشب غالبا ومن حديد قليلا ، ويفتح فى أسطوان ، أو سقيفة ، ومنها يمتد ممر ينتهى إلى صحن البيت ، وتوجد فيه بئر وأشجار وظلة ، وتطل عليه

قاعتان كبيرتان ، ويحتوى البيت على مرفق ، ومطبخ متسع يؤدى إلى الصحن ، ويتكون البيت بعامة من دورين على الأقل . ولا يضم ، غالبا ، غير أسرة واحدة ، والفقراء جدا قد يضطرون إلى تأجير بعض غرفه ، أو يشاركون فيه أسرا أخرى ، وهو أمر نادر ، ويصبح موضع تندر وعتب وتعيير من الجيران .

ومنازل الطبقة الوسطى متسعة ، وتبنى فى الأحياء المفضلة ، ويتوسطها صحن رحب ، يضم ما يشبه أن يكون حديقة صغيرة من الزهور والرياحين ، وأشجار الفواكه أحياناً ، وتمتد عبره قنوات لتوزيع المياه التى تستخرج من البئر ، على حين تمتد مجار أخرى ، بعيدة عن الأولى ومغطاة ، تحمل المياه القذرة إلى مستودعها الذى يوجد فى منتصف الشارع .

وبيوت الطبقة العالية تفصل بينها جنان واسعة ، والممتد منها يسمى « حيرا » والجنان ، وهذه مثمرة ، ومثلها « المنيات » القائمة على ضفاف النهر الكبير .

وفى أى بيت توجد حجرة استقبال ، تضم أثاثاً يسهل نقله من غرفة إلى أخرى ، والأرض مغطاة بالحصر فحسب ، أو بالحصر وفوقها السجاد ، تبعاً لمستوى الأسرة ، وتغطى الجدران بأقمشة منسوجة من الصوف ، عليها مناظر جميلة ، وتسمى « الحائطى » ، وتحتها ديوان قليل الارتفاع ، فوقه المراتب وعليها الوسائد معتمدة على الحائط ، محشوة قطنا ، ومزخرفا ظاهرها بالرسوم ، وفوق المراتب تتناثر المخدات المدورة ، والأرائك المتخذة من الجلد ، ويستخدمون المقاعد ذات الحشايا ، وتضم حجرة النوم سريراً عليه فراش مغطى ، وألحفة محشوة صوفا .

ويضم مطبخ كل بيت خزين أغذية ، من دقيق وزيت وعسل ، وفواكه جافة ، ولحوم مقـــددة ، وتحفظ أوانى من الزجاج أو الفخار .

وتضاء البيوت بالشموع والقناديل ، وتستخدم الثريات فى بيوت الأغنياء ، وتتم التدفئة فى الشتاء عن طريق إجراء الماء الساخن ، عبر الحجرات ، فى أنابيب من الفخار ، على حين يستخدم الآخرون المواقد العادية . أما فى الصيف فيواجهون الحر برش الصحن جيدا بالماء ، وأكثر من مرة فى اليوم .

وترك لنا الأندلسيون أكثر من كتاب فى الطبخ ، وتتحدث عن مطابخ ثلاثة : أندلسى ، ومسيحى ، ويهودى . وطرائقه متعددة ومعقدة ، وتخضع المائدة لنظام صارم ، فلابد أن يكون هناك تناسق بين الألوان التى تقدم . ويقوم على إعداد الطعام فى بيوت الطبقة الراقية طباخون محترفون ، من السود غالبا ، وتزخر المائدة بألوان عامرة من الحلوى ، مابين محشو بالزبد أو اللوز ، وشهر من بينها نوع من الفطير المحشو جبنا ، ويسمى « المجبنات » ، وكان لذيذا وشائعا ، واحتل من الشعر الأندلسى مكانا ، وتخلف فى الإسبانية إعدادا ومادة واسما Almojabanas ، ويصفها ابن الأبار :

بنفسى مثلجات للصدور ... لها سمتان من نار ونور
حوامل وهى أبكار عذارى ... تزف على الأكف مع البكور
كبرد الطل حين تذاق طعماً ... وفى أحشائها وهج الحرور
لها حالان بين فم وكف ... إذا وافتك رائعة السفور
فتغرب كالأهلة فى لهاة ... وتطلع فى يمين كالبدور

وعلى المائدة يستخدمون الملاعق ، ويشربون الماء معطرا بالزهر أو الورد ، ويأكلون الفواكه كثيرا من عنب ورمان ، وبطيخ وتفاح .

وفيما يتصل بالملابس كثير منها مشترك بين الرجال والنساء ، فكلهم يرتدى فوق البدن قميصاً من الصوف أو القطن ، وسراويل (دخلت اللغة

الإسبانية فى صورة Zaraguelles) طويلة وضيقة ، ولا تتجاوز الركبة ، ويمكن أن تحل الجلابية البيضاء محل القميص ، وهو مزخرف إلى حد كبير . وتضاف « المحشاة » فى الشتاء على هذه الملابس الخفيفة ، للرجال والنساء ، وهى فرو ثقيل يتخذ من جلد النعاج أو الأرانب ، ويلبس فى شكل جلباب . والأطفال من الجنسين ملابسهم على هذا النحو ، ويضعون جوارب فى أقدامهم ، وتتخذ من الصوف ، وتصل إلى الركبة . ويأتى فوقها الحذاء ، خفا فى الشتاء ، وصندلا فى الصيف ، ويسمى هذا فى الأندلس « القرق » ، ودخلت الكلمة إلى الإسبانية فى صورة Alcorque . ويميز غطاء الرأس الرجل من المرأة . فالأول يغطى رأسه بكوفية أو شاشية ، على حين تضع المرأة على وجهها خمارا .

ويرتدى أبناء الطبقة العالية الملابس الحريرية المطرزة ، وتصنع من الحرير الطبيعى ، وبلغ نسجه حداً عالياً من الإتقان ، نافست به قرطبة بقية بلاد العالم ، ومنه تصنع ملابس الحفلات ، والجلاليب الراقية . ذات النسج الرقيق الشفاف . وبدأوا يستخدمون القلانس والطواقى . إلى جانب الطرطور ، وسوف يقلدهم فى صنيعهم هذا بلاط مملكة ليون المسيحية فى الشمال . وثمة ملابس أخرى ذات ترف ووجاهة ، ترتديها الطبقة العالية ، وأبرزها الجبة ، وانتقلت إلى الإسبانية فى صورة Algupa ، والدراعة ، وتخلفت فى الإسبانية adorra ، والمحشية Almexias . وسوف يتلاشى لباس الرأس تدريجا ، لتصبح العمامة ، ابتداء من القرن الحادى عشر ، وقفاً على رجال الدين من العلماء والقضاة ، وبعض هؤلاء ردها لباسا . وكان البرنس ، وتخلف فى الإسبانية فى صورة Albornoz ، فى هذه الفترة ، وحتى مجىء المرابطين ، وقفاً على نساء الطبقة العالية عندما يسافرن على ظهور الخيل أو البغال . وكان زرياب المغنى ، حين جاء الأندلس ، فى الربع الأول من القرن التاسع الميلادى ، قد أحدث ثورة فى عالم الأزياء ، إلى جانب الموسيقى ، ومراسم تناول الطعام ، وطريقة تصفيف الشعر للرجال والنساء ، فقد جعل لكل فصل من السنة ملابسه الخاصة به ، طبقاً

لمكانه من الحر أو البرد . فالملابس البيضاء للصيف ، وجعل له بدءاً عيد « العنصرة » فى الأندلس ، ويجئ فى الأيام الأولى من شهر يونيو ، ويمتد حتى أول أكتوبر ، والملابس الملونة لبقية العام ، وجعل منها للربيع « جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التى لا بطائن لها ، لقربها من لطف ثياب البيض الظهائر ، التى ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشى ثياب العامة » ، وأن يلبسوا فى الخريف « المحاشى المروية ، والثياب المصمتة وما شاكلها من خفاف الثياب الملونة ذات الحشو ، والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد فى الغدوات » ، فإذا قوى البرد ودخل الشتاء « ينتقلون إلى أثخن منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء » . وكان اللون الأبيض شعار الحزن عند بنى أمية الأندلسيين ، فلما اتخذ ملبساً للصيف تراجعت عنه الناس إلى السواد .

● الحفلات والأعياد والملاهى :

وتحتفل الأسر كلها بالأعياد الدينية . عيدى الفطر والأضحى ، وكان الصوم شائعا ، إلا أولئك الذين لديهم رخص دينية ، وإذا جاء رمضان فى الصيف ، وقرطبة حارة ، ترك أثره فى الحياة العامة للناس ، فهم يصحون من نومهم متأخرين ، ويخلدون إلى الراحة ساعة الظهيرة حين يشتد الحر ، فإذا غربت الشمس ، وأفطر الناس ، عادت الحياة إلى الشارع بكل صخبها : تفتح المتاجر ، وتظل كذلك حتى ساعة متأخرة من الليل ، ويبدأ الباعة المتجولون من حملة المشروبات الباردة وغيرهم فى الطواف . وتضاء المساجد ليلة الإسراء على نحو خاص ، وتمتلىء بالعباد الخاشعين ، ومعها يتهيأ الناس للعيد ، وللعودة إلى الحياة العادية .

وفى عيد الأضحى يحرص الناس ، كل الناس ، أغنياء وفقراء ، على التضحية بكباش ، وكسوة الأولاد بملابس جديدة ، وتتم صلاة العيد فى الهواء الطلق ، ويؤم المصلين قاضى الجماعة ، أو صاحب الصلاة ،

وتضم الرجال وكثيراً من النساء ، وبعدها يعود الجميع إلى المدينة لتبادل التهانى .

ولم تعرف قرطبة حتى نهاية القرن العاشر الاحتفال بالمولد النبوى ، ذلك شىء سوف يجىء فيما بعد ، ولكنها كانت تحتفل ، وعلى نحو بهيج ، بعيدى « النيروز » و « المهرجان» ، ويشاركهم فى هذا مواطنوهم المستعربون . و « النيروز » فى أصله اليوم الأول من العام الشمسى فى فارس ، ومنذ اتخذه العالم الإسلامى عيداً دخلته تغييرات كثيرة ، وكان يحتفل به فى الربيع ، فى اليوم المعتدل منه ، دون أن يرتبط ذلك بأول العام الجديد . وليس فيما بين أيدينا من مصادر ما يحدد تاريخ هذا اليوم فى الأندلس . أما المهرجان ، ويطلق عليه عيد العنصرة أيضاً ، فيقع فيما بين اليوم السادس واليوم الرابع والعشرين من شهر يونية . وكانت الأعياد ، وبخاصة عند العامة ، أمراً مرغوباً لكسر رتابة الحياة اليومية .

وتزدحم الشوارع ، ويجد فيها الكسالى والمتبطلون فرصتهم لمتابعة السائرين ، وتأمل ما هو جديد ، على حين يحاول الباعة فى الشوارع القريبة من القيصرية ومن « السقاطين » ، أن يجذبوا إليهم الزبائن ، بأصواتهم العالية ، ونداءاتهم المسجوعة ، لحضور المزاد . وتلتقى فى الميادين العامة بأهل المدينة ، والقادمين إليها من الريف للشراء أو البيع ، أو لأشياء أخرى ، يلتفون حول « مهرج » تخفى فى شكل قروى ، وراح يقلد حركاته البسيطة والساذجة ، حين يواجه المدينة للمرة الأولى . وهناك من يعرضون ألعابهم على أنغام الموسيقى ، و « البهلوانات » ، والشعراء الجوالون ، ومن يعرضون خيال الظل . ومن يقرأون الطالع ، ومن يقصون الحكايات ، أو التواريخ ، أو شيئاً من السنة ، بصوت مرتفع . ويختلط ذلك مع أصوات السقائين ، وبائعى البخور وموزعيه ، واللصوص ، والقوادات . وقد يضطرب الأمن حين يقوم شجار بين اثنين ، أو حين يكتشف واحد سرقة حافظة نقوده ، ولكن ظهور واحد من رجال الشرطة كاف لكى يعود الهدوء ويتوزع الجميع .

وفى يوم الجمعة حيث تخرج النساء إلى المقابر ، وفى نزهاتهن الأسبوعية ، فإن الطريق إليها وإلى الحدائق يكون غاصاً بأناس من الجنسين ، وكلها تعبر القنطرة إلى ربض شقندة ، ويلبس الفتيان خير ما عندهم ، ويبحثون عن المغامرات ، ويداعبون الفتيات الوحيدات بالكلمات الحلوة ، أمر يشبه ما عليه حال قرطبة اليوم . وفى هذا المكان التقى الشاعر يوسف الرمادى بصاحبته خلوة ، وجرى بينهما حوار أورد لنا ابن حزم فى كتابه « الطوق » جانباً منه. ومع غياب الشمس يعود الجميع إلى بيوتهم ، فإذا أقبل الليل لا يسمع فى الشارع غير وقع أحذية الجنود الثقيلة ، وخطى المتخلفين والساهرين .

وكان الفضاء المتسع خارج المدينة معداً ، إلى جانب عرض المحكوم عليهم بالصلب ، لاستعراض الجيوش فى المناسبات العامة ، كقدوم سفير ، أو سفر الخليفة على رأس حملة ، وتقام هذه فى الطريق الموصلة إلى مدينة الزهراء ، وكان ظهور الفرسان بملابسهم الزاهية ، على خيولهم الأصيلة ، فى خوذاتهم القوية ، تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطى ألف لون ولون ، يثير فى الناس الحماسة والبهجة والاطمئنان .

وكان من المتع العالية فى مجتمع قرطبة صيد الطيور والأرانب الجبلية ، ومن المهارة أن تصطادها قبل أن تنفق ليمكن الإفادة منها ، فتذبح ثانية بطريقة شرعية ، وتباع فى المدينة . ويعد الصيد هواية محببة للأمير وحاشيته والخاصة ، ويتحدث المؤرخون عن رحلات صيد طويلة على ظهور الخيل ، فى الجبال والوديان المحيطة بقرطبة ، ويتم الصيد بالصقور ، وكانت تربيتها وبيعها تجارة رابحة ، ويقوم على أمرها فى قصر الخلافة فتى يعنى بها ، يدعى « صاحب البيزرة » ، وتركت المهنة أثرها واضحاً فى اللغة الإسبانية ، ففى جنوب البرتغال قرية تحمل اسم « البيزرة Alvayazere » ، وأشهر حى فى غرناطة ، وكان موطن المسلمين فى آخر أيامهم بعد سقوط دولة الإسلام ، يدعى « البيازين Albaicin » .

وكان هناك الصيد بالكلاب فى المناطق الوعرة المخضرة ، ذات الأشجار الملتفة والجبال العالية ، وبخاصة تحت سفح الجبل ، حيث تعقد حفلات صيد كبرى ، تصاد فيها الخنازير البرية والغزلان والأيول ، يطلقون عليها فصائل من الكلاب السريعة تثيرها ، وتدفع بها حيث ينتظرها الصيادون . وتمضى العاهل القرطبى ، أحيانا ، أياما متصلة فى الصيد ، وهو أمر كان موضع نقد العامة واعتراضهم .

ومن الألعاب المحببة للخاصة أيضا لعبة الصولجان ، وهى قريبة من لعبة « البولو » الحديثة والنرد ، وسباق الخيل ، والشطرنج وجاء به زرياب من المشرق ، ولقى رواجاً كبيراً بين أهل قرطبة ، وأصبح من مظاهر الرقى الثقافى . وكان القمار رغم تحريمه معروفا ، ومعلوماتنا عنه قليلة للغاية بوصفه عملا محرما ، ونعرف من أوامر المنع أن لعبة النرد كانت شائعة ، وكان النساء يلعبن القرق .

• مباهج الحضارة وأمراضها :

وفى هذا القرن بدأت قرطبة تعانى الكثير من أمراض الحضارة ، ويكفى أن نلقى نظرة على كتاب « الطوق » لنجد ابن حزم يقص علينا الكثير مما يجرى دون حرج أو إنكار ، ودون أن يلاحق أصحاب الأحداث بالسب واللعن ، كما هى عادة الفقهاء ، يذكر ماعرف فى بساطة ، كما كان شيئاعاديا ، لامهرب منه ولاحيلة فيه . لقدفاضت رغبات الناس الجنسية ، وتجاوزت ماهو مقبول عرفاً وعادة ، ولم يعد حب المرأة ، رغم شيوعه ويسره ، كافياً وحده ليوقف اندفاعهم ، من أى وسط كانوا وإلى أية طبقة انتموا ، عن اتجاه آخر تنحرف فيه العاطفة عن مسارها الطبيعى ، أعنى الشذوذ الجنسى .

كان الحديث عن الغلمان والتغزل بجمالهم شائعاً يتعدى الشعر إلى الحياة ،

ويعرض له المؤرخون دون إنكار أو تشنيع ، ولست أعتقد أن كل الذين تحدثوا عن الغلمان كانوا يمارسون هذه العادة الشاذة ؛ ولو أنه ، فى الوقت نفسه ، لا يمكن أن نقلل من شيوع الظاهرة وخطورتها . وتخلو المصادر من إشارات إلى أحداث وقعت من عامة الناس ، وهو أمر طبيعى ، فالتاريخ الوسيط قلما ما يتوقف أمام هذا القطاع من المجتمع ، وعلى النقيض ، يقدم لنا قائمة طويلة بشخصيات هامة فى شتى مجالات الحياة فى قرطبة ، أورد لنا ابن حزم فى كتابه « الطوق » مثلا صارخا لها : قصة أحمد بن كليب ، وسنعرض لها فى دراسة خاصة ، وهى قصة تمس شخصية هامة ، أسرياً وثقافياً واجتماعيا ، فى المجتمع القرطبى ، وشاعت حتى بلغت المشرق فأوردها ياقوت الحموى ، (ت ٦٢٦ هـ — ١٢٢٩ م) ، فى كتابة « إرشاد الأريب » ، وجاء بها فى تفصيلات وافية داود الأنطاكى ، (ت ١٠٠٧ هـ — ١٥٩٩ م) فى كتابه : « تزيين الأسواق بتفضيل أشواق العشاق » . وكان ضحايا هذه الفعلة الشنيعة ، عادة ، من الخصيان وصغار الموالى ، فى قصور الأمراء وبيوت الأشراف ، ولم تكن قرطبة أيضاً تخلو من فتيان مخنثين ، يقدمون خدماتهم لأفضل طالب ، وأعطانا ابن عبدون وصفاً للمخنث فى رسالته عن الحسبة بأنه « الذى يقلد النساء فى ملابسه وصوته » .

وعرفت المدينة بيوت « الحظوة » ، وزبائنها من دهماء المدينة ، ومن الريفيين الذين يهبطون العاصمة للبيع أو الشراء أو لقضايا أخرى ، وتسكن العاملات فيها الخانات ، ويدفعن ضرائب للدولة ، وتسمى الواحدة منهن فى لهجة الأندلس « خراجية » ، ويطلق على بيوت الدعارة نفسها « دار الخراج » ويسميها ابن عذارى « دار البنات » . ولا تكاد المصادر تشير إلى شىء يتصل بانحراف العاطفة عند المرأة ، وممارستها الحب مع امرأة أخرى ، وقياسا يمكن أن نتصور أن هذا حدث ، وكتب الفقه الأندلسى المفصلة تشير إليه ، وتراه محرما ، ولا نعثر له على صدى فى دواوين الشعراء ، أو كتب المؤرخين ، باستثناء أبيات من الشعر أنشدها أبو الصلت ، أمية عبدالعزيز الدانى ؛ المتوفى

عام ٥٢٩ هـ — ١١٣٤ م ، وفيها عرض للمساحقة مباشرة . وكان الصمت فيما يبدو لى تحرجاً وليس جهلا ، لأن العماد الأصفهانى فى كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » أتى بهذه الأبيات فى القسم الخاص بالمغرب ، وحين طبع للمرة الأولى فى تونس فى أوائل هذا القرن ، حذف منه الطابعون هذه الأبيات .

وكان الحصول على النبيذ والشراب حتى السكر ميسورا ، ومنذ القرن التاسع الميلادى أصبح ربض شقندة يضم سوقاً نافقة للنبيذ ، يستأجرها واحد من المستعربين ، وقد أغلق مدة ثم أعيد فتحه ، لما يدره على الخزانة العامة من دخل ، وكان يمد الحانات المسموح بها ، والتى تعمل فى خفاء ، بما تحتاج إليه من أنواعه المختلفة ، ويتردد على الحانات المستعربون المسيحيون والمسلمون غير الطيبين ، ونفهم من إشارات الشعراء أن ثمة خانات كانت تقوم على مقربة من الأديرة المسيحية خارج المدينة ، يقدم فيها الطعام والنبيذ أيضا . ومن الشائع أن يتردد على هذه الحانات المخنثون ، والنساء من ذوات السمعة السيئة ، يقضين الليل مع نشوة الكأس وفى حمياها ، وكان ذلك موضع هجوم دائم من الفقهاء ، وملاحقة مستمرة من رجال الشرطة ، وظل الصراع عنيفاً بين سلطان هؤلاء وذكاء الشاربين ويتعرض الشارب للمتابعة والعقاب حين يكون الأمر علانية ، ويمس الأخلاق العامة ، ويعذر من يضبط سكراناً بالحد الشرعى المعروف ، غير أن المتابعة لا تمتد لما يجرى فى البيوت ، بيوت العامة والخاصة على السواء ، فهى بمنأى عن الملاحقة والرقابة . وكان المقتدرون فى قصورهم ، أو بيوتهم الريفية فى ضواحى العاصمة ، يستطيعون بلا خوف ، ودون حد ، أن يمضوا مع أهوائهم شراباً ونساء حتى الثمالة . ولعل جانباً من المجتمع ، إلى جانب ضرورات البيئة ، كان يجد مندوحة فيما شهر عن أبى حنيفة النعمان أنه أباح شرب النبيذ ، وأوجز ابن عبد ربه صاحب «العقد» هذا الاتجاه فى بيت من الشعر :

دِينُنا ، فى السماع ، دين مدينى ، وفى شربنا الشراب عراقى

وفى مجتمع لم يعرف المسرح كان الرقص والموسيقى والغناء من أكثر مباهج الحياة شيوعاً فى قرطبة القرن العاشر ، وإذا صدقنا الشعراء ، أو حتى جانباً مما يقولون ، لم تكن هناك حفلة ولا جمع ولا مهرجان لا يضم هذه الألوان الثلاثة . وترك لنا ابن حزم فى « الطوق » ، وابن بسام فى كتابه « الذخيرة » وصفاً تفصيلياً شائقاً لبعض الحفلات التى كانت تقام فى بيوت الخاصة ، فى قرطبة وغيرها ، حفلات ما يكاد المدعوون فيها ينتهون من تناول الطعام على أنغام الموسيقى حتى يبدأ الغناء والرقص ، والعازفون من الرجال والنساء ، ولكن الفرق الجيدة الممتازة لم يكن يقدر على نفقاتها غير كبار الموسرين . وشهرت من بين أنواع الرقص العديدة رقصة يرتدى فيها الراقصات ملابس الغلمان ، ويمتطين خيولا صغيرة من خشب ، معلقة بأطرافها أقبية ، وطبقاً لنظام معين تأخذ الرقصة شكل معركة حقيقية ، يكرون ويفرون ويحاورن . ولم يكن الأمراء يترددون ، أحيانا ، فى حضور حفلات أكثر بساطة : مجرد راقصة بالصاجات ، تتلوى على أنغام بوق ، ويطلق على هذه الحفلات اسم « سمر » ، وبقى لها الاسم حتى أيامنا هذه ، وأخذ صورة Sambra ، ويحمله اليوم أعرق وأرقى مكان للرقص التقليدى فى مدريد . واشتهر من بين الراقصات أولئك القادمات من مدينة قادس ، ولراقصاتها شهرة تاريخية عريقة ، ولهن من قديم قدرة فائقة على التشكل والإثارة . وقد أشار إليهن فى قصائده الشاعر الرقيق ، الماجن والأنيق ، اللاتينى اللغة ، الإسبانى الموطن ، مرسيال Marcial ، المتوفى عام ١٠٤ للميلاد ، ونعرف منه أن هؤلاء الراقصات كن موضع إعجاب روما عاصمة الإمبراطورية على امتداد القرن الأول الميلادى ، وأن قادس كانت تدفع بأعداد منهن على الدوام إلى روما ، فيلقين الحفاوة والحب ، وأصبحت رقصاتهن موطن التقدير والإعجاب ، رقصات تحرك نوازع الرغبة ، وتضل أقوى الرجال عفة فى روما . وتحدث عنهن أيضا الشاعر اللاتينى جوفينال Juvenal ، المتوفى

قريبا من عام ١٢٥ ميلادية ، ووقف طويلا عند جمال غنائهن ، وإثارة رقصاتهن . وفى العصر الذى نعرض له ، شهرت مدينة أبذة Ubida ، فى كورة شاطبة ، على مقربة من قرطبة ، « بالرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فإنهن أحذق خلق الله » .

● الثقافة :

باستثناء حالات نادرة يكون فيها الأب دون أن ينتسب فى أية طبقة اجتماعية ، وفى ظروف بائسة للغاية ، فإن الأب يقدم لأطفاله ، بنين وبنات ، تعليما ابتدائياً منذ صغرهم ، إذا كان ميسورا يأتى لهم بالمدرس إلى البيت ، وإلا أرسل بهم إلى « الكتاب » الأقرب إلى مسكنه ، وتخضع هذه المدارس الابتدائية نظرياً لإشراف « المحتسب » ، وقل ما كان يزورها فعلا . ويجمع المعلم ، أو المؤدب ، عددا محدوداً من الأطفال فى مكان صغير ، مفتوح على الشارع ، يطلق عليه اسم « المصرية » ، يدرس لهم بأجر برنامجاً معروفا ، غير مكتوب ، تحدده التقاليد ، وبعقد محترم منه ومن ولى الطفل . وفى هذه المرحلة يحفظ الطفل جانبا من القرآن الكريم ، ويحفظ قصائد من الشعر ، ومقتطفات من النثر ، ويدرس شيئا من النحو ، وقليلا من الحساب ، والكتابة والقراءة على الطريقة « الجملية » ، ويبدو أنها لم تكن مقبولة من الكافة ، لأن ابن خلدون فيما بعد سوف يبسط آراء المعارضين لها ويفندها . ويدفع الأجر للمعلم ، فى كتابه أو جاء إلى البيت ، طبقاً للعقد ، ويكون سنويا ، ويتضمن المادة أو المواد المطلوب تعليمها ، وشكل التعليم ، والزمن المخصص لها ، وشروط دفع النفقات ، من مال يدفع آخر العام ، أو مواد غذائية من دقيق وزيت تدفع شهريا ، ومن العادات المتأصلة أن تقدم الهدايا للمعلم فى عيدى الأضحى والفطر ، وأخرى أجل وأكبر حين يختم الطفل القرآن . ويتردد على بيوت القادرين ، غالبا ، أكثر من معلم لتربية أطفالهم . وأحياناً يقع الاتفاق على إكمال العمل ، يقوم المعلم بتعليم الصبى ، مقابل أجر معلوم ، مادة معينة ، أو مواد متعددة ، وفى هذه الحالة يلزم ولى الأمر أن يقدم تقريراً وافياً عن عقلية الصبى وقدراته الذهنية .

ورغم أن التعليم أهلي ، كانت المدارس المجانية كثيرة ، ينفق عليها من ريع الحوانيت والعقارات والأراضي التي أوقفها الحكم الثاني ، وآخرون غيره . وأسهم الشعب بدوره ، بجمع الهبات ، ويدعم المدارس ، بعيداً عن رقابة الدولة وتدخلها في النظم أو المناهج ، ما دامت لا تستهدف نشر أفكار ضارة بأمن المجتمع وهدوئه . وقد تحقق في قرطبة المثل الأعلى الذي نطمح إليه ، أن يكون التعليم الابتدائي مجانا وإجباريا ، مجانا لأن العاجزين لم يكونوا يحرمون منه لعجزهم ، وإجباريا بضغط من المجتمع نفسه ، دون حاجة إلى أمر يصدر أو قانون يشرع ، لأن التجار وأصحاب الحرف والمصانع يرفضون أن يقبلوا في حوانيتهم عمالا لا يعرفون القراءة والكتابة حتى ولو كانت مهنهم لا تحتاج إليها . فإذا بلغ الطفل سن الحلم انتقل إلى مصنع أو متجر ليعمل ، أو يواصل تعليمه العالي إذا سمحت له ظروفه بذلك .

ونعني بالتعليم العالي ما تجاوز المواد التي تدرس في التعليم الابتدائي ، ولقد يكون في وصفنا له « بالعالي » تجوز ، لأننا بإزاء مرحلة ليست لها خطط رسمية تحدد المناهج أو الوسائل ، وإنما يحضر الطالب المواد التي تعجبه ، على الأستاذ الذي يطمئن إليه ، ويقرأ في الكتاب الذي يراه نافعاً ومفيداً ، ويتعمق في درسه بالقدر الذي يسمح له به ذكاؤه ورغبته وإمكاناته ، ومن الصعوبة بمكان أن نحدد على نحو دقيق : متى يبدأ التعليم العالي ومتى ينتهي ، وليس من الممكن كذلك تحديد المادة ، أو المواد ، التي يبدأ طلاب التعليم بدراستها : القرآن ، أو الرياضيات ، أو الطب ، أو اللغة ، أو الأدب ، فقد كان الطلاب أحياناً يجمعون بين أكثر من مادة في الوقت نفسه ، ولكن يمكن القول أن الطلاب كانوا يبدأون دراسة النحو والتعمق فيه ، ليعينهم على فهم بقية المواد الأخرى ، وتليه دراسة المواد الدينية ، من فقه وحديث وتفسير وأصول .

وكان هناك الطلاب المنتسبون ، إذا صح لنا أن نستخدم هذا المصطلح العصري جدا ، وهم الذين لا تمكنهم ظروفهم من حضور الدرس ، فيعتمدون على الكتاب ، وإذا وثقوا من أنفسهم تقدموا للأستاذ ليجيزهم . ويعتمد الطلاب على ذواكرهم كثيرا ، وكان فيهم من يحفظ آلاف القصائد من

الشعر ، ومن يحفظ كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى كاملا ، وفيه تتعدد الروايات وتتشابه ولا رابط بينها ، ويتنوع محتواه من شعر ونثر وحكايات ، ومن يحفظ القرآن لا يغيب عن ذاكرته حرف واحد منه ، ومن يحفظ موطأ مالك ، أو مدونة سحنون ، أو ديوان المتنبى ، أو كتاب « الكامل » للمبرد ، نعم ، وكان فى الأندلس من يحفظ هذا دون حاجة إلى أن يكون عالماً أو متخصصا ، ويقص علينا ابن بشكوال أنه كان فى سوق قرطبة باعة عنب وتين يستطيع الواحد منهم أن يقرأ من الذاكرة أمامك كتاب « معانى القرآن » لأبى جعفر النحاس . أما أولئكم الذين لا تواتيهم ذواكرهم فيشعرون بخيبة أمل مريرة ، ويحاولون ما استطاعوا أن يزيدوها حدة بالأدوية ، وأشهر هذه شراب « البلاذر » ، ويتخذ من ثمار شجرة هندية ، يصفه الأطباء ، ويتناوله القادرون ، ليجعل ذواكرهم أشد حدة ، وأصفى صفحة . وفيما بعد أسرفوا فى الحفظ ، وأقلوا من التفكير ، وكان ذلك ، فيما لحظ ابن خلدون ، وراء تدهور الثقافة والعلم فى أخريات أيام الأندلس ، لأن المعرفة لا تتقدم بالحفاظ عليها ، وإنما بتعهدها إنماء وتجديدا .

وكان العمل بالتعليم العالى مناط تقدير المجتمع واحترامه ، ويرفع العاملين فيه إلى مستوى كبار القوم ، ممن جاءهم الجاه وراثة ، أساتذته فى مستوى بقية الوظائف الكبرى عسكرية أو مدنية ، كالولاة والقضاة والقادة . ولكنها مهنة تميزت بأنها مفتوحة الأبواب أمام كل ذكى ، وكان يعمل فيها من ينسبون إلى طبقة الخاصة حباً فى العلم ، وطلباً للمزيد من الجاه ، والقادمون من تحت ، يجدون فيها الأمن والحماية والطريق إلى الشهرة . وعادة تلتقط الدولة خيرة الأساتذة وترشحهم للمناصب العالية ، جلباً لرضى العامة ، وكسباً لثقتها ، فلم تكن هنالك أحزاب ولا صحافة ولا مجامع علمية ولا برلمان يلمع فيها الناس ، وتظهر الكفاءات . ومن جانب آخر ، لم يكن لدى الأدباء ، وكبار الكتاب ، فى وقت لم تكن عرفت فيه الطباعة ، من وسيلة لنشر آرائهم وأفكارهم غير أن يجدوا لهم حلقة فى المسجد الجامع ، وهى دروس لم تكن تجذب الطلاب والشباب فحسب ، وإنما كانت تتجه إليها صفوة المجتمع القرطبى . ويقص علينا

أحد تلاميذ أبي وهب عبد الأعلى ، يقول : «كان أستاذي يقيم قريباً من مقبرة قريش في قرطبة ، في بستان له يقوم هو نفسه على غرسه ، وذات يوم بعد أن قدم طعام الغداء لتلاميذه ، جاء من يطلب الإذن بالدخول ؛ وكان القادم الوزير هاشم بن عبد العزيز ، وأقرب الناس إلى الأمير ، وقد رحب به الأستاذ ، وعندما دخل وجدنا نتناول خضراً مطبوخة ، وهي مما غرس في الحديقة ، وقد ارتباك صاحب البيت قليلا قبل أن يدعوه ، خشية أن يكون الطعام دونه ، ولكن هاشما بادره : ألا تدعوني لمشاركتهم ، أوتخاف أن آتي على المائدة بأجمعها ؟ ، فقال : هي دونك ! ، فرد : ولماذا ، فشمر عن ساعده ، واقتحم المائدة معنا ، وبعده انتحى به جانبا ، فاستشاره بعض القضايا الفقهية وتلقى رأيه ، وعندما خرج هممت بالوقوف تحية ، ولكن الأستاذ أشار إلى في قسوة أن أجلس ، وبعد أن ودعه عاد فعتب علينا في شدة أننا أسرفنا في الأدب والمجاملة ، ولم نكن عاديين » .

وكانت هناك شروط معينة يجب توافرها في الأستاذ ، أولها العلم ، ويحرص الأستاذ على أن يحصله بكل جهد ممكن له : يذهب إلى المشرق ليدرس هناك ، وكان تعبير « وله رحلة » يعادل في لغتنا الحديثة « عائد من بعثة » ، وموضع زهو من صاحبه ، وتقدير من المجتمع ، ونلتقى به وصفاً لعدد من العلماء الكبار ، وأن يختلف إلى مجالس كبار العلماء قرطبة ، والقادمين من المشرق بخاصة ، وأن يحرص على اقتناء ، أو على الأقل دراسة ، ما يؤلف من الكتب لحظة صدورها . وحين استقامت الحياة الثقافية ، وتكونت شخصية الأندلس ، وأحس بذاته ، استغنى عن الرحلة ، وعن الأستاذ الوافد ، بل أقسم عالم من إشبيلية أن يذهب إلى القاهرة ، وأن يجلس في صحن الأزهر ، وأن يدرس « الكتاب » لسيبويه ، ليثبت أن الأندلسيين لم يعودوا دون المشارقة تمكنا من العلم ، واستيعابا له .

والصفة الثانية التقوى ، والعالم غير التقي لن يجد طلاباً يجلسون إليه ويتلقون العلم منه ، وكلما كان الأستاذ مالكي المذهب كان إقبال الطلاب عليه أشد . وكثيرون من الأندلسيين ذهبوا إلى المشرق ، ورأوا مذاهب فقهية أخرى ، تحمسوا لها ، وعادوا على أمل أن يبشروا بها ، فلما عرف الطلاب منهم هذا انصرفوا عنهم واحداً وراء آخر ، فبقوا وحدهم لا يجدون من يستمع إليهم .

وإلى جانب العلم والتقوى ثمة صفات أخرى يود الناس والطلاب أن تكون مما يتحلى به العالم ، منها الصدق ، واستقامة العادات . وعليه أن يكون في درسه لطيفاً واجتماعياً ، سخياً في الشرح والتعليق والتفسير ، لا يحجب عن طلابه شيئا ، وأن يكون منهم بمنزلة الأب أو الأخ الأكبر ، وكان الأساتذة كذلك بعامة ، فتميزت علاقاتهم بطلابهم بعطف حنون ، ومودة صادقة .

وليس سهلا أن يصبح المرء أستاذاً معترفاً به ، وله طلابه ، إلا بعد أن تتقدم به السن في المهنة ، أو يبلغ شأواً كبيراً من الشهرة والذيوع في وظيفة عامة ذات طابع ثقافي ، قاضيا أو مفتياً أو مشاوراً أو والياً . وليس ثمة سن معينة يتقاعد عندها الأستاذ ، والطلاب وحدهم هم الذين يقررون ، فإذا تبينوا في أستاذهم خرف الشيخوخة ، أو طفولتها ، بدأوا يفارقونه ، وحينئذ يحيل نفسه إلى التقاعد . ولم يكن للأساتذة زي محدد ، ولكن الأجلاء منهم يضعون الطيلسان على رءوسهم ، وكان ابن حبيب ، الفقيه المالكي الكبير ، يذهب إلى الدرس في أحسن أزيائه ، وهي من نسيج يمني ، على حين يرى آخرون إن أفضل زي يرتديه الأستاذ أن يكون في رأسه شيء يقوله للطلاب . ويزاول الأساتذة إلى جانب التدريس مهناً أخرى ، تدر عليهم رزقاً يعينهم على الحياة ، ويلقى الواحد منهم طلابه في بستانه أو حانوته أو مصنعه ، وآخرن يلقون دروسهم في المسجد الجامع أخرة اليوم ؛ بعد صباح جاهد من أجل لقمة العيش . وقبول الأجر من الطلاب لا يلجأ إليه الأستاذ إلا عند الضرورة القصوى ، وطلبه ، أو قبول الهدية ، أمر مخجل على أية حال .

● الحياة الدينية :

ظلت قرطبة بمنأى فى المجال الدينى عن الحركات المتطرفة من إلحاد وزندقة، وعن الدعاوى غير السنية من خوارج وشيعة ، وليس من الممكن القول أن الدين كان يحتل مكانة هامة ، لان الدين كان الحياة نفسها ، عنه تصدر ، وبه ترتبط كل مظاهر الحياة الاجتماعية . ويلتزم القرطبى بما يلتزم به أى مسلم ، فى أى مكان ، فالإسلام عقيدة وفكراً وطقوساً لا يتأقلم فى جوهره ، وليس ممكناً أن نتحدث عن إسلام قرطبى أو أندلسى ، وربما تميزت قرطبة عن غيرها بأن حماستها للإسلام وحرصها عليه كان عفوياً وشديداً ومستمراً .

كانت حماسة الناس للدين قوية ، وحرصهم على أداء شعائره حادا ، وأشدهم حرصاً أولئك الإيبيريون الذين أسلموا مع الفتح أو بعده، ثم البربر، ويأتى العرب أخيرا . وصنع الإسلام من هذه العناصر مجتمعاً متماسكاً ، وهو ما كانت تفتقده بلاد إسلامية أخرى ، ومن هنا كان الرحالة المشارقة يؤخذون، حين يطأون أرض قرطبة، بما عليه أهلها من إسلام خالص، ومن تقوى خاشعة ، عند غالبية الناس . وكان المجتمع ، إزاء دين بلا كهانة ، يقوم على حراسة معتقداته ، ولا يتهاون أبداً فيما هو جوهرى منها ، ولم تكن « الحسبة » فى أى بلد بأكثر احتراماً وهيبة كما كانت عليه فى قرطبة . وكانت حرية الأديان مطلقة ، ومحترمة ، ويتم اعتناق الإسلام أمام القاضى ، ويسجل فى وثائقه ، ويقر فيها المرء بأنه اعتنق الإسلام بإرادته وحريته وبإيمان مطلق منه ، ودون ضغط أو تدخل من أحد ، وأنه يلتزم بقواعده ، ولكن عقوبة التحيف على الإسلام صارمة ، وكان الاتهام بها يخفى وراءه ، أحياناً، أهدافاً سياسية أو شخصية .

وحرص الأندلسيون على الحج ، وتقلع بهم السفن من المرية أو بلنسية أو دانية ، وهى ثغور لا تزال قائمة ومزدهرة حتى يومنا هذا ، تبحر وعليها

أعداد كبيرة من رجال ونساء ، وتلقى رحالها فى الإسكندرية ، لكى يتجه الناس منها إلى القاهرة ، وقد يتوقفون فيها أياماً طويلة ، للعلم أو التجارة أو السياحة . على حين يأخذ الفقراء طريقهم براً عبر شاطىء شمالى أفريقية حتى يبلغوا مصر ، وهى رحلات أخذت شكلا جماعياً ، فى قوافل كبيرة ، منذ نهاية القرن التاسع ، ومن يتخلف عن الحج لسبب أو لآخر يمكن أن ينيب عنه من يقوم به بدلا منه ، وفيما وصلنا من وثائق صورة عقد بين حاج وموكله ، والمناسك التى عليه أن يضطلع بها . وكان الحج شائعاً بين العامة والفقراء ورجال العلم ، فهم يهدفون إلى أن تكون لهم معه رحلة علم ، ومن هنا فنحن لا نعرف إلا قلة بين الخاصة أدت الحج ، ولم يؤده أى من الأمراء أو الخلفاء لأسباب سياسية خالصة ، ولا نعرف أن ابن حزم ، صاحبنا ، أدى الحج ، رغم دفاعه الشديد عن الإسلام وأصوله ، وقدرته المالية ، فى أوائل حياته على الأقل ، ولعله أناب من يضطلع به نيابة عنه ، أو وجد لنفسه مندوحة فيما أحاط به من ظروف .

وقد أصبحت قرطبة موطن المذهب المالكى ، وأصبح الاتجاه الغالب فيها ، تبنته الدولة ، وعليه الفتوى ، وأغلقت أبوابها فى وجه المذاهب الفقهية الأخرى ، وأعرض علماؤه عن النظر إلى غير المالكية من المذاهب ، واعتبروا معرفتها أمراً لا جدوى فيه ، ووقفوا بالفقه المالكى عندما أورده مالك وكبار تلاميذه وأصحابه من بعده ، يدورون حوله دون أن يتقدموا به خطوة ، ولم يتيحوا لأنفسهم حرية الدرس أو الاجتهاد إلا فى حالات نادرة ، حين يصطدمون بما هو شائع ويصعب تغييره ، فيجدون لهم مندوحة فى باب « العرف والعادة » ، وهما من روافد التشريع عند المالكية . وإن المرء ليستطيع أن يؤلف مجلدات تستغرق أسماء الفقهاء الذين برزوا من علماء المذهب فى تلك الفترة . ويهمنا أن نشير من بينهم إلى أبى الوليد الباجى ، سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبى ، فقد كان خصما فكرياً لدوداً لابن حزم ، وجرت بينهما محاورات عنيفة ، وأثنى

عليه ابن حزم ثناء بالغا . وألف الباجى عدداً من الكتب فى الفقه المالكى ، وفى علم الأصول ، وفى الحديث . وكان موطأ الأمام مالك ، وشرح « المدونة » لسحنون القيروانى ، من أوائل الكتب التى يدرسها المالكية ، وأكثرها رواجا .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى جاء قاسم بن محمد بن سيار بالمذهب الشافعى من المشرق ، وانصرف إلى نشره عن طريق الدرس والتأليف ، وكان يلقى دروسه فى المسجد الجامع ، ووجد رعاية من الأمير محمد الأول ، الذى عينه موثقه الخاص حماية له من علماء المالكية ، وعاش المذهب الشافعى فى الظل طوال أيام عبد الرحمن الناصر ، لأن ابنه الأمير عبدالله ، وكان شافعيا ، اتهم بالاشتراك فى [مؤامرة لخلع أبيه الناصر ، لأنه بايع ابنه الحكم بولاية العهد دونه ، وقد فشلت المؤامرة ، ولقى عبدالله حتفه على يد أبيه ، وكان لذلك أثره السيئ على المذهب الشافعى فتوقف نشاطه حتى أيام الحكم المستنصر ، الذى كان يحسن وفادة القادمين إلى الأندلس من أهل الأدب المشارقة ، وبينهم عدد من شيوخ المذهب الشافعى ، فانتعش المذهب الشافعى من جديد ، ولكنه انكمش ثانية فى عهد المنصور بن أبى عامر ، وكان حاكماً واقعيا] ، فرأى من صالحه أن يجارى فقهاء المالكية ليكسب تأييدهم ، وفيما بعد سوف يصبح ابن حزم واحداً من أتباعه ، قبل أن يتحول إلى المذهب الظاهرى .

ودخل المذهب الظاهرى الأندلس فى الوقت الذى دخل فيه المذهب الشافعى تقريبا ، على يد عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال (ت ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م) ، واجتهد رغم أنه شافعى فى نشر المذهب الظاهرى ، ويبدو أنه لم يوفق كثيراً فيما رمى إليه . وتعرض الظاهرية لمثل ما تعرض له الشافعية من مضايقات علماء المالكية ، وأول شخصية ظاهرية نلتقى بها ، ذات مقام وتأثير ، منذر بن سعيد البلوطى ، وتلقى أصوله فى رحلة له إلى المشرق ، وظل عليه حتى وفاته عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م ، ثم ضعف صوت الظاهرية إلى أن عاد قوياً مع ابن حزم العظيم .

ومع وصول كتب الجاحظ إلى الأندلس ، وشيوعها على نحو خفى بين مجموعة من المثقفين ، عرفت قرطبة عدداً محدوداً من المعتزلة ، ولكننا فى النصف الثانى من القرن العاشر لانكاد نعثر لهم على أثر ، والذين جاءوا الأندلس من الخارج لنشر هذا المذهب أبعدوا منه : مثلا وصل قرطبة أبو الطيب ابن أبى بردة ، عام ٣٦١ هـ = ٩٧١ م ، وأحسن الحكم الثانى استقباله ، كواحد من كبار علماء الشافعية على أيامه ، ولكن ما إن علم أنه من المعتزلة حتى أصدر قراراً بإبعاده . ولكن ابن حزم يقول لنا أن وادى بنى توبة كان كله معتزليا . وربما ارتبطت فكرة المعتزلة بالزهد ، لقد كان الطريق الوحيد ، فيما يرى آسين بلاثيوس ، أمام الذين يرغبون أن يبشروا بأفكارهم دون أن يعرضوا أنفسهم للاضطهاد والملاحقة أن يزهدوا وينسكوا فى «الروابط» لأن هذه الخلوات تمتعت بمهابة جليلة لدى الحكام والفقهاء والعامة ، وكانت تقع خارج المدينة ، فى الجبال أو الغابات ، وتجرى الحياة فيها على نحو زاهد ويطلق على سكانها اسم : زاهد أو ناسك أو عابد أو صوفى . وآخرون من الزهاد ظلوا بين العامة ، وتميزوا بالتقشف ، واحتقار الترف ، وإهمال الأناقة ، وعاشوا حياة رقيقة ، يمتهنون أعمالا متواضعة ، ويشاركون فى الجهاد .

وكان الفيلسوف ابن مسرة أوضح شخصيات هؤلاء العباد ، وأقام خلوة له فى جبل قرطبة ، على مقربة من العاصمة ، وعرف بالجبلى ، وفى ثياب زاهد خاشع بدأ يتأمل أفكار المعتزلة ، ويبنى لنفسه فلسفة جديدة ، راح يبشر بها بين عدد محدود من تلاميذه ، وفى البدء ، بتأثير من حياته المستقيمة ، ونسكه الصادق ، وتقواه الخاشعة ، كسب إلى جانبه قلوب القرطبيين ، ثم بدأ الهمس : إنه معتزلى ، يبشر بمذهب فلسفى جديد ، بينه وبين الإلحاد خطوة واحدة . وأحس ابن مسرة بالهمس ، وبما يجرى حوله وخطورته ، فرحل إلى المشرق ، وأدى فريضة الحج ، وبعده عاد إلى خلوته ، وباشر حياته الزاهدة ودروسه ، وضيق الحياة ودع الدنيا عام ٣١٩ هـ = ٩٣١ م . وقد مهد الطريق لفكر فلسفى حر ، ومن بعده واصل

تلاميذه إشاعة فكره ، ونشر كتبه ، ولم يصلنا منها شيء . ولكنى فى زيارتى المتعددة للرباط عاصمة المغرب ، وجدت أن مخطوطة الجزء الخامس ، من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، ولما تنشر ، وتوجد فى خزانة القصر الملكى ، تضم نصوصاً كثيرة ، ذات فائدة قصوى فى توضيح مذهب ابن مسرة وتحديد مساره .

وفى أواخر خلافة الناصر ، أو على التحديد عام ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ، نشر فقيه قرطبى ، محمد بن يبقى بن زرب ، دحضاً لآراء ابن مسرة ، فمنحه الخليفة ، مع الزبيدى ، أبو محمد بن الحسن ، سلطات واسعة لمحاصرة فلسفة ابن مسرة . فأمر ابن زرب باعتقال كبار تلاميذه ، وأكرههم على رفض أفكارهم على ملأ من الناس ، وأمر بكتب ابن مسرة التى كانت معهم فأحرقت علانية على مرأى منهم ، أمام أبواب المسجد الجامع . وقد خفت حدة الملاحقة فى عهد الحكم الثانى ، ولكن ما إن ولى المنصور بن أبى عامر الحجابة ، وعين ابن زرب قاضيا ، حتى اشتدت الملاحقة من جديد ، وأغضى المنصور عينه عنها استجلاباً لرضى الفقهاء والعامة ؛ وكان من ضحاياها عبد الملك بن منذر ابن سعيد البلوطى ، صاحب خطة الرد ، وكان معتزلياً مثل أبيه ، القاضى والإمام والخطيب على عهد الناصر . ويبدو أن عبد الملك ، وأخويه عبدالوهاب والحكم ، حاولوا إحياء مذهب ابن مسرة وخلواته ، وكونوا فى بجانة مجموعة من المؤمنين به ، وقد حكم عليه بالإعدام والصلب . وأورد لنا ابن حزم قصة صلبه فى كتابه « الطوق » .

• الأدب :

وفى هذا القرن شاعت الأعمال الأدبية المشرقية فى الأندلس ، فقد أدخل أحمد بن محمد بن هارون البغدادى ، وجاء قرطبة يتجسس للعباسيين ، كتب ابن قتيبة ، وأدخل فرج بن سلام وكان مهتما باللغة والشعر والطب وتربطه بالجاحظ صداقة وطيدة ، كتاب « البيان والتبيين » ، ورسائل

وكتبا أخرى للجاحظ أيضا . وأدخل عثمان بن المطنة ، وكان يعمل مؤدبا لأولاد الأمراء ، وعاش فى الشرق مدة ، ديوان أبى تمام ، وكان معجبا بشعره . ويعطى كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه صورة صادقه لثقافة الأندلسيين المشرقية فى هذا العصر ، وما كانت عليه من شمول وعمق .

ولم يحدث أن اهتم خليفة بالثقافة كما اهتم بها الحكم الثانى ،وكان نفسه عالما موسوعيا ، يمضى ساعات طويلة فى مكتبته يقرأ ، وقلمه فى يده يعلق على مايقرأ ، وقلما تجد له كتابا فى خزانته ، من أى فن كان ، إلا وله فيه نظر ، يكتب فيه بخطه ؛ إما فى أوله أوآخره أوتضاعيفه، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لاتكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته ،وعنايته بهذا الفن . ومن حين لآخر يدعو العلماء والفقهاء إلى قصر الخلافة فى قرطبة ، أو إلى قصور آل مروان فى مدينة الزهراء ، وبخاصة فى سهرات رمضان ، لمطارحات ومناقشات أدبية وعلمية جادة ، تمتد فى كثير من الأحيان حتى الفجر .

وكانت مكتبة الحكم الثانى تضم ٤٠٠,٠٠٠ مجلد، وتشغل مكانا فسيحا فى قصر الخلافة ، ويحكى ابن حزم فى كتابه « جمهرة أنساب العرب » ، نقلا عن تليد الخصى ، وكان على خزانة العلوم : أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لاغير .

وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجال يوجههم إلى الآفاق باحثين عنها . ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة ، وبعث إلى أبى الفرج الأصفهانى القرشى المروانى ألف دينار عينا ذهبا ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذى ألفه فى الأغانى ، وما لأحد مثله ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق ، أو ينسخه أحد منهم .

وكانت المكتبة تسير على نظام دقيق وراق للغاية ، وتضم أقساما مختلفة ، أحدها للنسخ ، ويعمل فيه مهرة الخطاطين ، من فتيات وفتيان ، وشهرت من بينهن لبنى كاتبة الخليفة نفسه ، وكانت أديبة شاعرة ، نحوية عروضية ، رائعة الخط ، بصيرة بالحساب ، مشاركة ، ولم يكن فى قصر الخلافة أنبل منها ، على حد تعبير ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » ، وتميزت من بينهن أيضا فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله الكاتب ، المعروف بالشبلارى وكانت كاتبة جزلة ، وخطاطة ماهرة ، وعمرت طويلا ، فعاشت أربعة وتسعين عاما ؛ كتبت فيها مئات الكتب الطوال . وكان هناك قسم للمراجعة والمعارضة يراجع مآخذ الناسخون ، ويعمل فيه صفوة من علماء اللغة ، أمثال : الرباحى الجيانى ، وأبى الفضل بن هارون الصقلى ، وعباس بن عامر الصقلى ، ويشرف عليه العالم اللغوى الجليل أبو على القالى ، صاحب كتاب « الأمالى » . إلى جانب قسم للتجليد والتذهيب والزخرفة ، يعمل فيه أندلسيون ، وآخرون جاء بهم الخليفة من بغداد وصقلية .

وكان قسم النسخ لا يتوقف عن الكتابة ، ينسخ من الكتاب الجيد عشرات النسخ ، يحتفظ بها فى المكتبة للمترددين عليها ، أو يهديها الخليفة لأصفيائه ، أو لكبار العلماء والأدباء ، أو يوقفها على مكتبات المساجد ، أو على حلقات الدرس للراغبين فيها من الطلاب ، من العاجزين عن النسخ أو الشراء . وإهداء الكتب النادرة إلى الخليفة أقصر الطرق ، وأحبها ، إلى قلبه .

ولم يكن الخليفة استثناء فى هذا الاتجاه ، فنحن نعرف عدداً كبيراً من المكتبات الخاصة ، ومن هواة الكتب ، لا تبلغ قدر مكتبة الحكم ، ولكنها مكتبات كبيرة بمقياس ذلك العصر ، وكل عصر ، ولنأخذ لها مثلا مكتبة قاضى الجماعة بقرطبة ، أبى المطرف عبد الرحمن بن فطيس ، فقد جمع « من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، مع سعة الرواية والحفظ والدراية ، وكان يملى الحديث من حفظه ، فى

مسجده ، وله ستة وراقين ينسخون له دائما ، ورتب لهم على ذلك راتبا معلوما ، ومتى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه ، وبالغ فى ثمنه ، فإن قدر على ابتياعه ، وإلا انتسخه منه ورده إليه ».
وكانت عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية حسنة الخط ، تكتب المصاحف والدفاتر ، وتجمع الكتب ، وتعنى بالعلم ، ولها خزانة علم كبيرة حسنة ، ولها غنى وثروة تعينها على المروءة .

ولم يقف الأمر عند الخاصة من الناس ، فكان البسطاء أيضا يعنون بأن تكون لهم مكتباتهم فى بيوتهم ، فى ضوء ماتسمح به إمكاناتهم ، ويقدمونها على مظاهر الحياة الأخرى. ولدينا معلومات عن صاحب كتّاب يدعى ابن حزم (غير صاحبنا مؤلف طوق الحمامة طبعا) ، يعلم الأطفال فيه ، بمساعدة ابن له يقوم على الصبيان ، وابنة تقوم على الفتيات ، وما يوفره يشترى به كتبا ، وفى ساعات الفراغ يقوم على نسخها ، ورغم تواضع حاله كانت مكتبته منظمة ، فيها كتب قيمة، وأحيانا نادرة ، أتى بها فى رحلة كانت له إلى المشرق ، وتتميز بالضبط والدقة وللإفادة منها يتردد عليه العلماء والطلاب .

ولكن هواية الأندلسيين الكبرى كانت تتركز فى الأدب : والشعر منه بخاصة ، وبلغ فى هذه الفترة أوج سمته الجمالى ، وعرف هذا العصر حشدا هائلا من الشعراء ، أنشأ لهم المنصور بن أبى عامر ديوانا خاصا بهم، يسمى « ديوان الندماء » ، مهمته ترتيب الشعراء طبقات ، وبذل العطاء لهم على مستوى أقدارهم فى الشعر وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب ، ولقد صحب المنصور فى بعض غزواته أربعون شاعرا ؛ من كل طبقة ، ليسجلوا مايرون شعرا .

من طليعة الشعراء فى هذا العصر ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ — ٩٣٩ م) صاحب كتاب « العقد الفريد » ، وبهر القلوب بمدائحه ، وغزله ينبئ عن

ذوق وحساسية تفوق مافي مدائحه . وابن هانيء الإلبيري (ت ٣٦٢ ﻫ = ٩٧٢ م) وما لبث أن غادر الأندلس إلى المغرب . ومات وهو في طريقه إلى مصر ، ليلحق فيها بالمعز لدين الله الفاطمي . ويقول عنه ابن خلكان : «إنه أشهر المغاربة على الإطلاق ، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة ، وكانا متعاصرين ، أما المعري فقد شبه شعره الضخم الرائع بأنه « رحى تطحن قروناً » . وكان ابن دراج القسطلي (ت ٤٢٢ ﻫ = ١٠٣٠ م) أعظم الشعراء في قرطبة على أيام المنصور بن أبي عامر ، وكان كاتباً له ، وللحكم الثاني قبله ، وهو من أصل بربري ، ذاع صيته ، وأثنى عليه ابن حزم ، وكان واسع العلم ، قادراً على المديح ، يملك زمام الصناعة ، يجود شعره ، ويتكلف أحياناً ، فجاءت بعض أشعاره عسيرة الفهم . ويوسف بن هارون الرمادي (ت حوالي ٤١٣ ﻫ = ١٠٢٢ م) ، والرمادي ترجمة حرفية لكنيته في اللغة الرومانثية أبو جنيش ، وبها كان يدعى أيضاً ، لأن كلمة جنيش Ceniza فيها تعني الرماد ، وهو من كبار الشعراء ، ويقارن بالمتنبي أيضاً ، وكان تلميذاً لأبي علي القالي ، وجمع بين تمكنه من الشعر القديم ، ومن الأنماط الشعبية المستحدثة في وطنه ، وأعني بها الموشحات . وجمع بين رقة الشعر وخفة الظل ، وفخامة الأسلوب ، وأورد له ابن حزم في « طوق الحمامة » قصة حب رومانتيكية جميلة . واشتهر من بين الشعراء الأمراء حفيد لعبد الرحمن ، يلقب « بالطليق » ، الشريف أو الشاعر ، (ت ٤٠٠ ﻫ = ١٠٠٩ م) وبرع في مقطعات النسيب الرقيق ، وكان طليعة شعراء الأندلس في الزهريات .

وبرع من شعراء هذا العصر أيضاً أبو عامر بن شهيد (ت ٤٢٦ ﻫ = ١٠٣٥ م) ، وهو من بيت عريق ، وكان صديقاً ودوداً لابن حزم ، واحتل في العاصمة مكاناً مرموقاً بشعره الجزل ، ورسائله الفكاهية ، وتتراءى لنا في شعره ، أحياناً ، لمحات ذات وقع حديث ، وخلف لنا رسالة « التوابع والزوابع » ، وصلتنا في جانب منها ، وفيها يصور رحلة شاعر إلى الجنة ، فسبق بذلك المعري ودانتي الإيطالي في هذا الموضوع .

وكان الشعر يجرى على ألسن النساء ، وبرع نفر منهن فيه ، مثل : عائشة بنت أحمد ، وعشقت أحد أبناء المنصور وتولعت به ، ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولى ، وكانت زاهدة ورعة ، واسعة العلم بالأدب . وبينما الفتن تجتاح قرطبة ، وشمس الخلافة توشك على الغروب ، اجتاح العاصمة حديث فتاة أميرة ، تنحدر من أصلاب خليفة ، ولادة بنت المستكفى (ت ٤٨٤ هـ=١٠٩١ م) صبية وجميلة ، ذكية وشاعرة ومتمردة ، تجعل من قصرها منتدى الشعراء ، ومجمع الأدباء ، وملتقى علية القوم ، تحب وتجاهر ، وتعبر عن عواطفها فى صراحة ، ويهيم بها الوزير الشاعر ابن زيدون ، فتصله وتسعد معه ، وما تلبث أن تهجره ، وكيداً له تصل غيره ، فيندب حظ قلبه معها بقية حياته . كانت ولادة ، فيما يقول ابن بسام ، : « فى نساء زمانها واحدة أوانها ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، حسن منظر ومخبر ، وطلاوة مورد ومصدر . كان مجلسها فى قرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها ، ولكنها على سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب وطهارة أثواب » . غير أنها « لا تخلو من نزق وطيش ، فقد اطرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، لقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها » .

وقد عمرت ولادة حتى جاوزت الثمانين عاماً (ت ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) دون زواج ، مع ما كانت عليه من جمال باهر ، وعراقة نسب متصل ، ومواهب فنية عالية ، وتقف المصادر القديمة عند الظاهرة ، تقدم لمحات عنها ، دون أن تمضى بها حتى النهاية ، تفسيراً وتفصيلا . ويراها الباحثون المحدثون أمراً غير طبيعى ، فيقول عنها غرسية غومث إنها « امرأة رجلة ، بالغة الظرف والأناقة » ، ويرى أ . و . نيكل ، ومن بعده هنرى بيريس ، أن صلاتها بمهجة بنت التيان القرطبية الشاعرة كانت مريبة ، وفى القليل الذى روى من أخبارهما ما يدعم الاتهام . وإلى هذا المنحنى يذهب الأديب

العراق الأستاذ عبد الرزاق الهلالى ، ويتهمها الأستاذ على عبد العظيم بالسادية Sadism ، ويمضى وحده فى هذا الاتجاه .

ومهما يكن القول ، فإن هذه الفتاة الشاعرة المتمردة، أثرت الحياة الأدبية والاجتماعية فى قرطبة ، وأوجدت نمطاً أدبياً جديدا ، دفعت به إلى سطح الحياة ، وكان قبلها يأخذ طريقه وراء الظاهر جبانا وخفيا .

وفى مطلع هذا العصر بدأت قرطبة تتغنى بالموشحات ، ولو أن موشحات عصر الخلافة ضاعت كلها ، وضاعت معها طفولة هذا الفن الجميل الذى أبدعه الأندلسيون ، على غير احتذاء ، فى عالم الفن والشعر .

المؤرخون :

وشهد هذا العصر من المؤرخين الكبار ابن القوطية ، أبو بكر بن عمر (ت ٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م) صاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » ، ويغلب على ظن المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا ، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الإسبانية ، أن الكتاب ليس من إنشاء ابن القوطية ، ولعله أن يكون سماعاً دونه عنه بعض من كان يحضر دروسه من طلابه المولعين بالأخبار ، وكان ابن القوطية نحوياً أيضاً ، وكتابه فى تصريف الأفعال أول كتاب وصلنا فى الموضوع . وكان عريب بن سعد (ت ٣٦٩ هـ = ٩٨٠ م) قرطبيا من أصل نصرانى ، أسلم آباؤه ، وتلقى تعليما طبياً ، واتخذه الحكم الثانى كاتباً له ، وقد اختصر تاريخ الطبرى ، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس ، وكان إلى جانب اشتغاله بالتاريخ طبيباً .

وأعظم مؤرخى هذا العصر على الإطلاق أبو مروان حيان بن خلف القرطبى ، ويلقب بابن حيان (ت ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦م) ، ومؤلفاته لا تقل عن خمسين مؤلفاً ، وأحدهما ويسمى « المتين » فى ستين مجلدا ، ولسوء الحظ لم يصلنا من مؤلفاته هذه إلا أجزاء متناثرة من كتابه « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » .

ويقول عنه المستشرق الهولندى رينهارت دوزى : « يمتدح العرب في كتب ابن حيان صدق الرواية بقدر ما يعجبون بجزالة لغته ، ورنين عباراته ؛ وأنا أؤيدهم فى هذا كل التأييد ، ولا أتردد فى القول بأن كتبه لو بقيت لألقت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرة ، ولصورته لنا أحسن تصوير ، ولوجدنا أنها تبلغ من الروعة مبلغا يجعلنا نستغنى بها عن غيرها من الكتب التى تتناول تاريخ هذه العصور . إن ابن حيان سيال الأسلوب ، ومع ذلك لا يتعثر فى الإطناب والقعقعة اللفظية ، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التى لا تنتهى . إنه ليسرق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ، ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقدة كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع ، لا يهبط إلى الركاكة التى تثير السخط ، ولا يقع فى التفصح والإسراف فى قعاقع الألفاظ ، ورغم التزامه السهولة لا يهمل جانب الجمال فى أسلوبه ، ويبعث فى كلامه دائما حماسة وغنى وطابعاً غالباً من الجد . نعم ، إنه يلجأ فى بعض الأحيان إلى التشبيهات وضرب الأمثلة . ولكنه — رغم امتيازه بفصاحة القدماء — لا يولع بما أولع به معاصروه . ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد من بين مؤرخى العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من نقدمه عليه » .

وانصرف عدد من المؤرخين إلى كتابة السير ، ووضع المعاجم فى طبقة معينة من الرجال ، وأول من نلقى منهم : الخشنى ، أبو عبد الله محمد بن الحارث (ت ٣٦١ هـ = ٩٧١ م) ، وهو قيروانى قدم الأندلس ؛ وولاه الحكم الثانى خطة المواريث فى بجانة ، وبعد وفاته استقر فى قرطبة يعيش على بيع العطارة ؛ وألف كتبا كثيرة عن الفقهاء والمحدثين ، واشتهر بكتابه « تاريخ قضاة قرطبة » ، وألفه فيما يبدو بإيحاء من الحكم نفسه ، ونشره خوليان ريبيرا لأول مرة فى مدريد عام ١٩١٤ م ، وترجمه إلى الإسبانية ، ويضم من الفوائد ما يجعله أهم مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية فى الأندلس ، وقد كتبه وتحت يده مادة طيبة من الوثائق المحفوظة فى دار الخلافة ، وسجلات

القضاة ، والأوراق الخاصة لبعض الأفراد . وأهم من ذلك كله ما أخذه من الروايات والأخبار التى كان الناس يتناقلونها : منها ما يحكى فى قصر الخلافة وبيوت السروات ، ومنها ما يتناقله الجمهور والقصاص فى طرقات قرطبة وأرباضها وأحيائها التى يحتشد فيها أصاغر الناس . وبعضها أخذه من أفواه أهل الأدب والدين والعلماء والفقهاء مما كان يجرى فى حلقات دروسهم ، وبعضها الآخر اختلقه نفر من الساخطين على النظام السياسى والاجتماعى القائم ، ومنها ما هو صدى لما كان يتحدث به أولئك المولعون بنقد رجال الدين والأتقياء ، ومنها ما هو ترجمة عربية لروايات كان الناس يتناقلونها فى لغتهم العجمية أو العامية الدارجة أو صياغة جديدة لها . كل هذه العناصر تتجمع وتتألف منها مادة الكتاب دون أن يضيف إليها المؤلف من عنده إلا قليلا . إنه كتاب يضعنا فى قلب قرطبة القرن العاشر ، وأخباره مصوغة فى قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب الأدب أو التاريخ . وهو يحدثنا عن أشياء تافهة ، ويصور لنا مشاهد مبتذلة ، لا جلال فيها ، ولا صلة تربطها بغيرها ، وهذه الروايات المرسلة على عوهنها تعين على دراسة المظاهر الاجتماعية ، مما لا يذكره أو يعنى به غير هذا الكتاب .

ومنهم ابن الفرضى ، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م) ، من أهل قرطبة ، وكان فقيهاً ومحدثاً وخطيباً وشاعراً ، وجماعاً للكتب ، ودرس فى القيروان والقاهرة ومكة والمدينة ، وعرض له ابن حزم فى « طوق الحمامة » واستشهد فى داره على يد البربر ، عندما اقتحموا قرطبة وانتهبوها ، ولم يعثر على جثته إلا بعد أربعة أيام ، وقد تحللت وتعفنت ، فوورى التراب دون أن يغسل أو يكفن . وضاع بعض ما ألفه مثل كتابه : « تاريخ شعراء الأندلس » ، وبقى لنا منها كتابه الذائع الصيت : « تاريخ علماء الأندلس » .

• العلوم :

ولقيت الدراسات الفلكية فى النصف الثانى من القرن العاشر عناية تامة ، وكان فلكيو الأندلس ، مثل نظرائهم فى المشرق ، يؤمنون بتأثير النجوم ،

واعتبارها سببا فيما يحدث من شئون هامة بين الميلاد والموت على سطح الأرض، وكان الفلك يستخدم فى تحديد قبلات المساجد ، وتعيين مواقيت الصلاة على امتداد العام ، والاستيثاق من مواعيد الأهلة ، ولم يكن مسموحا بالتنبؤ وقراءة الطالع ، ومع ذلك كانت الجماهير ، من وراء ظهر الدولة ؛ تقبل على أدعياء الفلك ، من المنجمين والعرافين ومن يستخرجون الفأل ، والمتنبئين والسحرة وصناع الأحجبة . وكان الفلكيون يعملون فى الكيمياء أيضا ، وقد ازدهرت دراسة الفلك على يد مسلمة المجريطى (ت ٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م) ، تحت رعاية الحكم الثانى ، وعرض له ابن حزم فى «طوق الحمامة» ، وإلى جانب الفلك كان أستاذاً فى العلوم الرياضية ، ومن بينها فن مساحة السطوح ، وإليه يعود الفضل فى إدخال «رسائل إخوان الصفاء» إلى الأندلس .

وأزهر علم الطب فى قرطبة إزهارا عظيما ، وفى منتصف القرن العاشر الميلادى أرسل إمبراطور بيزنطة ، قسطنطين السابع ، سفارة إلى عبد الرحمن الناصر ، كان بين ما حملته من الهدايا نسخة مكتوبة بالإغريقية من كتاب ديوسقوريدس Dioscorides فى الطب ، ولم يكن فى قرطبة من يعرف الإغريقية ، فسأل الناصر الإمبراطور أن يبعث إليه واحداً من العارفين بها وباللاتينية ، فأرسل إليه الراهب نيقولا لكى يقوم بتحديد أنواع النباتات الواردة فى الكتاب ، وأنجز ذلك العمل بمعاونة لجنة بينها : حسداى بن شبروط ، الذائع الصيت ، وأبى عبد الله الصقلى ، وكان عارفاً باليونانية ويتحدث بها ، وله إلمام بتركيب العقاقير ، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم ، ومحمد بن الكتانى ، وعلى رأسهم أبو القاسم الزهراوى ، وعدد آخر من الأطباء وعلماء النباتات وكان لمعرفة الأندلسيين بهذا الكتاب أثر حاسم فى تطور دراسات الطب والنبات ، وتميز الذين عملوا فى ترجمة الكتاب كأطباء فيما بعد ، فى بلاط الحكم الثانى ، والمنصور بن أبى عامر .

وأعظم أطباء ذلك العصر ، من غير شك ، أبو القاسم خلف الزهراوى ،

نسبة إلى مدينة الزهراء الشهيرة فى قرطبة ، ويعرف فى اللاتينية باسم Abulcasis (ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م) ، وطار ذكره شرقاً وغرباً بالبراعة فى الجراحة ، وتعتمد شهرته على مؤلفه المسمى : «التصريف لمن عجز عن التأليف» ، أى العون لمن ليست له قدرة على استيعاب المؤلفات الضخمة ، ولخص فى القسم الأخير منه المعلومات الجراحية التى كانت سائدة فى عصره ، واهتم المؤلف بالآراء الخاصة بكى الجروح ، وتفتيت « الحصوة » فى داخل المثانة ، وأهمية التشريح والفحص الدقيق . وكان هذا الجزء ، ونشر فى اللاتينية باسم الجراحة ، فى البندقية عام ١٤٩٧ ، وفى بال عام ١٥٤١ ، وفى اكسفورد عام ١٧٧٨ ، أهم وأذيع كتاب فى تاريخ الطب كله ، وارتفع به الزهراوى فى أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالينوس . وهو أول مؤلف جعل الجراحة علماً قائماً بذاته ، مستقلا عن الطب ، وأقامها على أساس من العلم بالتشريح ، وتضمن رسوماً للآلات الجراحية التى كان يستعملها العرب ، أو نقلوها عن غيرهم .

* * *

فى هذا الجو من الحضارة المصقولة ، والثقافة المزدهرة ، ولد ابن حزم ونشأ ، وتفاعل معها ، غلاما يافعاً ، وصبيا دارسا ، وشاباً قلقاً ، ورجلا يعمل بكل ما أتيح له لكى يوقف انحدار الخلافة وتلاشيها !

شاهد عصر

لا أحد يختار اللحظة التي يولد فيها ! .

وقدر لابن حزم أن يجيء إلى الحياة فى أشد لحظات الأندلس قساوة ومأساة وحسما . شهدشمس الخلافة تنحدر نحو المغيب ،وقاوم مااستطاع لكى يبقى عليها ، ورآها تتناثر مزعا ، وتقوم على أنقاضها دويلات صغيرة ، يحكمها أمراء صغار ، سوف يدخلون التاريخ تحت اسم : « ملوك الطوائف ». وعاصر فوضى هؤلاء الملوك وصغارهم ، ورأى دولهم تنتحر فى بطء ، وتسرع نحو الهاوية فى بلادة . وعبثا نجد جوابا لسؤال يتردد فى الخاطر أحيانا : ماذا لو عاش ابن حزم فى غير هذه الأعوام ، لوجاء قبلها بقرن ، أو تأخر به القدوم بعدها بزمن ؟ . المؤكد أن حياته وسط هذه الأحداث شاهدا ، ومشاركته فيها مؤثرا ، جعلت منه قمة الفكر الإنسانى فى مطلع القرن الحادى عشر ، فى الشرق والغرب ، فى العالمين الإسلامى والمسيحى على السواء . كان سياسياً ورجل دولة ، شاعراً وكاتباً ومؤرخاً ، مفكراً وفيلسوفاً ، وفقيهاً جدلا لدد الخصومة ، عنيف الحوار .

ولن أمضى مع حياة ابن حزم تفصيلا ، لقد درسها فى عمق ورزانة وتأن المستشرق الإسبانى ، العالم الفيلسوف ميجيل أسين بلاثيوس ، فى كتابه : « ابن حزم القرطبى » ، وقد أنهيت نقله إلى العربية ، وسأدفع به إلى المطبعة قريبا ، وفيه الغناء ، كل الغناء ، لمن يطلب المزيد . وسأكتفى هنا بالملامح البارزة ، التى تعيننا على فهم إبداع ومحتوى وإشارات « طوق الحمامة » ، وكان مقدرا لهذا الكتاب أن يكون مقدمة له .

- أسرة من المولدين :

ينحدر ابن حزم من أصول ليست واضحة تماما ، وأشدها احتمالا ،

وهو أمر غير مؤكد ، أنه ينتسب فى أسرة من المولدين ، أى أنه ينحدر أصلا من الأجناس التى وجدها المسلمون لحظة الفتح . ولا يمكن الجزم بأصول هذه الأسرة ، هل هى لاتينية أوقوطية ، أو من بقية الأجناس التى مرت بشبه الجزيرة واستقرت فيها من الأفارقة والفينيقيين والسلتيين . ولا يمكن الجزم كذلك بالديانة التى كان عليها أسلافه ، أهى الكاثوليكية أم ديانات أخرى ، أم الوثنية ، وكان لها عباد فى القرى النائية لحظة الفتح الإسلامى . وخارج عن العلمية — طبعا — أن يقال : إنه كان إسبانيا ، بالمعنى العلمى أو القومى للمصطلح فى عصرنا الحديث ، فالقومية الإسبانية لا يمكن أن نذهب بها ، فى أشد الاحتمالات ، إلى أبعد من أخريات القرن الثالث عشر .

وليس للأسرة تاريخ عريق فى الإسلام ، فلم تكن مع السابقين إليه لحظة الفتح ، أو ماتلاها من أعوام . كانت كملايين آخرين ، من صغار الفلاحين فى القرى النائية ، تمضى حياتها هينة متثائبة ، بلا آلام ولا أحلام ولا أمجاد : تعيش من الزراعة ، على أرض لها ، فى ضيعة صغيرة ، كانت تسمى على أيام ابن حزم منت لشم Mont lisam ، وأخذت فى الإسبانية المعاصرة صورة منتيخر Montijar ، أو بدون الراء الأخيرة ، فى مقاطعة ولبة Huelva ، جنوب غربى الأندلس .

ولم تكن الحياة فى هذه المنطقة سهلة ولا ميسرة ، ولا تزال حتى يومنا ، محدودة الموارد فى الزراعة ، قليلة الصناعة ، لا يكاد إنتاجها من الحبوب يكفى فلاحيها ، على حين تزداد العاصمة قرطبة ثراء وتقدما ، وتصبح الحياة فيها أمنية ، تستهوى عامة الناس وبسطائهم ، وتداعب آمال كل طامح ، وبخاصة أحلام أسرة ترغب ، وتعمل جاهدة ، فى تحسين واقعها الاقتصادى ، فترك سعيد ، جد ابن حزم صاحبنا ، ولبة حيث يقيم ، وجاء إلى العاصمة .

ولا نملك معلومات وافية عن حياة سعيد فى قرطبة ، والقليل الذى وصلنا منها غامض ومتناقض ، ولدينا أخبار وفيرة عن ابنه أحمد ، والد أبى محمد على موضع درسنا .

كان أحمد ، فيما يبدو ، فطناً ودودا ، مثقفا أديباً ، مستقيما عاقلا ، مقتصداً وماهراً في شئون المال ، بارعاً في مواجهة المواقف السياسية المتناقضة ، ذا طموح يقظ ، قادراً على كبح جماحه عند الضرورة ، مسالماً دائما ، ومسلحاً بكل هذه الصفات بدأ يشق طريقه ليكون له في مناصب الدولة نصيب . وفي هذا الوقت كانت منتديات قرطبة تتهامس حديث نجم يمضي صعدا بلا توقف ، فتى من أبناء الأقاليم يدعى المنصور بن أبي عامر . كان مثل سعيد ابن حزم ريفيا ، هبط قرطبة ذات يوم ، ضائعاً مغموراً يبحث عن المجد ، ويؤمل أن يلقاه في عاصمة الغرب الإسلامي . ولكنه على العكس من سعيد ، ينتمي في أسرة عربية عريقة ، ولو أن معلوماتنا أيضا عن أيامه الأولى قليلة وغامضة .

ولم يكن المنصور فرداً في طموحه وصعوده ، كثيرون كانوا يرقبونه ، وعلى نية أن يتبعوه ، وقد بدأ دم جديد يتدفق في شرايين الدولة ، فأتى على الأسوار العالية ، التي أقامها أبناء البيوتات العريقة ، وكانت المناصب الكبرى وقفاً عليهم ، سنة جارية ، وتقليداً محترماً . وهكذا وجد أحمد طريقه إلى مناصب الدولة ، ربما لأنه كان مولى لبني أمية ، وهذه تحسب له ، وأكيداً لأنه أشاع الثقة فيمن حوله ، بقدرته وحنكته ، ومع البداية واصل سيره قدما ، ونجهل خطواته الأولى ، ولابد أنه كان ذا دهاء سياسي رفيع ، ليظل وفيا لهشام المؤيد الخليفة ، وموضع ثقته ورعايته ، دون أن يثير في أعماق المنصور ، وكان الحاكم الفعلي أو في طريقه ليصبح كذلك ، روح الشك والخوف ، بل حاول المنصور أن يربحه ، وأن يضمه إلى جماعته .

وقد ترك أحمد منزله ، لأول مرة ، في بلاط مغيث ، في الجانب الغربي من قرطبة ، إلى « منية المغيرة » في الجانب الشرقي من المدينة ، مكان قريب من الزاهرة ، المدينة التي بناها المنصور لتكون مقراً لحكمه ، وعظمت فيه ثقة المنصور ، فجعل منه وزيره ، يقول ابن الأبار في كتابه « إعتاب

الكتاب » ، نقلا عن ابن حيان : إن المنصور « استوزره قبل سائر أصحابه ، فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (= ٩٩١ م) فى خلافة هشام المؤيد بالأندلس واستخلفه أوقات مغيبه على المملكة ، وصير فى يده خاتمه » .

تلك هى الأسرة التى ولد بينها ابن حزم ، أسرة ثرية من طبقة الخاصة الوليدة ، طبقة كبار الموظفين ، تعيش فى ترف ورفاهية ، وفى مستوى حياة أعلى طبقات المجتمع القرطبى ، ويضغط عليها طيات النفس أمران غير ظاهرين : تواضع الأصل ، ولا إسلامية السلف ؛ وكان عليها أن تتحرر منه ، وأن تتغلب عليه ، وفى أشجار النسب متسع ، وهو طريق سلكه قبلهم ، ومن بعد ، آخرون كثيرون . والأمر الثانى : الولاء الموزع بين هشام المؤيد ولى نعمته ، والمنصور راعيه .

● طفولة بين الحريم :

ولد أبو محمد ، على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، فى قرطبة ، صبيحة الأربعاء آخر يوم من رمضان عام ٣٨٤ هـ = ٧ من نوفمبر ٩٩٤ م . وطبقاً لما يرويه ابن حزم نفسه ، فى مواضع مختلفة من كتابه « طوق الحمامة » ، صريحاً أحياناً ، ومواربا أحياناً أخرى ، نعرف أنه أمضى طفولة رخية وضعيفة وكسولة ، طفولة ابن وزير ، يشب فى أبهاء القصر ، وتحت رعاية الخدم ، وبين مناغاة النساء ، من القيان والجوارى والإماء ، على أيديهن نشأ ، ومعهن تربى ؛ ولم يعرف غيرهن من الرجال حتى حد الشباب ، وكن حاضناته وأستاذاته ، علمنه القرآن ، وروينه الشعر ، ودربنه فى الخط ، ومنهن تعلم أشياء أخرى ليست أقل نفعاً ، ولكنها مؤذية فى سن الطفولة . لقد أظهرنه فى سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية ، ومناورات القصور ، وحيل النساء . فنشأ صبيا سريع التأثر ، كثير المرض ، ملحوظ العصبية ، متوقد الذكاء ، مطبوعاً على الغيرة ، سيئ الظن بالمرأة وقد خبرها عن قرب ، وأشرف من أسبابها على غير قليل .

أقصى ماعرف من العالم في صباه شوارع « منية المغيرة » ، حتى كبار موظفي البلاط ، الملاصق لقصر الزاهرة ، في نزهات أغلب الظن أنها لم تكن طويلة ، ولم يكن فيها وحيدا ، وربما قادته قدماه إلى قصر المنصور نفسه ، وكان ابن أبي عامر ودوداً جداً مع الأطفال ، يهش لرؤيتهم ويسعد بمحضرهم.
ولم يشر ابن حزم إلى شيء من هذا في مؤلفاته ، ولكن صديقه وتوأم روحه ، أبو عامر بن شهيد ، قص علينا بعض ماحدث له ، في رسالة جميلة ، كتبها فيما بعد رجلا ، إلى المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، وقد أصبح أمير بلنسية ، وأورد لنا ابن بسام فقرات طوالا منها في كتابه « الذخيرة » :
يتحدث ابن شهيد عن صلته بالمنصور طفلا فيقول : « إني نشأت في حجره ، وربيت في قصره ، وارتضعت ثدي كرائمه ، واعتجرت رداء مكارمه ، واغتذيت من فيه ، أكلا زقنيه ، وماء علنيه ، فصرت أفراخ نعمائه الحمر الحواصل ، ولحقت بأخوة أبنائه الغر العباهل » .

وكان ابن شهيد ندا لابن حزم ، ويكبره بعامين فحسب ، وينتمي في أسرة عربية عريقة ، وكان أبواهما موظفين كبيرين ، وزيرين في قصر الحجابة ، وعلى نفس المسافة من المنصور ، فليس مجازفة إذن أن نتصور أن ابن حزم ، كابن شهيد ، كان يتردد على قصر الحجابة ، ويحظى بحنان المنصور ، والطريق إليه أيسر من الوصول إلى الخليفة الوقور المحتضر ، وقد دفنه المنصور حياً .

● ثوار وعباد جمال :

في عام ٣٩٢ هـ = ١٠٠٢ م ، تحققت رغبة المنصور العظيم ، أن يموت في ساحة الوغى ، وأن يلقى الله مجاهدا ، أثناء عودته من حملة قام بها على قشتالة ، وهي الحملة الخمسون من حملاته العسكرية ، وطبقاً لوصيته دفن حيث لفظ نفسه الأخير ، في مدينة سالم ، ومعه الغبار الذي تجمع على درعه أثناء حملاته المتعددة ، وكان يحتفظ به لهذا الغرض ؛ وعلى قبره هذا الشاهد :

آثاره تنبيك عن أخباره | حتى كأنك بالعيان تراه
تا الله لا يأتي الزمان بمثله | أبداً ولا يحمي الثغور سواه

وتولى الحجابة بعده ابنه عبد الملك المظفر ، ومعه أملت الأندلس خيراً كثيراً ، وبخاصة فى أيامه الأولى ، وكان ابن حزم فى الثامنة من عمره ، يطل على العالم قلقا ، ويشق طريقه إلى الحياة فى خطى محسوبة ، وتعكس مواقفه نضجاً مبكرا . فى بيتهم بدأ غرامياته الأولى مع جواريهم ، وقرأ أوليات المعارف من فقه ولغة وأدب ، ولقى كبار الأساتذة فى قرطبة ، يجيئون إليه أو يذهب إليهم ، أساتذة يمثلون كل الأفكار ، من أشد الناس ورعاً وتصوفاً وزهدا ، إلى أكثرهم جرأة وتحرراً وتمرداً . وخلال ذلك بدأ ينمى صداقاته ، مع صبيان وفتيان من سنه ، صداقات عمرت طويلا ، وأخذ بعضها شكلا حميا .

وفى الثانية عشرة من عمره ، فى عيد الفطر لعام ٣٩٦ ﻫ ، نلتقى به فى مجلس الحاجب المظفر ، يشارك فى سماع المهنئين من الشعراء بالعيد ، ولا يقف به الأمر عند هذه المجالس الرسمية ، وإنما يتجاوزها إلى الحرم نفسه ، فهو يحدثنا فى « الطوق » أن ضمنا العامرية ، كريمة المظفر ، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتاً من الشعر ، اقترحت عليه أفكارها ، لتصنع لها لحنا ، وتجعل منها صوتا يغنى .

ولم يتجه ابن حزم إلى دراسة الفقه جاداً ومتمكناً إلا شاباً مكتملا ، فى السادسة والعشرين من عمره ، على ما يقول هو ، حين أخطأ فى صلاة الجنازة على شخصية هامة ؛ فكان موضع سخرية الحاضرين . وقد شك غرسية غومث فى الخبر ، ورآه لوناً من المداعبة ، لأن ابن حزم يجب أن يكون قد درس الفقه وعلم الكلام مبكرا ، ولا أرى تناقضاً بين الأمرين ، لأن الدراسة النظرية لا تعنى عدم الخطأ ، لأن العبادات العملية — وصلاة الجنازة ليست مما يصلى كل يوم أو حتى كل شهر — تلعب فيها الممارسة دوراً أكبر من القراءة والدرس ، وإشارة ابن حزم إلى أنه بدأ دراسة الفقه لا تعنى أكثر من أنه راجع ما قرأ ، وتعمق فيما درس ، واستحضر ما كان غائباً من تفصيلات .

وأياً ما كان الأمر ، فقد اختار ابن حزم فى هذه الفترة المبكرة من شبابه ، أن يكون واحداً فى رفقة من الأصفياء ، ربطت بينهم صداقة وطيدة ، أقلية من العشاق المصقولين ، تنتمى إلى أعلى طبقة فى المجتمع القرطبي ، عرض ابن حزم لبعضهم فى « طوق الحمامة » ، وأثنى عليهم كثيرا ، يتميزون بالأناقة ، ويرتدون أفخم الثياب ، فى أحدث الأنماط ، يفتنهم الجمال ، وتستهويهم الطبيعة ، تطربهم الموسيقى ، ويفضلون الأدب ، ويتبعون فيه منهجا ثوريا . كان هؤلاء الفتية ، كما تخيلهم غرسية غومث ، « يرتدون ملابس بيضاء ، ويحاورون بين أروقة بيضاء ، يغرمون بالأوز ، ويعشقون النساء الشقراوات » .

كان هؤلاء الفتية من الخاصة فى قرطبة يقفون عند نماذج الأدب المشرقى ، يعرفونها ، ثم يطرحونها ، ويحاولون أن يرتفعوا إلى مستواها . كانوا باختصار يقرأون كثيرا ، ويتمثلون ما يقرأون ، ويرحلون عبر العالم واقعاً أو قراءة ، ثم يبدعون أخيرا . لقد التزموا منهجاً وسطاً ، ينأى عن التحلل الهابط ، ويتجاوز التقليد المميت ، ويزاوج بين حداثة الفكرة ، ودقة الصياغة ، وحرية الاختيار ، وهى القواعد التى جعلت منها الخلافة طابع المجتمع فى قرطبة . وكان الأدب الجديد يطمح أن يكون فى مستوى الحياة ، ومواثماً للتطور السياسى حوله ، وكما يحدث عادة ، جاء ذلك متأخرا . وحين تهاوى نظام الخلافة بغتة ، أطبق على هذا الأدب بين خرائبه ، ولما يعطى إلا قليلا جداً من ثماره . ثمار مبكرة ، وكثرتها غير ناضجة ، ولكنها شهية من الطراز الأول .

كان أبو عامر بن شهيد رأس هذه الجماعة ، مواضعة وعرفا ، وترك لنا فى رسالته « التوابع والزوابع » ، وهى أول رحلة علمانية فى التاريخ إلى عالم الآخرة ، ما يمكن أن نعده دستور الجماعة . لقد صحب الكاتب شيطانه إلى عالم الأرواح ، والتقى هناك بشياطين كبار الشعراء ، جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وبعض الكتاب ، فأنشدوه أشعاراً لأصحابهم ،

وأسمعهم شيئاً من شعره . وعرض على توابع الكتاب بعضاً من رسائله . وخلال الرحلة ينقد مجتمعه وما يفتقده فيه . ويعرض آماله . وما يطمح أن يكون عليه .

فهو يأسى لقرطبة تتحدث لكنة أعجمية ، تؤدى بها المعانى تأدية الخرس والنبط . ليس لسيبويه فى كلامها عمل ولا للخليل إليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة ، ويشكو قوماً من المعلمين فى العاصمة ، « ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غلاظ ، وقلوب كقلوب البعران . ويرجعون إلى فطن حمئة . وأذهان صدئة ، لا منفذ لها فى شعاع الرقة ، ولا مدب لها فى أنوار البيان . سقطت إليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليمانى من الرقص على الإيقاع ، والزمر على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها فيما يجرى عندهم تصريف من لم يرزق آلة الفهم ، ومن لم تكن له آلة الصناعة » . ويكتب أبياتاً ينافس بها الشعراء المشارقة ؛ ويؤكد أن الأدب الجيد يعتمد على الموهبة ، قبل أن يقوم على سعة الثقافة ، أومراعاة قواعد النحو . وآن « أول أدوات الكاتب العقل ، ولا يكون الكاتب غير عاقل » . ويعنى بالعقل الذكاء فى لغتنا المعاصرة . والأدب هبة من الله ، لا يعلمه أستاذ . ولا يلتقط من كتاب . والشاعر يولد ولا يصنع ، وشر الفن ما كان وسطا ، « لا يحسن فيطرب ، ولا أيسىء فيلهى » . وهى قاعدة جريئة فى الأدب العربى ، وليس دونها جرأة فى تلك الأيام ما رآه ، من أن « لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم نوع من الخطاب ، وضرب من البلاغة ، لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه » .

وتوفى ابن شهيد ، عام ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م ، إثر داء عضال ، عانى مرارته زمنا ، وتحمل عناءه صابرا ، وخلفه ابن حزم فى رئاستها ، وكان له دائماً صديقاً وفياً و مخلصا ، فسار على النهج نفسه ، واحترم تقاليد الجماعة وأسلوبها :

• أزمة الخلافة :

قبل أن تعطى هذه المدرسة الأدبية ثمارها ، أو إذا شئنا الدقة قبل أن يخط ابن حزم أى كتاب مهم له ، إذا استثنينا المقطعات الشعرية وبعض الرسائل الأدبية ، وقبل أن يتولى أية وظيفة سياسية فى مستوى تكوينه وطبقته الاجتماعية ، تفجرت الحرب الأهلية فى قرطبة ، وعكرت بعنف صفو الحياة المصقولة ، والهادئة ، لهؤلاء الشبان القرطبيين من عشاق الفن والجمال ، وسوف أدرس هذه « الفتنة » وما كان لها من نتائج بالغة السوء فى فصل خاص ، ويكفى أن أشير هنا لماما ، وفى إيجاز شديد إلى ما أحدثته فى أسرة ابن حزم . وفى حياته نفسه ، ليبقى خيط الأحداث متصلا .

لقد توفى العامرى الثانى ، الحاجب عبد الملك المظفر ، فى ١٦ من صفر ٣٩٩ هـ = ٢٠ من أكتوبر ١٠٠٨ م ، فولى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول . وكان مجرداً من المواهب . فاغتيل فى قرطبة بعد شهور من توليه الحجابة ، فى ٣ من رجب ٣٩٩ هـ = ٣ من مارس ١٠٠٩ م ، وعـزل هشام الثانى عن الخلافة ، وبويع بها محمد المهدى . وأعفى أحمد بن سعيد من مناصبه ، وترك « منية المغيرة » حى كبار موظفى البلاط ، قرب ربض الزاهرة ، وقد أتى عليه الثائرون هدماً وتخريبا ، وعاد إلى سكنهم القديم فى بلاط مغيث ، ليواصل الحياة هادئا ، وبعيداً عن صخب السياسة ، واستطاع أن يحتفظ ببعض ماله من هيبة ، وسنلتقى به فى العام نفسه ، فى ٢٧ من شعبان ٣٩٩ هـ = ٢٦ من أبريل ١٠٠٩ م يشهد المسرحية الرائعة المحزنة ، لدفن هشام الثانى ، المزيف طبعا ! وكان معه ابنه على صاحبنا ، وترك لنا وصفاً صادقاً ومؤثراً لما حدث ، يقول فى سياق كلام له عن صلب المسيح وقتله : « وقد شاهدنا نحن مثل ذلك ، وذلك أننا ندر أنا للجبل ، لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر ، فرأيت أنا وغيرى نعشاً فيه شخص مكفن ، وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ، ومن عدول القضاة ، فى بيت ، وخارج البيت أبى

رحمه الله، وجماعة عظماء البلد، ثم صلينا فى ألوف من الناس عليه ، ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيا ، وبويع بعد ذلك بالخلافة ، ودخلت عليه أنا وغيرى ، وجلست بين يديه ، ورأيته ، وبقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام » .

وفى ١٠ من ذى الحجة ٤٠٠ هـ = ٢٣ من يولية ١٠١٠ م ، اغتيل المهدى بعد خلافته الثانية ، وبويع ثانية هشام الثانى ، بعد أن قيل للناس أنه مات ودفن ، وبعد أن شهدوا جنازته وصلوا عليه ! ، وكان الظن أن يعود بنو حزم إلى سابق عهدهم ، ومكانتهم القديمة ، غير أن الأمور سارت على النقيض . لأن لعبة السياسة المعقدة ، والموقف الحذر الذى سار عليه أحمد بن سعيد ، حتى ذلك الحين ، جعله يصطدم مع القائد الصقلبى واضح ؛ محسوب الخليفة ، فلاحقه وسجنه وصادر أمواله . وحينئذ رأت الأسرة ، وقد تمزقت بقايا العامريين ، أن لها الحق ، مع غيرها ، فى أن تغضب وأن تقاوم ، فاشتركت فى عمل لمناهضة الصقالبة ، ولكن المؤامرة فشلت ، وجلبت على أحمد بن سعيد مصائب كبيرة .

ومع هذه الفتن اجتاح الطاعون قرطبة ، وعاث فيها ، وفقد أحمد ابنه أبا بكر ضحية له ، فى شهر ذى القعدة عام ٤٠١هـ = يونية ١٠١١م ، وبعد عام كامل توفى أحمد نفسه صريع هذه الأحداث ، فى ٢٨ من ذى القعدة ٤٠٢ هـ = ٢٣ من يونية ١٠١٢ م ، ولعلى صاحبنا ١٨ عاما لما تكمل ، وكان عليه وهو فى هذه السن الطرية ، وفى عنفوان تعاسة أسرته ، أن يواجه الموقف ، وأن يدير دفة الأحداث .

وبقيت كوارث أخرى أشد هولا ، ففى نهاية شهر شوال ٤٠٣ هـ = مايو ١٠١٣ م ، استسلمت عاصمة الخلافة للبربر ، ودخلها سليمان المستعين خليفة للمرة الثانية ، وليبقى شهرين فحسب ، ومعه نهبت قرطبة فى قسوة ، وانتهكت الحرم ، وعمت الاغتيالات والمذابح ، واجتاح التدمير ، بلا حساب ، كل الأحياء ، وأتى البربر على بيت ابن حزم فى بلاط مغيث كاملا ، على نحو

ما قص علينا فى صفحة من النثر الجميل ، فى كتابه « طوق الحمامة » ، وكان على ابن حزم أن يهاجر إلى المرية فى ١ من محرم سنة ٤٠٤ هـ = ١٣ من يولية سنة ١٠١٣ م :

● منفى ومتآمر :

فى وسط هذه الدوامة من الفوضى والتمزق ، كان يحكم المرية خيران ، صقلبى من فتيان العامريين . ووجهها ابن حزم رفقة صديقه أبى بكر محمد ابن إسحاق ، وأمضيا فى البدء أياماً هادئة ، بعيدين عن القلاقل ، فالمدينة أموية الولاء ، لما تزل — اسمياً — تحت سيادة الخليفة ، وأصبحت قبلة العامريين والأمويين الفارين من قرطبة . وأمضى فيها ابن حزم أعواماً ثلاثة لم يتوقف عن تحصيل المعرفة ، وعن تكوين صداقات جديدة ، ففيها كما يحدثنا فى « الطوق » اتصل بطبيب يهودى ، يدعى اسماعيل بن يونس ، يتردد على دكانه ، ويجلس إليه فى لمة من الأصحاب ، ولسوء الحظ فإن معلوماتنا عن هذا الطبيب معدومة ، لا نعرف عنه شيئا إلا إشارة ابن حزم هذه .

ولكن خيران ما لبث أن رأى مستقبله السياسى فى أن يتخلى عن الولاء لبنى أمية ، وأن يؤازر على بن حمود الإدريسى فى الاستيلاء على قرطبة ، فدخلها فى زفة فى ٢٢ من محرم ٤٠٧ هـ = ١ من يولية ١٠١٦ م . وأصبحت المرية مدينة علوية لا أموية ، وبربرية لا صقلبية ، ولم يعد خيران ينظر بعين الرضا إلى هذين الشابين الرفيقين المثقفين ، يؤمنان بحق بنى أمية فى الخلافة ، حفاظا على الشرعية ، وتمكينا لهيبة الدولة ، ولا يقبلان هذا مساومة ، فاعتقلهما بتهمة التآمر ، وهى تهمة ربما كانت محتملة ، ولو أن ابن حزم أنكرها على أية حال . وما لبث أن نفاهما .

ومنفيان فى حصن القصر Aznalcazar ، قرية توجد فى مقاطعة مالقة ، أو مرسية ، غير التى تحمل الاسم نفسه الآن قريبا من سانلوكر San Lucar سمعا من يتحدث عن ثورة قام بها أموى يطالب بالخلافة ، فى أرض بلنسية

شرق الأندلس، وأنه أعد جيشاً سوف يزحف به على قرطبة لملاقاة بنى حمود، ليجمع الشمل، ويعيد الخلافة، ويوحد الدولة، فلم يتردد الحظة، ابن حزم وصاحبه أبو إسحاق، وكانا فى ميعة الشباب، من التوجه شرقا إلى بلنسية فى أول سفينة يجدان بها مكانا.

كان المطالب بالخلافة فى هذه المرة شاباً من أحفاد عبدالرحمن الناصر، يدعى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك، اكتشفه وحرضه على الثورة خيران الصقلبى صاحب المرية، بعد أن نسى أمسه وغير جلده، وأصبح رسوله إلى منذر التجيبى صاحب سرقسطة، والذى وقف إلى جانبه، وزاد فطلب له العون من حليفة كونت برشلونة. وفى ١٠ من ذى الحجة ٤٠٨ هـ = ٢٩ من أبريل ١٠١٨ تجمع الجيش والأعوان فى شاطبة، وبويع عبد الرحمن بالخلافة، وتلقب بالمرتضى. ولم تستطع قرطبة وقد طال بها الشوق إلى أمجاد الأمس الزاهر، ونفد صبرها فى انتظار من يطالب بالخلافة، أن تتحمل المزيد من المعاناة والألم، فاغتالت على بن حمود فى ١ من ذى القعدة ٤٠٨ هـ = ٢٢ من مارس ١٠١٨ م، فجثم على صدرها أخوه القاسم.

وبينما قرطبة تطوى الضلوع على ثورة صماء، وكراهية غير مكتومة لبنى حمود تحرك المرتضى نحوها على رأس جيشه، عن طريق جيان، وكان ابن حزم، فيما يرجح، ضمن هذا الجيش، وكانت عاصمة الخلافة مهيأة لاستقبال الخليفة، وكل الظروف تجعل من النصر أملا ممكن التحقيق، لولا خيانة خيران ومنذر فى اللحظة الحاسمة. لقد ظن كلاهما، فى البدء، أن المرتضى سوف يكون مجرد لعبة فى أيديهما، ظلا يحكمان من ورائه، فلما وجداه ذا شخصية قوية، قادرة على اتخاذ القرار المناسب فى اللحظة المناسبه أضمرا له الغدر، ومن موقعهما مستشارين وحليفين قدما له نصيحة قائلة : من الأفضل له، قبل أن يتقدم إلى العاصمة، أن يقضى على بنى زيرى، من بربر صنهاجة؛ وقد استقروا فى كورة

البربرة ، واتخذوا من غرناطة عاصمة لهم ، وكان على رأسهم حينئذ الأفريقى العجوز الداهية ، زاوى بن زيرى ، الذى لم يهزم أبداً ، والذى اضطر بعد قليل ، وفى قمة مجده ، أن يتنازل عن رياسته ، وأن يعود إلى إفريقية ليموت هنالك مسموماً . وقد التقى الجيشان . وتحدثنا مصادر كثيرة عن نتيجة المعركة ، دون أن يقدم لنا أى منها تاريخاً لها ، محدداً ودقيقا .

لقد هجم البربر بشراسة على جيش المرتضى ، وفى اللحظة الحاسمة تخلى عنه خيران ومنذر ، فتمزق جيشه شر ممزق ، وهرب المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وفيها اغتالته عصابة مأجورة من المرية ، على حين توزع القتل والهرب والأسر جيشه ، وكان ابن حزم من بين الأسرى ، وطبقاً لما يذكره فى كتابه « الطوق » ، كان أثناء الأحداث قد تسلل إلى قرطبة سرا ، فى شوال من عام ٤٠٩ هـ = فبراير من عام ١٠١٩م - للقيام باستطلاع الموقف السياسى ، وجس نبض المدينة على التأكيد ؛

وبعد أن أفلت ابن حزم من الأسر البربرى انسحب إلى شاطبة ، نفس المكان الذى تحرك منه جيش المرتضى التعيس فى ساعة نحس ، وفى شاطبة ، بين عامى ٤١٢ و ٤١٣ = ١٠٢٢ م . فيما يحتمل . حرر كتابه « طوق الحمامة » . وله من العمر ٢٨ سنة ، استجابة لرغبة صديق له من المرية ، كتب إليه يقترح عليه أن يصنف له رسالة فى الحب ، ثم جاءه فيما بعد شخصاً إلى شاطبة ليراه ، ونزل معه فى داره مدة إقامته بها .

● بريق انتصار :

لم تطل فترة خلافة بنى حمود فى قرطبة . وكانت أشبه بجملة بين قوسين فى تاريخ الخلافة الطويل ، على حد تعبير غرسية غومث ، فقد ضعف أمر القاسم بن حمود ، واضطرب الحبل فى يده ، وتسلط عليه البرابرة حتى احتقروه ، وأراد هو أن يتخلص من سلطانهم فأحل السودان مكانهم ، واتخذ منهم جنده ، وأخذ يضرب أولئك بهؤلاء ،

فتآمر البربر عليه ، بمعاونة يحيي وإدريس ابن أخيه ، فترك قرطبة ، وهرب إلى إشبيلية عام ٤١٢ هـ = ١٠٢٢ م . وتولى الخلافة مكانه يحيى الذى انصرف عنه السودان والبربر جميعاً ، فآثر السلامة ، وترك قرطبة كما تركها عمه من قبل . فى ٢١ من جمادى الآخرة سنة ٤١٣ هـ = ٩ من سبتمبر عام ١٠٢٣ م . وبينما المحن تطوق قرطبة من كل جانب ، بدأت تحاول شيئاً بناء إلى أقصى حد ، وجديداً لم تألفه العاصمة من قبل ، إذا لم نقل ثورياً فى عالم السياسة المضطرب: أن ينتخب الشعب الخليفة فى المسجد الجامع ، طبقاً لأسمى قواعد الشريعة الإسلامية وأدقها ، أن يجىء الخليفة مختاراً لا وارثاً ، ولا معيناً من سابقه ، ولا مفروضاً بقوة السلاح .وهو تقليد يحدث للمرة الأولى منذ قيام دولة بنى أمية فى الأندلس .

لم تكن ساطة الخلافة الفعلية فى هذه اللحظة تتجاوز أحواز المدينة ، وماذا يهم ؟ . . . ألم يحدث شىء شبيه بهذا ، حين انحصر سلطان العاصمة فى عصر الأمير عبد الله ، وتحمل القرطبيون المهانة ، فى انتظار أيام مجيدة ، جعلت من قرطبة مصدر القوة والجلال والثقافة ، على أيام عبد الرحمن الناصر ، والحكم الثانى ، والمنصور بن أبى عامر ؟ . إن الأمل آخر شىء يمكن أن يفقده الإنسان العظيم .

وفى ١٦ من رمضان سنة ٤١٤ هـ = ٢ من ديسمبر عام ١٠٢٣ م ، وقع الاختيار على واحد من بين الأمراء الأمويين الثلاثة : سليمان بن المرتضى وعبد الرحمن بن هشام ، وعلى بن محمد العراقى ، ولم يكن أحد بدءا يفكر فيه على الإطلاق ، اختاروا عبد الرحمن بن هشام ، خامس الخلفاء الذين حملوا هذا الاسم ؛ وتلقب بالمستظهر . وكان الخليفة الجديد على حداثة سنه ؛ كما يصفه ابن حيان : « لبقاً ذكيا ؛ يقظاً لوذعيا ؛ لبيبا أديبا ؛ حسن الكلام ؛ جيد القريحة ؛ مليح العبارة ؛ يتصرف فيما شاءه من الخطابة ؛ بديهة وروية ؛ ويصوغ قطعا من الشعر مستجادة ، لم يكن فى بيته يومئذ

أبرع منه منزلة ، وكان قد نقلته المخاوف ، وتقاذفت به الأسفار ، فتحنك وتخرج وتمرن فيها » .

كان المستظهر يطمح أن يعيد إلى الخلافة بهاءها ، وإلى قرطبة أمجادها ، فأحاط نفسه بخيرة الأدباء على أيامه ، وجلهم ينتمون إلى جماعة المثقفين الذين أشرنا إليهم من قبل . فكان بينهم ابن حزم ، وابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب ، وأبو عامر بن شهيد ، والشاعر البارع حسان بن مالك ، والكاتب الرائع ابن برد . ولكن هذا الاتجاه أحقد عليه الشيوخ ، ومحترفى السياسة ، والمنتفعين بالمصائب ، فمضوا يألبون عليه العامة ، ويثيرون الفتن والدسائس بين الخاصة ، ويبيعون الأحلام للطامعين ، فلم يستطع أن يبقى فى الحكم أكثر من شهر ونصف ، فقد أعدم فى ٣ من ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ = ١٧ من يناير عام ١٠٢٤ م ، وبذهاب الخليفة استقر ابن حزم فى السجن من جديد .

• خيبة أمل ، وتغيير الطريق :

فى هذه اللحظة أشرق ذكاء ابن حزم وضيئا ، ليقنعه بأن العالم السياسى الذى ينتمى إليه ، وناضل من أجاه ، انتهى تماماً ، مات ولا سبيل إلى بعثه ، وقد احتاجت قرطبة إلى سبعة أعوام كاملة بعده لتقتنع بالنتيجة نفسها . وعندما خرج من السجن ، والإحساس بالخيبة يملأ داخله ، قرر أن يتخلى بطريقة نهائية وحاسمة عن ممارسة السياسة ، فنبذ الوزارة واطرحها اختياراً ، وأقبل على قراءة العلوم ، وتقييد الآثار ، من شريعة وفلسفة وتوحيد وتاريخ ، وظل موصول السبب بها حتى فى أحلك لحظات حياته ، رجل دولة أو مغامراً أو لاجئا ، « ونال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس » ، والشيء الوحيد الذى لم يتخل عنه ، وما كان بوسعه أن يفعل لأنه يحمله فى دمه ، هو روح المخالفة والأصالة والجرأة ، ورافقت حياته دائماً . لم يستطع أن يكون تقليدياً مالكى المذهب ، ورأى كبار علمائه مرات كثيرة ، كما هو شأن كبار الفقهاء ورجال الدين عادة ، وفى كل مكان إلا ما ندر ، يتحالفون مع السلطان ، ويلتقون مع كبار

الموظفين ، ويغيرون مواقفهم على النحو الذى يرضى الحكام ، فأصبح المذهب المالكى بفضلهم هو السائد فى قرطبة ، تعليما وشعائر وفتوى . وحوم حول المذهب الشافعى قليلا ، وأقام عليه زمنا ، ورآه أكثر توفيقاً وتعادلا ، رغم قلة أتباعه ، ومناهضة الدولة لأوليائه ، ثم انصرف عنه ، فقد وجده يلفظ أنفاسه ، وانتهى به المطاف فقيهاً ظاهرياً ، قبل عام ٤١٩ ﻫ =١٠٢٩م ، وكانت له من قبل صلات بالمذهب ، ورفقة مع السائرين على دربه ، وصلات أدبية ، على الأقل ، مع علمائه .

وفى مسجد قرطبة الجامع ، إلى جوار أستاذه الظاهرى ، أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني، أخذا يدرسان أصول المذهب الظاهرى ، مع آخر أيام الخلافة ، وقد أصبحت هذه شكلا مهلهلا ، حوالى أعوام ٤١٨ — ٤٢٠ ﻫ = ١٠٢٧—١٠٢٩ م . وقد اتهم علماء المالكية ، والجمهور من ورائهم ، الأستاذين الجليلين بأنهما خطر على العقيدة ، ويفسدان تدين الشعب ، فاستشار صاحب المدينة فى أمرهما هشاما الثالث ، آخر خليفة أموى ، وربما قبل أن يدخل المدينة ليمارس سلطاته ، وتقرر منعهما من تدريس المذهب الظاهرى. ومن تلك اللحظة أصبح ابن حزم عالماً ثائراً ، غير مرغوب فيه ، يواجه وحيدا التخلف والتقليد والجمود ، وتزييف نصوص الشريعة لخدمة الأقوياء ، وبدأ يبشر بفكر إسلامى راق ، وفلسفة مستقيمة ، ولم تفتر حميته أبدا ، رغم كل المصاعب الجمة التى تعرض لها . ومع هذه المرحلة الجديدة من حياته سوف تقل معلوماتنا عنه كثيرا ، وسوف تصبح كتبه مصدرنا الوحيد لكتابة تاريخ حياته فيها .

- جهد ثقافى عملاق :

حتى ولو أخذنا فى الاعتبار أنه عمر نسبيا ، فإنما قام به فى حقل الدراسات الإسلامية كان فرداً وعملاقا ومتميزا ، ويقول عبد الواحد المراكشى ، فى كتابه « المعجب فى أخبار المغرب » ، وألفه فى ظل الموحدين وهم ، يناهضون المالكية ، فجاءت أخباره بعيدة عن التعصب ، قريبة إلى الواقع ، إن ابن حزم

كان أكثر أهل الإسلام تصنيفا ، وإنه « صنف فى الفقه والحديث والأصول والنحل والملل ، وغير ذلك من التاريخ وكتب الأدب ، والرد على المخالفين له ، نحواً من أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شئ ما علمناه لأحد ممن كان فى مدة الإسلام قبله ، إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى » ، وبعض هذه المجلدات كما نعرف رسائل صغيرة ، ولو أن ذلك لا يقلل من جهد المؤلف ؛ ولا من قيمة الرسالة . ومحال أن نقف فى هذه العجالة عند هذه المؤلفات محللين ؛ ونحيل الراغبين فى هذا إلى الدراسة القيمة التى قام بها ميجيل أسين بلاثيوس لهذه المؤلفات ؛ فى كتابه العظيم عن « ابن حزم القرطبى » ؛ وقد نقلناه إلى اللغة العربية ؛ وسوف يصدر عن قريب . ولقد أرى ؛ ويرى غيرى معى ؛ أن الأمر رغم ذلك يحتاج ؛ على المدى البعيد ؛ إلى جهد آخر متأن ؛ فى ضوء ما عثر عليه من مخطوطات جديدة ؛ وما نشر له أخيراً من تراث .

يكفى أن نقف هنا عند كتابه « طوق الحمامة » ، وسنعرض له تفصيلا فيما بعد ، وأن نشير من بين أعماله إلى مؤلفاته ذات الأهمية القصوى فى الفكر الإنسانى ، على امتداد كل العصور ، ولم تذهب به الأحداث . ويأتى فى مقدمتها كتابه المسمى « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » ، وقد أجمل أسين بلاثيوس وصفه بقوله : « إنه أشبه بيوميات دون فيها ابن حزم ملاحظاته ، أو اعترافات تتصل بحياته ، وتأتى الملاحظات فى ثنايا الكتاب دون ترتيب يقصد به إلى التربية والتعليم ، ولم يراع فى تنسيقها منطقا . ونحن إذ نقرؤه نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ ، دقيق الملاحظة ، أثناء تجاربه الواسعة ، وصاغها فى قالب مبادئ عامة وحكم ، وأعظم قيمة لهذا الكتاب . وألفه ابن حزم وقد اعتزل الناس فى قريته منت لشم ، وصدر عن نفس يشيع فيها التشاؤم والتصوف ، أنه يقدم لنا صورة حقيقية وحية لنفسية مسلمى الأندلس فى القرن الحادى عشر ، وقواعد الأخلاق التى كانت مرعية فى مجتمعهم ، إلى جانب الفقرات التى تتصل بحياة ابن حزم نفسه » .

ثم كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، وهو تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب ؛ غنى بمادته وأفكاره ، وحاول فيه ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة ، فسبق ابن رشد فى ذلك بقرن من الزمان ، ويعرض لشتى مذاهب الفكر البشرى فى موضوع الدين ، من الإلحاد المطلق لا يؤمن أصحابه بشئ ، إلى إيمان العوام يصدقون كل شئ . ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقاً وسطاً بين العقل والنقل ، مما يطابق تمام المطابقة المذهب الظاهرى الذى كان هو نفسه عليه .

وخلف لنا ابن حزم مادة طيبة فى التاريخ ، يهمنا أن نشير من بينها بخاصة إلى كتاب « جمهرة أنساب العرب » ، وهو أحسن قائمة بأنساب العرب فى الغرب الإسلامى ، ولمن يدرسون تاريخ الإسلام فى المشرق والأندلس ؛ وكتاب « نقط العروس » ، وهو رسالة موجزة عن تاريخ الخلفاء والحكام فى المشرق والأندلس ، وفيما يبدو كان نقاطاً وضعها ابن حزم لينشئ حولها كتاباً مطولا . وله رسالة فى « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » ، وجاء المقرى بنصها كاملا فى « نفح الطيب » ، وحررها ابن حزم رداً على رسالة تلقاها ابن عمه ، أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم ؛ من أديب القيروان ابن الربيب التميمى ، أبو على الحسن بن محمد بن أحمد ، وربما كانت الأولى فى تاريخ الأدب الأندلسى ، وأول محاولة للإشادة بأمجاده ، ورغم قصرها جاءت شاملة بما ألف الأندلسيون فى صنوف الآداب والعلوم .

ولابن حزم مؤلفات أخرى ، فلسفية وفقهية أو فى علم الكلام ؛ أو التاريخ ، أو الأدب الخالص ، وأحيل القارئ بشأنها إلى الكتاب الذى أشرت إليه فى بداية الكلام .

● فى مواجهة العواصف :

أنجز ابن حزم هذا العمل العملاق وهو يواجه أعتى العواصف والأعاصير ، هدفاً لكل ألوان الحقد والكراهية والتآمر ؛ اضطهده صغار ملوك الطوائف ،

وكلهم صغار، واتهمه رجال الدين بالمروق، فلم تلن له عريكة، ولا وهن منه عزم، وبقي وحده، ومعه قلة مؤمنة صابرة من أصحابه وتلاميذه، يواجهون المحنة في صلابة؛ جباههم عالية، وقاماتهم مرتفعة، يحركون الأفكار الجامدة، وينيرون العقول المظلمة، ويهزون مسلمات كثيرة متخلفة؛ ومن هنا فإن الجانب الأكبر من مؤلفاته الفقهية والعقائدية، ولد كلاما يقال، جدلا عنيفا مع خصومه، وإدانة صريحة لهم، وكانوا يتمتعون برعاية الدولة وحمايتها.

كان ابن حزم مجادلا لا يكل، جاد الكلمة، عنيف المناظرة، واحتفظ جانب كبير من إبداعه بحرارة الحوار وحدته. وكان في حيويته هذه، في القرن الحادى عشر، «مدرسية Scolastique» حية ومتوهجة، تفوق «مدرسية» المسيحيين في أوربا، وقد أفرغوا الحوار من محتواه، ودفعوا به جملا باردة، لا روح فيها، مماحكة خواء، ورغم أنها بداية من عصرها الثانى، مع الدم الجديد الذى تدفق إليها من الفلسفة الإسلامية عبر الأندلس، ومع توماس الأكوينى، شهدت فترة ازدهار وحياة، إلا أنها كانت تهم العلماء وحدهم. وقليلا ما تتجاوز آثارها قاعة البحث. أما في قرطبة القرن الحادى عشر، فكانت تهم الجمهور كله، ويتابع صداها شغوفاً. لقد تميزت «مدرسية» قرطبة، بشدة الإيقاع. وأصالة المحتوى، وحرية المنهج، والدفء والتجدد والبساطة. ومشاركة عامة الناس على نحو ما.

لقد عاين ابن حزم من ألوان الظلم ما أنضب في أعماقه معين الرقة واللين، وشاهد من مساءات السياسة ما نفره منها، وأوذى في نفسه وكرامته، فاعتزل الدنيا محاصراً ووحيدا، في قريته منت لشم، من بادية ولبة، يواصل رسالته بنفس القوة التى بدأ بها حياته، شاباً واعداً ومناضلا عنيدا، «يبث علمه فيمن ينتابه ببادية تلك، من عامة المقتبسين منه، ومن أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم، ولا يدع المثابرة على العلم؛ والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف، حتى

كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير ، لم يعد أكثرها عتبة بابه ، لتزهيد الفقهاء طلاب العلم فيها ؛ حتى أحرق بعضها بإشبيلية ، ومزقت علانية ، ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة فى نشرها ، وجدالا للمعاند فيها ، إلى أن مضى لسبيله ».

فى رسالة ابن حزم « فضائل أهل الأندلس » فقرة ، كأنما عنى بها نفسه ، رغم أنه كتب الرسالة فى زمن مبكر نسبيا ، ولا يستطيع الدارس لحياته أن يمر بها دون أن يقف عندها . يقول : « أزهد الناس فى عالم أهله ، وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : «لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده ». . « ولا سيما أندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتى به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما فى سائر البلاد . إن أجاد قالوا : سارق مغير ، ومنتحل مدع . وإن توسط قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط . وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفى أى زمان قرأ ؟ ولأمه الهبل ! .

«وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين ، إما شفوفاً بائناً يعليه على نظرائه ، أو سلوكا فى غير السبيل التى عهدوها ، فهنالك حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نحل مالم يقل ، وطوق مالم يتقلد ، وألحق به مالم يفه به ، ولا اعتقده قلبه ، وبالحرى وهو السابق المبرز ، إن لم يتعلق من السلطان بحظ ، أن يسلم من المتالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسير خطبه ، واستشنع هين سقطه ، وذهبت محاسنه ، وسترت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل ، فتنكسر لذلك همته ، وتكل نفسه ، وتبرد حميته . وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعرا ، أو يعمل بعمل رياسة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب

إلا الناهض الفائت ، والمطفف المستولى على الأمد » .

• محافظون ومجددون :

هذا الموقف من رجل كان أستاذ نفسه ، حاد الذكاء ، موسوعى الثقافة ، صلب العزيمة بلا حدود ، عنيف المواجهة دون مثال ، لعب دوراً هاما فى تطوير الفكر الأندلسى ، وزعزعة المسلمات الأساسية للثقافة السائدة ، والرسمية فى الوقت ذاته . لقد احتضن الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، لونين من الثقافة ، يسيران فى خطين متوازيين دون أن يلتقيا : المحافظون وهم الكثرة الغالبة ، والمتحررون . وكان المحافظون وأعنى بهم علماء المذهب المالكى السائد فى الأندلس ، وقفوا بنشاطهم الثقافى عند حد التشريع العملى ، لايتجاوزونه إلى مشاكل الثقافة المتصلة بالعقيدة نفسها ، واتهموا كل من يتكلم فى المنطق بالزيغ ، وكل تفكير عقلى فى مسائل الدين بأنه زندقة . وكان الاتجاه الثانى يتحرك بين قلة مثقفة ، ولكنها لاتطمح ، ولا ترى لها مصلحة ، فى مواجهة المحافظين أو الدخول معهم فى خصام ، وارتضت لنفسها أن تقف منهم ساخرة ومتجاهلة .

وقد ظل المالكية حتى القرن السادس الهجرى يقاومون الأشعرية ، ولكنهم تركوا الأرسطوطالية تتحرك فى حرية ، وقد وصلنا كتاب « تقويم الذهن » لأبى الصلت الدانى ، أمية بن عبد العزيز ، المتـــوفى عام ٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م ، وهو رسالة فى المنطق ، توجز آراء أرسطو . وكان ابن حزم علماً فردا ، واتجاهاً متميزا ، ولم يكن مالكياً ولا أشعريا ، ولا زاهداً ولا أرسطوطاليسيا ، بل واتهمه ابن حيان بأنه لم يفهم أرسطو ، ومحدود الأتباع كظاهرى ، يبذل جهداً فائق النظير ، لكى يقيم جسراً بين العقيدة والمنطق .

ومهما يكن من أمر ، فقد نضجت شخصية ابن حزم ، واستكمل عدته ، ومكنت له الأحداث من صقل مواهبه ، وزادته اعتداداً بنفسه ، فمضى فى طريقه ، يتمرد على التقاليد القائمة ، ويثور على الجمود الدينى ، ويهاجم

المذاهب المختلفة ، فقهية وكلامية ، مسلمين وغير مسلمين ، مهاجمة عنيفة متصلة ، كلما أتيحت له الفرصة ، بالمناظرة فى المجالس ، وبتأليف الكتب والرسائل ، واتسم جدله بقوة الحجة ، ونصاعة البيان ، وقوة الدليل ، ولكنه وقد ملك لسانا ذربا ، مسلحا باللغة المواتية ، حتى قال عنه الصوفى الأندلسى ابن العريف : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » . لا يقف عند البيان والبرهان والإقناع ، وإنما يحتد فى أحايين كثيرة ، فيتجاوزها إلى التسفيه والتكفير والتفسيق . وهى حدة تعود فى جانب منها إلى عصبية مزاجه ، واعتلال صحته طفلا . ولا أراها مما يعاب عليه جملة ، فهى تأتى منه ، غالبا ، فى موضعها ، وقولة الحق تحتاج دائماً من المؤمن بها إلى صوت مرتفع ، لتوقظ نائما ، وتنبه غافلا . يقول عن نفسه :

« ولقد أصابتنى علة شديدة ، ولدت على ربوا فى الطحال شديدا ، فولد ذلك على من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلة الصبر والنزق ، أمرا حاسبت نفسى فيه ، إذ أنكرت تبدل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى . وصح عندى أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولد ضده » .

وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وعلماء عصره ، وكان منه ما أسماه ابن حيان « أنه يجهل سياسة العلم » ، وجعلها مصدر معظم أخطائه . ونحن نكتب عن حياة عظيم ، مرت على وفاته أكثر من ألف عام ، وعاش فى بيئة جد مختلفة ، يستحيل علينا أن نجزم ، أو حتى نرجح ، ما كان عليه أن يتبعه من سياسة فى ملاقاة معاصريه .

● مناظرات وملاحقه :

لا نعرف ، كما أشرنا من قبل ، شيئاً دقيقاً وموثقاً عن الأعوام الأخيرة من حياة ابن حزم . نعم ، نعرف أنه أصبح مثقفاً عنيداً ، أخا سفر ، جواب آفاق ، يتنقل بين دول الطوائف المختلفة ، يحاور العلماء ويجادل الفقهاء ، ويناظر أهل الكتاب ، و[ب] عنف دائماً ، كما هى عادته . صنع ذلك فى قرطبة والمرية وطلبيرة وميورقة ، وربما فى مدن أخرى لم يصلنا خبرها . وفى

ميورقة ، وجاءها لاجئاً بعد عام ٤٣٠هـ = ١٠٣٩ م وجد الحماية والتقدير في شخص عاملها الوزير الكاتب أبي العباس ، أحمد بن رشيق ، وكان مولى لبني شهيد ، وتأدب في قرطبة . ووجد أيضاً مزاحمة شديدة في شخص قرطبي آخر مثله ، أصغر منه سناً أبو الوليد الباجي ، من كبار فقهاء المالكية ، وكان قد رحل إلى المشرق ، ولبث في رحلته هذه ثلاثة عشرة عاماً ، لقي فيها كبار العلماء في الفقه والحديث وعلم الكلام ، « فبرع في الحديث وعلله ورجاله ، وفي الفقه وغوامضه وخلافه ، وفي الكلام ومضايقه» ، وكان إلى هذا ، كابن حزم ، أديباً يقول الشعر ، ويحسن تدبيج الكلام .

ولما عاد من رحلته وجد ابن حزم مجادلا ، وصاحب مذهب متميز ، تسد شهرته الأفق ، وخصومه من الفقهاء وغيرهم ضائقون به أشد الضيق ، وعاجزون عن ملاقاته أبلغ العجز ، ففرحوا بمقدم أبي الوليد الباجي إلى ميورقة ، وأثاروه على ابن حزم ، رغم ما بين الرجلين من إعجاب متبادل . وانعقدت بينهما المناظرات في الفقه ، و علم الكلام أيضاً ، وكان أبو الوليد مقدم الأشاعرة في الأندلس ، وابن حزم خصما لدوداً لهم ، وليس ثمة شك في أن ابن حزم وجد في مناظره لوناً جديداً من العلماء لم يعهده من قبل ، وسوف يعترف فيما بعد ، في رسالته عن « فضائل أهل الأندلس » : «لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي ، بعد عبد الوهاب ، إلا مثل أبي الوليد لكفاهم» .

لم يتوقف الذين عجزوا يوماً عن مواجهة ابن حزم في ساحة الجدل والمناظرة عن الكيد له ، والدس عليه ، عند سلطات الجزيرة ، فلم يجد بداً من تركها ، وما من أحد في ملوك الطوائف يرغب في أن يستضيف بأرضه عالماً مزعجا ، لا بسبب آرائه الدينية فحسب ، وإنما لاتجاهاته السياسية أيضا ، فقد ظل ابن حزم متمسكا بشرعية الخلافة الأموية ، لم يتزحزح عن رأيه أبدا ، حتى عندما أصبحت نظرية مجردة ، لاصلة لها بالواقع ، ولا مطمح أن تعود ، ولكنه لم يشارك في اللعبة السياسية المعقدة التي كانت تجرى على أيامه هذه ، ولم يحتضن فكر أية جماعة معارضة ، وفي رسالته « التلخيص

لوجوه التخليص » . وجاءت رداً على سائل يطلب الرأى عنده فى قضايا كثيرة . سؤال عن الموقف الذى يجب على المرء أن يتبعه « من أمر هذه الفتنة ، و ملابسة الناس بها ، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض » ، كانت إجابة ابن حزم : « ... فالخلاص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذم جميعهم . فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه » . ولقد ذم ملوك الطوائف جميعهم فى رسالته هذه . وحمل عليهم فى غير هوادة : «وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شيء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد . والذى ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها . ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لاتبيح ما حرم الله » .ونحن « نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم » ، « وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا ، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفا من سيوفه » .

ولم يرحم طائفة من الفقهاء على أيامه ، وعلى أيامنا أيضا ! . فتاواهم معدة ، وأقلامهم مشرعة ، يدعمون بها الطغاة خوفا ، ويبررون لهم المظالم طمعا ، ويسبحون بحمد الحاكم ملقا ، ويشغلون عامة الناس عن الجاد من أمور الدنيا ، بغير العاجل من شئون الآخرة . « فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم ».

وأقسى هجوم خص به ملكا من الطوائف ، كان موجهاً ضد أمير غرناطة ، باديس بن حبوس الذكى الدموى الداهية ، رأس البربر ، وخليفة

زاوى بن حبوس الذى قضى على محاولة المرتضى ، على نحو ما أشرنا ، وأخذ ابن حزم سجينا ، ذلك أن باديس جمع فساد بقية ملوك الطوائف وزاد عليه بأن اتخذ وزيره الأول ، ومستشاره الأمين ، من اليهود ، ابن النغريلة الشهير الذى مكن لأبناء قومه من رقاب المسلمين ، فسيطروا بعون منه على الاقتصاد والإدارة ، ثم أخذته العزة بالإثم « فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل فى القرآن اغتراراً بالله تعالى أولا ، ثم بملك ضعفة ثانياً ، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً ، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عوداً » . وقد رد عليه ابن حزم قوياً وعنيفاً فى رسالته : « الرد على ابن النغريلة اليهودى » ، فنقض آراءه ، وفند حججه ، وبين مساوىء قومه ، وأراد لصوته أن يكون عالياً وقاسياً ليبلغ ملك غرناطة ، ودون أن يذكره بالاسم حمل عليه ناقداً ومهدداً ومستنهضا : « إن أملى لقوى ، وإن رجائى مستحكم ، فى أن يكون الله تعالى يسلط على من قرب اليهود وأدناهم ، وجعلهم بطانة وخاصة ، ما سلط على اليهود ، وهو يسمع كلام الله تعالى : « يا أيها الذين آمنو لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم » . « وإن من فعل ذلك لحرى أن يشاركهم فيما أوعد الله تعالى فى توراتهم ، فى السفر الخامس ، إذ يقول لهم تعالى : « ستأتيكم ، وستأتى عليكم ، هذه اللعنة التى أصف لكم ، فتكونون ملعونين فى مدائنكم وفدادينكم ، وتلعن أجدادكم وبقاياكم ، ويكون نسلكم ملعونا ، وتكون اللعنة على الداخل منكم والخارج » .

هل قنع ابن حزم بهجومه الفكرى ؟ .

فى كتاب « الذخيرة » لابن بسام ، فقرة مثيرة ، نقلها عن المؤرخ القرطبى العظيم ابن حيان ، جاءت خلال حديثه عن الهزيمة المريعة التى أوقعها باديس ابن حبوس ، أمير غرناطة ، بزهير الصقلبى أمير المرية ، وفيها أن باديس ظهر على قوم من وجوه رجال زهير ، فعجل على الفرسان والقواد بالقتل ،

واشتمل الأسار على حملة الأقلام ، وفيهم وزيره التياه أحمد بن عباس الجار لهذه الحادثة ، قيد إلى باديس وصدره وصدور أصحابه تغلى عليه ، بما أوقد من هذه النائرة ، فأمر بحبسه ليستخرج منه مالاً ، وشفاؤه الولوغ دمه ، وعجل عليه بعد دون أصحابه من حملة الأقلام ، عف باديس عن دمائهم من بين أصحاب السيوف إلا من أصيب منهم فى الحرب ، وأطلق ابن حزم والباجى وغيرهما ». ويرى غرسية غومث أن الإشارة هنا تنصرف إلى ابن حزم صاحبنا ، وقد ارتبط بالمرية دائماً ، ولعله أراد أن يثأر لأسره الأول فوقع فى الأسر الثانى ، وكان برفقة أبى الوليد الباجى ، مناظره اللدود والعنيد فى مناظرات ميورقة . بينما يرى الأستاذ الجليل، الدكتور طه الحاجرى ، فى كتابه «ابن حزم: صورة أندلسية» وقد وقع على النص قبل أن تقع عليه عين المستشرق الاسبانى ، والتفت إليه ، أنها تنصرف إلى أبى المغيرة .

كان عداء ابن حزم لباديس أمير غرناطة ، ورأس البربر فى الأندلس ، عنيفاً وجاداً وله ما يبرره ، ولكنه لم يلق به ، وهو رجل مبدأ لا يحيد عنه ، فى أحضان الحزب المعارض لباديس ، وهم بنو عباد فى إشبيلية ، مع ما كانوا عليه من سخاء وترف بعامة ، ومع رجال الفكر بخاصة ، وكانوا ، بحق ، قادة الجانب العربى فى معركة التزاحم بين الأجناس المختلفة ، وسادة المنطقة التى استقر فيها بيت آل حزم من قديم ، وبها آراثهم وديارهم ، ورغم ذلك كله ، أدار لهم ابن حزم ظهره ، إنه صلب العقيدة ، طاهر السيرة ، يرى الخلافة شرعة ، وفى بنى أمية شرعا ، لا يساوم ولا يتراجع ولا يتأول ، ولا يرتضى أنصاف الحلول. وكان المتعضد أمير إشبيلية ، وحكم من ١٠٤٢ م إلى ١٠٦٩ م ، كقرينه أمير غرناطة ، دمويا قاسيا ، يأخذ بالظنة ، ويخفر الذمة ، ويبلغ فى المثلة ، فلم « يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد » ، ولا بد أن رأى ابن حزم فيه كان كرأيه فى باديس . ونجهل التاريخ أو الظروف التى أمر فيها أمير إشبيلية بتمزيق كتب ابن حزم ، وحرقها علانية ، وفيها نظم ابن حزم أبياته الشهيرة عندما بلغه أمرها ، والتقطها كل الذين أرخوا له :

دعونى من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس ، بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى

• هزيمة دون كيشوته :

وحيداً ضد الجميع ، وضد كل شىء ، وأشد مرارة وتشاؤما من مواطنه كيشوته الإسبانى ، بطل رواية سرفانتيس الشهيرة ، وعاش على الأرض نفسها بعده بخمسة قرون ، وذهب كلاهما ضحية أحلامه . وقد حدد لنا ابن حزم منهجه فى كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » : « لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل ، وفى دعاء إلى حق ، وفى حماية الحريم ، وفى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى ، وفى نصر مظلوم ، وباذل نفسه فى عرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى » . و « إنى لا أبالى فيما أعتقده حقاً عن مخالفة من خالفته ، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض ، وإنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زيهم الذى قد تعودوه لغير معنى ، فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها » .

لقد دافع عن الإسلام الحق بعنف ، عقيدة وسلوكا ومنهجاً فى الحياة ، ودعا إلى سلامة الباطن ، وخلوص النية ، واستقامة العمل ، وناضل عما يؤمن به دون هوادة ، وفى كل مكان ، وأثار على أعدائه حرباً شعواء متصلة . دافع عن الإسلام فى وطنه وبين أهله ، وبعيداً عنه خارج حدوده ، بالموعظة الناصحة ، والشروح الكاشفة ، والمواجهة الحاسمة عند الضرورة ، وحين نظم نقفور فوكاس إمبراطور بيزنطة ، مزهواً بانتصاراته ، قصيدة ذم فيها الإسلام ، وبعثها إلى الخليفة المطيع فى بغداد ، تولى ابن حزم الرد عليه ، بقصيدة أبان فيها فضائل الإسلام ، وكشف عن تناقضات المسيحية ، وأرسلها إليه ، وأورد لنا السبكى نصها فى كتابه « طبقات الشافعية » .

وظل حتى آخر رمق من حياته يدافع عن شرعية الخلافة الأموية فى الأندلس ، وقد اختفت إلى الأبد ، وشديد القناعة بأن« نوار الفتنة لا يعقد» . وكان يحس بأنه لم يخلق لعصر الطوائف ، وظل يبشر بمذهبه الظاهرى وسط المتاعب والصعاب ، و مواجهة الجميع ، ويقاوم نفوذ اليهود وسيطرتهم على الاقتصاد والسياسة ، على نحو ما فعل مواطنه أبو إسحاق الإلبيرى ، وكان شاعراً وفقيها ، ودفع بقصيدته الرائعة مسلمى غرناطة موطنه ، إلى الثورة على مظالم يهودها ، فانتقموا منهم ، وأتوا على نفوذهم ، فى يوم عاصف مريع .

وانتهى المطاف بابن حزم وحيدا ، فكراً وإحساساً ورفقة ، شبحا لعصر مضى ، وكان عليه أن ينسحب إلى ديارهم الأولى فى قرية منت لشم ، من وديان ولبة ، فى تاريخ نجهله لسوء الحظ ، رفقة أولاده فحسب ، ولم يحدثنا عن أسرته القريبة أبدا ، فى كل ما كتب ، ومع عدد قليل للغاية من تلاميذه الأوفياء .

أية مشاعر حزينة كانت تغمره ، وهو يعود إلى قريته فى الريف مهزوما ، مغلوباً على أمره ، قريته التى خرج منها جده قبل جيلين فقط ، مغمورا ينتسب فى أسرة اعتنقت الإسلام من قريب ، وصنع لها والده مجداً مؤثلا ، يومها كتب فى « الأخلاق والسير » : « أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل ، وهى تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى» ولم يتوقف هناك عن العمل ، مضى فى قريته يؤلف كتبه ، ويحرر رسائله ، ولو أنها على حد تعبير ابن حيان : « لا تتجاوز عتبة داره » ، وأوضحها كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » . وهو سلسلة من الاعترافات سجلها وله من العمر ٦٩ عاما شمسيا ، أو ٧٢ عاما قمريا ، وتوفى يرحمه الله فى ٢٨ من شعبان ٤٥٦ هـ = ١٥ من يولية ١٠٦٣ م :

كأنك بالزوار لى قد تنادروا — وقيل لهم أودى على بن أحمد
فيارب محزون هناك وضاحك — وكم أدمع تذرى وخد مخدد
عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنا — عن الأهل محمولا إلى بطن ملحد

وأترك ما قد كنت مغتبطاً به   وألقى الذى آنست دهراً بمرصد
فوا راحتى إن كان زادى مقدماً   ويا نصبى إن كنت لم أتزود

• تلاقى النقيضين :

درج الباحثون على تقسيم حياة ابن حزم الأدبية إلى مرحلتين هما ، فيما يرى أسين بلاثيوس : « واحدة حتى الثلاثين من عمره ، والأخرى منهما حتى موته » . وفى الأولى وقف حياته على الأدب والسياسة ، وفى الثانية ترك السياسة ليتفرغ لدراسة الشريعة والعقائد . وهى تفرقة يمكن أن تكون مقبولة كتبسيط نظرى فحسب ، لأن المرحلتين تعايشا واقعا ، على امتداد حياته ، ولهذا ألقينا على حياة ابن حزم كلها نظرة شاملة ، ودون ذلك ليس ثمة مجال لالتقاط نفسيته شابا ، ومعرفة الكثير من إشارات طوق الحمامة ، وإدراك عدد من فقراته يتوقف على الإلمام بها .

ويرى غرسية غومث ، ودون أن أمضى معه إلى نهاية الطريق ، أن تلاقى الأضداد فى شخصية ابن حزم ، وازدواجية الصوت عنده ، وتجاور اللطف والخشونة ، والرقة والعنف ، والنبل والعامية ، دون أن يذوب أحدها فى الآخر ، يجعل منه شخصية محببة لنا (الضمير يعود على الإسبان) ، لأنها تضعه إلى جوار عدد من قمم الأدب الإسبانى فى عصره الذهبى ، أولئك الذين يتجلى فيهم مزاج الشخصية الإيبرية واضحا ، مثل الشاعر القرطبى جونجرة Gongora (١٥٦١ — ١٦٢٧) ، والموسوعى كبيدو Quevedo (١٥٨٠ — ١٦٤٥) ، ونستطيع أن نذكر آخرين كثيرين ، ليس بينهم ثرفانتيس مؤلف الرواية العالمية الخالدة دون كيخوته ، وأعطانا المثل رائعا ، ولا يتكرر ، كيف تلتقى متناقضات سلالتنا الجذرية فى تركيب إنسانى ومفهوم ، حاو وحزين ، وإلى ذلك ، وفى خط مواز له ، يمكن أن نضيف الشموخ الإسبانى ، وأعطانا ابن حزم خلاصته فى بيت شعرى ينضح خيلاء ، وفى مرات كثيرة اتخذت منه رمزا للإسلام الإسبانى :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة   ولكن عيبى أن مطلعى الغرب»

● ثائر على الدوام :

كان ابن حزم متمرداً وثائراً فى شبيبته الأدبية ، وفى شيخوخته العلمية ، وحتى آخر رمق من حياته ، مع ظلال مختلفة . توائم كل فترة ، وقليلون سبقوه فى أفكاره ؛ وأقل أولئك الذين ساروا بعده على طريقه ، وحتى أبناؤه أنفسهم كانوا عاديين ، تخلصوا من نير الأدب ، والتصقوا بعصرهم ،وأشهرهم الفضل أبو رافع ، وأصبح وزيراً لبنى عباد فى إشبيلية ، وشاعرهم المداح ، وماأشد ماكرههم أبوه ! ،ومات فى معركة الزلاقة لكى ينتصر المرابطون وهم أشد التصاقاً بالمذهب المالكى ، وضيقاً فى فهمه ، وانصياعاً لفقهائه ، وكانوا أشد الناس ملاحقة لأبيه . ولقد تبعه إلى قريته عدد قليل من الطلاب ، ولكن المدرسة الظاهرية ، وتحديد آسين بلاثيوش لها فى دراسته لابن حزم لا يعلى عليه ، ظلت موضع الملاحقة حتى فى المغرب ،ولم يبق لها غير حياتها الذاتية بالكاد . وأما الثناء النسبي الذى حظى به ابن حزم فى عصر الموحدين ، والتقدير الذى حظى به من علماء عباقرة ، كالغزالى ،وابن عربى ، وابن رشد ، فيعود أكثره إلى ظروف سلبية ، كمعارضتهم لفقهاء المالكية ، أوإلى توافقات عقلية فى المقام الأول ، أكثر مما تعود إلى تقبلهم لآراء ابن حزم ، وشق عليهم من بينها مناهضته العنيفة للأشعرية . والحق أن معظم الدارسين على أيامه ، وبعدها ، حاول أن يرسل به إلى زوايا النسيان، لأنه هاجم الجميع ، ولم يقف بهجومه عند المسلمين ، لقد هاجم ، وبعنف كالعادة، اليهود والمسيحيين ، واستطاع هؤلاء فيما بعد أن يردوا له الصاع صاعين ، حين مضى إلى ركاب الله ، وبدأ عصر الترجمة فى الأندلس المسيحى ، فلم يأخذ اسمه طريقه إلى أوربا فى تلك الفترة ، ولم يصبح فى قامة علماء كانوا دونه ، كابن رشد وموسى بن ميمون ، فخفت اسمه ، وتلاشت سيرته ، وظلت مؤلفاته تحت الأرض لايعرفها إلا عدد قليل للغاية ، وظل كذلك إلى أن اخترعت المطبعة العربية ، وازدهر عصر الاستشراق ، وأفلتت الدراسات الأندلسية فى إسبانيا من قبضة التعصب ، واستردت القاهرة قيادتها الثقافية للعالم العربى .

وإنه لمثير حقا، أن العداوة البالغة ، لهذه الشخصية العملاقة فى تاريخ الأدب الأندلسى ، أسهم فيها رجال الدين المتخلفون فى العالم الإسلامى المعاصر ، واضطلع بالجانب الأكبر منها العلم الأوربى ، واشترك فيها عدد غير قليل من الإسبان ، فظل اسم ابن حزم ، وعلمه ، موضع جدل كبير ونقاش حاد ، ولكن أحداً لم يستطع أن يحجبه أبداً ،وعلى الرغم من كل شىء تقاسمته ألقاب جليلة وكريمة : أحسن شاعر ، وأحسن فيلسوف ، وأحسن متكلم ، يثق فيه علماء البلاغة ، ويجله رجال الأدب ، ويحترمه المثقفون .

كان واحداً من أعظم عمالقة الفكر الإنسانى على امتداد تاريخه الطويل !

فتنة البربر

قدر لابن حزم أن يشهد غروب شمس الخلافة ، وأن يشهد مع غروبها ألواناً من الانهيار السياسي والخلقي ، ومن المظالم والجور ، ما لا مثيل له ، وأن يعيش سنوات حملت من الخيانة والهوان والأحزان والأدران ، فوق ما حملته حياة المصريين قبل ومع هزيمة ٥ يونية من عام ١٩٦٧ . ولا يمكن فهم إبداعه وما ينضح به من مرارة ، ولا أسلوبه وما اتصف به من حدة ، ولا مرمى فلسفته واتجاه أبحاثه ، ولا مثله العليا وطباعه ومزاجه ، إلا إذا أدركنا حقيقة تلك الأيام ، وكانت أقسى مما خط أي مؤرخ ، وأشد هولا من تصوير أي خيال ، وهي أحداث دخلت التاريخ تحت اسم : فتنة البربر أو البرابر ، وشغلت الربع الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد عرضنا لها من قبل إشارة وإجمالا عند دراستنا لحياة ابن حزم ، ما اتصل منها بنشاطه السياسي ، وما أسهم فيه رأياً وتدبيراً وعملا . ونأتى الآن على هذه الأحداث ، من البدء وتفصيلا :

. . .

ورث عبد الرحمن الناصر عندما تولى الإمارة عام ٩١٢م دولة تحكمها الفوضى والحروب الأهلية ، مزقتها الفتنة والفرقة ، موزعة بين عدد من الرؤساء ينتمون إلى مختلف العناصر ، فتخطى الصعاب وتغلب على المشكلات ، وجعل منها خلافة ، عام ٩٢٦ م ، لها من السلطان والقوة ، والغنى والثروة ، والترف والحضارة ، والعلم والثقافة ، ومن المهابة والخوف عند جيرانها ، ما لم تبلغه يوما قبله ولا من بعد .

وبعد أيام مجيدة ، امتدت حتى بلغت ٤٩ عاما ، ما بين إمارة وخلافة ، توفى الناصر فى ١٦ أكتوبر عام ٩٦١ م ، وخلفه ابنه الحكم الثانى ، بوصاة منه ، وتميز بثقافة واسعة ، لا يجاريه فيها واحد من أسلافه ، مكتبته

أحب مكان إليه فى قصره ، ومجالسة العلماء والأدباء أقرب إلى قلبه من حوار القواد وحديث الحروب ، فازدهرت الثقافة على أيامه ، واتسع قلبه لعامة شعبه ، فكان ودودا رحيما محبا للسلام . وعلى أيامه بدأ ينمو حوله ما نسميه فى أيامنا بمراكز القوى ، من خصيان وصقالبة وجوار ، وعرب وبربر ومولدين ، ويهود وآخرين . وعندما لفظ آخر أنفاسه فى ٥ من فبراير عام ٩٧٦ م ، لم يكن حوله غير الخصيين فائق وجؤذر ، وفيما عداهما انت قرطبة ، والأندلس بأسره ، يجهل أن الخليفة قد رحل إلى جوار الله احتفظا بالسر إلى أن يختارا الجماعة التى ينضمان إليها ، وكان هذان الخصيان غليظان ، فى خلقهما ذعارة ، وفى سلوكهما جفوة ، وطالما شكا الناس منهما .

وكان الحكم الثانى قد أخذ البيعة ، فى العام الذى توفى فيه ، لابنه هشام ولياً للعهد من بعده ، فبويع بالخلافة بعد كثير من المؤامرات والدسائس ، ولكنه كان طرى السن ، ضعيف العقل ، محدود الذكاء ، خور العزيمة ، فأخذ الأقوياء من حوله يتقاتلون على السلطة ، وكان الفوز حليف فتى عربى من الأزد ، دخل القصر موظفا بسيطا ، وما لبث أن استرعى أنظار السيدة صبح زوجة الحكم الثانى ، وأم الخليفة هشام الثانى ، جارية من الباسك اسمها فى لغتها Aurora ، ذكية وطموح ، قوية الشخصية ، وذات تأثير بالغ على الخليفة ، فاختارته قائما على أموالها ، بعد أن أعجبت به فكرا ومظهراً ، بين آخرين كثير بن تقدموا للوظيفة ، وتوثقت الصلة بينهما ، فتجاوزت الوظائف والأموال ، لتصبح علاقة حب ، عميق وحنون .

كانت صبح وراء المنصور فى بدء حياته ، رأيا ودعما ومالا ، لكى يصرع فى طريقه إلى السلطة خصومه الأقوياء ، واحداً وراء آخر ، حتى أصبح حاجب الخليفة ، أو رئيس الوزراء فى لغتنا المعاصرة . وحقق بغيته كاملة حين أرسل بالخليفة ابنها ، غضاً وطرياً ، عديم الخبرة والتجربة ، إلى عالم النسيان ، داخل قصر فى ضواحى العاصمة ، لا يزور ولا يزار إلا بإذن من

رئيس الوزراء ، وقلة من الناس فى العاصمة تعرفه اسما أو شخصاً ، ومع ذلك فالجميع يحبونه ويوقرونه ، لأنه رمز الدولة والسلطة الشرعية فيها وابن الخليفة العظيم : الحكم الثانى . وقد دفع المنصور فى طريقه إلى السلطة الثمن غالياً ، تجاوز ذكرياته مع صبح وعارضها ، وأعدم ابنا له تآمر عليه . والحق أن المنصور ، رغم أخطائه العديدة ومنها ما سار فيه على خطى الناصر ، من اتخاذ البربر والصقالبة ، والمأجورين والمرتزقة ، وإقصاء العرب ، أعطى الأندلس ما أعطاه لها عبد الرحمن الناصر قبله ، من الهدوء والوحدة ، والثراء والهيبة ، مما تجاوز الأمم المجاورة وبلغ الخافقين.

فى ربيع عام ١٠٠٢ م قام المنصور بآخر حملة حربية له ، وكانت غاية أمانيه أن يموت مجاهداً ، ويحس فى أعماقه بأن رغبته سوف تتحقق يوما ، ومن ثم فهو يحمل معه دواما كفنه ، وقد خاطته بناته ، واشتراه من حر ماله ، مال جاءه إرثاً من أرضهم القديمة ، وكان يرى أن بقية ثروته وما يملك ويقبض من راتب يختلط فيها الحلال بالحرام ، ويحمل معه التراب الذى تجمع على ملابسه فى غزواته ، ليدفن معه ، فلا يدخل النار من اغبرت قدماه جهاداً فى سبيل الله . وفى مدينة سالم توفى ، فى ١٠ من أغسطس عام ١٠٠٢ ، وفيها دفن عملا بوصيته : أن يدفن حيث يموت . (١)

وقد ولى ابنه عبد الملك الحجابة ، أو إن شئت الحكم ، من بعده ، وعلى عادة الخلفاء اتخذ المظفر لقبا له ، وواصل سياسة والده ، ولكن الأندلس كان يشهد تغيرا جذريا فى حياته ، لقد حل الصراع الطبقى محل الصراع العنصرى ، وظهرت اتجاهات جديدة فى الدين والسياسة ، وطفت على السطح الظواهر العامة التى تسبق أية ثورة ظهرت قديما ، أو حتى فى أيامنا هذه ، والتى ستودى بالخلافة بعد قليل : سخط عام وعميق ،

---

(١) أنظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٨٩ ، هامش رقم ١١ ، بتحقيقنا ، دار المعارف ١٩٧٥

وفساد حقيقى يمتد واقعا أو تصورا إلى الطبقة الحاكمة . وثروات ضخمة تظهر فجأة دون مقدمات ، ولا يملك أصحابها من المؤهلات أو رأس المال شيئا ، إلا صلات مريبة بالحكام ، أو من يتصل بهم من زوجات وبنين وبنات وموظفين ، وشيوع من يحكمون فى الظلام ، أو من وراء ستار ، أو بالتعبير السياسى الحديث ، أولئك الذين يحكمون وليسوا مسئولين لا دستوراً ولا عرفاً ، ومكاسب قليلة . براقة وخادعة ، تسكر الحاكم ، وتذهب بعقله ، وتغرس فيه الغرور بدل التأمل ، ومحاولات غير جادة وفاشلة لوقف ذلك كله . ثم تنفجر الأرض عن تنظيم سياسى خفى ، يأتى بنظام جديد غير متوقع حتى لأولئكم الذين يفكرون فى التغيير أو قاموا به .

ولم تطل أيام المظفر ، شهد طلائع الثورة ، وإمارات التغير ، ورحل فى زهرة شبابه قبل أن يطحنه ثقلها ، عام ١٠٠٨ م ، وقدر لأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وأمه من الباسك مثل هشام الثانى ، أن يتولى الحجابة فى سن طرية ، لا يتجاوز العشرين عاما ، ويفتقد كل الخصائص والمزايا التى كانت لأبيه أو أخيه من قبل . وربما لهذا أقدم على ما لم يقدم عليه واحد منهما : حدثته نفسه بأن يصبح ولى عهد للخليفة هشام الثانى ، وتحدث بهذا لخاصته ، فأثاوت محاولته بنى أمية ، وعامة أهل قرطبة ، فانتهز أحـــد أحفاد عبد الرحمن الناصر ، ويدعى محمد بن هشام ابن عبد الجبار ، وكان المظفر قد قتل والده ، فرصة أن عبد الرحمن شنجول فى غزوة ضد ألفونسو الخامس ملك ليون ، فقاد ثورة استولى بها على قصر الخلافة ، وفى مواجهة الأحداث ، وليحتفظ هشام الثانى بحياته ، أقال عبد الرحمن شنجول من الحجابة ، وتنازل عن حقه فى الخلافة ، ووليها محمد ، واتخذ لنفسه لقب المهدى بالله ، ولمـــا بلغ الخبر عبد الرحمن « قفل إلى الحضرة مدلا بمكانه ، زعيما بنفسه ، حتى إذا قرب من الحضرة تسلل عنه الناس ، من الجند ووجوه البربر ، والحقوا بقرطبة ،

وبايعوا المهدى » ، ثم اعترضه منهم ، من قبض عليه ، واحتز رأسه ، فى ٤ من مارس عام ١٠٠٩ م ، وحمله إلى المهدى ، فصلب وإلى جواره قائد حرسه يلعنه ويلعن نفسه ، وذهبت دولة العامريين :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

* * *

سعدت قرطبة بالنصر الأموى ، وكانت العامة أكثر سعادة ، رأت فيه ، وهى أشد اندفاعا نحو الغضب أو البهجة ، طريقا أفضل ، نحو غد أسعد ، على حين تحفظت الطبقة الوسطى ، وقد أحست بآلام ونتائج الثورة ، قبل أن تقف بجانبها ، وربما راودها أن طغيان العامريين ، وأعطى الازدهار الاقتصادى والمجد العسكرى ، أفضل بكثير من الفوضى ، ومن حكم هؤلاء الجند المستبدين ، يثقلون عواتقهم بالضرائب والمظالم .

وإذا كان المهدى قادرا على أن يأمر بالنهب ، فقد كان غير قادر على منعه ، ولما كان يتوقع ماسيحدث فقد أمر بنقل الأشياء الثمينة من مدينة الزاهرة ، مقر العامريين ، إلى قرطبة ، ولكن الخبثاء سبقوه ونهبوا كل ما فى القصور وماحولها حتى الأبواب ، على امتداد أربعة أيام كاملة ، ولم يستطع الخليفة أن يصنع شيئاً لمقاومة النهب ، أو لم يجرؤ فى الحقيقة ، وقد تردد قليلا ، ثم اندفع يأخذ بحظه من الغنائم ، ورغم أن الجماهير سبقته إليها ، كان نصيبه منها كثيراً : مليونا ونصف مليون دنانير من الذهب ، ومليونين ومائة ألف دراهم من الفضة ، وبعد ذلك بزمن عثر على صناديق فيها مائتا ألف دينار ذهبى ، وعندما أفرغت القصور من محتوياتها أضرمت فيها النيران ، وعادت المدينة الجميلة كومة من الخرائب والأنقاض .

ولم ترد الجماهير ، وهى التى صنعت الثورة ، أن يكون حكامها من القواد القدامى ، أولئك الذين كانوا من شيعة المنصور وجنده ، فجاء محمد المهدى بقواد من الشعب ، من الطبقة الوسطى ، أطباء ونساجين وجزارين وسراجين ، وبدا الأندلس بلدا ديمقراطيا لأول مرة فى تاريخه ، لقد

أفلتت السلطة من يد العامريين ومن طبقة الخاصة على السواء .

* * *

فى البدء بدا كل شيء وكأنه يسير تبعاً لرغبة المهدى، لقد رفعه شعب قرطبة إلى الخلافة ، واعترف به البربر ،وتلقى رسالة ولاء من واضح ،أقوى الصقالبة ، وحاكم الثغر الأدنى ، ولما تمض على مصرع عبد الرحمن شنجول غير خمسة أيام ، ولم يكن المهدى يتوقع منه ولاء سريعا ، لأن واضحاً يدين بمركزه وثروته للمنصور بن أبى عامر ، والد عبد الرحمن ، ولهذا أسرع المهدى فالتقط القفاز ، وأرسل إليه أموالا ، وملابس شرف ، وجوادا ، وبراءة بتوليته على كل الثغور .

والتفت كل الجماعات ، فى الظاهر على الأقل ، حول الحكومة منذ اللحظة الأولى ، ولو أن الإجماع وقعا أقل قوة وتماسكا مما يبدو للعيان ، كان تيار الثورة يندفع من وراء ظهر السلطة ، فقد أدرك الناس سريعا أن ذهاب العامريين لا يعنى أن الأمور استقرت ، و المظالم انتهت ، والمفاسد توقفت ، وليس ثمة مايشتكى منه ، فى ظل الحكم الجديد . ولم يكن المهدى يتمتع بالذكاء أو الفضيلة ، قاس ودموى وأحمق وغارق فى الملذات ،وزاد فأخرج العامريين من قرطبة ، وفصل أعدادا كبيرة من العمال واستغنى عن خدمات جمع كبير من الصقالبة ، وأغضب الأتقياء لأنه قل ما يخرج من القصر ، وفيه يتجاوز نزواته ، واشتدت ثورة هؤلاء حين علموا أنه يقيم حفلات ساهرة ، يبلغ الموسيقيون فيها مائة، مابين عازف على العود أو الناى، صنيع شنجول من قبل ، وهو ما بغض الناس فيه . وأطلقوا عليه اسم « السكير » ، واتهموه بأنه خرب البيوت ، ومزق الأسر ، ونهب الممتلكات ، مثل ما كان يفعل سابقوه ، وهكذا بدأ يدفع بالرأى العام كله إلى صفوف المعارضة .

لقد أصبح ضده الشعب والصقالبة والأمراء ، وكل الناس الطيبين ، ولم يصنع شيئاً يستبقى به البربر، واختاروا جانبه بإرادتهم ، ولم يكن لهم

فى الجانب الآخر مكان ، لأن سكان العاصمة يكرهونهم من الأعماق ، ولم ينسوا لهم أبدا أنهم كانوا العمد التى قام عليها الطغيان العامرى ، ولولا مالهم من العصبية لاستأصلهم الناس . وأمرهم المهدى ، وربما تملقا لسكان قرطبة ، ألا يركبوا ولا يتسلحوا . ورد بعض رؤسائهم من باب القصر ، ولم يكن ذلك حالهم فى ماضى الأيام . وأحس البربر ، رغم قوتهم ، أنهم لم يعودوا يمثلون شيئا فى الدولة ، وأن قصورهم نهبت دون أن تحاول الشرطة حمايتهم ، فمضى وفد منهم ، على رأسه زاوى بن زيرى ، لمقابلة الخليفة ، وشكوا اليه ما أصابهم ، فخاف موقفهم ، واعتذر إليهم ، وقتل من أتهم من العامة فى أمرهم . وما لبث أن شفى من رعبه ، وعاد من جديد يظهر بغضهم ، ويجاهر بسوء الثناء عليهم .

كان المهدى يقدر خطر البربر تماما ، رغم ما يمكنه لهم من بغض ، وأشد ما يخشاه أن يصبح اسم هشام الثانى ، الخليفة المعزول ، راية تلتقى عندها كل الجماعات التى أساء إليها ، عامدا أو دون قصد ، ففكر واهتدى إلى حل وسط ، ألا يقتل أسيره ، وأن يكتفى بإعلان موته . وفعلا فى ٢٦ أبريل ١٠٠٩ م توفى مسيحى ، أو يهودى ، كبير الشبه بهشام ، فأمر المهدى بحمل جثته إلى القصر سرا ، وأظهره لأشخاص يعرفون هشاما ، وسواء أكان الميت صورة دقيقة من هشام أم لم يكن ، فالذين شهدوه قبضوا ، وأعلنوا أن هذه جثة هشام الخليفة السابق ، ودعا المهدى بالفقهاء وعلية القوم ، وصلى على الميت صلاة الجنازة ، ودفن فى مقابر المسلمين ، فى جلال ملكى يليق بخليفة سابق ، بينما هشام الحقيقى سجين فى أحد قصور وزرائه .

وبعدها ظن الخليفة أنه يستطيع أن يصنع أى شىء ، فأودع السجن فى شهر مايو واحداً من أبناء عبد الرحمن الناصر ، متقدماً فى السن ، يدعى سليمان ، دون أن يعرف السبب ، وترك الناس يتحدثون عن رغبته فى قتل عشرة من رؤساء البربر ، فتجمع هؤلاء بزعامة هشام بن سليمان ، وبايعوه بالخلافة ، واتخذ لنفسه لقب الرشيد ، وأشار ابن حزم إلى ثورته فى طوق

الحمامة ، وقد استطاع أن يجمع حوله سريعاً سبعة آلاف مقاتل ، من المناوئين للمهدى ، ومضى بهم إلى فحص السرادق ، شمال قرطبة ، وهناك انضم إليهم البربر ، فسار بهم جميعاً إلى قصر المهدى ، وقد أخطر الخليفة بالثورة وهو غارق فى ملذاته ، وانتزع منها بقوة لكى يواجه الأمر ، فأرسل يسأل : ماذا تريدون ؟ . ورد هشام الرشيد : أنت وضعت والدى فى السجن ، وأجهل مصيره . فأطلق الخليفة فى الحال سراح سليمان ، وظن أن الجماهير سوف تقنع وتنصرف ، وخدع نفسه ، لأن هشاما أرسل إليه يسأله أن يتنازل عن الخلافة .

وأراد المهدى أن يكسب الوقت : فتظاهر بالرغبة فى التحادث مع هشام ، وطال الحوار ، ونفد صبر البربر والعمال ، فانطلقوا يعملون دون انتظار لنهايته ، نهبوا حوانيت سوق الحرس وأحرقوها ، وحينئذ حمل القرطبيون السلاح ، دفاعاً عن بيوتهم ، لا عن الخليفة ، وجاء الجنود لمساعدتهم ، واستمرت المعركة يوماً بأكمله ، وفى صباح الجمعة ٣ من يونية ، فر البربر نجاة بأنفسهم ، فى فوضى منقطعة النظير ، وقد لاحقهم القرطبيون حتى ضفاف وادى أرملاط على حين احتل آخرون منازلهم ، وأخذوا نساءهم ، وأسر هشام ووالده . وأمر الخليفة المهدى بقطع رأسيهما .

ومالبث البربر أن أعادوا تنظيم صفوفهم ، وأقسموا أن يثأروا لهزيمتهم ، أقوياء وشجعان لكن مهارتهم محدودة ، غير أن زاوى بن زيرى كان معهم لحسن حظهم ، وينتمى فى قبيلة صنهاجة ، وكانت تحكم جانبا من أفريقية عاصمته القيروان ، وهى أكثر تحضرا ، وأشد ذكاء من بقية أخوتهم . وقد فهم زاوى أن من الضرورى قبل أى شىء البحث عن منافس فى مستوى المهدى ، لإعطاء التمرد طابعا شرعيا ، فبحث بين أحفاد عبد الرحمن الناصر عمن يصلح لهذه المهمة ، فوقع على سليمان بن الحكم بن سليمان ، حفيد عبد الرحمن الناصر ، وابن أخ هشام الرشيد ، وعرض على رفاقه أن يبايعوه خليفة ، فعارض بعضهم ، لأن سليمان رجل طيب ، ليست لديه

الإرادة ليكون رئيس جماعة، ولاالتجربة ليصبح قائد جيش، ورفض آخرون أى رئيس عربى ، ولكن زاوى أقنعهم فاستجابوا له ، وبايعوا سليمان ، واتخذ لقب المستعين، ومنذ البدء لم تكن له أية سلطة على البربر ، اختاروا قوادهم دون مشورته ، لم يكن بالنسبة لهم غير أمير أموى أعارهم اسمه ليعملوا فى ظله .

ورحل البربر إلى وادى الحجارة ، واحتلوا المدينة ، وعرضوا على واضح أن يعملوا معا ، وأن يفتح لهم أبواب مدينة سالم ، ولكن واضحاً رفض ، وتلقى إمدادات من المهدى فهاجمهم ، وطاردوه ، ولم يسعدوا بانتصارهم طويلا ، لأن واضحا قطع عنهم التموين ، وخلال أسبوعين لم يكن لديهم ما يأكلونه غير الحشائش ، ولمواجهة هذا الحصار أرسلوا جماعة منهم إلى شانجه ، كونت قشتالة ، يطالبون تدخله ، ويعرضون عليه تحالفهم ، إذا رفض المهدى وواضح الصلح معهم .

وعندما وصل السفراء إلى قصر الكونت وجدوا سفارة من المهدى سبقتهم إليه ، تسوق بغالا وخيولا وهدايا أخرى ، ووعدوه بالتنازل له عن عدد من القلاع والحصون إذا أسرع إلى مساعدة خليفة قرطبة ، وسبحان مغير الأحوال ، لقد أصبح خلفاء قرطبة يتلقون الأوامر من أمراء المسيحيين فى الشمال ، فيما يتصل بأخص شئونهم ، وما يتوقف عليه مستقبل بلادهم !.

كان شانجة يعرف أخبار جيرانه جيدا ، وأدرك أن بقاء المهدى مرتبط بخيط رفيع ، فوعد البربر بأن يقف إلى جانبهم ، إذا وعدوه بأن يتنازلوا له عن القلاع والحصون التى وعد المهدى بأن يتنازل له عنها ، فوافقوا ، حينئذ صرف شانجه رسل المهدى ، وأرسل إلى معسكر البربر ألف ثور ، وخمسة آلاف خروف ، وألف عربة محملة بالأغذية ، وأعد البربر أنفسهم فورا ليبدأوا حملتهم ، وعندما انضم الكونت شانجه إليهم ، أخذوا طريقهم إلى مدينة سالم . وعندما وصلوا أسوار المدينة حاولوا ، ثانية ، أن يكسبوا واضحاً إلى جانبهم ، فلم ينالوا منه أكثر مما نالوا من قبل ، واعتقدوا بحق أن

عليهم ألا يضيعوا وقتهم ، فأخذوا طريقهم نحو قرطبة ، فى شهر يولية من عام ١٠٠٩ م ، فتبعهم واضح وهاجمهم ، واضطر بعد أن فقد الكثير من رجاله أن يلوذ بالفرار عائدا إلى قرطبة .

علم المهدى بسير البربر نحو قرطبة ، فجند كل القادرين على حمل السلاح ، ولم ينتظر وصول العدو ، فخرج يبحث عنه ، والتقى الجيشان فى قنطيش ، فى ٥ من نوفمبر ١٠٠٩ م ، وكانت نتيجة المعركة هزيمة مروعة للقرطبيين ، كانوا حشداً غير مدرب ولا منظم ، ما بين شيخ ضعيف وحدث غر ، فاستطاع ثلاثون فارسا من البربر أن يقتحموا صفوفهم ، فولوا هاربين لا يلوى بعضهم على بعض ، ووضع البربر السيف عليهم ، وقتلوا منهم خلقا عظيما ، وغرق كثير منهم فى الوادى ، وفنى الجميع بسقوط بعضهم على بعض ، ودخل البربر أرباض قرطبة ، وبات الناس على سطوح دورهم فى وجل وخوف .

وأدرك واضح فى الحال أنهم خسروا كل شئ ، فانسحب مع فرسانه نحو الشمال ، ولاذ المهدى بقصره ، وبعد قليل حاصره البربر ، فظن أنه ينجو بنفسه ، إذا رد الخلافة لهشام الثانى ، فأخرجه من السجن ، وأقعده فى مكان حيث يراه الناس ، وأرسل القاضى ابن ذكوان إلى البربر ليقول لهم : إن هشاما المؤيد لما يزل حياً ، وأنه يعترف به خليفة ، وليس هو إلا حاجباً له . وضحك البربر من الرسول ومن الرسالة ، وردوا عليه : سبحان الله يا قاضى ! ، يموت هشام بالأمس ، وتصلى عليه أنت وغيرك ، واليوم يعيش ، وترجع إليه الخلافة ! . وخلال المفاوضات كان القرطبيون يرتعشون لمجرد رؤية سليمان المستعين ومعه البربر يهددون أسوار مدينتهم ، فخرجوا للقائه واعترفوا به خليفة .

وبينما سليمان يأخذ طريقه إلى داخل العاصمة ، ارتكب البربر والقشتاليون كل الجرائم التى تخطر على البال ، وأفلت المهدى واختفى فى قرطبة ، وطالب شانجه من سليمان أن يوفى له بوعده فى التنازل عن القلاع والحصون ، واعتذر

سليمان بأنها ليست فى يده الآن ، ووعده للمرة الثانية بأن يتركها له حين تصبح ملكه ، وحينئذ غادر كونت قشتالة قرطبة مع جنوده ، فى ١٤ نوفمبر ١٠٠٩ م ، وقد جمعوا ثروات طائلة ، مما نهبوا من أملاك القرطبيين.

وخلال ذلك وصل المهدى إلى طليطلة ، فاستقبله أهلها فى حفاوة ، فتبعه سليمان ، وأرسل إلى أهل طليطلة من يحذرهم غضبه إذا استمروا فى تمردهم عليه ، ولم يستجيبوا له ، وتحاشى أن يقتحم هذه القلعة الحصينة ، فتجاوزها إلى مدينة سالم ، على وهم أنها سوف تسقط يوماً . وخلال سيره انضم إليه عدد كبير من الصقالبة ، فاستولى على مدينة سالم دون قتال ، لأن واضحاً أخلاها له ، ولجأ إلى طرطوشة ، ومن هناك كتب إلى سليمان أنه يعترف به خليفة طالما تركه باقياً فى منصبه ، أراد بموقفه هذا أن يكسب وقتاً ، وأن يفلت من ملاحقة سليمان . وكان له ما أراد .

وحين أطلقت يد واضح تحالف مع أمراء قطلونية ، ووعدهم بكل ما يريدون ، ورحل إلى طليطلة مع جيشه ، وجيش آخر من القطلان ، انضموا إلى المهدى فيها ، وساروا جميعاً إلى قرطبة ، ثلاثون ألف مسلم وتسعة آلاف مسيحى ، وحين علم سليمان استنفر أهل قرطبة للقائهم ، فأظهروا العجز ، وجبنوا ، وطلبوا منه معافاتهم ، وآثر البربر أن يكون لهم وحدهم شرف تحقيق النصر ، والتقى الفريقان فى قرية عقبة البقر ، على مسافة غير بعيدة من قرطبة ، فى النصف الأول من شهر يونية عام ١٠١٠ م وقد وضع البربر سليمان فى ساقة الجيش ، وجعلوا معه خيلا من المغاربة ، ونصحوه ألا يترك موضعه حتى ولو وطئته الخيل ، ثم تقدموا ، فحمل القطلان عليهم حملة شديدة ، فتراجع البربر لهم ليتمكنوا منهم ، فلما رأى سليمان خيل الإفرنج خرقت صفوف البربر ، قدر أنهم هزموا فولى هارباً ، على حين كر البربر على العدو ، فقتلوا من القطلان سبعين قائداً وأميرهم ، ولما رأى البربر سليمان فارق موضعه انحازوا إلى الزهراء ، وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سليمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة

مدينة الزهراء ، فنهبوا ما وجدوا فيها ، ودخلوا الجامع ونهبوا حصره وقناديله ، ومصاحفه وسلاسل قناديله ، وصفائح أبوابه .

* المهدى خليفة من جديد :

ودخل المهدى قرطبة ، وتعرضت المدينة السيئة الحظ لنهب شامل من القطلان ، كما نهبها البربر والقشتاليون قبل تسعة أشهر ، وأخذت له البيعة خليفة للمرة الثانية ، وكان هشام المؤيد أول من بايعه . ثم خرج يلاحق البربر ، وقد انسحبوا نحو الجزيرة الخضراء ، والتقى معهم عند التقاء وادى آره بالوادى الكبير ، على مقربة من رندة ، وفى المعركة حقق البربر نصراً ثأروا به لهزيمتهم فى موقعة « عقبة البقر » ، وهزم جيش المهدى ، وقتل عدد كبير من القواد الصقالبة ، وأكثر من أربعة آلاف من القطلان ، ولقى عدد كبير من الجنود حتفهم غرقاً فى مياة الوادى الكبير .

وعاد المهزومون إلى قرطبة ، وبلغ الغيظ بالقطلان مبلغه ، فأرادوا أن يثأروا لهزيمتهم من عامة الناس ؛ فقتلوا كل أولئك الذين يشبهون البربر على نحو ما ، وكل من أراد أن ينتقم من شخص صاح فيه هذا بربرى ، فيقتل دون أن يسأل ، وأخذ جندى قطلونى ابنة رجل من البادية جميلة ، وعرف أبوها ، فحمل شكواه إلى واضح . وقال إنها ليست بربرية ، فرد عليه ، دعك من هذا ، ما إلى ردها إليك من سبيل ، وعلى ذلك عاهدناهم ، فمضى الرجل باكيا إلى الجندى ، وحمل إليه ٤٠٠ دينار ذهبى يفتدى بها ابنته ، فأخذها منه ثم قتله !

وطلب المهدى من القطلان أن يعودوا إلى قتال البربر من جديد فامتنعوا ، زعموا أن ما خسروه من الرجال لا يسمح لهم بالعودة إلى القتال ، وتركوا قرطبة فى يوم الجمعة ٨ يولية ، ورغم كل السوء الذى ارتكبوه ، حزن أهل قرطبة لرحيلهم ، حتى كان بعضهم يلقى بعضه فيعزيه جزعاً وخوفاً من عودة البربر بعدهم . وبدأ المهدى زحفه نحو البربر ، ولكن جيشه فقد أهميته بعد رحيل القطلان ، وبعد مراحل من سيره تغشاه رعب قاتل ،

وامتلأ داخله خوفاً من البربر ، فعاد إلى العاصمة من جديد ، ينتظر العدو فيها ، وأمر بحفر الخنادق حولها ، ولكن القدر أراد له أن يسقط قتيلا بيد الصقالبة ، لا بيد البربر .

لقد كان واضح إلى جانب المهدى ، ولكن صقالبة آخرين ، مثل خيران وعنبر ، ظلوا فى الجانب المعارض ، وقد أدركوا أخيراً أن عليهم أن يتحدوا إذا أرادوا أن يحققوا مطامعهم ويستولوا على السلطة ، وقرروا أن يلتفوا من جديد حول هشام المؤيد ، ولتحقيق مخططهم تولى واضح إثارة السخط بين أهالى قرطبة ، فأرسل الإشاعات تدق كل باب عن حياة خليفة لا يفيق من السكر ، بين ملذاته ونسائه ، وأنه يهاجم علناً فوضى الجند واعتداءاتهم ، ويرضى عنها سراً ، بل ويحضهم عليها . وعندما أتت الإشاعات على ما بقى للخليفة من شعبية وهيبة ، سارع خيران وعنبر وقواد آخرون من الصقالبة ، كانوا يعملون فى جيش سليمان بتقديم خدماتهم للمهدى ، وما إن دخلوا قرطبة حتى بدأوا يعملون على إسقاطه ، وفى يوم الأحد ٢٣ من يولية ١٠١٠ طاف الصقالبة شوارع قرطبة على خيولهم يصيحون : « تحيا هشام المؤيد » ، ثم أخرجوه من سجنه ووضعوه على العرش .

فى تلك اللحظة كان المهدى يأخذ حمامه ، وأعلم بما حدث ، فطار إلى القاعة وجلس إلى جانب هشام ، ولكن عنبر شده بقوة ، وحمله ليكون فى مواجهته ، وقد أنبه هشام فى مرارة ، وعاتبه على ما ارتكب فى حقه ، وما عانى بسببه ، ثم أخذه عنبر من ذراعه ، وشده إلى المنصة ليقطع رأسه ، فأمسك المهدى بيده المشرعة ، وفى اللحظة نفسها سقطت عليه سيوف صقالبة آخرين .

لقد اعتلى العرش بمؤامرة ، ومؤامرة أخرى أنزلته عنه ، وعن الحياة !

* * *

مع هشام الثانى ، ضعيف ومحاصر ، أصبح الصقالبة أكثر من أقوياء ، وتولى واضح منصب الحجابة ، وحاول أن يحكم الأندلس على نحو ما فعل من قبل سيده المنصور بن أبى عامر ، ولم يدرك أن الظروف تغيرت كثيراً ، وأنه ليس المنصور . ولم يجد فى البدء معارضة من سكان العاصمة ، وعرضت رأس المهدى فى الشوارع دون أن تسمع همهمة واحدة ، فليس ثمة من يحن إلى أيام هذا الطاغية ، وداعب الأمل واضحاً فى أن البربر سوف يعترفون بالخليفة الذى رد إليه تاجه ، وأقنع نفسه بهذا ، وكان واهماً ! .

وعندما بعث إليهم برأس المهدى يطالب منهم الولاء لهشام غضبوا ، وتدخل سليمان لحماية من حملوا الرسالة حتى لايفتكوا بهم ، وبكى سليمان نفسه ، فاضت دموعه غزيرة ، حين رأى رأس ابن عمه . فأخذها ونظفها ، وأرسل بها إلى عبيد الله ، ابن المهدى ، وكان قد اتخذ من طليطلة مقاماً .

وجد واضح البربر على غير ما توقع ، وعرف أن له أعداء فى العاصمة نفسها ، وأن بعض الأمويين لايرضون حكم الصقالبة ، ويرون مصلحتهم فى أن يؤيدوا سليمان ، وقد أرسلوا إليه سراً أن يعود إلى العاصمة ، وحددوا له يوم ١٢ من أغسطس . وأنهم سوف يسلمونه المدينة ، ووعدهم سليمان بتحقيق رغبتهم . وعرف واضح المؤامرة ، أعلمه بها خيران وعنبر ، فاعتقل المتآمرين ، وعندما وصل سليمان إلى أسوار المدينة فى اليوم المحدد ، واجه هجوماً عنيفاً فارتد القهقرى سريعاً .

وظن واضح أن الهزيمة أضعفت البربر ، فعاد يفاوضهم من جديد ، دون أن يحقق شيئاً ، و الوقت نفسه كان سليمان يطالب عون شانجه ملك قشتالة ، حليفه القديم ، ووعده بأن يتنازل له عن عدد من الحصون والقلاع على الحدود بينهما ، كان المنصور قد استولى عليها . ووجد الكونت الفرصة مواتية لتوسيع رقعة مملكته دون حاجة إلى القيام بحملات حربية ضد الأندلس ، فأرسل إلى واضح بأن يتنازل له عن هذه الحصون

والقلاع ، وكانت فى قبضته ، وإلا فسوف يساعد البربر . ولم يجرؤ واضح على اتخاذ القرار وحده ، فدعا القاضى والفقهاء والعدول ، وأبلغهم برسالة شانجه ، وطلب منهم الرأى . وأخرس الخوف من رؤية البربر ، ومعهم القشتاليون لمساعدتهم ، الإحساس بالشرف القومى فى أعماق هؤلاء السادة ، فكان رأيهم : أن يستجيب لمطالبه !! . وفى شهر سبتمبر ، أو أغسطس ، عام ١٠١٠ م ، وقع واضح معاهدة مع شانجه ، تنازل له فيها عن أكثر من مائتين ، بين قلعة وحصن . واتخذ بقية أمراء الشمال من المسيحيين الحادث مثلا يحتذى . إنهم يستطيعون بشىء من التهديد والصخب أن يأخذوا ما يريدون من حصون وقواعد ، فأرسل لهم كونت آخر يطلب منهم بدوره أن يتنازلوا له عن عدد من الحصون والقلاع وإلا انضم لسليمان والبربر ، فلم يجرؤوا على أن يرفضوا له طلبا ولقد ساءت حال القرطبيين بعد العامريين ، وكان عليهم أن يحنوا رءوسهم أمام أعداء دينهم ، وأن يعانوا من نزوات الحاكم ، صقلبياً أو بربرياً ، وأن يتعرضوا للنهب والمظالم من أولئك وهؤلاء ، وباختصار أن يتحملوا كل النتائج التى تعرض للشعوب حين تذهب إلى الثورة ، وتلقى بنفسها فى أتون الفتن ، دون أن يكون وراءها هدف واضح محدد ، ودون أن تدفعها أفكار سامية وعظيمة !

ضرب البربر الحصار على قرطبة على امتداد شهر ونصف ، نزلوا ربضى شقندة وفج المائدة ، يغيرون على العاصمة ويقتلون ، وواضح وجنده خلف السور لايتجاوزونه شبراً ، وأصاب الناس ضيم مروع فى الأنفس والأموال ، وزاد الحال سوءاً تفشى المرض والوباء . ثم توجهوا إلى الزهراء ، وأصبحوا سادتها بعد حصار دام ثلاثة أيام فحسب ، لأن قائداً خان واجبه ، وسلمهم أحد أبواب المدينة ، فى ٤ نوفمبر ١٠١٠م ، وبدأت المذبحة فى الحال ، قتلوا حرس المدينة بأجمعه تقريبا ، ولجأ سكانها إلى المسجد ، ولكن حرمته لم تمنع البربر من اقتحامه ، وأتوا ذبحا على جميع من فيه ، دون تفرقة بين الشيوخ والشباب والنساء والأطفال ، وبعد أن نهبوا المدينة

أشعلوا فيها النار ، ومن ذلك اليوم تحولت هذه القصور ، أفخم ما عرفت أوربا فى العصر الوسيط وما بعده ، وحتى أيامنا ، إلى أكوام من الخرائب والأنقاض . وخرب واضح منية الرصافة ، حرقاً وتدميرا ، وكانت من أجمل ضواحى قرطبة ، خيل إليه أن البربر سوف يقتحمونها ، فسبقهم إلى نهبها وتدميرها .

ولم يتوقف البربر عند العاصمة . فأخذوا يغيرون خلال الشتاء على ماحولها ، ينهبون ويحرقون ويخربون ويقتلون ، ومنعوا دخول الأغذية إلى العاصمة ، ويرسل إليهم واضح كتائب من الفرسان فلا تلقاهم خوفا ، وإنما ينهبون مافضل منهم فى القرى والأقاليم ويعودون . ونزح أهل الأرياف إلى العاصمة أفواجا ، خوفاً من البربر ، وصاروا أكثر من أهلها ، ومات أكثرهم جوعا بها ، أو مقتولا بخارجها ، وفنيت مواشيهم ، وكان من الصعب إيواءهم فمات أغنامهم جوعا ، بعد أن « أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم ، وأكلوا الميتة والجيف ، وكان قوم فى السجن فمات منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن كانوا يشربون الخمر ظاهرا ، وأصبح الزنا مباحا ، واللواط غير مستور ، ولاترى إلا مجاهراً بمعصية » .

وكانت الحكومة فى النزع الأخير ، وباع واضح الجانب الأكبر من مكتبة الحكم الثانى ، ليحصل على شىء من المال ، وبدأ الناس ينزحون إلى السواحل والبوادى ، ووقعت أكثر المدن أهمية فى يد البربر ، وتعرض سكانها لما تعرض له سكان الزهراء . وتحولت القرى إلى صحارى مجدبة ، وتمضى بك السبل أياما وأياما قبل أن تلقى كائناً حيا ، فى طرق كانت من قبل عامرة بالذاهبين والعائدين .

وفى صيف عام ١٠١١م ، أناخ الشقاء بكلكله على الأندلس بعامة ، وقرطبة بخاصة ، وأخذ ينمو من جوانبه ويشتد ، فاجتاحها الطاعون ، وحدثنا عنه ابن حزم فى « طوق الحمامة » ، وأن أخاه ذهب ضحية له ،

وبدت المدينة التعسة كما لو كانت سعيدة بآلامها ، فهى تزيد النار التهابا ، والشقاء ضراما ، بما تختلف فيه ، وتكاتفت الطبيعة على تكثيف آلامها ، فتدافعت السيول ، وفاض نهر قرطبة ، على امتداد أيام ثلاثة . فهدم فى قرطبة وأرباضها نحو ألفى دار ، وما لا يحصى من المساجد والقناطر ، ومات فيه نحو من خمسة آلاف ردماً وغرقا ، وذهبت أمتعة الناس وأموالهم ، وهدم أكثر السور ، وردم كثيراً من الخندق . ونسب الجنود إلى واضح أنه سبب الشقاء الذى يعانون ، وأدرك آخرون أنه بيت النية على الهروب ، وأخذ القائد الصقلبى ابن وداعة ، وكان على شرطة المدينة ويكره واضحا من أعماق قلبه ، يغذى هذا السخط ، وأهين واضح علانية ، وحين أحس بضعف موقفه عهد إلى رجل يعرف بابن بكر أن يحمل رغبته فى السلام إلى سليمان ، فأثار عمله أقوى موجة من الغضب ، وعندما عاد ابن بكر من سفارته تلقفته السيوف دون أن يتيحوا له فرصة إعلان الرد الذى تلقاه ، اغتالوه بمرأى الخليفة ومرأى واضح ، واحتزوا رأسه ، وطافوا به البلد ، وحينئذ قرر واضح أن يلجأ بين البربر . ولكن الجند بقيادة ابن وداعة اقتحموا عليه القصر فى ١٦ أكتوبر ١٠١١م ، وعاتبوه على ماتكلف من الأموال ، وما عزم عليه من مصالحة البربر ، ثم قام إليه ابن وداعة فضربه بالسيف ، وحمل عليه القوم ، واحتزوا رأسه ، وطافوا به الشوارع على رأس رمح ، كالعادة ، وألقوا جسده فى الرصيف ، إلى جانب جثتى المهدى وابن عسقلاجة .

ومر عام ونصف قبل أن يجىء البربر ، لينتزعوا من الصقالبة ومن القرطبيين متعة الاغتيال المتبادل ، وعبر هذه الفترة اشتد ابن وداعة على أهل الريف ، وهابة الجند وغيرهم ، ودفع بالفقهاء درجات إلى الوراء ، ودعا إلى الجهاد ، ولم يعد لدى القرطبيين أى شك فى المصير الذى سوف ينتظرهم على يد البربر ، فازدادوا كراهية لهم ، وتعصبوا عليهم ، وقتلوا كل من أتى على ذكر الصلح معهم ، قتلوا فى الحال

رجلا من وجوه أهل العلم قال فى المسجد الجامع : اللهم أصلح علينا ! ، وقتلوا آخر فى المكان نفسه ، قال : إن الله أحب الصلح وأمر به . ومثل ذلك كثير .

ثم وقع فى أيدى القرطبيين محارب بربرى ممتاز ، فى شهر مايو من عام ١٠١٢م ، حباسة بنى ماكسن ، كان قد نزل عن جواده ليستريح بعد معركة ساخنة ، فأرسل فيه صقلبي سهما ، وأطبق عليه صقلبيون آخرون ، وأخذوه أسيرا ، وحين عرفوه شفوا غلهم منه ، لطالما احتقرهم وأكثر القتل فيهم ، احتزوا رأسه وأرسلوا به إلى القصر ، وتركوا جثته لعبث العامة ، سحلوه فى الشوارع ، ومثلوا به ، مزعوه قطعا ، ثم أسلموه إلى النيران ؛ وحاول أخوه حبوس أن يسترد جثته فلم يستجيبوا له وقد حزن عليه البربر جميعا ، وعزموا على أن يثأروا له ، وضاعفوا من قوتهم ، ولكن اليأس أمد القرطبيين بقوة خارقة ، وقادهم ابن وداعة فى هجوم قوى ، واضطر البربر إلى رفع الحصار ، وعرف أيضا كيف يصدهم عن إشبيلية ، وسرعان ما ظهر البربر أمام أسوار العاصمة من جديد ، وعلى الرغم من مقاومة القرطبيين المستميتة ، استطاعوا أن يعبروا الخندق ، وأن يستولوا على الجانب الشرقى من المدينة ، ولكن الحظ ، وللمرة الثانية ، اتخذ جانب القرطبيين ، فأرغموا أعداءهم على الرحيل عن الحى الذى استولوا عليه ، وكان هذا آخر انتصار لهم ، ففى يوم الأحد ١٩ من إبريل ١٠١٣م ، اقتحم البربر المدينة من الباب المقابل لربض شقندة ، لأن قائدا خائناً باع لهم نفسه وأسلمهم الباب .

ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها أنهاراً من الدماء ، لقد انسحب منها الصقالبة عندما فقدوا الأمل ، واندفع البربر عبر الشوارع فى صياح حاقد ومرعب ، ينهبون هنا ، وينتهكون الأعراض هناك ، ويغتالون فى كل مكان ، وذهب كثيرون من الطيبين والشيوخ ضحية الغضب الأعمى : قتل سعيد بن منذر شيخ متهالك ، اشتهر بالورع والتقوى ؛ وكان خطيب المسجد الجامع

منذ أيام الحكم المستنصر ، وقتل مروان بن يحيى من أسرة بنى حدير الشهيرة ، وكان قد فقد عقله نتيجة إخفاقه فى حب له ، وقتل ابن الفرضى ، صاحب تاريخ علماء الأندلس ؛ وقاضى بلنسية أيام المهدى ؛ وكان قد سأل الله الشهادة فى آخر حجة له ؛ فاستجاب الله دعاءه ، وبلغ الضحايا من الكثرة عدداً كبيراً ، حتى أن أحداً لم يفكر فى عدهم ، أو يعط لهم رقماً . وجاءت الحرائق حارة متوهجة ، ساطعة الضوء ، تلقى بأنوارها على هذه المشاهد المرعبة ، واتخذت لها وقوداً من أعظم القصور فخامة وترفاً ، ومن بينها قصور ابن حزم وآله ، وقد بكاها شعراً ونثراً فى صفحة رائعة من كتابه « طوق الحمامة » .

وبعد يومين من احتلال المدينة دخل سليمان قصر الخلافة ، وجاء القرطبيون الذين أفلتوا من سيوف البربر صدفة ، واصطفوا فى طريقه ، يطل الرعب من عيونهم ؛ وجرحى فى أعماق قلوبهم ، « متلقين له ، ومسلمين عليه » ، فأنشد متمثلا :

إذا ما رأونى طالعاً من ثنية ... يقولون : من هذا ؟ وقد عرفونى
يقولون لى : أهلا وسهلا ومرحباً ... ولو ظفروا بى ساعة قتلونى

وجىء بهشام المؤيد ، فاعتذر لسليمان ، وتبرأ من الخلافة ، خلع نفسه ، وسلم الأمر إليه ، وغاب عن الناس خبره ، قيل قضى عليه عند دخوله القصر ، وقيل فر . واستقر البربر بدءاً فى مدينة الزهراء ، وسكنوا القصور التى أفلتت من قبضة النيران ، وبعد ثلاثة شهور فاضت بهم ، فزحفوا على العاصمة ، وحكم على القرطبيين بالنفى ، باستثناء الذين يقيمون فى المدينة ، وفى الجانب الشرقى ، وصودرت أملاكهم لصالح المنتصرين ، « ولحق بيوتات قرطبة معرة فى نسائهم وأبنائهم » .

* * *

منذ بداية الفتنة أعلن عدد من الولاة استقلالهم ، وجاء استيلاء البربر

على قرطبة ضربة قاصمة لوحدة الخلافة الأندلسية ولم تعد سلطة الخليفة تتجاوز خمس مدن : قرطبة وإشبيلية ونبلة وأكشنبة وباجة. وغاض الأمل فى أن تتحسن الحال ، وبدأ البربر يتمتعون بالثروات التى نهبوها فى قرطبة وغيرها من المدن . ولم يكن سليمان المستعين نفسه محارباً . رغم أنه اضطر إلى الحرب على امتداد أربعة أعوام كاملة . ومن سخرية القدر أن يكون رئيس هذه العصابات الشرسة التى مزقت الخلافة أميراً مستقيماً . حلواً وكريماً . يهوى الأدب ، ويقرض الشعر ، يذوب صبابة ويتغزل عفاً ، ولديه من هدوء النفس ، وفراغ البال ، وسط هذا البلاء ، ما يتيح له أن يعارض أبيات هارون الرشيد الشهيرة :

ملك الثلاث الآنسات عنانى وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين ، أعز من سلطانى

وأن يسبقه معنى ونغماً فى أبيات طويلة يصفها ابن بسام بأنها « تشعشعت بها الكؤوس ، وتهادتها الأنفاس والنفوس » :

عجباً يهاب الليث حد سنانى وأهاب سحر فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيباً منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى من فوق أغصان على كثبان
حاكمت فيهن السلو إلى الرضى نقضى بسلطان على سلطانى
هذى الهلال ، وتلك بنت المشترى حسناً ، وهذى أخت غصن البان
فأبحن من قلبى الحمى وتركننى فى عز ملكى كالأسير العانى
لاتعذلوا ملكاً تذلل فى الهوى ذل الهوى عز وملك ثانى
ما ضر أنى عبدهن صبابة وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى كلفاً بهن فلست من مروان

لقد كانت غايته فيما أسهم به أن يخفف من قسوة العاصفة ، ولكن فساد قوانه وسوئها ، وشهد مظالمها دون أن يستطيع لها دفعاً ، جعلت منه شخصاً بغيضاً إلى الأندلسيين ، لا يرون فيه غير إنسان زنديق وغاصب ، وضعه البربر ومسيحيو الشمال على عرش الخلافة ، وكان القرطبيون يحتفظون لكلا الإثنين ببغض عميق .

وبعد أعوام ثلاثة ، فى ١ من يولية عام ١٠١٦ م ، استيقظت قرطبة على ضجيج غاز جديد ، على بن حمود وحلفائه .

ينتسب على فى أسرة إدريس الأول ، مؤسس أسرة الأدارسة فى المغرب ، وتبربرت أسرته بعد إقامة فى المغرب تجاوزت المائتى عام ، حتى أن العربية استدارت فى لسانه ، وكان حاكماً شبه مستقل على مدينتى طنجة وسبتة ، على حين يحكم القاسم ، أخوه الأكبر ، الجزيرة الخضراء . ولم تكن مطامع على تقف عند حد ، وحدثته نفسه أن يسعى إلى الخلافة ، ولكى يبلغها تحالف مع الصقالبة ، وانضم إليه جانب كبير من البربر كان يرى ن سليمان إنساناً طرياً ، عارياً من المواهب العسكرية ، وهى الشيء الوحيد الذى يقدرونه ، ووجدوه فى على ، فهم يحترمون فيه شجاعته وفروسيته ، وينظرون إليه كواحد منهم .

جاء على فى جموعه ، وخرج سليمان للقائه ، وكانت الدائرة عليه ، وسيق أسيراً إلى جانب أخيه وأبيه ، وكان المنتصرون يطمعون فى أن يجدوا هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، وقد سئل عنه سليمان فتبرأ من دمه ، ودعا على بهم ، فضرب عنق سليمان بيده ، وأخيه من بعده ، ثم أبيهما الشيخ ، وكان تقياً صالحاً ، بعيداً عن السياسة ، لم يتشبث بشيء من الدنيا !؟. وحاول على فى البدء أن يكون معتدلا ، واتخذ جانب الأندلسيين ، رغم أنه نصف بربرى ، يستمع إلى شعرائهم مهتماً ، على قلة ما يفهم مما يقولون ، ويثيبهم سخياً ، وجلس بنفسه لمظالم الناس ، وهو مفتوح الباب ، مرفوع الحجاب ، للوارد والصادر ، يقيم الحدود مباشراً بنفسه ، ولا يحابى أحداً من أكابر

قومه ، ويعارض بشدة ما يقوم به البربر من نهب ، ويعاقب بقسوة على الجرائم ضد الممتلكات العامة مهما صغرت ، وأراد أن يعيد للقرطبيين ما أخذه منهم البربر ، ولكن طموح خيران دفع به إلى أن يغير موقفه .

فى الأيام الأولى أخلص خيران لعلى ، وكان فى مقاطعته المرية يعاقب ويعتقل أولئك الذين يأخذون جانب الأمويين ، ومن هؤلاء ابن حزم على ما يقص لنا هو نفسه فى كتابه « طوق الحمامة » ، ولو مضى خيران فى طريقه هذه ، ووقف عند قدره ، لربما أسهم فى استتباب الأمن وعودة النظام ، ولكنه طمح فى أن يمثل دور المنصور بن أبى عامر ، ولكن علياً رجل لا يقنع بما قنع به هشام المؤيد ، وخيران يعرف ذلك جيداً ، ومن ثم عزم على أن يعيد الأسرة الأموية ويحكم باسمها ، فبحث عن مطالب منها بالخلافة ، ووجده فى شخص حفيد عبد الرحمن الأوسط ، ويحمل اسمه ، ويقيم فى بلنسية ، ووعد جماعة من الأندلسيين بتأييده ، ومن بينهم المنذر حاكم سرقسطة ، وحليفه ريموندو كونت برشلونة . وعرف على أن رفاقه باعوه ، وأن شعب العاصمة يؤيد عودة بنى أمية ، فقسا عليهم ، ورمى بهم بين أنياب البربر ، وأباح لهؤلاء أن يتصرفوا فى قرطبة أحراراً ، كما لو كانت بلداً عدوا فتح عنوة ، وأعطاهم المثل من نفسه ، فصب على القرطبيين ضروباً من التنكيل والمغارم ، وانتزع السلاح منهم ، وهدم دورهم ، وقبض أيدى الحكام عن إنصافهم ، وأغرم عامتهم ، وتوصل إلى أعيانهم بقوم من شرارهم ، ففتحوا له أبواباً من البلايا أهلكوا بها الشعب ، وتقربوا إليه بالسعاية ، وفاضت المدينة بالشرطة والجواسيس والوشاة ، وأصبح نصف السكان يتجسس على النصف الآخر ، وباع كثيرون أنفسهم للحاكم ، وساد العاصمة رعب أسود ، وتزامل الفجور والمظالم ، ولزم الناس البيوت ، وتطمروا فى بطون الأرض ، وقل ظهورهم بالنهار ، وخلت منهم الأسواق ، فإذا دنا المساء ، وقل الطلب ، انتشروا تحت الظلام لبعض حاجاتهم .

واعتقل الأعيان ، وصادر أموالهم ، وامتهن بعضهم بالضرب ، وفدوا

أنفسهم فأمر بإطلاق سراحهم ، فلما أحضرت دوابهم للركوب استوى عليها ، وأمرهم أن يعودوا إلى بيوتهم راجلين ، وأقسم أن يدمر قرطبة بعد أن يخليها من أهلها أو يقضى عليهم ، وأعفاه الموت من أن يبر بقسمه ، لأن ثلاثة من عمار صقالبة القصر ، كانوا قبل فى خدمة الأمويين ، ويتمتعون بثقة على ورعايته ، قرروا أن يضعوا لطغيانه غير المحتمل حداً ، فقتلوه ليلا وهو فى حمامه ، وأراحوا قرطبة منه ، وتردد البربر بين مبايعة ابنه حاكم سبتة ، وأخيه القاسم والى إشبيلية ، واستقر رأيهم على هذا الأخير ، وبايعه الناس بعد ستة أيام من موت أخيه .

ودعا خيران ومنذر أنصارهم إلى اجتماع كبير عقد يوم ٣٠ أبريل ، ومثل الفقهاء جانباً ملحوظاً فيه ، وقرر المؤتمر أن تكون الخلافة بالانتخاب ، واختاروا عبد الرحمن الرابع ، وتلقب المرتضى ، وكان يقيم فى بلنسية ، وبعد اتخاذ القرار رحلوا إلى غرناطة ، فى طريقهم إلى قرطبة . وعندما وصلوا إلى أسوار المدينة تبادل المرتضى وزاوى بن زيرى حاكم غرناطة رسائل عنيفة ، وانتهيا إلى أن يكون السيف حكماً بينهما . وعبر الطريق أدرك خيران ومنذر أن المرتضى ليس الشخص الذى يبحثان عنه ، ولم يكن حق الأمويين فى الخلافة يعنيهما كثيراً ، إنهما يقاتلان من أجل أموى يحكمان باسمه ، والمرتضى دون ما يطمحان ، بل وكان يملى عليهما آراءه ، فبيتا النية على الغدر به ، ووعدا زاوى بأن يتخليا عنه فى اللحظة التى تبدأ فيها المعركة . ولم يقدما على جريمتهما منذ البدء ، وقاتلا أياماً ، ولم يستطع زاوى أن ينتصر ، فطلب منهما الوفاء بما عاهداه عليه ، فاستجابا له ، وأسلماه سيفيهما ، ولم يوافق القواد على خيانتهما ، وغضب كثيرون ، ومن هؤلاء سليمان ابن هود وكان قائد الفرقة المسيحية فى جيش المنذر ، وتبعهما البعض ، وانهزم جيش المرتضى بعد أن كان قاب قوسين من النصر أو أدنى ، وكان ابن حزم رفقة جيش المرتضى ، ووقع أسيراً . وقاتل المرتضى حتى بعد أن تخلى عنه الجانب الأكبر من قواته ، ودافع فى شجاعة نادرة ، وأوشك أن يقع

فى أيدى أعدائه ثم أفلت هارباً ، ووصل إلى وادى آش ، وهناك دس عليه خيران من قتله غدراً .

وانتهى خيران بانهيار حزبه ، وبجبنه وعار خيانته ، ولم يعد الصقالبة فى حالة تسمح لهم بجمع جيش ، وأصبح البربر أعداؤهم سادة جنوب شرق الأندلس ؛ وحاولت قرطبة أن تأسو جراحها ، تأمل أن تعيش فى ظل سلطة أقل طغياناً وأكثر سلاماً ، فقد كان قاسم بن حمود يؤثر السلامة ويميل إلى الراحة ، ولم يضف إلى آلام القرطبيين وتعاستهم مزيداً ، وأراد لهم أن ينسوا خلافاتهم القديمة فاستقدم خيران وصالحه ، وأعطى زهيراً ، صقلبياً آخر كان والياً على مرسية ، مقاطعات : جيان وقلعة رباح وبياسة .

كان القاسم شيعياً ، أو على الأقل على صلة بالشيعة ، ولكنه لم يظهر ذلك ، ولا غير على الناس عادة ولا مذهباً ، وأمل الناس معه شيئاً من الهدوء ، وكان يعرف أن شعب العاصمة لايحبه . فترك ذلك للزمن يخفف منه أو يأتى عليه .

كان القاسم يشك فى البربر ، فبحث عن التأييد بين جماعات أخرى ، اشترى السود الذين كانوا فى خدمة البربر والصقالبة ، وكون منهم جيشاً يحرسه ، وعهد إلى رؤسائهم بالأعمال الهامة ، فغضب البربر ، وعرف ابن أخيه يحيى كيف يركب روح السخط فيهم ، وزحف بهم إلى قرطبة ، وأزاح القاسم عنها ، فى عام ٤١٢ هـ = ١٠٢١ م ، وعين نفسه خليفة ، وتلقب المعتلى ، واستقر فيها بعد صراع مرير مع أبناء عمومته ، ثم تركها ولحق بمكانه من مالقة ، ثم رده القرطبيون ثانية وقتل فيما بعد ، وهو يحاصر إشبيلية ، يوم الأربعاء ٨ من المحرم عام ٤٢٧ هـ = ١٠٣٥ م وانهزم البربر معه .

وظن القرطبيون أن الأمر خلص لهم ، فاتفق رأيهم على رد الأمر لبنى أمية ، وفى شهر نوفمبر ١٠٢٣ م تألفت اللجان ، وبدأت المناقشات ، ووضع الوزراء أمام الشعب ثلاث شخصيات ليختار الخليفة من بينهم : سليمان

ابن عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدى ، ومحمد بن عبد الرحمن العراقى ، وظن الزعماء أن سليمان ، ووضع اسمه على رأس القائمة ، سيكون الخليفة المختار ، فأعد الوزير أحمد ابن بردة وثيقة البيعة باسمه ، وكان سليمان دون ما تصور أتباعه بكثير ، وعبد الرحمن فوق ماظنوا وتخيلوا .

كان عبد الرحمن لبقاً ذكياً ، وأديباً لوذعياً ، فى العشرين من عمره ، ليس فى بيته يومئذ أبرع منه منزلة ، نقلته المخاوف ، وتقاذفته الأسفار ، فتحنك وتخرج وتمرن فيها ، وقد نفاه الحموديون أيام دولتهم ، وسرعان ما عاد إلى قرطبة سراً ، فشاهد الفتن الحادثة بين البرابرة وأهلها ، وهم فيها بالوثوب ، وبث دعاته إلى أهلها ، فلم يصح له شىء مما أراد . وأنكر الوزراء المدبرون أمره ، فتجردوا لطلبه وطلب دعاته ، وسجنوهم ولم يخرجوا من السجن إلا يوم جلوس صاحبهم عبد الرحمن هذا للإمارة . وقد أدرج اسمه فى قائمة المرشحين لأن غضبه يثير عدداً من القرطبيين ، ولم ير فيه الذين يدبرون الخطط منافسا مخيفا لسليمان ، ارتفعوا به فى أكثر تقدير إلى مستوى محمد العراقى ، ولم يكن هذا يتمتع بأية شعبية .

أما وقد وثق الوزراء من النصر فقد دعوا الخاصة والجند والعامة إلى اجتماع يعقد فى المسجد الجامع لاختيار الخليفة ، وفى اليوم المحدد جاء سليمان أولا ، صحبه الوزير عبد الله بن مخامس ، فى ملابس فخيمة ، وعلى وجهه إبتسامة وضيئة ، واثقا من اختياره ، وتقدم إليه أنصاره فأجلسوه على مرتبة لا تصلح لأحد سواه . ثم أقبل عبد الرحمن فى خلق عظيم من الجند والعامة ، وقد تكنفه أميرا الدائرة محمد وعمير فى رجالهما ، شاهرين سيفيهما أمامه ، وما أن تجاوزوا عتبة المسجد حتى نادوا به الخليفة وسط التكبير والهتاف ، فأسقط فى يد الوزراء ، وخذلتهم حيلهم ، ولم يكونوا يتوقعون شيئاً كهذا ، ودخل عبد الرحمن المقصورة فبويع لوقته ، واستدعى سليمان ، وجىء به مبهوتا ، فقبل يده ، وهنأه فأجلسه إلى جانبه ، ثم وافى محمد بن العراقى أيضا

فقبل يده وبايعه ، وتمت البيعة لعبد الرحمن فى اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٤١٠ هـ =١٠١٨ م ، وحينئذ محا الوزير ابن بردة اسم سليمان من وثيقة البيعة ، ووضع مكانه اسم عبد الرحمن الخامس ، وتلقب بالمستظهر .

كان عبد الرحمن يعتمد على الشباب الصاعد من أبناء الخاصة ، فاختار وزراء له ابن حزم ، وابن عمه عبد الوهاب ، وكانا فيما يقول ابن حيان المؤرخ القرطبي الكبير «من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة ونفاذاً فى العلوم الرفيعة » ، وأبا عامر بن شهيد الشاعر الكاتب . وهؤلاء رغم ما يتمتعون به من مواهب غير شعبيين ؛ وليسوا محببين إلى الفقهاء والمحافظين لارتقاء سلوكهم ، وتحرر أفكارهم ، واحتقارهم للعادات المتخلفة ، ولم يغفر له أنصار سليمان لعبته ، وانتصاره عليهم ، ونقمت عليه طوائف أخرى اعتقاله أقاربه من بنى أمية ، ومن بينهم الذين كانوا مرشحين معه لتولى الخلافة .

ومن جانب آخر ساءت الحالة الاقتصادية ، وأغاض الشقاء الشامل كل بوادر الأمل ، وعمت البطالة ، وأصبح عامة الناس على استعداد فى أية لحظة أن يأتوا بفئوسهم على بناء المجتمع القديم ، واتخذوا من محمد ابن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر رئيساً لهم ، ورأوه أحق بالخلافة من غيره ، رغم أن اسمه لم ينطق به أحد ولا جرى فى خاطر ، لأنه إنسان عادى ، بلا مواهب ولا ثقافة ، ولا يعرف من الحياة غير الموائد الحافلة والنساء الجميلات ، ويرى فى نفسه غير مايرى فيه الآخرون ، فنقم لأن الخلافة تجاوزته ، وبيت النية على الثورة ، ودفع إليها بالعامة ، وكان قريباً منها ، يخالطها ويتودد إليها ، فهى ترى فحشه تقوى ، وجهالته حنكة ، واستهتاره تحرراً ، وفتح شهيتهم للسلب والنهب ، وكل ما حولهم يجعل منها حقا مقرراً .

وانضم الخاصة إلى العامة بعد موت سليمان ، جمع بينهما ابن عمران ،

شخصية خطرة ، كان فى السجن ، ورد إليه محمد الخامس حريته فى لحظة تقوى مفاجئة ، رغم أن أصحابه حذروه منه : « إن مشى ابن عمران فى غير سجنك باعا بتر من عمرك عاما ! » . وبدأ ابن عمران يستميل رؤساء الحرس فاستجابوا له بسهولة ، لأنهم ناقمين على الخليفة ، فقد وصلت فرقة بربرية إلى قرطبة لتقدم خدماتها إلى الخليفة ، قبل إطلاق سراح ابن عمران بيومين ، ولأنه أحس بالخطر يحدق به من كل جانب وفى كل لون ، فقد أكرم مثواهم ، وأنزلهم دار الملك ، فأثار ذلك غيرة رجال الحرس ، وزادهم ابن عمران إثارة ، ونزل بهم إلى العامة يقولون : « نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم من قرطبة ، وهذا الرجل يسعى فى ردهم إلينا ، وتمكينهم من نواصينا » .

ورغم أن عبد الرحمن لم يكن قد صنع شيئاً بعد ، فقد اجتاحت العامة القصر ، وحرروا الأشراف الذين كانوا فى سجنه ، وفهم الخليفة أنهم يريدون رأسه فطلب النصح من وزرائه ، ولكن هؤلاء كانوا بدورهم يفكرون فى حياتهم ، وربما فى الجماعة التى من الأفضل لهم أن ينضموا إليها ، وانتصرت الأنانية فى أعماق الكثيرين ، فتركوا الخليفة لقدره ، وتسللوا عنه واحدا وراء آخر ، وسرعان ما أدركوا أنهم خدعوا أنفسهم ، فقد كانت السيوف بالأبواب تنتظر رءوس الخارجين منهم دون تمييز .

وأراد عبد الرحمن أن يخرج من باب الحمام فأظهر له الحراس سيوفهم وأشبعوه سبا ، فعاد القهقرى ، وترجل عن فرسه ، وتجرد من ثيابه ، حتى بقى فى قميصه واستخفى فى موقد الحمام ففقد شخصه ، على حين أخذ العامة والحرس يطاردون البربر فى كل مكان لجأوا إليه وبدأ الموت يحصد هؤلاء دون رحمة أو هوادة ، فى القصر أو الجامع ، « وفضح حريم عبد الرحمن ، وسبى العامة أكثرهن ، وحملوهن إلى منازلهم علانية ، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان فى مدة تلك الفتنة » ؛

وانتصر محمد ، وبويع خليفة ، وتلقب المستكفى ، فى ٨ من يناير ١٠٢٤ م ، وقام محمد وعمير على رأسه بالسيوف مقامهما بالأمس من ابن عمه عبد الرحمن ، وأمر محمد بالبحث عن عبد الرحمن فى كل مكان ، فوجدوه أخيراً فى أبزن الحمام ، قد انطوى انطواء الحية فى مكان حرج ، فأخرج فى قميص مسود بحال قبيحة ، وجئ به إلى المستكفى فبطش به بعض الرجالة القائمين على رأسه ، فتهلهل وجه ابن عمه ، وأخذ فى تدبير سلطانه .

كانت إمارة المستظهر إلى أن قتل سبعة وأربعين يوما ، لم تنتشر له فيها طاعة ، ولا التأمت عليه جماعة ، ولاتجاوزت دعوته قرطبة ، وكانت سنه يوم قتل ثلاثا وعشرين سنة هجرية .

وكان على حداثة سنه ذكياً يقظاً ، لبيباً أديباً ، حسن الكلام ، جيد القريحة ، مليح البلاغة ، يتصرف فيما شاء من الخطابة بديهة وروية ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة . وكان فى وقته نسيج وحده ، ختم به فضلاء أهل بيته الناصريين ، فلم يأت بعده مثله ، وأورد لنا ابن بسام فى القسم الأول من ذخيرته طائفة من أشعاره قالها فى « حبيبة » بنت « مشنف » من سليمان بن الحكم ، وكان يحبها ، وحاول خطبتها من أمها فلوته ، وهى أشعار جيدة ورقيقة ، وتعكس نفساً شاعرة حقاً .

حاول المستكفى أن يصبح شعبيا ، فتلقى جميع الناس بالإيناس ، واستمالهم بالأهوية ، ورأى المال عزيزا فظن البشر الرخيص يقوم مقامه ، فكان يقول للناس أجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وتسموا من المناصب ما أحببتم ، فتسمى بالوزارة فى أيامه مفردة ومثناة أراذل الناس ، وأخابث النظار ، وزعانف الكتاب والخدمة ، وأخذ الفقهاء أيضاً بحظهم من هذه المناصب ، وجاءوا فى ذلك بطامة لم تسمع فى الأعصر الخالية ، فأخطأوا وألحقوا بالدين وصمة ، وفتنوا بالمناصب العالية ، وشدوا أيديهم عليها ، واضطربت قرطبة بكثرة ما أصبح فيها من المردة ، وقبض المستكفى على جماعة من بنى عمه

وحاشيته ، ومستشارى سلفه ، وفيهم ابن حزم ، وابن عمه ، و سجنوا بالمطبق ، وعاجل ابن عمه عبد العزيز العراقى فخنق ، وأمسى ميتا ، ونعاه إلى الناس فلم يخف عليهم اغتياله . وهرب آخرون حتى لا يواجهوا نفس المصير ، ومن بين هؤلاء أبو عامر بن شهيد ، لجأوا إلى مالقة ، وفيها استثاروا حاكمها يحيى بن حمود لكى يضع حدا للفوضى السائدة فى قرطبة .

وفكر يحيى طويلا ، وقبل أن يقرر اندلعت الثورة فى العاصمة فى مايو ١٠٢٥ ، واتفق الملأ على خلع المستكفى ، ونصحه الحرس بأن يهرب ، فاستجاب لهم ، وخرج على وجهه وقد لبس ثياب الغانيات متنقبا بين امرأتين لم يميز بينهما لمرانه على التخنيث (التعبير لابن حيان !) ، وخرج عن قرطبة فمات بأقليش ، فكانت دولته سبعة عشر شهراً ، صعابا نكدات ، سودا مشوهات ، فيها استؤصل بقية قصور الناصر بالخراب ، وطمست أعلام قصر الزهراء واقتلع نحاس الأبواب ، ورصاص القنى ، وغير ذلك من الآلات .

وكان المستكفى على أهل قرطبة محنة وبلية ، غفلا عطلا ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا من كل فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى استجاز الصدقة ولم يلحقه الاعتقال على امتداد أيام الفتنة تحقيرا لأمره ، فكان يقصد أهل الفلاحة أوان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليا ومخاطبة . وكان معروفا بالتخلف والركاكة ، مشتهرا بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عاهر الخلوة ، والجانب الوحيد الذى دخل التاريخ من بابه هو أنه والد ولادة ، الشاعرة الأديبة ، وصاحبة « الصالون » الأدبى الشهير فى عاصمة الخلافة .

وخلت قرطبة من أى خليفة أو أمير أو حاكم على امتداد ستة شهور ، نعم كان هناك مجلس للدولة ، ولكن حكمه أقرب إلى السوء منه إلى الصلاح ، وما كان لموقف كهذا أن يدوم طويلا ، فالنهاية تقترب ، النظام القديم يغرق ، والجديد فى طور التجربة ، على حين يرى القرطبيون فى الخلافة

أنها الشكل الوحيد القادر على إنهاض الدولة من كبوتها ، ولكن من الذى يستطيع أن يقيمه ؟ وأين الأمير الأموى الصالح ؟. لقد حاولوا واختاروا أفضل أموى فى هذا البيت ، عبد الرحمن الخامس ، ومع ذلك فشلت المحاولة . لابديل إذن عن أمير يعتمد على قوات أجنبية ، يمنع السلب والنهب والاغتيال ، ويفرض الأمن والنظام ويحمى هيبة الدولة ، وليس بين الأمويين من يتوافر على هـذه القوات ، ففكروا أن يعيدوا الخلافة إلى الحموديين وإلى يحيى بن على بن حمود بالذات ، وبدأوا المفاوضات معه ، وكان يقيم فى مالقة ، فقبل عرض القرطبيين دون أن يتحمس له كثيراً وربما داخله شىء من الشك ، فقرر أن يبقى حيث هو ، وأرسل إلى قرطبة قائداً بربرياً مع فرقة من الجنود فى نوفمبر ١٠٢٥ م .

وأظهرت الحوادث فيما بعد صدق حدسه ، فكره سكان العاصمة حكم الأفارقة سريعاً ، وأعاروا أسماعهم لصقالبة الشرق ، خيران والى المرية ، ومجاهد والى دانية ، وكانوا يرسلون إليهم : إذا أردتم أن تتحرروا فسوف نساعدكم ، ولم تذهب وعودهم عبثاً . وفى شهر مايو ١٠٢٦ زحف هذان القائدان إلى العاصمة فى جند كثير ، وثار القرطبيون ، وعزلوا قائد يحيى ، وقتلوا عددا من جنوده ، وفتحوا الأبواب لخيران ومجاهد ، وعندما بدأ الحديث عن الحكومة اختفى كلاهما . خاف خيران من حليفه فخانه وأسرع عائداً إلى المرية ، وظل مجاهد وقتاً فى قرطبة ، ومالبث أن غادرها دون أن يعيد الخلافة ، وبعد رحيله قرر مجلس الشورى أن يتولى ذلك بنفسه ، رغم أن التجارب السابقة أثبتت فشل المحاولة ، لأن أى أمير أموى يلقى بالخلافة على رأسه ، وسط الجماهير الساخطة ، دون أن تدعمه قوات أجنبية ، مقضى عليه بالفشل مسبقا .

ومع ذلك رأى المجلس بإيعاز من على بن جهور أقوى الأعضاء نفوذاً ، أن يقدم الخلافة لهشام ، الأخ الأكبر لعبد الرحمن الرابع المرتضى ، وكان يقيم فى حصن البونت لاجئاً منذ وفاة أخيه . وفى شهر أبريل ١٠٢٧ م بايعه

أهل قرطبة ، وتلقب المعتضد ، أو المعتمد في رواية ، ومرت سنوات ثلاث قبل أن يستطيع التغلب على الصعوبات التي تحول دون وصوله إلى قرطبة ، ظل خلالها يتنقل من مدينة إلى أخرى ، وفي ١٨ ديسمبر ١٠٢٩ م وصلت الأنباء بأن هشاما سوف يدخل المدينة ، فخرج الجند لاستقباله ، وعلت الأصوات مرحبة به ، وامتلأت الشوارع التي سوف يمر بها بالجماهير ، تؤمل فيه أن يقيم حكومة قوية قادرة. وما أسرع ما تلاشى الأمل ، لقد دخل العاصمة في زى تقتحمه العين ، وهناً وقلة وعدم رواء وبهجة وعدد وعدة ، فوق فرس دون مراتب الملوك ، بحلية مختصرة ، عار من أية هيبة ، يسير هوناً ، والناس يهنئونه ولا يعلمون ما سبق لهم من المكروه به ، لأنهم يتوقعون أن تنتهى الفوضى معه .

ولكن هشاما الثالث لم يخلق لمثل هذه الآمال العظيمة ، فهو طيب ورقيق الحاشية ، كسول ومتردد وضعيف ، لا يقدر غير اللذائذ المائدة ، وأدرك الذين اختاروه أنهم أخطأوا الاختيار ، وما لبث الجند أن ثاروا عليه وخلعوه ، وأخرج من القصر مع حشمه ، والنساء حاسرات عن وجوههن ، حافية أقدامهن ، إلى أن دخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أياما يتعطف عليهم الناس بالطعام والشراب ، إلى أن أخرجوا عن قرطبة ، ولحق هشام ومن معه بالثغور ، ولم يزل يجول بينها إلى أن لحق بابن هود وكان متغلبا على سرقسطة وماردة وأفراغة وطرطوشة ، فأقام عنده إلى أن مات في ديسمبر من عام ١٠٣٦ م ، ولم يكن لموته أى صدى في قرطبة ، أو في غيرها من المدائن من باب أولى !.

« وبخلعه انقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتثر الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات ، واقتسموا خطتها ، وتغلب بعض على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجزى للطاغية (ملك المسيحيين في الشمال) ، أن يظاهر عليهم أو يبتز ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع إليهم البحر ملك

العدوة ، و صاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى ، فخلعهم وأخلى منهم الأرض » (١)

ومع سقوط الخلافة أخذت حياة ابن حزم وجهة أخرى ، على نحو ما أشرنا إليه فى حياته ، لونت فكره بظلال قاتمة ، ومزجت مشاعره بأحاسيس مريرة ، رغم أنه تخلى عن السياسة والوزارة ، وعكف على الدرس والقراءة والتأليف والحوار وطلابه ! .

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٣٨ ، طبعة د / إحسان عباس .

ابن حزم ... قمة إسبانية

للمؤرخ الإسبانى : سانتشث البرنس

شهد ثورات قرطبة ، وجاءت نتيجة حتمية للاستبداد العامرى ، ورأى الحروب الأهلية التى تلتها ، وعاش فى إسبانيا ممزقة ، تناثرت دويلات تحمل اسم « الطوائف » ، وفيها صب التيار الذى تكون خلال حكم المنصور بن أبى عامر ، وكان مستبدا ، وعمل والد ابن حزم وزيراً له . ومن ثم قدر لابن حزم أن يواكب فترة حرجة ، شهدت انهيار الخلافة القرطبية ، وانحدار الأندلس تاريخياً . وكما يحدث فى أحايين كثيرة عبر التاريخ ، بلغ التطور الثقافى خلال المرحلة السابقة أوجه فى عصر الطوائف ، وهو أشد حيوية وأقل صقلا ، ومعاً حدث الانحدار السياسى والتفوق الفكرى . وفى قلب إسبانيا هذه : ممزقة ومشرقة ، رفرفت شخصية العلامة القرطبى خفاقة وعالية ، ويمكن أن تقارن بأعظم قمم الفكر الإسبانى على امتداد كل العصور .

كان ابن حزم متكلماً وفيلسوفا ، فقيها وباحثا ، لغويا ومؤرخا ، شاعرا وناثرا ، عالم نفس وأخلاق ، ورجل فكر وعمل ، سياسيا وحالما . ويمكن أن يوضع إلى جانب أعظم كبار المفكرين والشعراء فى العصور الوسطى . ولو قدر له أن يكتب فى اللغة اللاتينية أو الرومانثية لبلغ اسمه من الذيوع والشهرة ما بلغه دانتى ، أو القديس توماس الإكوينى . ولكن على العكس ، ومن الضرورى أن نصرح به ، استطاع أن يبلغ هذه المرتبة العملاقة لأنه كان إسبانياً مستعربا ، ولو كان غربياً خالصاً فى الأيام التى قدر له أن يعيشها لكان من الصعوبة البالغة بمكان أن يبلغ القمة التى حلق فوقها فكره ، لأن الثقافة الأوربية خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر ، واتسمت بالفجاجة ، كان ممكنا أن تدمر القدرة الخالقة عند حفيد الإيبيريين الإسبان القدامى ، أبناء فرضة نهر ولبة Huelva

إن المعادلة الجبريه بين السلالة والأرض والوعاء الثقافى والتوتر التاريخى والحياة العائلية ، وكلها تلعب دوراً حاسما فى ازدهار شجرة العبقرية ، معقدة للغاية ، ولأنها اكتملت حول ابن حزم استطاع أن يصبح على نحو ما كان عليه ، ولهذا نستطيع أن نفهمه فحسب إذا وضعناه وسط سلالته ، وعدنا به إلى أجواء عصره ، وتسربنا إلى أعماق شخصيته .

لقد حاول كثير من المستشرقين تحليل هذه العناصر ، وتميز المستشرقون الإسبان من بينهم على نحو رائع ، وبخاصة ميجيل أسين بلاثيوس ، وإميليو غرسية غومث . ولن أحاول اكتشافه الآن ، وأنا أرزح تحت أعباء سنين طالت ، لأن ذلك يكاد يدفع بى إلى حالة من الوجد أمام أعماله ، أويدعنى أ تستحوذ على حماسة مبتدئ خطرة ، وكلاهما — الوجد والحماسة — أفسدا الفكر الجاد لبعض المدركات التاريخية فى كتب ابن حزم ، وفى الاعترافات التقية المتأخرة للمفكر الأندلسى العظيم . ومنذ أن نشر أسين بلاثيوس شيخ المستشرقين الإسبان المعاصرين ، ترجمته لكتاب : «الأخلاق والسير ' مداواة النفوس» عام ١٩١٦ ، والجزء الأول من دراسته عن ابن حزم وكتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ونشره عام ١٩٢٧ —وما أكثر الأمسيات التى شهدت فيها أسين بلاثيوس يسود الصفحات البيض بترجمته للكتاب ، فى مكتبه من شارع أنتشا Ancha !— أحسست بالأهمية المتزايدة لهذه الشخصية الإسبانية المسلمة المنقطعة النظير ، وإحدى أفكاره عن الحروب الأهلية : « نوار الفتنة لا يعقد ! » باشرت تأثيراً حاسما على موقفى من حرب الإخوة المتقاتلين فى الحرب الأهلية الأخيرة ، ١٩٣٦ — ١٩٣٩ والتى مزقت وطنى فى قسوة . وتوارد فى ذهنى تفكير ابن حزم عنها ، وهو مصيب للغاية ، وجرى به قلمى فى مقدمة كتابى : « حول أصول الإقطاع » وكتبته فى مدينة بوردو بفرنسا ، بينما الإسبان يتقاتلون فى وحشية قليلة النظير . وفيما بعد ، عندما أعددت كتابى عن « إسبانيا الإسلامية » كان على أن ألتقى مع ابن حزم من جديد . واعترتنى دهشة قوية عندما

تأكدت لى إسبانية مزاجه وشغلنى الأمر مشتاقا ، فعرضت له فى عدد من المحاضرات ، وفى مقالين أو ثلاثة .

أحد كتب ابن حزم ، وهو « طوق الحمامة » ، ترجم إلى عدد من اللغات الأوربية الحديثة : الإنجليزية والروسية والفرنسية والإيطالية ، والإسبانية أخيرا . وهذه السلسلة من الترجمات تؤكد الاهتمام الذى أثاره الكتاب فى عصرنا خارج دائرة المستشرقين والعاكفين على الدراسات . لقد استطاع القرطبى ، علامة عصر الطوائف ، أن "يصبح معاصراً ، وأن يشد انتباه قطاعات عريضة من المهتمين بالظواهر الأدبية ، والمغرمين بالمشكلات التاريخية . وتقدم ابن حزم إلى المقام الأول من اهتمام المفكرين والمؤرخين والمثقفين والباحثين ، وحتى من ذواقة الأطعمة الممتازة العارفين ، بين الآداب القديمة على امتداد كل العصور ، يبرر اهتمامى بشخصه وبمؤلفاته ، ومع ذلك فإن أحلل لا هذا ولا ذاك . إن اهتمامى — كمؤرخ — ينصب على انصهار واستمرار ما هو إسبانى فيه ، وشدنى إليه ما يثيره من سؤال حين نضعه داخل النمط الحيوى لشبه الجزيرة الإيبيرية ، وارتباطه به ، ارتبطات نستطيع أن نقول إنها دارجة مع إسبان آخرين من عصور متفاوتة جدا ، جاءوا قبل هذا القرطبى المسلم ، أو بعده ، بألف عام ، وكتابه عن الحب يمكن أن يقرأه اليوم ملايين الغربيين فى لغاتهم القومية . وثمة مشكلة مسبقة تعترض طريقى ، طرحها وعرض لها على طريقته أورتيجا إى جاسيت.

لقد شرفت دراسة وترجمة «طوق الحمامة» إلى الإسبانية ، والتى قام بها غرسية غومث ، بمقدمة للأستاذ العظيم أورتيجا إى جاسيت ، وحاول فيها أن يقدم تفسيراً جديداً للعصور الوسطى ، وكان قادرا بعمق نظرته ، وحدة ذكائه ، على أن يرى بوضوح ، وسط الضباب الذى يحول بين الآخرين ، وأنا أحدهم ، وبين تأمل أسرار التاريخ والحياة ، وأن يحدد مبدعا مرحلة ذات نتائج مأسوية بالغة الخطورة فى حياة أوربا ، على نحو ما فرضتها العصور الوسطى ، وكان الأمر ، مع ذلك ، مجازفة خطيرة ، وأورتيجا

وحده يستطيع المغامرة بمواجهتها بلطف وفى نجاح. نجح فيما قدم لنا ، وليس مهما أن يكون نظرية لا تقبل الهجوم ، وهو نفسه حدد لنا العلم منذ أعوام بأنه مصباح ينير المشكلات موضع النقاش ، ولكنها أفكار كثيرة خصبة ، على المؤرخين أن يضعوها فى حسابهم فى قابل الأيام .

لقد حدد أوريتجا فكرته الجديدة عن العصور الوسيطة : « العصور الوسطى الأوربية لا تنفصل فى الحقيقة عن الحضارة الإسلامية ، لأنها تقوم بالدقة على التعايش ، إيجابا وسلبا فى الوقت نفسه ، بين المسيحية والإسلام فوق رقعة مشتركة تشربت بالحضارة الإغريقية الرومانية ». لقد كتبت هذه الكلمات التى تشير إلى العصور الإسبانية منذ ما يقرب من ربع قرن ، فى مقال لى بعنوان : « إسبانيا والإسلام » ونشرته فى مجلة الغرب Occidente التى أسسها أورتيجا إى جاسيت ، ودعمها على امتداد أعوام طويلة ، وانتهيت فيه إلى أن إسبانيا برزت ثمرة اللقاء بين المسيحية والإسلام على أرض شبه الجزيرة فى حالى الحرب والسلم على السواء. وأنا لا أنكر خصوبة التعايش بين العالمين الإسلامى والمسيحى فى العصور الوسطى ، غير أنى لا أقبل القول بأن المنعطف التاريخى للعالم المسيحى ، بكل ضبابه المتراكم وتطوره الحاسم ودوره فى نهضة أوربا الحديثة ، كان وليد ذلك التعايش. ولكنى أتمنى بقوة أن يكون لهذه الصيحة العالية التى أطلقها أورتيجا دوى وأن تجد لها خارج إسبانيا صدى ، لأن المؤرخين حتى يومنا لا يقدرون الدور الذى لعبه الإسلام فى التاريخ الأوربى الوسيط ، ولا يعطونه ما يستحقه من اهتمام .

وأخشى أن يكون أورتيجا قد ذهب بعيدا حين انتهى إلى أن الجرمانية والعربية كانا « جسمين متشابهين للغاية فيما يتصل بموقفهما الجوهرى من الحياة » فى بداية العصور الوسطى. لأن من الواضح أنها مختلفان بدءا ، ولكن أحدا من المؤرخين لم يغامر بإبداء رأيه على غير أساس ، وفى غير أناة ، عن نظرية « عدم المجانسة » إن ازدراء أورتيجا إى جاسيت للمؤرخين ظالم ومألوف ، وجاء وليد إطلاق اسم هؤلاء على العلماء الموسوعيين الخاص ، وهؤلاء

تعودوا أن يطلوا على التاريخ من وراء غمام، كخيل المصارعين حين تظهر فى حلقة مصارعة الثيران. ولأنه تعود على الحرية الرائعة لحركة الفلاسفة، الذين يستطيعون أن يمتطوا سراعا صهوة الأفكار المندفعة، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يقيم فى دقة مأساة المؤرخين، تقيدهم الأحداث التاريخية فى قسوة، أحداث ليست هى التاريخ، ولكنها تصنعه وتحدده وتعتقله، وإذا كان بيننا كثيرون يستحقون أن نجلدهم بسياط نقده، فإن ذلك لا يعطيه الحق فى ان يلوح بها ضد الجميع.

ويؤكد أورتيجا، وتأكيده مقنع، وواقع أن الشعوب ذات الثقافة البدائية (والتشابه فى البدائية لا يعدل — فى رأيى — التشابه الجوهرى، فثمة أنواع كثيرة من الوجود البدائى) كانت تشغل فراغا اجتماعيا، على رقعة الإمبراطورية الرومانية، وسبقتها حضارة بلغت قمة الرقى، وللسبب نفسه كانت أشد تعقيداً وأرقى صقلا». ولكنه لم يقف عند حد التفرقة بين الاختلافات الكبيرة التى كانت تفصل بين القارتين قديما، فى عالم العرب والجرمان. اختلافات خصبة، ذات نتائج تاريخية بالغة الأهمية. ألا يبدو له من الأهمية بمكان أن هؤلاء دخلوا عالماً ثقافياً، تأثر بالثقافة الجرمانية إلى حد بعيد، وهى حقيقة لا تقبل المناقشة، ولا يمكن أن تنسى فى عالم اليوم، وأنهم دخلوها مخلوقات عارية، تحت راية الرغبة ذاتها، ووحدها، وتدفعهم القوة أو الخوف — والخوف، لكى لا ننسى، عامل تافه فى الحدث التاريخى — دون أن يحملوا على أسنة رماحهم، أو فى أطراف سيوفهم، أى كتاب مقدس، ودون أن يخفوا نهمهم القوى فى أن يصبحوا سادة البلاد التى فتحوها، ودون أن يرفعوا علماً أية فكرة خصبة وجذابة وقادرة على أن تثير الحمية فى نفوس الجماهير الغربية ؟ .

ولم يكن العرب كذلك. لم يتوغلوا فى عالم العروبة، باسم الرغبة الخالصة والوحيدة فى أن يصبحوا سادة بلاد الأعداء، ولم يدخلوها عراة من الثقافة، وإنما عبروا حدود الجزيرة العربية ليكملوا وصاة الرسول،

ولينشروا بحد السيف عقيدة جديدة، ولأنهم ، بوضوح ، حققوا فتوحاتهم تحت راية عقيدة دينية ، وفتحوا صفوفهم فوراً للراغبين فى اعتناق الإسلام من أبناء الشعوب التى أخضعوها . وكانت خلافة دمشق فى الحقيقة إمبراطورية سورية ، وخلافة بغداد إمبراطورية عراقية ، وكلاهما يحتمى بقبلة الإسلام . ولقد حاول العرب فى البدء أن يستردوا دفة الإسلام السياسية والاقتصادية عن طريق الحرب ، وانتهت بأن أشعل السوريون النار فى المدينة المقدسة ، وفيما بعد لم تستطع القلة من العرب التى استقرت فى البلاد المفتوحة ، وقد فاضت بسكانها ممن اعتنقوا الإسلام ، دين العرب ، فى سرعة عجيبة ، أن تحتفظ إلا بالقليل من تكوينها الحياتى الأصلى . ويمكن القول أن أبناء الشعوب المفتوحة هم الذين صنعوا تاريخ الإسلام ، بينما واصلت أغلبية العرب حياتها فى جزيرتهم شبه الصحراوية ، دون أن يتلقوا الحضارة التى صنعها المنحدرون من أصلاب الذين انهزموا أمام الإسلام .

لا أستطيع اليوم أن أقف مع الرأى القائل بأن أوربا الإقطاعية كانت عملا جرمانيا — كما كان يعتقد قديماً — ولكن من الضرورى الاعتراف بأن الجرمان ، بما فيهم أولئك الذين ظلوا فى مواطنهم البدائية الأولى فيما وراء نهرالرين لم يكونوا بمنأى عن هذه المغامرةالعملاقة الخلاقة ، على حين كان عمل العرب الخلص فى تكوين حضارة وأسلوب الحياة الإسلامية محدودا .

وآسف لأنى استخدمت تعبير « أسلوب الحياة الإسلامية » ، لأنى أشك كثيراً فى أنه يوجد فى الحقيقة أسلوب إسلامى للحياة . وقد دفع اعتبار الإسلام وحدة جوهرية وثقافية بأميركو كاسترو إلى أن يرتفع ببناء نظرية بالغةالضعف . ولقد تساءل أورتيجا إى جاسيت منذ أعوام طويلة : يا إلهى !... ماذا تكون إسبانيا هذه ؟ وبالصرخة المأسوية نفسها يمكن أن نسأل : ما الإسلام ؟ . لأنى لا أومن بوحدة التكوين عند الشعوب التى تعبد الله الرحمن الرحيم . لا أستطيع

أن أوافق أورتيجا فيما وصف به ابن حزم من أنه عربى إسبانى، وأجرؤ على أن أناديه بما هو نقيض لقوله : إسبانى متعرب .

من الواضح أننا إذا احتفظنا بصفة «إسبانى» لمن عاشوا طبقاً لأشكال الحياة الإسبانية المعاصرة ، فإن مؤلف « طوق الحمامة» ليس إسبانيا . وأسمح لنفسى أن أرد هنا على التحديد البسيط الذى أعطاه أميركو كاسترو لمفهوم « إسبانى » . إذا أطلقنا لفظ « إسبانى » على أولئكم الذين فكروا وأحسوا وعاشوا، على نحو ما كان شائعا فى فترة ما من تاريخ إسبانيا ، مهما تكن ، فإن أسلافنا من ثلاثة آلاف يمكن أن ينكروا ، وبحق ، صفة إسبانى على أورتيجا اى جاسيت ، وأميركو كاسترو أوغرسية غومث وأنا . لأننا لانفكر ولا نحس ولا نعيش على نحوهم.

أعتقد أن الرجل هو التاريخ ، على حين يرى أورتيجا أن الشعوب تتغير مع حركة الأجيال السريعة، وأن الأمس يختلف دائما عن اليوم ، وأن اليوم يغاير الغد، ولا يوجد عصران إسبانيان متماثلان. وذلك يسمح لنا ، بل يضطرنا ، أن نعتبر إسبانيين كل أولئك الذين على امتداد التاريخ ، داخل إسبانيا وخارجها، فكروا وأحسوا وعاشوا على نحو ما كان مألوفا إذ ذاك ، فى إسبانيا الرومانية ، قبل فرياتو Viriato بزمن طويل ، وحتى بعد بريم Prim بقرون عديدة «[١]».

وأمر آخر لا يمت لذلك بصلة؛ أن نحدد ما إذا كانت هناك ملامح مشتركة بين إسبانيا الماضى البعيد ، وأمس واليوم . والموضوع هام لكى نحدد بدقة قدر ما فى مؤلف طوق «الحمامة » من إسبانية حقة ، وثمة أخبار مثيرة لرحالة أفريقى من القرن السادس قبل الميلاد ، يروى أن سكان مرسيلية كانوا مغرمين بقص الحكايات والروايات ، ويمكن أن نجد شواهد أخرى كثيرة مشابهة .

---

(١) فرياتو أيبيرى تزعم الثوار فى غرب شبه جزيرة إيبيريا ضد الاستعمار الرومانى ، فدفع الرومان بمن اغتاله عام ١٤٠ قبل الميلاد .

وبريم ، قائد عسكرى إسبانى ، اشتهر فى الحروب الأهلية التى عمت إسبانيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . (المترجم)

ومهما يكن عدد الذين يمكن أن يتسع لهم هذا الباب ، فإني لا أومن بأن للأرض أو السلالة تأثيراً حاسماً عبر التاريخ ، ولا فى استمرار الخصائص الجماعية للشعوب إلى مالا نهاية .إن التاريخ وليدلعبة معقدة بين قوى مختلفة ، منها الأرض والسلالة ، وكلا هما يلعب ،بالطبيعة ، دوراً فعالا . والتركيب الحيوى للشعوب ليس خالدا ، لأنه يرتبط بالتطور التاريخى الخاص بكل شعب : ثباته أوتغير ماورث من مزاج ، واستمرار بعض الملامح المميزة لشخصيته والإيقاع الذى يسير عليه فى علاقته مع الآخرين أخذا وعطاء .

وليس صعبا — ولا أجروء على أن أخط مخاطرة ، لأنها لم تكن كذلك ، فالتاريخ وليس المغامرة هو الذى سهل لطارق بن زياد ، وموسى بن نصير عبور مضيق جبل طارق — أن نوضح أن ، خصائص التاريخ الإسبانى الوسيط حددت مسار تقدمنا التاريخى ، وجاء فى زحف السلحفاة خلال حرب « الاسترداد »وليغفر لى أورتيجا أن أنقل عنه هذه الاستعارة القديمة التى استخدمها قبلى ، ولو أن محتواها يمكن أن يكون موضع نقاش . فنحن شعب أوربى ، أقرب مايكون بماضيه المتميز إلى أسلافه القدامى ، وقد مضت عليهم آلاف الأعوام • وهى خصائص حاولت أن أوضحها مفصلة ، وأودعتها كتاباً ضخما . وحتى خلال الحكم الإسلامى واصل الكثير من هذه الخصائص الإسبانية القديمة حياته . لأن الإسلام الأندلسى اعتقل فى ماضى سكان شبه الجزيرة الإيبيرية . لأسباب احتفظ بها الآن .

ليس السلالة أو الأرض إذن هما اللذان صنعا من موءلف « طوق الحمامة» إسبانيا ، وإنما صاغه التاريخ من طين ولبة الإيبيرية ، ومن دم إيبيرى يتدفق عبر جدوده المولدين ، وهى حقيقة نسيت ، كما نسى من قبل أن نهر تنتو Tinto أقدم نهر إسبانى .

وفى شعب يتقدم عبر التاريخ بخطى بطيئة ، ونقول هذا إبراء لذمة الإسبانيين ، فإن ثلاثة قرون غير كافية لتغيير التكرين المزاجى للمجموعة ولنحذر من أن نفكر مثل أمير كو كاسترو فى أن إسبانيا قد تعربت ثقافيا

وحيوياً بعصا سحرية منذ لحظة الفتح عام ٧١١ م . لقد كان التعريب الثقافى بطيئاً للغاية ، ويقول غرسية غومث فيما كتب من قريب : « بعد اكتشاف « الخرجات » الرومانثية للموشحات ، وشيء مثير من مخبئات العصر الأدبية ، بدأنا ندرك اليوم بوضوح أهمية النتائج التى أدى إليها الازدواج اللغوى فى إسبانيا الإسلامية ، وأصبحنا نعرف الرقعة المحدودة التى لاذت بها العربية الفصحى فى نطاق الدولة » وأما التعريب الحيوى لإسبان الأندلس فربما لم يتحقق أبداً ، إذا فهمنا من « التعريب الحيوى » شيئ يتجاوز اتخاذ العادات الخارجية للحياة اليومية . وفى كل الأحوال رأت إسبانيا الإسلامية شعباً يتحرك فى تؤدة ، ليصبح هجين الفكر على مهل ، وطبقاً لما قاله ، وكرره ، كل المستشرقين ، كانت المسافة واسعة بينه وبين كل ما هو شرقى حقيقى فى كثير من مظاهر مزاجه . ولقد أبرز غرسية غومث « غربية » شعور ابن حزم ، وأزاح ابن حزم نفسه الستر عنها حين قال :

أنا الشمس فى أفق العلوم منيرة ولكن عيبى أن مطلعى الغرب

لا ، فى ثلاثة قرون لم يكن مسلمو الأندلس قد أهدروا كل تراثهم من المزاج الإسبانى ، ومن ثم كان ابن حزم إسبانيا تعرب ثقافة ، ولم يكن عربيا إسبانيا .

ابن أحد وزراء المنصور بن أبى عامر ، دكتاتور الأندلس ، وكان معاصروه وتلاميذه من شبه الجزيرة يرونه حفيداً لمولدين ، أى أنه ينحدر أباً من أصول إسبانية أسلمت ، وكانت الأم إسبانية على التأكيد ، لأن مسلمى الأندلس ، حتى الخلفاء منهم ، ولدوا لأمهات ينحدرن من سلالات إسبانية عريقة ، فهم من هذا الجانب إسبانيون جميعاً ، ولكن ابن حيان المؤرخ ، وابن سعيد صاحب « المغرب فى حلى المغرب » ، يصرحان بأن ابن حزم كان كذلك من جهة الأب أيضاً .

يقول المثل الإسبانى : « أنت أشبه بمن تعيش بينهم منك بمن ولدتهم » ، وهى فكرة لايمل ترديدها ، فى كلمات أكثر نبلا ، أولئك

الذين يعتقدون أن التربية تنتصر على الدم في تكوين الشخصية الإنسانية. ولكن حالة ابن حزم تقف عالية في مواجهة هذا القول، فهو مسلم ومتعرب حتى الأعماق، ولكن روحه واصلت إسبانيتها دون أن تنحرف. وما نعرفه عن الداخل الروحي للمفكر القرطبي العظيم قليل جداً، وقد توقف بإزائه تلاميذه ودارسوه، في فطنة أحياناً، وممزوجة بالغيظ أحياناً أخرى. وكشف هو عنها في كتاباته، وألف — كما قلنا — حول موضوعات وفيرة التنوع، من كلام وفلسفة وفقه وأدب وتاريخ وغيرها. ولكن شخصيته تبدو في قمة توهجها خلال ثلاثة كتب شهيرة: «طوق الحمامة»، وفيه يلتقي الشاعر وعالم النفس ليرسما لوحة جميلة للحياة العاطفية على أيامه. وكتاب «الفصل بين الملل والأهواء والنحل»، وهو تاريخ مقارن للأديان، وفيه يداق معارفه الواسعة من الثقافات، إسلامية وفارسية وإغريقية ومسيحية ولاتينية ويظهر عمق ذكائه الفلسفي، وقوة عقله الخلاق. وكتاب «الأخلاق والسير في مداواة النفوس»، وفيه أورد ملاحظاته على نفسية معاصريه موشاة بحكم أخلاقية، واعترافات ذاتية صادقة، تجعله صنو ديمقريط Democrite، وسينكا Seneca، وتارة يشبه القديس أغسطين، أو يذكر تيوفراست Teofraste، أو يسبق في أفكاره بيكون Bacon أو لا برويير La Bruyére، أو يبدو كما لو كان سلفاً للشاعر الإسباني كيبيدو Quevedo، أو مواطنه المفكر أونامونو Unamuno (١).

---

(١) • ديمقريط: فيلسوف إغريقي عاش قبل الميلاد، وتنهض فلسفته على السخرية من جنون الإنسانية.

• سينكا: (٤ قبل الميلاد — ٦٥ بعد الميلاد) فيلسوف وخطيب ومسرحي إيبيري، ولد في قرطبة وعاش في روما، وترك عدداً من المؤلفات الفلسفية والمسرحيات الشعرية وغيرها.

• القديس أغسطين: (٣٥٤ — ٤٣٠ م)، راهب كاثوليكي من شمال أفريقية، ولد لأب وثني، وأمضى شباباً متهتكا، ابن من علاقة غير مشروعة، واتخذ من الرهبنة

وليس من الصعب أن نكتشف فى الملامح النفسية التى أوردها عنه من ترجموا له ، أو تناثرت فيما كتب لنفسه عن نفسه ، أو فى اعترافاته ، عمق حيويته الإسبانية ، ولكن ... فلنمض فى رحلتنا معه على مهل ! .

● من مدينة الزهراء إلى الإسكوريال :

لطالما وجدتنى مشدوداً إلى الموازنة بين تاريخ إسبانيا الإسلامية وتاريخها المسيحى ! .

ومنذ سنوات رسمت صورة لحقبتين من حياة إسبانيا ، تفصل بينهما قرون عديدة من الزمن ، وألوان مختلفة من الثقافات ، ولقد أبديت اهتماماً كبيراً فى دروسى ومحاضراتى بمدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر تحت جبل العروس ، من قبلة الجبل ، شمال قرطبة ، بين عامى ٩٣٦ و ٩٦١ م ، أى منذ ألف عام ، وما أكثر ما أشرت إلى بنائها تفصيلا ، فى ضوء المعلومات الضافية التى أوردها لنا ابن حيان ، المؤرخ القرطبى العظيم ، فقد ذكر الأعمدة ، عددها ، والرخام الذى استخدم فيها وثمنه ، ونفقات قطعه وحمله وألوانه ، وعدد العمال الذين كانوا يشتغلون فى البناء ، والدواب التى تستخدم

= لباساً ، وأصبح من كبار رجال الدين الكاثوليك ، وبلغ فى مجال الكتابة درجة عالية ، ومن أشهر مؤلفاته : إعترافات .

• تيوفراست : (٣٧٢ — ٢٨٧ ق . م) فيلسوف اغريقى .

• بيكون : (١٢١٤ — ١٢٩٤ م) ، عالم وفيلسوف إنجليزى شهير ، صاحب المذهب التجريبى فى الدراسة .

• لابرويير : (١٦٤٥ — ١٦٩٦) كاتب وأخلاق وروائى ومسرحى فرنسى .

• كيبيدو : (١٥٨٠ — ١٦٤٥) شاعر وكاتب إسبانى .

• أونامونو : (١٨٦٤ — ١٩٣٦) ، كاتب إسبانى ، فيلسوف وشاعر ، مسرحى وروائى ، ومناضل سياسى ، ودنيا واسعة من الثقافة العريضة والعميقة ، غزير الإنتاج ، ويلتقى مع كاتبنا العظيم عباس محمود العقاد فى جوانب كثيرة ، ويصلحان موضوعاً شيقاً لدراسة مقارنة (المترجم) .

فى النقل من بغال وجمال ، ومقدار ما تنقل ، وما يدفع لها وللعامل عليها من كراء ، تجيء وتذهب فى قوافل لا تنقطع بين قرطبة والزهراء ، محملة بالرخام والحيار والجص والأخشاب ، وكل ما يتطلبه البناء من مادة وأدوات. ولقد أسعدنى ما أثارته هذه الحقائق من دهشة بين السامعين . ثم وصفت لهم فخامة قصر الخلافة ، وبنى بأعلى الزهراء ، والحدائق الخضرة تطوق المدينة من كل جانب ، وتشغل ما بينها وبين مرتفعات الشارات ، وقد اتخذها الناصر « لنزله ، وكرسيا لملكه ، وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما عفى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات ، من آلات السلاح للحرب ، والحلى للزينة ، وغير ذلك من المهن » . وكانت تضم منازل رجال البلاط ، وكبار الموظفين . وتأنيت وأنا أرسم صورة للبهو الأعظم ، وكان معداً لاستقبال السفراء والوفود وكبار الزائرين ، سقفه من الرخام المذهب ، وفرشت أرضه بالسجاد الفاخر ، وأقام له فى رأسه كرسيا من الذهب الخالص ، وتوسطته بركة كبيرة من الزئبق ، «وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقاليته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طار بهم ، مادام الزئبق يتحرك » . وأنهيت وصفى لمدينة الزهراء بكلمات دامعة ، وقفت فيها على أطلالها ، وأسفت لتدمير الكثير من روائعها فى الثورات التى اجتاحت قرطبة بسبب دكتاتورية المنصور وأبنائه من بعده .

وحدث الشيء نفسه فى مدينة بونس أيرس عاصمة الأرجنتين ، عام ١٩٣٣ ، فى محاضرة ألقيتها عن « الحياة فى قصور خلفاء قرطبة منذ ألف عام » : وفجأة ومض فى داخلى خاطر ، وقفز فسكرى بعيداً ، فى الزمان وفى المكان ، لسكى أنتقل إلى قصر ملكى آخر ، لأمراء إسبانيين ، أقيم على نحو ما فعل عبد الرحمن الناصر فى سطح جبل آخر ، قريباً من عاصمة إسبانيا على أيامهم :

لقد حلق بى الخيال عالياً ، ومشدوداً إليه ، تجتاحنى مشاعر وذكريات ركنين فى وطنى البعيد والمعبود ، ولحظتان حاسمتان من تاريخه ، وجدتنى أقول :

« لا ترد فى خاطرى مدينة الزهراء أبداً إلا وجمح بى حصان خيالى ، والآن ، كما يحدث دائماً ، انطلق بى تذكرها ، بأسرع مما ينطلق الفرس ، أو تندفع الرصاصة ، إلى سلسلة جبال وادى الرمة ، وعبر خيالى ، فى رحلة طائرة رائعة ، أشجار سلسلة جبال « مورينا » ، ووديان « لامنتشا » ، وقمم جبال طليطلة المتلاحمة ، ومنعطفات نهر « تاجه » تطوق المدينة مثل حمائل سيف مفضض ، وقباب مدريد وغاباتها ، وناطحات سحابها ، لسكى أتأمل فى شوق حزين قصور مدينة ملوك إسبانيا من أسرة أشتورياس : الإسكوريال ! »

مدينة الزهراء والأسكوريال ! ، وليس ثمة تناقض أشد حدة مما بينهما فإلى جانب قصور خلفاء قرطبة ضوء أندلسى يعشى البصر ، وأرض ذات أسرار ، وخضرة شبقة ، وبرتقال وزيتون ، وحول قصور ملوك مدريد بلوط وصفصاف ، وأعشاب وزعتر ، وصخور شهباء ، وصقيع وبرد . . وفى مدينة الزهراء رخام وفسيفساء ، وزخارف فاخرة ، وبرك وحمامات ، وقاعات مذهبة ، وفى الأسكوريال رخام ومعمار تحكمه هندسة دقيقة ، وصوامع غبرة ، وممرات عابسة ، وعنف . فى مدينة عبد الرحمن الناصر قصور ومساجد ، خصيان ونساء ، شعراء وجنود ، موسيقى وألوان

متوهجة ، وسجاد وحرير وعطور ، وأقوام تتحدث العربية ، وفى الإسكوريال ، مقر فيليب الثانى ، رهبان وراهبات ، وأغنيات دينية ، ومحادثات هامسة كالصلاة ، وأردية سوداء من نسيج قشتالى ، وصمت وهدوء . فى « شارات » قرطبة لذاذات وقسوة ، ودم وشهوة ، وعواطف متفجرة ، وفى وادى الرمة المثلج صلوات خاشعة ، ومشاعر مكبوتة وتصوف . وعلى منار مسجد الخليفة صوت المؤذن يدعو إلى الله الرحمن الرحيم ، وألسنة النواقيس فى أبراج الدير الملكى ، فى الإسكوريال ، تدعو المؤمنين بابن الإنسان وابن الله إلى القداس . ليس ثمة تناقض أشد حدة مما بين مدينة الزهراء والإسكوريال ، ومع ذلك ، وكما يقول بيت من الأغنية الشعبية الأندلسية ، « ثمة خيط خفى رفيع يصل بين الإثنين » .

نعم ، مدينة الزهراء والإسكوريال ! . كل واحدة منهما تمثل قمة مرحلة فى حياة إسبانيا . كانت مدينة الزهراء ، فى القرن العاشر الميلادى ، حاضرة الأندلس ، وإسبانيا الإسلامية القوة الأولى فى غربى البحر الأبيض المتوسط ، تملك مضيق جبل طارق ، وتسيطر على المغرب الأقصى ، ويطلب صداقتها والتحالف مع خلفائها إمبراطور جرمانيا ، وقيصر بيزنطة ، ويرسلان إليها السفراء والهدايا ، وقرطبة إذ ذاك أكبر مدن الغرب ؛ وأعظمها ثقافة وأكبرها غنى . وفيها نضجت الثقافة الأندلسية الرائعة ، وستأخذ موضع الأستاذ من أوربا الغارقة فى الظلام ، وتدفع بها إلى أول نهضة أوربية عرفها القرن الثالث عشر الميلادى . وعلى حين يسود فى شمال جبال البرانس اقتصاد بدائى ، وكل النشاطات التجارية والصناعية خامدة ، كان يزدهر فى شبه جزيرة إيبيريا اقتصاد يستخدم النقود ، وتدعمه حياة ناجحة متحضرة ، وصناعات متنوعة ، وتجارة نافقة يتجاوز الحدود نشاطها .

وعندما ارتفع بناء الإسكوريال كتلا فى القرن السادس عشر ، فوق صخور وادى الرمة ، كانت إسبانيا أعظم قوة فى العالم ، اكتشفنا

وغزونا أمريكا ، وعندما انتصرنا على الأتراك فى موقعة لبانتى lopante(١) غيرنا إلى الأبد التكوين الجغرافى للحضارة التى كانت تعيش حول البحر الأبيض المتوسط ، وانحسر الإسلام ، وكان إحدى القوى العالمية فى مطلع العصر الوسيط ، إلى المشرق وإفريقية ، وبدأت البابوية والإمبراطورية ، شمسا سماء العصر الوسيط ، تدوران فى فلك الشمس الإسبانية ، ففرنسا خصمنا مقهورة وعاجزة ، وتعانى من تدخل مدريد النشيط ، حتى أصبح الجنود الإسبان زينة باريس . وفى سلمنقة فتحت مدرسة فيتوريا Vitoria المجال واسعا أمام حقوق الجماهير ، وفى طليطلة يرسم الجريكو El Greco ، وفى أبلة تكتب سنتا تريزا وخوان دى لا كروث ، وكان ثرفانتيس ولوبى دى فيجا فى طور التكوين ، وأنقذ علماء اللاهوت والمفكرين الإسبان القيم الأخلاقية الخالدة ، وكان عصر النهضة ممثلا فى شخص مكيافلى Machiavelli وبودين Bodin قد ألقى بها فى القاع ، وأنقذت أيضا سيادة الروح بعد أن هددها انتصار العقل ، وأملت «حركة الإصلاح» فى أن تكون سيطرته على العالم مطلقة . أى أن إسبانيا ولدت الحداثة ، واحتفظت ، مثل ما حدث فى أركا سنتا Arca Santa ، بقوى كانت ضرورية للرجال فى أيامنا هذه ، كترياق لشفاء العقل الخالص من الضلال . (٢)

عرضت لقمتين من تاريخ إسبانيا المنتصرة ، حاكمة الشعوب ، ومبدعة الثقافات ، ولكن مدينة الزهراء والإسكوريال يرتبطان أيضا ، فى ذاكرتى ، بموازنات أخرى ، تتصل بحياة وموت عدد من الأمراء الإسبان . فعبد الرحمن

---

(١) معركة بحرية جرت فى خليج لبانتى عام ١٥٧١ ، بين الجيش العثمانى ، وجيوش أوربا مجتمعة بقيادة دون جوان ملك النمسا ، وقد أنزلت الأساطيل الأوربية الكاثوليكية المتحالفة هزيمة فادحة بالأسطول العثمانى .

(٢) * الجريكو : (١٥٤١ - ١٦١٤) ، من أشهر الرسامين فى إسبانيا ، ولد فى جزيرة كريت ، وعاش فى إسبانيا ، وتوفى فى مدينة طليطلة ، وله فيها متحف خاص به يجمع روائع لوحاته .

الناصر مشيد مدينة الزهراء القرطبية أمر بإعدام ابنه عبد الله ، وفيليب الثانى الذى أقام مدينة الإسكوريال قرب مدريد ، سجن ابنه كارلوس ، وتركه يموت سجينا ، بل ويمكن أن أقوم بموازنة بين أمراء بنى أمية الأندلسيين فى القرن العاشر الميلادى ، وملوك إسبانيا المنحدرين من أسرة أشتورياس فى القرن السادس عشر . لقد ورث كل من عبدالرحمن الناصر وكارلوس الخامس عن جدودهما ، إسبانيا متميزة وفريدة ، وواجه كل منهما مشاكل خطيرة ، وكانا محاربين قويين ، وعاشقين عظيمين ، يحبان الحياة والمتع ، وانتصرا كثيراً فى ساحة القتال ، وهربا ، كل واحد منهما ، فى يوم مظلم كى ينقذ حياته وحريته . هرب الناصر فى شمنقش Simancas ، وهرب كارلوس الخامس فى إنسبروك Insbruk ، ومنذ هذه اللحظة أحسا بالفشل ، وتحررا من الكآبة ، وعاشا ما بقى لهما من الحياة بعدها . وورث كل من الحكم الثانى وفيليب الثانى إمبراطورية قوية عظيمة ، وكانا ينفران من الحرب على نحو متساو ، ولم يحدث أبداً لأى منهما ، وهو يدفع بجيشه للمعركة ، أن دفع الضريبة فى ساحة القتال لإله الحرب من دمه أو راحته ، وأسهم فى

* سنتا تريزا : (١٥١٥ — ١٥٨٢) ، راهبة إسبانية ، متصوفة وشاعرة وكاتبة ، تعرضت لملاحقة مستمرة من محاكم التفتيش ، وتركت وراءها عدداً من الأعمال الأدبية الجيدة.

* خوان دى لاكروث : (١٥٤٢ — ١٥٩١) ، لاهوتى وشاعر ومتصوف إسبانى ، تأثر فى فكره بالفلسفة الإسلامية ، بدأ حياته يعمل ممرضاً فى مستشفى ، والتقى بسنتا تريزا ، واستجاب لدعوتها الإصلاحية .

* ثرفانتيس : (١٥٤٧ — ١٦١٦ م) ، أعظم روائى إسبانى ، وصاحب رواية « دون كيخوته » الخالدة ، ذات الشهرة العالمية .

* لوبى دى فيجا : (١٥٦٢ — ١٦٣٥) ، من أعظم كتاب المسرح الإسبانى ، وأخصبهم إنتاجاً ، وترك وراءه عددا كبيرا من المسرحيات تتناول موضوعات مختلفة .

* ميكافيلى : (١٤٦٩ — ١٥٢٧) ، كاتب وفيلسوف ودبلوماسى إيطالى ، وأشهر مؤلفاته « الأمير » ويدور حول مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فى الحكومات والسياسة .

* بودين : (١٥٣٠ — ١٥٩٦) ، عالم إقتصاد فرنسى . (المترجم)

فى القتال بنفسه . وكانا يحبان الورق والكتب ، فلم يفارق أولهما مدينة الزهراء ، ولا غادر الثانى قصره فى الإسكوريال ، وكان الحكم المستنصر «يبعث فى الكتاب إلى الأقطار رجالا من التجار ، ويرسل إليهم الأموال اشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس مالم يعهدوه ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد ممن قبله ولا من بعده » .

وأرسل فيليب الثانى أمبروسيو دى مورالس Ambrosio de morales فى رحلة ثقافية عبر شمال إسبانيا فجمع عددا من المخطوطات والمؤلفات والكتب لمكتبة الإسكوريال الغنية. وكلاهما يحب مجالسة الأدباء والفنانين ، وكلاهما حرمه القدر من ولى عهد قادر على حكم مملكته العظيمة . فهشام الثانى ولى عهد الحكم ، وفيليب الثالث ولى عهد فيليب الثانى ، كانا على السواء تقيين مصليين ، ضعيفى الإرادة ، حتى أنهما تركا حاشيتهما تتحكمان فيهما . ولا يمكن أن نقارن بهما المنصور العبقرى ، ولا المركيز دى ليرما de lerma الأخرق ، ولكن لا يمكن الإنكار أن خلفاءهما عجلوا بنهاية الأندلس وإسبانيا ، ودفعوا بها إلى الهاوية والدمار . نعم ، تم ذلك بإيقاع مختلف ، يتناسب مع ما اتصف به كل وزير من عبقرية أو حمق ، فكان سريعاً فى إسبانيا الإسلامية بعد المنصور ، بطيئاً فى إسبانيا الكاثوليكية بعد دى ليرما .

مدينة الزهراء والإسكوريال ، عبد الرحمن الناصر وكارلوس الخامس ، الحكم المستنصر وفيليب الثانى ، هشام الثانى وفيليب الثالث ، المنصور بن أبى عامر والمركيز دى ليرما ، ثمة خيط رفيع خفى يربط بينهم دائما ، فى ذاكرتى ، ولكن هذا التقارب يأخذ خطا متميزا فيما يتصل بعبد الرحمن الناصر وكارلوس الخامس : كلاهما يفيض قوة واندفاعا ورغبة فى العمل ، دلعتهما الآلهة ، ودللهما المجد ، وعاشا حياة عدنية ، أمضياها وهما فى قمة التمتع بالحب والرفاهية ، والقوة والثروة ، وقد عاش الأول أكثر من ٧٣ عاما ، حكم منها ٤٩ سنة ، وترك مذكرة مثيرة ، كتبها بخط يده ، سجل فيها أيام سروره وصفوه وهى لا تزيد عن ١٤ يوما على امتداد حياته . وعزف

الثانى عن المجد أخيرا وسجن نفسه فى « يوست Yuste » بانتظار الموت .

عبد الرحمن الناصر وكارلوس الخامس يمثلان علامة معذبة . ماذا ينقصهما؟ لقد ولدا لأبوين إسبانيين ، ورغم الأصول المشرقية البعيدة لعبد الرحمن الناصر ، والأصل الفلمنكى لوالد كارلوس الخامس ، كان يوجه مصائرهما روح إسبانى أصيل ، تجمعت فيه كل عواصف الروح الإسبانى وصراعه الداخلى ، واندفاعه المتصاعد ، وحماسته الفاترة ، ويأسه القاتم . كان يحكم كل منهما روح إسبانى عبقرى ومعقد . ومن ثم عاشا أسيرى رغبة نهمة لا ترتوى ، وقلق دائم لا يتوقف ، وعاشا معركة داخلية معذبة . ماذا ينقصهما ؟ . . . ينقصهما كل شىء ، لأن الإسبانى الحقيقى الغارق فى السعادة مظهرا ، يمكن دائما أن يتمخله أحيانا من كلمات سخسمو ندو Segismundo (١) المرعبة مثلا ينطبق عليه : « الحياة حلم » .

مدينة الزهراء والإسكوريال ! . لقد نهبت الأولى وأحرقت خلال الثورات القرطبية ، وأصبحت أرضها الحزينة اليوم مرعى للثيران الهائجة ، واستسلمت جدرانها لأساها العميق . بالأمس عظمة وبهجة وروعة ، واليوم خراب وأنقاض وبؤس . ومنذ أعوام اكتشف بقاياها فى سفح « سييرا » قرطبة رجال عصر كان أكثر تطلعا إلى الماضى ، ربما خوفا من الغد ، لهم ملامح قاسية ومؤسية ، رجال كانوا يبحثون فى الأرض عن بقايا حضارات قديمة منسية ، ربما لأن هاجسا غامضا كان يوشوش فى آذانهم بقرب نهاية عصرهم . أما الإسكوريال فلما يزل قائما . فلتحفظه الآلهة من غضب الرجال ومن حنق زمان لا يرحم ! .

● إسبانية ابن حزم :

قاومت مؤلفات ابن حزم محن الزمن أكثر مما قاومتها مدينة الزهراء ، اندثر الرخام وعاشت المخطوطات ، لأن روائع الفكر الإنسانى تتميز بإمكان

---

(١) بطل مسرحية « الحياة حلم » للكاتب الإسبانى كالديرون . (المترجم)

نسخها إلى ما لا نهاية ، وانتقالها وانتشارها عبر القارات والمحيطات ، حتى قبل أن تخترع الطباعة . وللمغامرة طموح ، ذلك أن « طوق الحمامة » ، وقد ترجم اليوم إلى معظم لغات العالم المثقفة ، أنقذه من الضياع مخطوطة وحيدة ومشرقية .

ولقد تضاعف وامتد قدر مؤلفات ابن حزم ، والأخبار التى نقلها لنا معاصروه ، والأوفياء له ، عن شخصه ، تسمح لى بالدفاع عن حقيقة إسبانيته .

لقد أصبحت الكلمة التى أرسلها عنه أبو العباس بن العريف المربى مثلا شاع عبر العالم الإسلامى كله : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » ، ولأن الحجاج كان أشد قواد بنى أمية فى دمشق قسوة ، فليس ثمة مدح أعظم لكلمات ابن حزم القرطبي الحادة ، وقلمه الإسبانى الصارم من هذه الكلمات .

يقول ابن سعيد(١) ، صاحب المغرب فى حلى المغرب : « وكان يجادل عن علمه هذا من خالفه ، على استرسال فى طباعه ، وبذل بأسراره ، واستناداً إلى العهد الذى أخذه الله على العلماء من عباده ، « ليبيننه للناس ولا يكتمونه » ، فلم يك يلطف بما عنده بتعريض ، ولا يزفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه أحر من الخردل » .

ويقول عنه معاصره ابن حيان ، المؤرخ القرطبي العظيم : « ... حتى استهدف إلى فقهاء وقته ، فتمالأوا على بغضه ، وردوا قوله ، وأجمعوا

---

(١) الواقع أن هذا النص ليس لابن سعيد ، وإنما هو لابن حيان ، وقد نقله عنه صاحب الذخيرة ، ونقله ابن سعيد عن الذخيرة ومنسوباً إليها ، أنظر :

* المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ ، طبعة دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ .

* ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ١٤١ (المترجم) .

على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، إلى انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة ، وبها توفى رحمه الله سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وهو فى ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به ، يبث علمه فيمن ينتابه ببادية من عامة المقتبسين منه ، ومن أصاغر الطلاب الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير ، ولم يعد أكثرها عتبة بابه ، لتزهيد الفقهاء طلاب العلم فيها حتى أحرق بعضها بإشبيلية ، ومزقت علانية ، ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة فى نشرها ، وجدالا للمعاند فيها ، إلى أن مضى لسبيله .

« وأكثر معايبه — زعموا — عند المنصف له ، جهله بسياسة العلم التى هى أعرض من إيعابه ، وتخلفه عن ذلك على قوة سبحه فى غماره ، وعلى ذلك كله فلم يكن بالسليم من اضطراب رأيه ، ومغيب شاهد علمه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء ، ولا يقصر عنه الرشاء » . ويتحدث ابن حيان أيضاً عن تعصب ابن حزم الأعمى لأفكاره .

ونحاول الآن أن نتعرف إلى عالم قرطبة من خلال كتاباته نفسها ، وإليك الدليل على لذاعة قلمه ، يقول : « إن كل مدبر مدينة أو حصن فى شيء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد » . وينتقد بشدة من يمكن أن نسميهم بالكهنة ، وهم ليسوا كذلك فى الحقيقة ، لأن الإسلام لا يعرف نظام الكهنوت ، ولكن يقترب من هؤلاء فى واقعهم المسيحى علماء العقيدة أو الفقهاء المسلمين : « فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه ، واللابسون جلود الضأن

على قلوب السباع ، والمزينون لأهل الشر شرهم ؛ الناصرون لهم على فسقهم » .

ولنستمع إليه يعلن الحرب على النفاق والكذب : «ما رأيت أخزى من كذاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ، ولا سفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب ، ولا أكدت البغضاء والإحن المردية إلا بنمائم لا يحظى صاحبها إلا بالمقت والخزى والذل ، وأن ينظر منه الذى ينقل إليه ، فضلاً عن غيره ، بالعين التى ينظر بها من الكلب » .

ونبرهن على إسبانيته الكيخوتية (١) من قوله : «حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم ، وعن الجار المضطهد ، وعن المستجير المظلوم ، وعن الهضيمة ظلماً فى المال والعرض ، وفى سائر سبل الحق ، سواء قل من يعارض أو كثر ، والتقصير عما ذكرنا جبن وخور ، وبذلها فى عرض الدنيا تهور وحمق » . ثم يضيف : «وأما الذى يعيبنى به جهال أعدائى من أنى لا أبالى فيما أعتقده حقاً عن مخالفة من خالفته ، ولو أنهم جميع من على ظهر بالأرض ... فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها » .

ونكتشف مفهومه الإسبانى للعلاقة بين الإنسان والله فى قوله : «إذا لم يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الحق فأغضب الناس ونافرهم ، ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق » .

وإليك البرهان على احتقاره للعادات الاجتماعية ، ونفوره من خفة الدين

---

(١) نسبة إلى دون كيخوته (أو كيشوته) بطل رواية ثرفانتيس الخالدة ، وتحمل اسم البطل نفسه ، وهو رجل كان يحلم بإشاعة العدل ، ورفع الظلم ، وتنظيم الكون ، ثم رأى أحلامه تتهاوى حلماً وراء آخر .

يعبدون الشطارة ، وينسون الطريق المستقيم ، إنه يعترف : « إنى لا أبالى
موافقة أهل بلادى فى كثير من زيهم الذى قد تعودوه لغير معنى ، فهذه
الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها ، ولعمرى لو لم تكن فى
— وأعوذ بالله ! —لكانت من أعظم متمنياتى وطلباتى عند خالقى عز وجل» .
ويقول أيضاً : « إياك وأن تسر غيرك مما تسوء به نفسك فيما لم توجبه عليك
شريعة أو فضيلة » . ويضيف : « وأما إحكام أمر الدنيا والتودد إلى الناس
بما وافقهم ، وصلحت عليه حال المتودد من باطل أوغيره ، أوعيب أو
ما عداه ، والتحيل فى إنماء المال ، وبعد الصوت ، وتسبيب الجاه بكل
ما أمكن من معصية ورذيلة ، فليس عقلا . ولقد كان الذين صدقهم الله
فى أنهم لا يعقلون ، وأخبرنا بأنهم لايعقلون ، سائسين لدنياهم ، مثمرين
لأموالهم ، مدارين لملوكهم ، حافظين لرياستهم ، لكن هذا الخلق يسمى
الدهاء ، ، وضده العقل والسلامة » .

ولنصغ إلى ثنائه الإسبانى حرفياً ، وإلى ثرثرته الإسبانية العادية :
« لكل شىء فائدة ، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ،
وهى أنه توقد طبعى ، واحتدم خاطرى ، وحمى فكرى ، وتهيج
نشاطى ، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لى عظيمة المنفعة ، ولولا استثارتهم
ساكنى ، واقتداحهم كامنى ، ما انبعثت لتلك التواليف » . ويكتب كاشفاً
عن موقفه الإسبانى بإزاء الثروة : « وذمنى أيضاً بعض من تعسف الأمور ،
دون تحقيق بأنى أضيع مالى ، وهذه جملة بيانها أنى لاأضيع منه إلا ما كان
فى حفظه نقص دينى ، أو إخلاق عرضى ، أو إتعاب نفسى ، فإنى أرى
الذى أحفظ من هذه الثلاثة ، وإن قل ، أحق فى العوض مما يضيع من مالى ،
ولو أنه كل ما ذرت عليه الشمس » .

ويقول معترفاً بغضبه الإسبانى ، وبما يعتمل فى أعماقه من صراع داخلى
إسبانى : « كانت فى عيوب فلم أزل بالرياضة واطلاعى على ما قالت
الأنبياء صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين

فى الأخلاق وفى آداب النفس ، أعانى مداواتها ، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه . وتمام العدل ورياضة النفس ، والتصرف بأزمة الحقائق ، هو الإقرار بها ، ليتعظ بذلك متعظ يوماً إن شاء الله .

« فمنها كلف فى الرضا ، وإفراط فى الغضب ، فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط ، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار ، وتحملت من ذلك ثقلا شديداً ، وصبرت على مضض مؤلم ، كان ربما أمرضنى وأعجزنى ذلك فى الرضى ، وكأنى سامحت نفسى فى ذلك ، لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم » .

وإليك برهان شعرى جميل على اعتزازه الإسبانى ، فى مواجهة الحسد ، وهو إسبانى أيضاً :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ... ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع ... لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولى نحو آفاق العراق صبابة ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر ... وأطلب ما عنه تجىء به الكتب
هنالك يدرى أن للبعد قصة ... وأن كساد العلم آفته القرب
فياعجباً من غاب عنهم تشوقوا ... له ، ودنو المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عنى لضيق ... على أنه فيح مهامهه سهب
وإن رجالا ضيعونى لضيع ... وإن زمانا لم أنل خصبه جدب

أثنى المؤرخون الإغريق والرومان على وفاء الإسبان فى صداقتهم ، ويقول لنا ابن حزم فيما يتصل بهذا الأمر : « إنى جبلت على طبيعتين لا يهنئنى معهما عيش أبداً ، وإنى لأبرم بحياً باجتماعهما ، وأود التثبت من نفسى أحياناً ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التى لم تعزف بها نفسى عما دربته ، ولا تتطلع إلى عدم من

صحبته . وعزة نفس لاتقر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإنى لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذى لايكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسى تصبرت وفى القلب ما فيه » ويضيف ، فى نبرة إسبانية أصيلة « الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع ». وقد سبق كالديرون بقوله « العرض أعز على الكريم من المال . ينبغى للكريم أن يصون جسمه بماله ، ويصون نفسه بجسمه ، ويصون عرضه بنفسه ، ويصون دينه بعرضه ، ولا يصون بدينه شيئا أصلا »، ويمكن أن نضيف إلى ما قال جملة جاءت على لسان بطل مسرحية «عمدة السلمية Alcaldede Zalamea» الخالدة لمؤلفها كالديرون : «الله وحده يملك أرواحنا ».

لقد أحسست بسعادة غامرة ، لأن غرسية غومث ، وهو ناقد بصير وعلى معرفة واعية بابن حزم ، ارتأى إسبانية مؤلف « طوق الحمامة» ، وأنه فى الحقيقة كان دون كيخوتة من القرن الحادى عشر . قلته قديماً ، واليوم أحاول أن أكتشف الكيخوتية الإسبانية فيه ، قبل أن يعرفها آخرون من شبه الجزيرة سبقوا ألونسو كيخانو Alonso Quijano ، ومن يسرع لى دراسته يوفر على عملا يشدنى إليه ، وأشك أننى سأكمله يوماً .

وضع غرسية غومث جملة : «تناقض جوهرى» عنواناً لفقرة فى مقدمته لترجمة الطوق ، وفيها كتب يقول « هذا التناقض الجوهرى المستمر ، والإزدواجية غير المنصهرة ، من اللطف والخشونة ، ومن العواطف الرقيقة والجافية ، ومن النبل والعامية ، تجعل ابن حزم من أحب الشخصيات إلينا ، لأنها تجعل منه قريناً لعظماء آخرين من مستواه ، عرفهم عصرنا الذهبى ، وفيهم تبدو الإيبيرية كاملة وقوية ، ولقد أشرنا من قبل عرضا إلى جونجرة Gongora وكيبيدو ، ونستطيع أن نذكر آخرين ، ليس من بينهم ثرفانتيس ، قمة مثل لايتكرر ، وفيهم تلتقى تناقضات سلالتنا

الجذرية ، فى تركيب إنسانى مفهوم ، حلو وحزين» .

وأنا أشارك غومث رأيه ، بعامة ، ولقد ربطت أيضاً بين شاعرنا كيبيدو وبين أديبنا ابن حزم ، وأجرؤ على أن أقوم بموازنة خاطفة ، فيما بعد ، بينه وبين أونامونو. لقد وضعت خطاً على مسئوليتى تحت الجملة السابقة من كلام غومث ، والتى تتصل بدور «الإيبيرية» ، قديمة وثابتة ، فى أخلاق ابن حزم ، لأنها تقف فى مواجهة فكرة أميركو كاسترو ، التى ترد مثل هذه الاتصالات إلى التفاعل بين ما هو مسيحى وما هو إسلامى ، وإليها ينسب تشكل ما هو إسبانى . لم أكتب كلمات مترجم «طوق الحمامة» إلى الإسبانية ، لأنى لا أعرف ما إذا كان هذا التناقض يمتد إلى أصول بعيدة جداً ، ولكنى حاولت ، على الأقل ، وفيما أعتقد استطعت أن أفهم امتداده خلال ماضينا ، عبر طرق تختلف عن طريق كاسترو ، وهى مشتركة إلى حد كبير ، وفضلا عن ذلك فإنى أميل إلى عدم الاستخفاف بأن تشابه الصيغ الجبرية ، فى معادلة بين الروح والمشاعر والغرائز ، أو الأرواح الثلاثة بتعبير أورتيجا إى جاسيت ، يولد تقارب الأمزجة عند رجال من لحم وعظم ، والذين هم ، وكانوا ، الفلاسفة والفنانين والكتاب . لأنى أعتقد أن هؤلاء لم يكونوا ، وليسوا دمى يرمى بخيوطها كائن ثقافى مجرد ، ولكن من الواضح أن تكرار عدد من أشكال هذه المعادلة الجبرية ، بين القوى الحيوية الثلاث ، بين أعضاء جماعة تاريخية — والإحصاء المطبق فى التاريخ ، ولو أنه يبدو متناقضاً ، يثبت اتجاها مزاجيا — يصدر بالضرورة عن ملامح جماعية متأصلة فى التكوين العضوى للشعب ، ومن تركيب يرتبط وراثة مع المراحل الأكثر بعداً فى التاريخ ، وتمضى على امتداده ، كما هو واضح ، تغيراً وثباتا ، فى إيقاع ونتائج مختلفة ، كالأنهار ، تتدفق مسرعة أو بطيئة ، وتمضى مستقيمة أو منعطفة ، وفى طريقها تخصب أو تدمر .

وفى موازنة مع كبار الشخصيات الأدبية الإسبانية فى العصر الذهبى ،

يمكن ، على نحو ما كتب غرسية غومث ، أن نجعل له من الكبرياء الإسبانى نصيبا ، وأن نرد إليها أيضا وحدته الآدمية . ويضيف مترجمه : « لقد عرف مؤلف كتاب « طوق الحمامة » كتاب « الزهرة » لابن داود الأصفهانى مباشرة . . . ولكن من واجبنا أن نضيف ، أنه بالرغم من الإشارات الحرفية القليلة ، ومن الاتجاه العاطفى المشترك ، فإن « الطوق » يدين بالقليل جدا لكتاب « الزهرة » ، لأن النظرية فيه تغربت وتأسبنت ، وفقدت دلالها الرائع وتحذلقها الخنث ... وما كان يقال فى بغداد نثراً رائعا أو شعراً لاينسب لقائل ، كان يكتبه مؤلف « الطوق » فى شاطبة ساخنا وإنسانيا ، ويتخذ له المثل من حياته ، ومن حياة أصدقائه فى قرطبة . لقد مزق مافيه من عاطفة وملل إسبانيين السياج الواقى للنبع ، وشربا منه ، كل على وجهه ، وخلطا هذين المصلين بدمه » .

ياله من برهان بالغ الروعة والجمال ، فى جانب إسبانية مؤلف « طوق الحمامة » ! .

ويدعم غرسية غومث رأيه بنقل صفحة من رسالة ابن حزم فى « فضائل أهل الأندلس » ، وهى تذكرنا بلارا Larra (١) وفيها يعلق ، فى مرارة إسبانية ، على فقرة من إنجيل لوقا (الإصحاح السادس ، الآية ٢٤) : « وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لايفقد النبى حرمته إلا فى بلده » . « ولا سيما بأندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتى به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما فى سائر البلاد ؛ إن أجاد قالوا : سارق مغير ؛ ومنتحل مدع . وإن توسط قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط . وإن باكر الحيازة

---

(١) لارا : (١٨٠٧ — ١٨٣٧) ، كاتب إسبانى ، نشر كثيراً من المقالات ، بتوقيع مستعار فى صحف كثيرة ، وكانت مقالاته نقدا عبقريا ، وداميا للتقاليد المتخلفة فى عصره . (المترجم) .

لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفى أى زمن قرأ ؟ ولأمه الهبل ! . وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفاً باثناً يعليه على نظرائه ، أو سلوكاً فى غير السبيل التى عهدوها ، فهنا لك حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضا للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نحل ما لم يقل ، وطوق مالم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه ، وبالحرى وهو السابق المبرز ، إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من المتالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسير خطبه ، واستشنع هين سقطه ، وذهبت محاسنه ، وسترت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل ، فتنكسر لذلك همته ، وتكل نفسه ، وتبرد حميته ، وهكذا عندنا ، نصيب من ابتدأ يحوك شعراً ، أو يعمل بعمل رياسة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت ، والمطفف المستولى على الأمد » .

من الضرورى أن يفرك الإنسان عينيه بعد أن يقرأ هذه الصفحة الحزينة ، ليقتنع فى دهشة بالغة لا يمكن إنكارها ، أنها خرجت من قلم ابن حزم ، لقد كتبها المفكر الإسبانى ، والقلق يغمره ، بين عامى ١٠٣٥ و ١٠٤٠ م ، فجاءت تعكس بدقة المناخ الكريه ؛ الطافح بالحسد ، الذى عاش فيه ، وتساير شموخ إسبانيا المعاصرة ؛ وحتى فى عصور أخرى كثيرة من تاريخها فى الماضى . لم تزدهر هذه اللبلابة الخبيثة جنوبى جبال البرانس فحسب ، لأنها تنمو سريعاً خلال الأزمات وفى لحظات السقوط القومى ، فى أى مكان ؛ ولكن لم يحدث أنها تأصلت وترعرعت وآتت أكلها ، كما فى إسبانيا أهى ؛ مرة أخرى ، ثمرة مرة للسلالة والأرض الإسبانية ؟ لا إنها مرة أخرى ثمرة فاسدة لتأثير تاريخنا العريق والفريد فى الإنسان الإسبانى منصهراً ، وهذا حق !

من طين شبه الجزيرة ودمها . و كل الأحوال ؛ مرة أخرى ، دليل آخر واضح على إسبانية ابن حزم ، والذى كتب منذ قرون مضت ، فى مرارة عميقة وتشاؤم أسود ، قبل أن تكون روح الإسبان ، كما يدعى كاسترو ، قد أصيبت بعدوى الحزن والحنق من يهود شبه الجزيرة الإيبيرية ، عدوى يفسر بها (أى كاسترو) حتى الشعور بمأساوية الحياة عند الإسبان .

• مع ترجمة الطوق :

قلنا من قبل إننا نستطيع اليوم أن نقرأ طوق الحمامة ، جوهرة الأدب الأندلسى ، فى اللغة القشتالية بفضل غرسية غومث . لقد عرض ابن حزم نظريته النفسية عن الحب فى ثلاثين بابا ، مع ملاحظات دقيقة ؛ وفكر محلق ، يغزو ويشد على الدوام اهتمام من يطل بين صفحاته رغم أن وراء الكتاب ألف عام من التاريخ ، ووراء قارئه تراث هائل من الثقافة الغربية .

لقد أثار كتاب « الطوق » كثيراً من المشكلات أمام الدارسين المحدثين ، ولكى يهيئ غرسية غومث القارىء لجولة أكثر فائدة عبر صفحات الكتاب ، قدم له بدراسة عن ابن حزم اتكأ فيها على السيرة التى رسمها له العلامة ميجيل أسين بلاثيوس ، شيخ المستشرقين الإسبان ، وتصرف فيها إيجازاً أو إطناباً أو تقويما ، وفى كل الحالات دفع بين سطورها بمزيد من الحياة . لقد أغرانا بالصورة السريعة والدقيقة التى رسمها لابن شهيد طفلا ، يظهر أمام المنصور بن أبى عامر ، وسوف يصبح فيما بعد شاعراً عظيما ، وصديقاً حميما لابن حزم ، ورأس جماعة من أبناء الخاصة فى قرطبة ، أنيقون يعبدون الجمال ، ويسرحون شعورهم على أحدث نمط ، ويهيمون إعجاباً بكل جديد ، ويعشقون الأدب والفنون الجميلة ، وقد انضم إليهم مؤلف الطوق فى اللحظة التى تجاوز فيها سن المراهقة ، ولقد وعدنا غرسية غومث بدراسة عن ابن شهيد ، صديق ابن حزم ، ننتظرها فى صبر نافد .

وقد أوضح لنا المثل الأعلى الأدب لهذه الجماعة ، ذات الاتجاه العربى ، تحتقر كل ما هو إسبانى ، ولكنها قومية ، تحاول التغلب على التقليد الأعمى لكل ما هو مشرقى .

وعرض غرسية غومث للأحداث البارزة فى حياة ابن حزم ، ورافق بطله فى منفاه ، وفى بريق انتصاره ، وفى خيبة أمله ، وتغيير خط حياته ، ويشير مأخوذاً إلى جهده الثقافى العملاق ، وإلى صراعه ضد العواصف والأنواء ، وإلى روحيته الصافية ، وتحوله من مُتهِم إلى مُتهَم ، وموقفه مهزوماً مثل دون كيخوته ، وتعاور الخشونة والرقة عليه ، ونسيان المفكرين والكتاب المسلمين له ، إلى أن رد له العلم الغربى الحديث وحق مكانته .

ثم حلل كتاب « الطوق » متعمقا ، ومحللا بمشرطه الدقيق النافذ مختلف الجوانب التى يمكن أن تساعد على التقاط أسرار الخلق الفنى عند ابن حزم . ودرس اتجاهات المدرسة التى انتمى إليها ، وخطواته الأولى فى عالم الكتابة ، ومن بينها ما كان مينينديث بيدال Menendiz Pidal (١) يدعوه « المقطعات » ، والطابع الشخصى للطوق ، وما يقدم من سيرة ذاتية لمؤلفه ، والصدق الأدبى عند مؤلفه ، وما أثاره ويثيره من نقاش ، وما يتميز به فى شعره من زهد وفلسفة ، فى نطاق الشعر الغنائى الأندلسى وعرف بالطيش والشهوة ، والعفة الخالصة المستقيمة وسبق بها الشاعر الإسبانى جونجرة . وهو كتاب عن الحب ، ويجب أن يقرأ بحذر ، رغم أنه كتب بنية صافية وطاهرة ، ودون أن يقصد المؤلف من ورائه غرضاً فاحشاً . ولكن تهب عبر صفحاته رياح من الشذوذ الجنسى ، ويتدفق عليها نهر صغير من واقعية بذيئة ، وما يمكن أن يحس به بعض القراء المحدثين من خيبة أمل إزاء أفكار ابن حزم وآرائه ومفاهيمه ، لأنها اليوم عادية وشائعة ،

---

(١) مينندث بيدال : (١٨٦٨ — ١٩٦٨) ؛ عالم ولغوى ومؤرخ إسبانى ، وله أبحاث هامة وجادة عن تاريخ أسبانيا فى العصر الوسيط ، فى جانبيها الإسلامى والمسيحى (المترجم) .

غير أنها كانت شيئاً جديداً وفذاً على أيامه ، أى منذ ألف عام . وحدة الإحساس بالجمال الحسى ، كقوة مبدعة مجالى الحب والأدب ، والعثور فى « طوق الحمامة » على صدى لأفكار أفلاطونية ، وأصل شعر الحب البغدادى ومفهومه ، أو الحب العذرى العفيف فى المشرق ، وانتشاره فى الأندلس حين التقطه ابن حزم هادياً لفكرته عن الحب ، فيما يرى مترجم «الطوق» ، وما آل إليه أمر هذا الحب فيما بعد ، حين غرق سريعاً فى موجة الشهوة العارمة على أيام دول الطوائف .

ولكن دراسة غرسية غومث لابن حزم وكتابه تحتاج إلى شيء من تعليق ، لنعرف على نحو أفضل ما هو إسبانى فى المفكر العظيم والشاعر ، والذى ندين له « بطوق الحمامة » ، إلى جانب الشخصيات الإسبانية العملاقة الأخرى ، التى تنتظم فى عقد منذ سينكا حتى أونامونو .

ويجب أن نشير إلى جملتين مما كتبهما مؤلف « الطوق » ، وقد اقتبسهما غرسية غومث ، ولا تنس الجملة التى وضعت تحتها خطاً فيما مضى ، وهما : «نوار الفتنة لا يعقد » ، ولو أنه لأسباب بينة(١) لم يوضحها عندما التقطها ، وعلى العكس مر بها سريعاً ، والجملتان تساعدان على فهم ابن حزم ، وفهم إسبانيا الإسلامية أيضاً ، وكل تاريخ إسبانيا على اختلاف مراحله ، وقوله :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ولكن عيبى أن مطلعى الغرب

ولقد جمعت عبارات ليست بأقل منها ارتجافاً فى شموخها ، كتبها مرسيال Marscial ، وابن قزمان ، ورايموند لل Raymund Lull (٢) .

---

(١) يشير الكاتب إلى أن غرسية غومث كان يكتب فى إسبانيا الفاشية ، وقد انتصرت — مؤقتاً — بعد حرب أهلية طاحنة (١٩٣٦ — ١٩٣٩) دمرت إسبانيا تماماً ، وعلى امتداد أيامها ، التى انتهت الآن بموت الجنرال فرانكو ١٩٧٥ ، كانت الرقابة على الفكر والفن عنيفة وقاسية ، وكان محالا على غومث أن يوضح فكرته ، على حين أن سانتشث البرنس كان يكتب من منفاه فى الأرجنتين .

(٢) * مرسيال : (٤٣ — ١٠٤ م) شاعر لاتينى ، رقيق وماجن ، ولد فى مدينة بيبليس ، قلعة أيوب الآن ، فى إسبانيا .

وآخرون من عمالقة الفكر الإسبانى وأدبه على امتداد عصوره ، جملا كالتى كتبها ابن حزم ، تبين إلى أى مدى كان كبرياء الأقلية الإسبانية المثقفة يطاول الحسد الحقير الذى يجلدهم من كل جانب — ولست أدرى ما إذا كان ابن حزم مصدر هذا الجلد الحاقد أو كان رد فعل ضده — فى البيئة القائمة التى وصفها لنا مؤلف « طوق الحمامة » فى أستاذية قادرة وممرورة ، عندما سخر من جمود وتصلب وضيق أفق فقهاء المالكية فى الأندلس ، وكانت الدولة على مذهبهم تقريباً ، ونعتهم بأنهم « أصحاب المذهب القديم » . ما الذى كان فى حياة الإسبان الدينية ، قبله ومن بعد ، ليستحقوا هذا الوصف من ابن حزم ، وكان مؤمناً تقياً ، ومتديناً غيوراً ؟ .

لقد أبرز غرسية غومث حرص مؤلف « طوق الحمامة » دائماً على شرفه ، وهذا الحرص حرك فى داخلى سؤالا مقلقاً ، وموضوعاً مغرياً ، أما السؤال فهو : ماذا يفهم المسلمون بعامة من كلمة الشرف ؟ . وأما موضوع الدراسة الذى عرض لى : إلى أى مدى أثرت غربية ابن حزم فى إحساسه القوى بالشرف ؟ .

وأشار المترجم ، محتمياً بكتاب ابن حزم ، إلى قضية تأثير الشعر الأندلسى فى نشأة الشعر البروفنسالى ، وهى موضع نقاش دائم ، وذكر أن العثور على « خرجات » رومانثية فى الموشحات الأندلسية غير من مادة المشكلة ، ولكنه يصر على ما لطوق الحمامة من قيمة ، كنص هام للمقارنة بين المدرستين الشعريتين ، ويميل إلى تجنب المبالغات ،

= * ابن قزمان : (١٠٦٨–١١٦٠ م) ، شاعر وزجال قرطبى ، ينتمى فى بيت بنى قزمان العريق ، وترك لنا ديوان زجل كاملا ، الوحيد من نوعه الذى وصلنا من تراث الأندلس .

* رايموند لل : (١٢٣٥ — ١٣١٥ م) ، فيلسوف إسبانى من قطلونية ، وكان يجيد اللغة العربية ، وفيها كتب بعض مؤلفاته ثم ترجمها إلى لغته ، وتأثر بالثقافة الإسلامية إلى حد بعيد . (المترجم) .

ويرفض أن يقبل إنكار الشاكين . وأصاب عندما اتخذ موقفاً متعقلا ، لأن ظهور كتاب « قصة المعراج Libro de Escala » أكد فى فحواه نظرية أسين بلاثيوس عن التأثير الإسلامى فى الكوميديا الإلهية لدانتى ، واكتشاف الخرجات ، وما حدس به خوليان ريبيرا عن وجود شعر غنائى رومانى فى الأندلس يمكن أن يؤدى إلى نتائج مشابهة .

وقد واجه غرسية غومث أيضاً نظرية أميركو كاسترو عن تأثير « طوق الحمامة » فى كتاب « الحب المحمود » ، وارتأى أنهما مختلفان جدا ، فى خصائص وحياة وأعمال مؤلفيهما : ابن حزم وكاهن هيتا . ووازن بين فقرات من « الطوق » وأخرى من « الحب المحمود » ، ولأن بعض هذه المشابهات يمكن أن يجيء وليد الصدفة ، والبعض الآخر يتصل بالجانب الأكثر إنسانية وشيوعاً فى « الطوق » ، ومن ثم فالقول بتبعية الكتاب الثانى للأول مباشرة ابتسار ومغامرة . وأميل إلى أن أذهب بأبعد من ذلك إنكارا ، وأشك أن أياً من الموازنات الخارجية التى قام بها غرسية غومث جاء صدفة ، لأن مصدرها ، فيما أرى ، أن كلا من المؤلفين اندمج فى بيئة حياتية تقترب كثيراً من بيئة الآخر ، إلى ما بين الموضوعين نفسيهما من تشابه . وفى فصل طويل من كتابى الذى أشرت إليه من قبل ، عارضت رأى أميركو كاسترو الرائع والملهم فى كاهن « هيتا » ، وشرحت رأيى من خلاله ، وازددت به اقتناعاً بعد أن قرأت ما كتب غرسية غومث : « لابد أن كتاب ابن حزم الرائع كان محدود الانتشار ، فهو كتاب خاصة وصعب ، وتفصله عن كتاب « الحب المحمود » هوى حقيقية ، واختلافات فكرية » ، وهذه الكلمات الدقيقة ، فيما يبدو لى ، تعكس رأيه السديد ، وتناقض ترخصاته الجدلية واللطيفة ، لأن قلة انتشار كتاب ابن حزم ، وصعوبته وأرستقراطيته ، لا تتفق مع الانتشار الواسع الذى يجب أن يكون عاناه ، عبر طرق ملتوية ، لكى يمكن أن يبلغ كاهن « هيتا » .

وأرفض أيضاً افتراض كاسترو من أن ابن حزم « كان يتحرك فى عالم

مشبع بروحانية متصوفة» وعن الرأى الذى يقول بأن ابن حزم كان يمزج الحب الإلهى بالحب الإنسانى كتب كاسترو : «لا يوجد شيء فى كتابات ابن حزم المتصلة بالعقيدة شيء عن الحب الإلهى فى مفهومه الدقيق، بمعنى يلتقى مع مانفهمه نحن من استخدام هذا المصطلح ، ولا يمكن أن تكون فى الفقه الظاهرى » .

ويرى غرسية غومث أننا حتى ولو استبدلنا كلمة «إلهى» بتعبير «وضعى» لا يمكن أن يتفق مع كاسترو ،وأنا أشاركه هذا الرأى ،وأعتقد أن رأى غومث فى نظرية زميل مدريد القديم (أى كاسترو) غير كافية، وأشير إلى ما يظن أنه طريق المسلمين الإسبان بين ظلال ساهرة ، وافتراضه أن مفهومهم للحياة أنها تدفق أو انزلاق بين عالم هراب وظاهرى ،نظرية يدعمها كاسترو ويتخذ لها دليلا من استعارات طوق الحمامة . إما أنا حار أو ابن حزم . والقرطبيون من جيله يتقدمون على صفحات الطوق ، بخطى ثابتة على الطريق ، فى جو صحو وشفاف ، وأعين مفتوحة للغاية على الحقيقة ، ومشاعر تنضح دفئا وإنسانية ،بلا ساتر ولا ظلال ولارموز . واستعارات جميلة فحسب ،يلفها بخار رقيق من شعر ، لا بين الإسبان المسلمين ، وقص لنا ابن حزم حكاياتهم الغرامية ، ولكن بينهم وبيننا . ضوء ساطع فى مدينة من الجنوب ، وواقعية بذيئة وتافهة أحيانا ، وذلك هو الجو الحياتى الذى عبر القرطبيون خلاله فى« طوق الحمامة » ، والعالم حولهم لا يتلاشى ، لأن حماسة حرة تدعمه، على نحو ما يريد أميركو كاسترو .

لا أدرى ما إذا كنا نحتاج إلى الوقوف طويلا ، وفى تأمل وباهتمام أكبر، عند أفكار ماسينيون عن الإبداع الفنى عند المسلمين ، وقد ترجم غرسية غومث هذه الدراسة منذ أعوام . أفكار ما أكثر ما رجعت إليها ، وأفدت منها، أفدت منها كثيرا، وأتاحت لأميركو كاسترو أن يتعمق فى بعض القضايا التى درسها، وربما لغرض لم يتوقف ليدرس مستوعبا موضوعين هامين : أهمية طوق الحمامة لمعرفة الحياة فى قرطبة على أيام الخلافة ، ونظرية الحب عند ابن حزم والمسلمين الأندلسيين. وقد اهتم المستشرق الفرنسى الكبير ليفى بروفنسال،

لحسن الحظ ، بالموضوع الأول ، وشغل غرسية غومث ، وأورتيجا إى جاسيت ، بالموضوع الثانى ، فى مقدمة ترجمة الطوق ، بعمق فكرهما المعهود .

ولقد سبق ليفى بروفنسال فى مقاله : « نزهة بلا رابط خلال طوق الحمامة » غرسية غومث عندما حاول تحديد الشخصيات الواردة فى الطوق ، الظاهرة والمغمورة ، والتقط بعض الأخبار التى وردت فى الكتاب عن تاريخ الأندلس ، وعن الحياة فى قرطبة خلال عصر الخلافة . وليس من أهدافى الآن الحديث عن دقة هذا التحديد ، ولقد أظهرت أن ابن أبى عامر المختل الأعصاب ، والذى رأى فيه أميركو كاسترو أول « دون جوان » ، لم يكن حفيداً للمنصور بن أبى عامر ، كما افترض كلا المستشرقين ، ليفى بروفنسال وغرسية غومث ، نعم تهمنا الأخبار الأخرى ، ولقد أنكر أسين بلاثيوس أن « طوق الحمامة » دراسة نفسية ، وأوضح قيمته التاريخية وأفاد منها ، على حين يصر غرسية غومث وليفى بروفنسال على أنه دراسة نفسية ، وحاولا أن يفيدا من المعلومات التى جاء بها ابن حزم هنا وهناك ، وحول نفس المسرح الذى جرت عليه الأحداث ، تراجم لآخرين أو لنفسه ، يأتى بها مثلا يدعم به تأملاته الدقيقة عن الحب . ومع ذلك يعترف المستشرقان الشهيران كلاهما بأن الأخبار التى جاء بها طوق الحمامة عن عاصمة الخلافة قليلة وموجزة ، والشىء نفسه يمكن أن يقال عما يقدمه لنا عن الأشياء بعامة . لقد اعتاد ابن حزم ، خلال أعوام صباه على الأقل ، أن يدقق النظر فى الرجال أكثر مما يتوقف عند الأشياء التى يتحرك بينها هؤلاء ، ولم أر واحداً بين كل الذين اقتربوا من الطوق وقف عند هذه الملاحظة . وواقعيته ، وكتاب ابن حزم كتاب واقعى رغم أنه دراسة نفسية ، واقعية روح أكثر منها واقعية أشياء خالصة ، واقعية عميقة الإسبانية أيضاً . ولقد أبرز دمسو ألونسو Damaso Alonso (١) وبحق ماهو إسبانى من هذه الواقعية ، بمناسبة حديثه عن « الأسلوب والإبداع

---

(١) شاعر وكاتب وناقد ولغوى معاصر ، وهو الآن رئيس المجمع الملكى اللغوى الأسبانى.

فى ملحمة السيد »(١)، ولكنها لم تكن مصحوبة عند موٌلفنا بقدرة متكافئة، لتلتقط فى حساسية الواقعية الشفافة للأشياء التى فى عالم ما حولنا . وليس فى « الطوق » فقرة واحدة نستطيع أن نجد فيها حتى ولا ظل واحدة من تلك السهرات الحمراء ، الواقعية التى نصطدم بها أكثر من مرة فى كتاب « الحب المحمود » لكاهن « هيتا » ، رغم محاولة أميركو كاسترو الفاشلة لربط كتاب القسيس القشتالى بكتاب الشاعر القرطبى .

• ابن حزم والحب :

يوٌكد أورتيجا إى جاسيت أن فقه اللغة العربية لم يصل بعد إلى تحديد دقيق لما يمكن أن يفهم من كلمة « حب » فى إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ، وطرح موضوع الحب بوصفه نظاماً واكتشافاً وقواعد إنسانية ، عندما عثر بأبيات ابن حزم الرائعة التى أهداها إلى صديق له ، ويقول فيها :

أودك وداً ليس فيه غضاضة — وبعض مودات الرجال سراب
وأمحضتك النصح الصريح وفى — الحشا لودك نقش ظاهر وكتاب
فلو كان فى روحى هـواك اقتلعته — ومزق بالكفين عنـه إهـاب
ومالى غير الود منـك إرادة — ولا فى سـواه إليك خطاب
إذا حزته فالأرض جمعاء والورى — هباء وسكان البلاد ذباب

أوافق على أن الرجل تاريخ ، وكذلك أفكاره ومشاعره ، ولكنى أعتقد أنه إلى جانب التغير الدائم فى أفكاره ومشاعره ، هناك بعض الميول الفكرية والعاطفية تتجاوز حدود الزمن والقارات ، وثمة غايات مثالية فى الحياة ، علامات مضيئة تنير الطريق أمـام تقدم الرجال التاريخى ، إلى غد لم يزل بعيداً .

وفى مقابل ما يفصل بين نظرية الحب عند مسلمى الأندلس ، ونظريتنا نحن الإسبان الكاثوليك ، أوضح أورتيجا إى جاسيت عدداً من التوافقات غير قليل : كثير من علامات الحب الكاشفة « بهت يقع ، وروعة

---

(١) ترجمت نص الملحمة ، وقدمت لها بدراسة مستفيضة ، بعنوان : « ملحمة السيد » ، ونشرتها دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠ (المترجم)

تبدوعلى المحب عند رؤية من يحب فجأة ، وطاوعه بغتة »، وتأثير الحب الأول فى الغراميات التالية ، و الاختلاس قمة الحب ... و بعض هذا التشابه يمكن ، مع أورتيجا ، رده إلى تأثير « مفاتيح الإيماءات الجسمية ويوجد داخلنا تحت تصرفها لتعبر عن نفسها » . ولكن عدداً من هذه التوافقات أوتلك يمكن تعليلها دون أن ترد إلى هذا التأثير . أليس ممكنا أن نشك ، لنكمل نظرية أورتيجا ، ونختار أحياناً ، على العكس من مفاتيح الإيماءات التى تخدم الرجل ليعبر بها عن داخله ، انسجامات مختلفة لكى نحيي بعض هذه المشاعر نفسها ؟ . لأنه فيما عشنا من الحياة ، أورتيجا وأنا ،ولو أن تاريخى — وأستعير الكلمة التى استخدمها أورتيجاعندما وازن بين عمره وعمر غرسية غومث — أقصرمن تاريخه ، فقد كان أستاذاً عندما كنت طالبا ، وتتلمذت عليه دائما ، وكلانا شهد تغيرات واضحة فى طرائق الحب ، وتجديداً فى الإيقاع العاطفى القديم ، ولكنى لاأدرى ما إذا كانت أفكار الحب الجوهرية قد تغيرت حقا ، منذ أيام شبابنا — آى ! — البعيدة .

ورغم نائحات التقدم الحالية ، والظن بأن هذا يتم فى خط مستقيم ، وليس فى نسق تصاعدى مستمر ، فإن الرجل يتقدم ، ومع الرجل أفكاره ومشاعره ، نحوغايات مضيئة لما تزل بعيدة ؛ وحسبوا وقد تغشاهم سراب أحمق ، أن هذة الغايات الأخيرة فى متناول اليد ، نمضي إليها عبر منحنيات حلزونية معقدة ، و لكن دون أن ينحرف بنا الطريق أخيراً . ولو أننا نعتقد أحياناً أننا نتقهقر حتما نحو مواض بليدة . وبالطبيعة يحدث هذا فى الحب أيضاً ، ويمكن أن يبرهن عليه من يكتب ،فى غد أراه بعيداً ،التاريخ المقارن لأفكار الرجال عن الحب ، على نحو ما كتب ابن حزم ، منذ تسعة قرون تقريباً ، تاريخه المقارن عن الأديان .

نظرية ابن حزم ومسلمى الأندلس عن الحب لما تزل تنوء بالشذوذ الجنسى ، هل كان مفهوم الحب هذا عاماً أيضاً على امتداد الخلافة ،

وهى أقل تشبعا بالتقاليد الإغريقية والرومانية ، وأقل عدوى بالمشاعر المتصوفة فى بلاط الأندلس؟ يبدو لى أنها تنتمى إلى مجموعة تقاليد البحر الأبيض المتوسط ، والتى استقرت وتأصلت فى إسبانيا الإسلامية على امتداد تاريخها . ولم يدرس المستشرقون ولا غيرهم حتى الآن ، وكاسترو لا يشك فى أهمية المشكلة ، السلسلة الطويلة من النتائج التاريخية للإسلام فى إسبانيا ، ولإسبانيا المسيحية ، التى أدى إليها اعتقال شبه جزيرة إيبيريا عام ٧١١ م ، وسط العالم القديم ، وظل أشد سرعة فى حياته الألفية ، وكان البحر الأبيض ، ذو التاريخ العريق ، فى خدمتها طريقا ومحورا ، وقد جعل منه الإسلام صلة تقارب بعد أن كان الهوة التى تفصل بين عالمين ثقافيين مختلفين خلال قرون . وقد تأقلمت الحضارة الأوربية ، وبقيت إسبانيا متميزة فى المنطقة ، لأن الإرث الحيوى الكلاسيكى القديم ، واصل سيره على نحو أكثر تفجراً وقوة . ومن ثم حتى ولا مفهوم الحب المنتصر فى قرطبة الخلافة ، على أيام ابن حزم ، يجب أن تكون له بالضرورة أصول عربية ، وتأريخ حيوية ما كان فى إسبانيا قبل الإسلام ينتظر من يدرسه ، وقد حاولته فى كتابى : « إسبانيا لغز تاريخى » ، باستثناء ما يسمى بالحب العذرى ، أو الحب البغدادى إذا شئت ، وشق طريقه نحو أقلية رفيعة الذوق من عباد الجمال ؛ ولكنى لا أعرف ما إذا كان الإحساس بالحب ، وعنه كتب طوق الحمامة ، قد تأصل حقاً أم لا ؟

لكى نفصل الحب الطروب Cortez ، ونشأ فى فرنسا مع نهاية القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر ، عن الحب العذرى ، وكان هذا أصلا لذلك فيما يرى المستشرقون الإسبان ، كتب أورتيجا : « إن الحب الطروب ؛ حتى وهو شعور ناء ، طافح بالأشواق ، لا يتطلب تخليا ، وإنما يعكس رغبة كاملة » ، ولقد قلت فى كتابى « إسبانيا الإسلامية » : « توجد مسافة شاسعة بين مفهوم الحب عند ابن حزم والحب الصوفى العذرى ، لأن ذلك لا يتطلب العزوف عن الرغبة » وبعد أن قرأت « طوق الحمامة » فى

ترجمته الجديدة ، مازلت عند شكى فى أن مؤلفه كان يطبق الحب العذرى ، أو البغدادى فيما يقال ، فى حياته الحقيقية ، وإذا شئت لم يتخذه صراحة حتى ولا فى الجانب الأدبى من حياته ، يقول فى كتابه « طوق الحمامة » : « إن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلا مع طول الرياضة ، وصحة المعرفة ، ونفاذ التمييز ، ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن ، ومداخلة الناس جملة ، والجلوس فى البيوت ، وبالحرى أن تقع السلامة المضمونة ، أو يكون الرجل حصوراً لا أرب له فى النساء » . وبعد أن ذكر عدداً من الحالات المثيرة فى مقاومة الرغبة أضاف : « وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون القبيح ، ويرق الدين ، حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح » . وعن نفسه يقول : « يعلم الله ، وكفى به عليما ، أنى برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، تقى الحجزة ، وإنى أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومى هذا » نعم ، إن فقه اللغة لم يحدد مفهوم الحب فى إسبانيا الإسلامية ، ولكنه سجل موقف الفقه المتسامح بإزاء الجماع المشروع عند المسلمين ، وقد كتب ابن حزم نفسه يقول : « لولا مكان هذا العنصر من الإنسان ، وأنه غير مأمون الغلبة ، لما خفف الله عن البكرين ، وشدد على المحصن » . وفى الباب الذى كتبه فى « الطوق » وخصه بقبح المعصية ، اعتبر اللواط والزنا فحسب من الكبائر .

ثم يقول فى كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » : « حد العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التى لا تحل لك فما عدا هذا فهو عهر ، ومانقص حتى يمسك عما أحل الله تعالى فهو ضعف وعجز » . وأشار أسين بلاثيوس إلى أن ابن حزم فى معاداته للصوفية يعتبر العذرية عيب ، والرهبنة نقيصة .

لو قرر أورتيجا أن يتسرب على مهل ، حاملا عدسة مكبرة ، إلى كتاب « طوق الحمامة » مكتشفاً ، ليدرس نظرية الحب فى قرطبة الخلافة ؛

وقد أحس الرغبة فى أن يقوم بها ، لحركة النسيج الجوهرى للكتاب ، فيما أرى ، أن ينظر إلى التفاصيل ، إذن لأنكر على ابن حزم « صفة عذرى » . ودون عدسة مكبرة يبدو واضحاً أن القرطبيين من عصره لم يكونوا كذلك أيضاً .

لقد وشى ابن حزم نظريته عن الحب بأخبار مختلفة ، اتخذ منها مثلا يدعم بها آراءه ، وبأشعار جميلة استدعتها المناسبة . وفى الأخبار التى جعل منها نموذجاً يحتذى ، ترك سيرته العاطفية تتحرك حولها ، وكذلك الحياة العاطفية لأصدقائه ، ولقرطبيين آخرين كثيرين ليسوا دائما معروفين له . هذه الأخبار النموذجية التى وشى بها ابن حزم تأملاته عن الحب ، واتخذ منها مثلا ، لاتسمح لأميركو كاسترو بتأكيده الغريب من أن مؤلف الطوق كان يسرب حياته الخاصة من خلال حياة الآخرين ، وترجمة غرسية غومث تحت إمرة القراء الذين يتحدثون الإسبانية ، ومثلها الترجمات الأخرى فى اللغات : الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، وبوسع الذين يتكلمون بها ، أويعرفونها ، أن يعودوا إليها ، وكلها تناقض نظرية كاسترو المغامرة . إن ابن حزم يذكر فى كل خطوة الخبر الذى يمكن أن يدعم نظريته ، يشير إلى أحداث وقعت فى حياته ، أو فى حياة الآخرين ، طبقاً لواقع كل حالة ، ولكن دون أن يتوغل فى تراجم بعيدة عن ترجمته ، ويؤكد صدق الوقائع بشهادة شخصية منه ، لأولئكم الذين عرفهم ، أو يأتى بها متصلة الإسناد حتى يبلغ به من شاهد الحادث الذى ألمح إليه : وعندما يطل ابن حزم على حياة الآخرين فإنما ليؤكد ، فى الواقع ، صدق ما يروى من أخبار .

ومجموعة الأشعار التى جاء بها فى « الطوق » تكون ديواناً كبيرا ، والجانب الأكبر منها ذو طابع فلسفى عميق ، وتفصلها طبيعة موضوعاتها الغزلية ، وألف عام من التاريخ ، عما ندين به لأونا مونو ، وأحياناً تقترب منه بثرائها وعمق تفكيرها . ولكن أونامونو لم يقع أبداً على كلمة نابية ،

أو تعبير فاحش ، أو فكرة خارجة ، وهو ماحدث لابن حزم أحياناً ، فهو مثلا عندما يشير إلى حفيد الشاعر الجزيرى ، يقول عنه ، إنه « رضى بإهمال داره ، وإباحة حريمه ، والتعريض بأهله ، طمعاً فى الحصول على بغيته من فتى كان علقه » ، أو « رشا» فيما يقال أحياناً ، وهى لفظة لطيفة ، تتردد كثيراً فى الشعر العربى ، وتطلق على الغلمان ، فإذا تجاوزنا هذا الفرق فإن عمق الفكرة فى القطع الشعرية للأندلسى الإيبيرى الذى عاش فى القرن الحادى عشر ، وللإيبيرى الباسكى الذى عاش فى القرن العشرين ، تكمل التقارب بين هاتين القمتين من قمم الفكر الإسبانى .

● غنيت بياقوتة الأندلس :

لقد اقتربنا من الربط بين ابن حزم والقمم الفكرية الأخرى فى الأدب الإسبانى ، وكما برهنا كان ابن حزم إسبانيا روحاً ودما ، وجديراً بأن يضم إلى خير من يجسدون الإسبانية ، على امتداد كل العصور ، تطلع إلى المشرق كموطن لنسبه وثقافته ، والتهب إحساسه ببغض جارف لمسيحية شبه الجزيرة الإيبيرية ، ولأنه إسبانى حتى النخاع قفزت سهام فكره ، ونبال مشاعره ، فوق ورعه وتقواه ، لتواصل اندفاعها الثقافى والشعورى إسبانية خالصة ، إسبانية ألفية تضرب جذورها بعيداً فى أعماق ما قبل التاريخ —وسأظهر ذلك يوما — على نحو ماكان عليه، وأكرر ما قلت وكتبت فى مرات كثيرة ، عدد كبير من شخصيات الإسلام العظيمة فى إسبانيا ، شخصيات لايمكن أن تستثنى ، لأنها مسلمة ، من إرثها الفكرى الإسبانى :

ولنذكر أن الملامح النفسية التى ينسبها إلى ابن حزم من كتبوا سيرته ، والصفحات التى خط عليها نفسه جانباً من سيرته ، تؤكد إسبانيته فى عمق : الشموخ ، والعاطفة ، والعنف ، وطلاقة اللسان ، واستقامة الكلمة ، والوفاء ، وتحليق الروح نحو الله ، والقسوة فى نقد الوطن ، وحب الحقيقة ، وشدة الخلق ، والحماسة التى تبلغ حد التضحية بالحياة دفاعا عن أفكاره وشرفه ،

النضال من أجل المثل العليا على نحو ما ناضل «دون كيخوتة » ، واحتقاره للثروة فى مواجهة الشرف ، وكراهية النفاق ، واحتقار الملق ، والصلابة فى الشدائد ، وعبادة الصداقة ، وجود يبلغ حد السرف ، وسهولة الغضب ، والبلاغة ... إنها إسبانية عريقة ، وتؤكد فى وضوح ، على الرغم من أسين بلاثيوس ، صدق ما قاله ابن حيان وابن سعيد عن أصوله الإسبانية ، وعن جدوده المسيحيين .

كان ابن حزم إسبانياً فى أخفى طيات أعماق روحه ، ومن العدل أن نضعه بين أسمى قمم الفكر الإسبانى على امتداد كل العصور ، لأن حجم وتعقد ونفاذ إنتاجه الأدبى والفلسفى والفقهى والعقائدى يعطى له هذا الحق .

ليس ثمة حياة تشبه الأخرى ، إذا درسناها بوعى ناقد وجاد ، نعم ، توجد بعامة مقابل ذلك أرواح متآخية ، أرواح شقيقة بين كثيرين من كبار الرجال فى كل الأزمان ، وفى كل البلدان . وتتقارب بخاصة أطياف الأبناء الأكثر عبقرية فى كل شعب ، تتقارب فى خصائصها الجوهرية ، لأنها عندما تعرض النفسية القومية ، الدائمة والمتميزة ، ونمط حياتها الخاص ، فإنما تعكس دائماً الصورة نفسها فى الجانب الآخر من المرآة .

سينكا مثلا لم يشعر أبداً أنه إسبانى ، وحتى كتب مرة ضد البطل القومى الإسبانى العظيم فرياتو ، ولكنه ولد فى قرطبة ، وأثر أصله الأندلسى فى إرثه المزاجى وفى تكوين شخصيته . وترد دراسات مومسن Mommsen ومينديث بلايو Menéndiz Pilayo ، وجستون بواسييه G. Boissier ودراسات أخرى معاصرة ، وكلها دقيقة وموضع ثقة عظيمة ، بعض خصائص أعمال سينكا إلى أصوله الإسبانية . ويمكن أن نكتشف اليوم ملامح جديدة لإسبانيته ، حيوية ونفسية ، وأشرت إليها وأنا أدرس لغز إسبانيا التاريخى . ويتسع الأمر للظن بأن الألوان التى طبعت مذهبه الرواقى تعود إلى إسبانيته هذه ، وألح على القارىء فى أن يعود إلى صفحات كتابى الذى

أشرت إليه ، ومن ثم يمكن إذن أن نبدأ به السلسلة الرائعة لكبار المفكرين الإسبان والتي تمتد حتى تبلغ فى أيامنا هـذه أونامونو وأورتيجا إى جاسيت .

ستظل هذه السلسلة مقطوعة إذا لم نضمنها الحلقات الإسبانية الإسلامية ، وأحدهم مؤلف « طوق الحمامة » ، ولقد قلت من قبل : لو أن ابن حزم كتب مؤلفاته فى اللغة اللاتينية أو الرومانثية ، للمع اسمه اليوم إلى جانب كبار الشخصيات الغربية فى العصر الوسيط مثل : دانتى وتوماس الإكوينى .

وإذا كان ابن حزم يمثل حلقة السلسلة التى تبدأ منذ كتاب إسبانيا الرومانيين حتى المفكرين الإسبان المعاصرين ، فإنى أتخيل مع ذلك أن هذا القرطبى المسلم ، وهو شاهد ناطق على أزمة الخلافة الإسبانية فى القرن الحادى عشر ، يقترب بخاصة من أونامونو ، ذلك الباسكى القوى الذى عاصر سقوط الملكية الإسبانية ، فى آخر الثلث الأول من هذا القرن . وأكرر لا توجد حياتان متشابهتان ، وإنما روحان متآخيان ، ولكن روحى هذين الإسبانيين الممتازين كانا توأمين .

تعرف أوربا وأمريكا الفكر الملتهب لكاتب إسبانيا العظيم ، ذو التاريخ البعيد ، والكلمة المهاجمة ، والمطرقة العنيدة ، والقلم الحاد ، والاهتمامات الفكرية الحرة والمتنوعة والودود ، وتمكنه المذهل من الموضوعات التى يعالجها ، وتمكنه من اللغة العربية ، وجدله القوى ، وعشقه للأحاديث الجادة ، وطلقات هنا وهناك ، وذكاؤه الفطن ، واحتقاره للمسلمات والعادات الاجتماعية وكراهيته القوية للنفاق والرياء ، وأمانته الزوجية ، وحملته على الفجور ، ورفضه الحاد والدائم ، وإصراره وتشدده فى محاربة المظالم كلها ، ومقاومته العنيفة ، وخلافه مع الذين حوله ، وحبه الحار المتدفق الناقد لإسبانيا .

ومع ذلك ليس صعبا أن نقيم صلة قوية بين روح أونامونو الملتهب ، على نحو ما هو معروف لنا جميعاً ، وبين صورة ابن حزم الخلقية القومية ، كما تطل واضحة من الآراء المختصرة والناقدة التى سجلها عنها معاصروه ، ومن سلسلة

الاعترافات الذاتية التى خطها بقلمه. وعلى الجانب الآخر من هذه المرآة المزدوجة، ألا يمكن أن نكتشف فى كل خطوة ، ملامح كثيرة من التحليل النفسى لأونامونو؟ فلنتذكر الإطراء الذى يضرب به المثل ، لكلمات ابن حزم الصارمة ، ولقلمه الحاد ، وثناء ابن حيان وابن سعيد على استقامة سلوكه ، وشمول معارفه ، وتطرفه فى نقده للأندلس وطنه ، وإخلاصه دون تخفف ، ونقده اللاذع ، وتعصبه المنفعل . ونقرأ ثانية الكلمات الحادة للمفكر الأندلسى العظيم ضد الطغاة والقساة والفقهاء المنافقين ، وضد الكذب والرياء ، ودفاعه الحار عن المثل العليا التى اتهمه بها أعداؤه ، وسخريته الجارحة من المداهنة والحيل ، واكتشافه المخلص لما يعتمل فى داخله من صراع لكى ينتصر على غضبه ، وثناؤه المستطاب على الصداقة ، وكلماته الجميلة تعكس إحساسا مشوبا بكبرياء عنيف وصارخ . وتصريحه الجلى بأنه انتفع « بمحاك أهل الجهل منفعة عظيمة ، وهى أنه : توقد طبعى ، واحتدم خاطرى ، وحمى فكرى ، وتهيج نشاطى ، فكان ذلك سببا إلى تواليف لى عظيمة المنفعة ، ولولا استثارتهم ساكنى ، واقتداحهم كامنى ، ما انبعثت لتلك التواليف » . ثم الجملة النبيلة ، وتبدو كما لو كانت قد خرجت من قلم أونامونو : « الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع » .

تقارب هذين الروحين الإسبانيين التوأمين ، يمضى إلى ما هو أبعد من هذا . لقد تربى ابن حزم فى الإسلام المستقيم ، واتخذ من الظاهرية مذهباً ، وترى أن أى مسلم مؤمن يمكن أن يستقل فى البحث بنفسه ، خلال النصوص القرآنية ، عما يجب أن يعتقده ويعمل به ، وهو ما أصبح الدراسة المستقلة عند أونامونو ، ويراها أصل ومفتاح كل تفكير حر . وكلاهما كان يفيض داخله بتدين عميق وقلق يهزهما من الأعماق . ولم يحاول عالم القرن العشرين أن يخفى الصراع الذى يعتمل فى داخله ، ويقول عنه الشاعر متشادو : « أن يكون منشئاً ويقول ، فيما أرى : الله ، ويؤكد الشجاعة الإسبانية » . ولقد اكتشف قضية التدين فى دقة ، وتسلح بثقافة واسعة لمواجهة هذه المشكلة الكبرى . وحاول القرطبى المسلم فى العصر الوسيط قبل الإسلام فى

المشرق ، وقبل « المدرسية » المسيحية بزمن طويل فى الغرب ، وفى دقة عبقرية ، أن يوائم بين العقل والعقيدة فى كتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » وهو كتاب فى تاريخ الأديان المقارن .

والصفة القاسية : « دين القدامى » ، والتى نعت بها ابن حزم الأعمال الخاشعة فى عصره يمكن أن تخرج من شفتى أونامونو .

وإذا كان أونامونو رجل امرأة واحدة ، وأحس بالنفور من « الدون جوانية » ومن الفجور ، فإن الحب الرومانتيكى لابن حزم دفع بالمستشرقين إلى الخلاف حول أصل هذا الحب العاطفى لابن حزم ، ومن على شاكلته . هل هو حب عذرى مشرقى أم حب إسبانى مستعرب ؟ .. وكان هذا الحب بذرة خصبة أثمرت حب الفرسان فى العصر الوسيط ، وربما كان ممكناً أن يكتب أستاذ سلمنقة ، أونامونو ، هذه الكلمات التى خطها القرطبى المسلم : « وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء ، إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء ، إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ، ولا خلقن لسواه » .

ويتفقان أيضاً فى حب الأبحاث المتصلة باللغة ، وأصبحت المتعة عند أونامونو « رغبة ملحة » وباهظة ، ولم تدع ابن حزم أيضاً يفلت من رشق سهامها ، فخصها مهتماً بلمحات نفاذة من فكره . وندين له بالفضل عن المعلومات المتصلة بالخلافات الصوتية للهجات العربية فى إسبانيا ، وبتأملات حادة عن أصول اللغات السامية ، وبأفكار عميقة تتصل بها ، وقد أعاد نبريخا Nebrija (١) صياغتها فيما بعد ، فى اللغة القشتالية ، ونحن على عتبة المغامرة : « اللغة تسير فى ركاب الإمبراطورية » .

---

(١) نبريخا : (١٤٤١ — ١٥٢٢) ، عالم إسبانى متخصص فى اللغات القديمة ، وأمضى حياته فى إصلاح تعليم اللغة اللاتينية ، وكتب حول موضوعات متعددة ، ووضع كتباً عدة فى قواعد اللغة الإسبانية ، واللغة اللاتينية ، واللغة العبرية ، عدداً من المعاجم ، ولكن أفضل مؤلفاته : فن تعليم اللغة القشتالية . (المترجم) .

وأونامونو يمكن أن يرد على المتعصبين ممن هاجموا كتبه ومنعوها ، على نحو ما كانت تصنع محاكم التفتيش ، بما قال ابن حزم من شعر فى ظروف مشابهة :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى
دعونى من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأة
فكم دون ما تبغون لله من ستر !

لقد أمضى هذان العظيمان الإسبانيان شبابهما فى أتون من الصراع الدموى ، ابن حزم فى قرطبة ، بعد العام الألف من التاريخ الميلادى بسنوات قليلة ، هزتها الثورات ، ودمرت مدينتى الزهراء والزاهرة ، وطوقها البربر فى ضراوة ، وأونامونو فى « بلباو » فى القرن التاسع عشر ، تحاصرها وتقاتلها جيوش دون كارلوس(١). ولقد عاش رجل الباسك القوى بداية الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة ، وعانى ويلاتها ، وشهد القرطبى المسلم من جانبه معارك المصير التى لا تنتهى فى سنواته الأخيرة ، والتى دمرت الأندلس فى النصف الأول من القرن الحادى عشر . وكان رد الفعل عند كليهما واحداً ، نفس الروح النبيل فى مواجهة المآسى القومية الكبرى التى عاشها جيلاهما ، وأحس

---

(١) أحد المطالبين بعرش إسبانيا ، وأمضى سنوات عديدة فى حروب متصلة لا تنتهى فى شمال إسبانيا ومدينة « بلباو » عاصمة مقاطعة فسكايا فى شمال إسبانيا إحدى ثلاث مقاطعات للباسك ، أو الباشكنس كما تسميهم المراجع العربية ، وهم من أصل غير لاتينى ويتحدثون لغة غير إسبانية وغير لاتينية ، ويطالبون الآن بالاستقلال ، ويخوضون من أجله معارك طاحنة مع الحكومة المركزية . (المترجم) .

كلاهما بالتعاسة نفسها ، مؤلمة وطافحة ، أمام تمزق وطنهما على مرأى منهما ، أندلس الأول وإسبانيا الثانى . وأصاب الفيلسوف المسلم وفكره أكثر من مكروب ، حين أدان الخلاف الدموى بين الإخوة ، فى عبارته الجميلة ، والعميقة المعنى فى الوقت نفسه ، وقد نقلناها من قبل ، والتى تعجب المفكر الحر فى عالمنا الحديث ، دون ما شك ، إذا عرفها : « نوار الفتنة لا يعقد » .

وكلاهما ، مسلم قرطبة والباسكى من بلباو ، أحبا إسبانيا بعمق ، على الرغم من نقدهما العنيف لها ، ويقول متشادو عن أونامونو : « روح جنسه القاسى لما يزل نائما ، ويمكن أن يستيقظ يوماً تحت طرقات هراوته الحديدية » ، ويمكن أن يقول الشىء نفسه عن ابن حزم . وكلاهما ، ابن حزم وأونامونو ، كان واقع إسبانيا يشيع الألم فى أعماق قلبه ، وسبق كلاهما كل شعوب الأرض فى كبريائهما المتشابه ، فأونامونو صاح يوماً ، دفاعاً عن وهن وطنه : « فليخترعوا هم ! » ، والشاعر القرطبى كتب هذه الكلمات :

ويا جوهر الصين سحقاً فقد ... غنيت بياقوتة الأندلس

ياقوتة الأندلس ! ، أصاب ابن حزم كبد الحقيقة شعراً ، حين شبه وطنه الإسبانى بهذه الجوهرة الكريمة التليدة . ياقوتة الأندلس ! ، شعلة من عاطفة متأججة ، أو حب ملتهب ، ودم يغلى فى العروق يدفع إلى الحياة والعمل ، أويراق فوق كل البحار والقارات ، دون كيخوته يدافع عن مثل عليامجنونة ، ومضات تطهر خطايا الإرادة ، وتحرق فى الوقت نفسه حصاد الفكر. غنيت بياقوتة الأندلس ! ؛ واجب كل إسبانى أن يهمهم بها الآن ولو للحظة ، ففيها شفاء للذين يعبدون كل ما هوأجنبى . ويا قوتة الأندلس ليست ياقوتة المسلمين ولا المسيحيين ، وهى أخيراً ، يمكن أن ترمز إلى الحياة التى ليست ركوداً شاحباً ، وإنما اندفاع خالق ! .

قلت فيما سبق إن ابن حزم لم يكن الحلقة الإسلامية الوحيدة فى السلسلة

التي تبدأ مع سينكا حتى يومنا ، كان ثمة مساهمون كثيرون يمكن أن تضمهم هذه القائمة من التراث الرائع ، أسهموا بما هو إسباني بين من أمزجتهم ، في بناء الحضارة العربية وثقافتها العظيمة ، وأكملوا رسالة جوهرية من الحفاظ على الحياة الفكرية وتنميتها في عالم حوض البحر الأبيض المتوسط ، على حين كانت المسيحية تدب بطيئة عبر منطقة مظلمة من منعطفات التاريخ ، ومن ثم فإن ثقافة الغرب لم تخسر كل الجهد الخلاق للمفكرين والفقهاء والشعراء والعلماء في إسبانيا الإسلامية ، لأن هذه وقد تمثلت الثقافة الإسلامية المشرقية ، التي احتفظت بما هو جوهري من الحضارتين الهلينية والفارسية ، أضافت إليها أفكارها المشبعة بما هو غربي ، وعبرت بها إلى الأقليات المثقفة شمالي جبال البرانس ، بفضل ترجمات « مدرسة المترجمين » في طليطلة ، فقدمت خدمات هائلة لأوربا ، مصدر ثقافتنا العريقة . وعندما أتأمل سمو الفكر عند ابن حزم ، في كتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وسبق به بما يقرب من نصف ألف عام المغامرات الأوربية الشبيهة ، والأعمال الثقافية الأخرى المماثلة ، لعظماء آخرين من أبناء الأندلس ، مثل ابن حزم إسبانيين أصولا وروحاً ، يقفز دائماً أعماقي سؤال محير ، ويؤكد دواماً نظريتي فيما يتصل بالانحراف المأسوي لقدر إسبانيا نتيجة اعتناقها الإسلام ، كلها تقريباً . كيف لا نسأل أمام إسبانية ابن حزم الواضحة ، وإسبانيين آخرين في مثل قامته ، وأمام سمو عبقرياتهم ، ماذا كان يمكن أن يصبح عليه عمل المفكرين والمؤرخين ورجال العقيدة والفقهاء والعلماء والكتاب من الإسبان ، في إنضاج الثقافة الغربية خلال العصر الوسيط ، لو ظلوا منتمين لها ولم يبتعدوا عن هذا الجو الثقافي ذات يوم من عام ٧١١م ؟ وعندما أحصي الأعمال التي قاموا بها على امتداد حياتهم ، وكل إسبانيا الإسلامية ، وهم على هامش العالم الغربي المجاور ، وبعيداً عن مركزه ، طوال عصور التبلور الحاسمة ، أحس بالغم دائماً ، لأني أدرك الأذى الذي لحق بوطني عندما فتحه الإسلام وحكمه .

غراميات ابن حزم
ومشكلة الحب العذرى فى الأندلس

فى عام ١٨٤١ اكتشف المستشرق الهولندى الكبير رينهارت دوزى Reinhart Dozy (١٨٢٠–١٨٨٣) ، المتخصص فى الدراسات الأندلسية ، النسخة الوحيدة من مخطوطة «طوق الحمامة فى الألفة والآلاف» لابن حزم ، المفكر الأندلسى العظيم ، بين العديد من المخطوطات العربية والشرقية فى مكتبة جامعة ليدن بهولندا ، وعكف عليها قراءة ودراسة ، وأفاد منها فى كتابه الرائع : « تاريخ مسلمى الأندلس Histoire des Musulmans d'Espagne » ووقف طويلا عند اعتراف مفصل مثير لابن حزم ، تضمن فى صراحة بينة خطاه الأولى فى عالم الحب . وكانت مفاجأة مذهلة ، أفقدت العالم الأوربى الكبير توازنه العلمى ، وربما للمرة الأولى على نحو ما سنرى بعد قليل .

يقول ابن حزم فى اعترافه :

« وإنى لأخبرك عنى : أنى ألفت فى صباى ، ألفة محبة ، جارية نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسبلة الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار . لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان فى المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد فى أمرها ، غير راغبة فى اللهو .

« على أنها كانت تحسن العود إحسانا جيداً ، فجنحت إليها ، وأحببتها

حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة ، وأسمع من فيها لفظة — غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع — بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة .

« فلعهدى بمصطنع كان فى دارنا لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة(١) أخى — رحمه الله — من النساء ، ونساء فتياننا ، ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدرا من النهار ، ثم انتقلن إلى قصبة كانت فى دارنا ، مشرفة على بستان الدار ، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها(٢) ، مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن :

« فإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه ، أنسا بقربها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هى إلا أن ترانى فى جوارها ، فتترك ذلك الباب الذى صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره ؛ وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً ، وإذا كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها : واعلم أن قيافة النساء فى من يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج فى الآثار .

« ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا(٣) وكرائمنا إلى سيدتها فى سماع غنائها ، فأمرتها ، فأخذت العود وسوته فى خفر وخجل لا عهد لى بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس ابن الأحنف ، حيث يقول :

إنى طربت إلى شمس إذا غربت ... كانت مغاربها جوف المقاصير

شمس ممثلة فى خلق جارية ... كأن أعطافها طى الطوامير

ليست من الإنس إلا فى مناسبة ... ولا من الجن إلا فى التصاوير

فالوجه جوهرة والجسم عبهرة ... والريح عنبرة والكل من نور

كأنها حين تخطو فى مجاسدها ... تخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمرى لكان المضراب انما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ، ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها .....»(٥)

نقل دوزى النص كاملا ، فى فرنسية راقية ، شفافة ومثيرة فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل ، ثم عقب عليه بقوله :

« يلاحظ دون ما شك فى القصة التى انتهينا من قراءتها ، ملامح عاطفة رقيقة غير شائعة بين العرب ، الذين يفضلون بصفة عامة ، الجمال المثير ، والعيون الفاتنة ، والابتسامة الآسرة ، والحب الذى كان يحلم به ابن حزم يختلط ، دون ريب بما هو حسى جذاب ، وعند ما يكون الحبيب المنشود اليوم غيره بالأمس ، يصبح الإحساس أقل قسوة لكن فيه أيضا ميل إلى ما هو أخلاقى ، من رقة بالغة واحترام وحماسة ، وما يأسره جمال رائق وديع ، فياض بالكرامة الحلوة لكن يجب ألا ننسى أن هذا الشاعر الأكثر عفة ، وأكاد أقول الأكثر مسيحية ، بين الشعراء المسلمين ، ليس عربيا خالص النسب ، إنما هو حفيد إسبانى مسيحى ، لم يفقد كاية طريقة التفكير والشعور الذاتية لجنسه . هؤلاء الإسبان المتعربون يستطيعون أن يهجروا دينهم ، وأن يبتهلو ا لمحمد بدل المسيح ، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم القدامى فى الدين والوطن ، ولكن يبقى دئما فى أعماق أرواحهم شىء صاف رهيف وروحى ، غير عربى (٦) .

نشر دوزى كتابه « تاريخ مسلمى الأندلس » الذى ضمنه هذا الرأى ، عام ١٨٦١ م ، ولأن الرجل حجة فى الدراسات الأندلسية ، وصاغ القصة فى نثر فرنسى بليغ ، فقد أصبح كتابه مرجعاً ، ورأيه عقيدة ، وفكرته الصواب قاطعاً ، وتابعه فيه جمهرة الأوربيين من بعده ، إلى قريب من نهاية الثلث الأول من هذا القرن حين نشر الراهب الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios (١٨٧١ — ١٩٤٥)

دراسته العميقة عن العالم القرطبى الجليل،وكان أسين بلاثيوس عالما ثبتاً وحجة فى الفلسفة الإسلامية ، وقف عليها حياته : نشر مخطوطات، ودراسة تراث، وحرر فيها عدداً هائلا من الرسائل والأبحاث ، وترجم إلى الإسبانية أمهات كتب الفلسفة الإسلامية فى الأندلس بينها كتاب : «الفصل فى الملل والأهواء والنحل»لابن حزم وجعل من دراسة حياة المؤلف كالمقدمة لترجمته ، وجاءت الدراسة والترجمة فى خمسة أجزاء كبار (٧) .

عرض أسين بلاثيوس لفكرة دوزى ، كما أوردناها ، وناقشها تفصيلا، ووجهة نظره تستحق أن نوردها كاملة ، ولنا عليهما استدراك وتعليق .

يقول : « الفكرة التى دافع عنها دوزى بوضوح فى تعليقه هذا ، وفى أمكنة أخرى من كتابه : « تاريخ مسلمى الأندلس » ، يمكن أن نوجزها ، لتسهل مناقشتها ، فى النقاط التالية :

• إن الإطار الذى رسمه ابن حزم لحبه فى هذه الترجمة الذاتية، فى لهجة صادقة وسلامة نية فطرية ، يظهر لنا من نفسية البطل شعوراً ممتازاً ، أشد رقة وكمالا من الحب الحسى غير المحتشم . ويمكن اعتبار ابن حزم فى هذا الجانب مثلا استثنائياً نموذجياً للحب الروحى والعفيف ، الذى يسميه علماء النفس الحب الإفلاطونى أو الرومانتيكى .

• إن النفسية التى تكابد هذا الحب ليست من خصائص الجنس العربى، ولا الأدب الإسلامى ، وكلاهما فى عواطفه الغرامية يستمد إلهامه غالباً من الرغبات الجنسية المبتذلة .

• إن حب ابن حزم الرومانتيكى ، وبالتالى كل جبلته العاطفية ، لا يمكن يفسيرها إلا فى ضوء أنها وراثة نفسية ، وارتداد منه لخصائص جنسه المسيحى والإسبانى .

« فيما يتصل بالنقطة الأولى من هذه النقاط ، أبادر إلى القول ، قبل كل شىء ، بأن روعة الأسلوب الأدبى لدوزى ، وقد تجلت فى ترجمته الجميلة

لقصة ابن حزم السابقة ، مقارنة بترجمة خوان فاليرا (٨) تثير في أعماق روح القارئ العلماني ، ، غير اليقظ ، فـكرة أن ابن حزم كان ضحية ذلك الحب الأول لأيام شبابه ، يبكي بلا أمل ، بقية حياته ، الحظ التعس لقلبه المصدود . وبمعنى آخر أعطى النغم الرومانتيكي لهذا الحب القصة مزيداً من القوة ، لأن دوزى تركنا في مهارة نتخيل أنه الحب الوحيد في حياة ابن حزم ، على حين أنه لا يمكن أن يجهل ، وقد استفاد من كل كلمة في النسخة المخطوطة لطوق الحمامة ، أن ابن حزم لم يصبر طويلا ، وهو يمثل الدور الرومانتيكي لعاشق يائس ، إذ سرعان ما جفف دموعه ، لينسى في حب آخر ، أكثر سهولة ، أحزان حبه الأول :

يقول : « كنت أشد الناس كلفا ، وأعظمهم حباً ، بجارية لى ، كان فيما خلا اسمها نعم ، وكانت أمنية المتمنى ، وغاية الحسن خلقاً وخلقة وموافقة لى ، وكنت أبا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتنى بها الأقدار ، واخترمتها الليالى ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، سنى حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هى دونى فى السن ، فقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ، ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وببعض أعضاء جسمى العزيزة على مسارعا طائعاً ، وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عفى حبى لها على كل ما قبله ، وحرم ما كان بعده .

وليس هذا الحب الثانى هو الأخير لأيام شبابه ، فبعد ذلك بأعوام ، عندما استطاع أن يعود إلى قرطبة وسط مغامراته السياسية الواسعة ، يحدثنا عن نفسه : وقد ضمنى المبيت ليلة فى بعض الأزمان عند أمرأة من بعض معارفى مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قرابتها ، من اللاتى قد ضمها معى النشأة فى الصبى ، ثم غبت عنها أعواما كثيرة ، وكنت

تركتها حين أعصرت ، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ، ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبعثت فى خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت ... » (١٠)

إذن لم يخفق ابن حزم فى حبه مرة واحدة ، بل مرات ، ومن هذه الزاوية الجديدة ، التى لم يرد دوزى أن يضعها أمام عين القارئ ، يفقد الحب الفنى لبطلنا ، دون شك ، درجات من مثاليته وأفلاطونيته ، لكن لا يمكن الإنكار أنه ينطوى على مشاعر رقيقة لم تفقد توهجها بعد ، ولا نعرف ما هو حسى . ومصدر ذلك تعاسة مزاجه ، أو بمعنى أدق ، جاء نتيجة ميل فطرى عنده ، ويعترف ابن حزم نفسه بأن لديه دائماً قدرة بالغة ، وعزوفاً عن كل ما هو جنسى (١١) . ويرى أن اجتماع الأرواح ، وليس التقاء الأبدان ، هو الذى يبقى على الحب (١٢) . لقد كانت روحية عشقه حقيقة واقعة وظل صداها يتردد ، بعد قرن كامل من وفاته ، فى خمريات الشاعر العربيد ابن قزمان القرطبى ، وهو يصف لنا سهراته ولياليه الحمراء (١٣).

لكن ليس صحيحا أن حبه الأفلاطونى يجب أن يعد شيئا شخصيا ، وطابعا يتصل بخلاقه ، وأنه استثناء واضح فى نفسية الإسلام الإسبانى ، ذلك أن الحقائق التاريخية فى كتابه « طوق الحمامة » وهى مسلم بها وليست موضع شك ، لأن مؤلفه يؤكد ذلك حرفياً فى مقدمة الكتاب ، يقول : « كلفتنى — أعزك الله — أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا متزيداً ولا مفنناً » (١٤) وأغلب فصول الكتاب تتكون من روايات معاصرة عن شخصيات تذكر بأسمائها وألقابها وهى شاهد حى على الجذور العميقة التى بثها الحب الرومانتيكى فى الأرواح وتعترضك فى كل خطوة ، على امتداد صفحات الكتاب ، أسماء خلفاء ووزراء وقواد ، وشخصيات من أعلى طبقات الأرستقراطية العربية ، وفقهاء وأدباء وشعراء ورجال ، وباختصار من كل الطبقات المثقفة فى

المجتمع القرطبى ، وهم يهتدون فى حياتهم الغرامية بهذا الروح المثالى الراقى نفسه ، تشيع البهجة فيهم نظرة عابرة من فتاة أحلامهم ، أو مجرد زيارة شريفة وخفية ، وتبتل صامت إلى المعبود فى محراب الروح الخفى وتقديس يكاد يكون دينيا لما خلف من أشياء وحاجات شخصية يحتفظون بها تذكرة . ويبلغ نهاية الطرف المقابل للحب الأفلاطونى ، فيروى بالدموع عند احتداد الخيبة ، رسائل يطلب فيها صدقة من حب ، أو يكتبها بدمه ، أو ينهى فى قسوة مأساة حبه المصدود ، مضنيا الحبيب شيئاً فشيئاً ، أو ينطفىء بغتة نور عقله ، فى انفجار غرامى مجنون (١٥) .

عند ما نقرأ هذه الصفحات الزاخرة بالشعر ، يمكن أن نفهم من مجموعها نفسية تلك الحضارة القرطبية ، وهى تقدم لنا فى قمة توهجها ، الدلائل على رقيها الثقافى والعاطفى ؛ وهما دائما طلائع أى انحدار . لم يكن إذن حب ابن حزم الأفلاطونى وليد عدوى سلالية فحسب ، أو أنه تلقاه من نفسية أسلافه المسيحيين ، لأن من أبطال الغزل الرومانتيكيين كثيرين جدا ينحدرون من أصول عربية خالصة ، ولا يمكن أن تجرى فى دمائهم الخصائص الموروثة التى نفترض أنها عند ابن حزم ؛

ولقد حفظ لنا «طوق الحمامة» عن الرمادى أبو عمر يوسف بن هارون من كبار الشعراء الغنائيين الملهمين فى عصر المنصور بن أبى عامر ، وهو كندى القبيلة ، يمنى الأصل ، رواية لطيفة ، ثابتة الوقائع ، جديرة بأن تروى لما فيها من عاطفة عميقة : « كان يوسف بن هارون مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه ، وتخلل حبها جميع أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع ، وجعل يتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة ، فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض ، فلما صارت بين رياض بنى مروان رحمهم الله ، المبنية على قبورهم فى مقبرة الربض ، خلف النهر ، نظرت منه منفردا عن الناس لا همة له غيرها ، فانصرفت إليه ، فقالت له : مالك تمشى ورائى ؟

فأخبرها بعظيم بليته بها ، فقالت له : دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتى ، فلا مطمع لك فى ألبتة ، ولا لى ما ترغبه سبيل . فقال : إنى أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مباح لك. فقال لها ياسيدتى : أحرة أنت أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة ، فقال لها : ما اسمك قالت : خلوة (١٦). قال : ولمن أنت ؟ . قالت له : علمك والله بما فى السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع المحال . فقال لها :ياسيدتى وأين أراك بعد هذا ؟ . قالت : حيث رأيتنى اليوم ، فى مثل تلك الساعة من كل جمعة . فقالت له : أما أن تنهض أنت ، وأما أن أنهض أنا . فقال لها : انهضى فى حفظ الله.فنهضت نحو القنطرة ، ولم يمكنه اتباعها ، لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما تجاوزت القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على خبر ، ولا أدرى أسماء لحستها أم أرض بلعتها ، وأن قلبى منها لأحر من الجمر . وهى خلوة التى يتغزل بها فى أشعاره ، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله فى سبيلها إلى سر قسطة فى قصة طويلة (١٧) .

لقد تأثر دوزى بما هو شائع معاد عن حسية الحب عند الجنس العربى أكثر مما تأثر بما هو حق (ما زال أسين بلاثيوس هو الذى يتكلم) وهذه الأفكار المطروقة وليدة دراسات جزئية وسطحية وجانبية للأدب الإسلامى ، وهى مضطربة ، مثلها فى ذلك خرافة لا تقل عنها انتشارا ، وهى عجز الجنس السامى عن الدراسات الفلسفية . لقد كرس الاستشراق الأوربى أغلب جهده ، فى البدء ، بل وحتى كل جهده ، لدراسة شعراء الجاهلية ، وأدباء الإسلام فى العصر الكلاسيكى ، وخدع أوائل الباحثين منهم ، بما كان يتراقص فى هذه النماذج من عبادة وثنية للشكل والجمال الحسى ، دون أن يكون لديهم متسع من الوقت لكى يستوعبوا ، أو حتى يبدأوا ، تحليل المعانى العظيمة للأدب الإسلامى ، وما زال مطويا لم ينشر ولم يدرس بعد ، ومع ذلك جرءوا على أن يستخرجوا من المقدمات الناقصة والخادعة نتائج عامة وفجة ، وأن يرتفعوا بها إلى مرتبة

القانون التاريخي أو الاجتماعي . ولكن خلال قرن مضى (كتب أسين بلاثيوس كتابه عن ابن حزم بين عامي ١٩٢٦ — ١٩٢٨) حللت جوانب جديدة عديدة للنفسية العربية ، ومن الممكن الآن تكوين فكرة أكثر شمولا ودقة عن ذى قبل .

ومن جانب آخر ، وكمقابل لهذا الاتجاه الحسى ، ظهر منذ العصر الجاهلى لون من الغزل العاطفى ، عفيف وروحى ، كالحب المسيحى ، ففى الصحراء العربية ، قريباً من اليمن ، عرفت قبيلة بدوية كيف تسمو بفهمها إلى أدق مايمكن أن يتصور من الحب البشرى . فبنو عذرة يفضلون الحزن الحلو المستسلم المشوق فى الحب الأفلاطونى ، على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة ، ويعرفون كيف يموتون من الحب ، قبل أن يدنسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأرواح العفيفة ؛ لقد تغنى أعظم شعرائهم إلهاما ، فى قصائد تفيض رومانتيكية ، وبالحلاوة المرة ، للرغبة الكظيمة إلى الأبد ، وكان جميل بن عبد الله العذرى ، إلى جانب شعراء آخرين من بنى هذيل ، النموذج الكامل الذى تتحقق فيه العفة المثالية . لقد مات من الحب دون أن يجرؤ يوماً على أن يمس بيده محبوبته بثينة .

إن عبادة العفة والعذرية ، وهما من خصائص الرهبنة المسيحية الشرقية فى العصور الوسطى ، لايجب أن تكون بمنأى عن هذه الحركة الرومانتيكية ، والراهب المسيحى شخصية شائعة فى القصيدة الجاهلية ، وكانت الصوامع والأديرة تتناثر عبر صحراوات الجزيرة العربية ، وكان قرى الحجيج فيها تقليدا مرعيا ، والتعايش والعرفان يؤديان إلى التقليد ، والحق أن شيئا كثيرا من ذلك تخلف فى الأدب الدينى للقرن الأول الهجرى إن حكايات رهبانية ، ونماذج لأبطال متقشفين مما يوجد فى كتاب « حياة الآباء «Vitae Patrum» انتقلت فى سرعة كبيرة للغاية إلى التراث الأدبى الإسلامى . وأحد هذه الأمثلة ، وربما كان أروعها جميعا ، عبر سريعا البلاد الإسلامية التى تفصل موطنه عن الغرب ، حتى وصل

إسبانيا : إنها حكاية راهب مسيحى من طيبة أحرق أصابعه بالنار ليقاوم محاولة امرأة عارية . وقد قص ابن حزم الحكاية فى « طوق الحمامة » بعد أن جردها من طابعها المسيحى (١٨) .

« الحب العذرى والعفيف لبنى عذرة ، والمطهر هكذا شيئا فشيئا بحرارة الزهد البدوى الإسلامى ، والسابق للصوفية ، أخذ شكله النهائى فى بغداد قريبا من القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، كنموذج مثالى للحب السامى ، وحتى للفضيلة الدينية . وكان البلاط العباسى ، وقد بلغ قدرا عاليا من الثقافة المصقولة ، يعانى فى الوقت نفسه من تفاقم المشاعر المريضة ، وهو طابع كل المراكز الحضارية الكبرى ، وقد عانت منه قرطبة بعد وفاة ابن حزم بقرن من الزمان . وفى نوادى بغداد الأدبية كانت هذه الرومانتيكية التقليدية تباشر تأثيرا قويا على النفوس ، حيث شاع الحديث المنسوب إلى النبى : « من عشق فعف ومات ، مات شهيدا » . وهذه المثالية العالية ألهمت روحا عظيما واسع الثقافة ، هو ابن داود الأصفهانى ، ابن منشىء المذهب الظاهرى وخلفه فيه ، فعرف كيف يرفع حينئذ تمثالا أدبيا خالدا للحب الأفلاطونى بكتابه « الزهرة » : وفيه يعترف بالأصل المادى والشهوانى للميول العاطفية فى الروح الإنسانى ، وأنها تخضع لمثير دائم ، يتوقف على قدرها من التركيب الفسيولوجى . ومع ذلك ، عرف كيف يجعل منها مثلا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعها ، لتصبح الرغبة أملا خالدا .

ومهما تكن خصائص الجنس البعيد لابن حزم ، التى نسبه إليها دوزى ، فقد تهاوت كلها أمام هذا العرض ، وإذا كان ثمة أثر من مشاعر مسيحية حقيقية يمكن أن ينبض بها قلب ابن حزم ، العدو اللدود للعقيدة المسيحية ، وللأخلاق الإنجيلية ، فليست بالتأكيد المشاعر التى ورثها عن أجداده عبر دمائهم ، وإنما تلك التى اكتسبها لاشعوريا ، وعلى الرغم منه ، بفعل عدوى لامحيص عنها ، لجو المثالية المسيحية القوى ، والذى ازدهرت فيه الحياة الأدبية الإسلامية فى المشرق طوال حياتها ..... » (١٩)

* * *

تلك هي وجهة النظر غير العربية ، كما يعرضها مستشرق هو لندى غير متهم فى حياده ، وعرف بكرهه لرجال الدين ، وبعده عن التعصب . وكما تصورها راهب كاثوليكى إسبانى ، عرف بغزارة علمه ، وتمكنه من العربية ، وبمعالجته للقضايا العلمية والأدبية فى موضوعية لاتحدها إلا رسالته كرجل دين تخضع كل كتاباته لمراجعة السلطات الكنيسية ورقابتها .

لكن دوزى كان متأثرا بما كان شائعا فى أوربا على أيامه ، من أن السمو فى الحب وليد المسيحية ، فطبق هذا الاتجاه فى دراسته لابن حزم ، وكتابه « طوق الحمامة » . وحاول أسين بلاثيوس ، فى مهارة ذكية ، أن يرد الغزل العذرى كله ، لا الأندلسى منه فحسب ، إلى أصول مسيحية .

ونظرية كليهما ينقضها واقع الأندلس ، فهما يعرفان جيدا ، أن مسيحية الإسبان عند الفتح كانت رقيقة ، وأن علم الناس بها — خارج رجال الدين — كان مشوشا . وأن جانبا لابأس به من السكان كانوا وثنيين . وإذا كان من المرجح أن ابن حزم ينحدر من أصول إسبانية ، فمن المرجح أيضا أن أجداده لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية عند دخول الإسلام ، لأنه من المنطقة الفقيرة ، فى جنوب غربى إسبانيا ، وغالبية أهلها عند الفتح كانوا من الوثنيين . وعلى أى حال فإن ما كان يجرى فى الجانب العربى والإسلامى من الأندلس من مظاهر الحب الحسى ، كان يجرى مثله ، وأفحش منه ، فى الجانب الإسبانى المسيحى ، ولم تجر فى عروقهم دماء عربية ، ولا اتخذ جدودهم الإسلام دينا .

كان ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وجاء إلى الحياة بعد عامين من وفاة ابن حزم (ت ١٠٦٣) ، ملكا كاثوليكيا ، أفنى حياته يقاتل من أجلها ودفاعا عنها ، ولكن الكاثوليكية بطقوسها لم تمنعه من أن يجمع بين ست زوجات فى وقت واحد (٢١) . وكان على علاقة جنسية مع أخته أراكة Urraca وتذكر ذلك المصادر العربية المعاصرة له صراحة (٢١) ، وتتحدث عنها الأغانى الشعبية الإسبانية منكرة أحيانا ، ومتشفية أحيانا أخرى . وكان إنريك الرابع ملك قشتالة (ت ١٤٧٤) إسبانياً حتى آخر قطرة فى دمه ، كاثوليكيا من خمس

قدميه إلى قمة رأسه ، وكان شاذا جنسياً مخنثاً ، يلاحق من لا يخضعون لرغباته المخجلة من حاشيته بالقتل والسجن والنفى . ولم ير حرجا فى أن يعين عشيقته كتالين سندوفال رئيسة لدير راهبات القديس بطرس ، فى ضواحى طليطلة ، بعد أن طرد رئيسته السابقة ، متحدياً أوامر المطران ، وقرار حرمانه من الكنيسة (٢٢) . ومن الثابت أنه كان عقيماً لا يلد ، وأنه طلق زوجته الأولى رغم كاثوليكيته وتزوج ثانية ، وأن زوجته الثانية جاءته ببنت نسبت إليه ، وكان معروفاً أن أباها الحقيقى أحد رجال الحاشية ، ولم يكن إنريك هذا حالة شاذة ، فهو نفسه يشك أنه ابن حقيقى لأبيه المنسوب إليه : خوان الثانى (٢٣) .

وكان فليب الثانى (١٥٢٧ — ١٥٩٨) أعظم ملوك أسبانيا ، كاثوليكياً متعصباً ، ضيق الأفق فى مفهومه الدينى ، وله العديد من العشيقات ، وأولاد كثيرون غير شرعيين ، كما كان أبوه من قبل(٢٤) ، ومن الشائع أن كارلوس بن فيليب الثانى ، كان على صلة غرامية بزوجة أبيه إيزابيل ، ولذلك سجنه ، ومات فى السجن فى ظروف غامضة ، مسموماً أو مذبوحا أو مخنوقاً ، فبكته ايزابيل بكاء مرا ، فأصدر لها فيليب أمرا إمبراطوريا بأن تكف عن البكاء عليه (٢٥) .

ويقص علينا رحالة ألمانى طاف بالجانب المسيحى من الأندلس فى القرن الخامس عشر ، أنه وجد الشذوذ الجنسى شائعا فى قشتالة ، وقشتالة هذه من أشد مقاطعات الأندلس فى العصر الوسيط ، وحتى أيامنا هذه ، تعصبا للكاثوليكية ، وتعلقاً بالإسبانية ، حتى أن اللغة القومية تنسب إليهم فى أحايين كثيرة ، فيقال اللغة القشتالية بدل الإسبانية ، لأن لهجتهم هى التى سادت بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس (٢٦) . ويلاحظ أن من العسير علينا عند دراستنا لهذا الأمر فى الجانب المسيحى من الأندلس الحصول على معلومات كافية ، لأنه لم يكن يتمتع بما يتمتع به الجانب الإسلامى من حرية فى الإبداع والتسجيل والنشر ، لأن الرقابة الدينية على المؤلفات

كانت عنيفة وقاسية ولا تسمح بالإشارة إلى مثل هذه الأشياء(٢٧) .

* * *

ويقول مؤلف كتاب : « تاريخ إسبانيا وأمريكا ، اقتصاديا واجتماعياً » ، وصدرت الطبعة الأولى منه فى برشلونة بإسبانيا عام ١٩٥٧ ، وخضع لرقابة الدولة والكنيسة على السواء : « شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر أشد فساد شهدته الكنيسة الإسبانية ، وبخاصة فى مملكة قشتالة . والدراسات التى قام بها أوليز روبير Ulises Robert أظهرت الحالة المؤسفة التى انتهى إليها عدد كبير من الأديرة البندكتية . حيث يعيش الرهبان مع عشيقاتهم ، ويربون ويعلمون أولادهن فى الأديرة نفسها . وثمة تعليمات أصدرها مطران أوفييدو فى القرن الرابع عشر يمنع فيها الرهبان من السماح لعشيقاتهم ، أو أولادهن ، أو الراهبات ، أن يتواجدن على أبواب الأديرة ، أو يعشن فيها ضيوفاً على الرهبان . وثمة وثيقة أخرى نشرها فوشيه دلبوس Fouché-Delbosc تشير إلى السمعة السيئة التى كان يتمتع بها رجال الدين الدومينيكان فى القرن نفسه ، مما يؤكد أن الأوامر الخاصة بالسلوك المستقيم قد تنوسيت سريعا . وفيما يبدو كان فساد الأخلاق عاما فى كل الأديرة ، إلى حد كبير ، وفيما يتصل بسلوك رجال الدين خارج الأديرة ، هناك أدلة وافية للجزم بأن الفساد كان أكثر شيوعا فى قشتالة منه فى أرجون ، والبلاد الأوربية الأخرى . ففى منتصف القرن الثالث عشر (أى مائتى عالم بعد وفاة ابن حزم) شاعت أغان تتحدث عن رجال الدين ممن فاض بهم الشبق ، وفى كتاب « الحيل » قصة رئيس دير أخفى عنده امرأة متزوجة ... الخ

« ونعرف من قرارات مجمع شنت ياقب Santiago عام ١٢٨٩ م ، أن من الشائع بين رجال الدين فى المدينة ، أن يعيشوا على نحو ما يعيش العلمانيون ، يرتدون أفخر الثياب ، ويأكلون فى الحانات ، ويلعبون « الزهر » علانية ، ويحلقون الأسماء ، ويأخذون بحظهم من حياة الليل ، ويتشاجرون مع

الأهالى والجنود ، وهذا المجمع نفسه أصدر قرارا بمنع رجال الدين من اتخاذ العشيقات علانية ، ومن أن يوقفوا أنفسهم على كتابة الرقى . أو قراءة الطالع ...».

«وفى عام ١٣٨٠ م ، أصدر مجلس سورية قراراً يحول بين أبناء الرهبان من عشيقاتهم وبين أن يرثوا آباءهم ، لكى يحول بين نساء أخريات مستقيمات ، أرامل وعذراوات ، أن يصبحن لهم عشيقات ، وأن يقعن فى الخطيئة . . » ، وبعد سبعة أعوام أصدر مجلس بريفيسكا قرارا بمعاقبة أى امرأة تصبح علناً عشيقة لواحد من رجال الدين ... تعاقب فى كل مرة تستسلم فيها له » .

ويمضى بنا الكاتب إلى القرن الخامس عشر فيقرر : « إن عدداً كبيراً من الأديرة لم يكن إلا موضعاً لحياة اللذاذة والمرح ، وعدد كبير من أديرة الراهبات سقط إلى الحضيض : وإذا لم تصبح بيوتا للدعارة فعلا ، فقد كان بينها وبين أن تصبح كذلك خطوة واحدة » . « وخلال حصار مدينة فوسة Fosa ، فى الشمال الشرقى من إسبانيا ، عام ١٤٦٢ ، وجهت رئيسة الدير توبيخا لقائد الجيش المحاصر ، لأنه سمح لضباطه بأن ينسوا واجباتهم العسكرية ، وأن يمضوا الليل مستمتعين فى دير « سنتا كلارا » للراهبات ، وكان خارج أسوار المدينة . وبعد ذلك بأعوام طلب المطران مساعدة السلطات المدنية لكى تساعده على طرد راهبات هذا الدير بالقوة ، ماعدا الرئيسة ، لأنها وحدها حافظت على كرامتها بين هؤلاء الراهبات الرجسات ، وقد أوقعن الرعب فى قلب رئيسة الدير ، وأصبحت عملياً أسيرة المدين ...»

« وتكرر فى أديرة كثيرة ، فى قشتالة وأرجون ، المشهد الذى حدث فى فوسة » ، وقد دافع رهبان سلمنقة عن أنفسهم مستخدمين كل شىء حتى الأسلحة ، قبل أن يغادروا الدير ، بينما الرهبان الفرنسيسكان فى المدينة نفسها خرجوا يجرون فى الشوارع رفقة عشيقاتهم : أما رهبان طليطلة

فقد خرجوا فى مشهد دينى ، يطوفون الشوارع ، ويرفعون الصلبان ، ويترنمون بنشيد الخروج .. وأخيراً فإن ما يقرب من ٤٠٠ راهب أندلسى هددوا بأنهم سوف يهاجرون إلى شمال إفريقية ، ويعتنقون الإسلام ، قبل أن يتخلوا عن عشيقاتهم » (٢٨)

ويمضى المؤلف يعدد أحداثاً أخرى كثيرة من هذا القبيل ، ويطول بى الحديث لو أشرت إليها جميعا . ولكنى أكتفى منها بما أوردت وأدعها إلى حديث آخر . ففى العام الذى سقطت فيه دولة الإسلام فى الأندلس ، ٢ يناير ١٤٩٢ ، كانت الملكة إيزابيلى تستقبل مغامراً إيطالياً يدعى كولون ، أوكولومبوس ، يعرض عليها مغامرة يريد لها تمويلا ، وقبلت الملكة ، ومضى كولونه فى مغامرته ، وكانت النهاية اكتشاف العالم الجديد ، ومعه أصبحت إسبانيا أقوى دولة فى العالم ، لاتغيب الشمس عن أملاكها ، كما قيل عن بريطانيا فيما بعد ، وتدفق الإسبان على العالم الجديد ، وبخاصة من مقاطعة الجوف . فى الجنوب الغربى من إسبانيا ، « بعض القرى خلت من الرجال تماماً ، ولم يعد فيها غير النساء ، يلفها ظلام صيفى وشقاء مرعب ، وملل يتجاوز الوصف . . نساء تعسات ، حياتهن جافة ومنسيات ، لا أمل لهن فى أن يرين أزواجهن مرة أخرى ، دون أن يعنى هذا أن إحساسهن بحاجتهن الجنسية قد هدأ ، وحولهن فى كل مكان تظاهرات دينية : صلوات ، ودعوات ، وسحر .

والحقيقة المرة أن رجال الدين أصبحوا سادة « الفراغ » ، كثيرون عرفوا كيف يقاومون الرغبة فى داخلهم ، وليسوا جميعاً . . . إن العناصر التى تتركب منها الشهوة بسيطة للغاية ، بسيطة مثل ذكاء أولئك الأشقياء أنفسهم : قليل من الدين ، وكثير من الهيجان ، يتخفى تحت ستار الكهانة ، وجسد يلتهب شهوة ورغبة . وفى مدينة يرينا Llerena ، ومايتبعها من قرى ، قام ثمانية من رجال الدين ، فى مطلع القرن العاشر ، أطلقوا على أنفسهم اسم «المتنورين» وجوهر محاولتهم

أحط ما عرف من اتجاهات الفرق الدينية ، ، لأن دعوتهم لا تذهب إلى أبعد من إشباع شهواتهم الحسية ، وقد استطاع أحدهم ، الأب تشاميثو Chamizo أن يهتك عرض ثلاثين امرأة ، ممن جئن يتلقين على يديه مبادىء الدعوة الجديدة ، وربما كان ينقص هؤلاء ، وغيرهن ممن لقين المصير نفسه ، القدرة على إدراك الانحراف الذى يكمن وراء هذه الدعوة ، ولكن من المؤكد أنهن وجدن فيها فسحة ليشبعن رغباتهن ، وقد تركت الأساليب التى اتبعت معهن إصراراً وهوساً واضحاً فيهن جميعاً ».

« ونبت يرينا كان واحدا من أشد الحالات شهرة ، ولو أنه جاء متأخراً بالنسبة لحوادث أخرى . وكانت قضية هؤلاء « المتنورين » تقلق المسئولين منذ زمن . وأول « متنور » فى زمن الكاردينال ثيسنيروس ، كان من طائفة الكاثوليك الفرنسيسكان ويدعى أوكانيا Ocana ، وادعى أنه يتلقى الوحى . وأن الوحى أشار عليه بأن يضاجع ألواناً من النساء ، لكى يحملن منه بأنبياء ، وقد انتهى به المطاف إلى سجن تحت الأرض ، ومالبث أن سارع بالارتداد عن دعواه (٢٩) .

ولتكتشف إسبانيا أمريكا ، وتصبح هذه من أملاك التاج الإسبانى ، ويتدفق عليها الإسبان من كل لون ، مغامرون ومقاتلون ولصوص ومجرمون وباحثون عن الثراء ، ومعهم أو حتى قبلهم رجال دين ينشرون الكاثوليكية هناك بين سكان العالم الجديد ، وماكان من هؤلاء فيما وراء الإطلنطى شىء فوق التصور ، كأنما كانوا غرائز انطلقت من عقالها : لاتهدهد منها تقاليد ولاحدود ولا قيم . وقد صورت الكاتبة البيروانية كلورندا ماتو Clorinda Matto ، وهى كاثوليكية ، فى روايتها : «طيور لاعش لها Aves sin Nido» فى دقة واقعية شيئاً مما حدث ، فأحداث الرواية تدور فى قرية ريفية فى بيرو ، وثمة أسرة من هنود أمريكا تعيش فى حماية زوجين من البيض ، ولكن القسيس والحاكم والرئيس

السياسي طمعوا جميعاً في زوجة الرجل الهندي وبنتيه ، واستطاعوا أخيراً أن يقنعوا السكان بالهجوم على منزلهم وتدميره ؛ ودفاعاً عن بيته قتل الرجل الهندي وزوجه ، وخلف وراءه بنتين عشق ابن الحاكم إحداهما ، وعند ما أراد أن يتزوج منها لم يستطع ؛ فقد اكتشف أنهما أخوان ، لأن القسيس كان أباً لهما ، أباً غير شرعي ، لأنه كان عشيقاً لزوجة الهندي وزوجة الحاكم معا .

تلك وقائع أوردها كتاب إسبان معاصرون وكاثوليك ، ولنا عليها تحفظان : أولهما أن ما كان يحدث أسوأ بكثير مما تحدثوا عنه ، وأعرف قراءة وواقعاً ما هو أشد تهتكا . وثانيهما أننا لا نقع في الخطأ الذي يقعون فيه تعصبا ، فنرى رجال الدين في المسيحية كلهم كذلك ، إنني شخصياً أعرف بينهم أناساً يملأ الإيمان قلوبهم ؛ وتتميز حياتهم بالطهر ، ووهبوا قواهم ونشاطهم لكل ما هو فاضل وجميل في الحياة .

* * *

إن ربط العفة بالمسيحية ، والتبذل بالإسلام ، فضلا عن مخالفته للواقع التاريخي يتنافى مع بسائط أي منهج علمي ، مثله في ذلك : القول بأن مسلمي الأندلس الذين انحدروا من أصول رومانية ، كانوا أرقى في عواطفهم من الذين عبروا إليه المضيق فاتحين أو وافدين » « إن المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام في الأندلس ، فقدوا شيئاً فشيئاً الإحساس بأصولهم التي انحدروا منها ، حتى أن بعضهم صنع له شجرة نسب عربية ، ترفعه إلى قبائل معروفة ومشهورة ، مقابل أثمان دفعوها ذهبا . وحافظ آخرون على ألقابهم الرومانية الأولى ، فكان هناك بنو أنجلين Banu Angelino وبنو شبريق Banu Sabrico في إشبيلية (٣٠) . وما كان المرء يستطيع أن يفرق بين الذين صنعوا لهم نسباً عربياً ، والذين احتفظوا بألقابهم الرومانية ، وبين الوافدين على الأندلس ، عرباً أو بربرا ؛ لقد صنعهم الإسلام على هواه ، وصاغ منهم مجتمعا متجانسا .

ويأتي أمريكو كاسترو Americo Castro ، أحد كبار المفكرين الإسبان المعاصرين ، فيزيد الأمر دقة ووضوحا : « إن تحليل دم الأندلسيين عمل علماء الأحياء ، وليس من صناعة المؤرخين . فلم يكن الأندلسيون (يعني بهم المماليك المسيحية في شمال الأندلس) إسبانا ، ولم يشعروا بهذه الإسبانية أبداً قبل القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان الذين يتقاتلون أو يتوادون على بطحاء الأندلس ، إما مسلمون أو مسيحيون » . « إن تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية في العصور الوسطى ، لا يمكن أن يرى بوضوح ، ما دام ثمة مستشرقون كبار ، وآخرون غير مستشرقين ، يواصلون الحديث عن « جنس إسباني » واصل وجوده في إسبانيا وراء الذين هم من دم عربي » . « إن المستشرقين الإسبان يطبقون مفهوم الإسبانية على كل الأندلس ، مهما تكن الأجيال التي تفصل بين الأندلسيين المسلمين وأصولهم المسيحية ، فإذا ذهب مسلمو الأندلس ليقاتلوا في المغرب سموهم إسبانا ، وابن حزم إسباني ، وتغليب هذه الفكرة يعني أن المسلمين تنقصهم الشخصية التاريخية الصريحة ، فهم جميعاً يصبحون بربراً في المغرب ، ومصريين على ضفاف النيل » : ثم ينتهي إلى هذا القانون الاجتماعي : « الذين يتكلمون لغة جماعة إنسانية ، ويعتقدون دينها ، ويطبقون نظمها السياسية والإدارية ، يصبحون جزءاً منها ، مهما كانت الظروف التي عاش فيها أسلافهم »(٣١) .

أما قول أسين بلاثيوس بأن الحب العذرى نشأ بين بني عذرة نتيجة تأثير مسيحي ، فينقضه أن بني عذرة هؤلاء كانوا بدوا ، يأخذون الدين مأخذاً سهلا ، وقلما يبلغ من عقولهم ونفوسهم مبلغاً قوياً يتأثرون به ، ويكيفون حياتهم وفق مثاله ، ولو كانت المسيحية وراء هذه الظاهرة لكان أولى أن تكون على نحو أوضح ، وأسبق ، في نجران أو الحيرة أو بين الغساسنة ، حيث استقرت المسيحية زمناً ، وباشرت سلطانها على النفوس ، وأصبحت دين الأسرة الحاكمة ردحا من الزمان .

ويبقى بعد ذلك ، أن نشأة الحب العذرى في الأدب العربي بعامة ،

ما تزال أرضاً بكراً تنتظر من يبحثها فى ضوء مناهج البحث المتطورة ، علنا نصل فيها إلى جديد مقنع ومفيد .

• الهوامش و التعليقات :

(١) أسرتنا وأسرة .

(٢) الفحوص : الوديان والسهول والجبال الخضرة التى تحيط بقرطبة .

(٣) لفظ « عجوز » كان يطلق فى الأندلس على أية فتاة متزوجة ، حتى ولو كانت شابة ، ومازال هذا المعنى مستخدماً فى كل من المغرب والجزائر وتونس حتى الآن .

(٤) نوز صاحبة عباس بن الأحنف .

(٥) أقرأ القصة كاملة فى :

ابن حزم : طوق الحمامة فى الألفة والألاف ، ص ١٤٤ وما بعدها ، تحقيق مؤلف هذا الكتاب ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ .

(6) Dozy, R. : Histoire des Musulmans d' Espagne, Tomo II, pag. 263, Trad. Espagnole, Buenos Aires, 1940 .

(٧) ترجمنا هذه الدراسة إلى اللغة العربية ، وسوف تأخذ طريقها إلى النشر قريباً .

(٨) Juan Valera (١٨٢٧–١٩٠٥) روائى إسبانى ، وقد ترجم إلى الإسبانية كتاب المستشرق الألمانى فون شاك : « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » . وشهرت ترجمته بأنها ذات لغة رصينة ، وأسلوب أدبى رفيع ، وقد تضمن الكتاب القصة التى نحن بصددها .

(٩) القصة كاملة فى : ابن حزم ، طوق الحمامة ، بتحقيقنا ص ١٢٤ .

(١٠) القصة كاملة فى المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(١١) أنظر مثلا كتاب الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ، ص١٠٢ ، وكتاب طوق الحمامة بتحقيقنا ص ١٦٥ ، ونص عبارته فيه : (إنى أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حللت ام زرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا) .

(١٢) الأخلاق والسير ، ص ٨٦ .

(١٣) ديوان ابن قزمان ، ج١ ص ٢٧٢ ، الزجل رقم ٥٣ ، تحقيق غرسية غومث ، مدريد ١٩٧٢ ، والفقرة المشار إليها هى :

يتعجب ابن حزم وقتا ينشد

ويشتهى كل حينا يقصد

فمدحى له من سخاه يتولد :

فاز من جسر وندم من قصر

من كان كريماً فى ثنائى يظهر .

(١٤) طوق الحمامة ، ص ١٦ ، طبعة دارالمعارف بتحقيقنا .

(١٥) أورد ابن حزم فى كتابه (طوق الحمامة) مثلا لكل واحدة من هذه الحالات ، أنظر : الفصل ١ ، ص ٥ – ١١ ، والفصل ١٠ ص ٣٠ – ٣١ ، والفصل ٢٥ ص٨٨ ، ٩٤ ، والفصل ٢٦ ص ٩٥ – ٩٦ . والفصل ٢٨ ص ١٠٧ ، ١١٢ .

(١٦) هكذا فى الأصل ، وأظنها « حلوة » ، وبهذا المعنى الأخير ترجمها أسين بلاثيوس .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٨) الأصل المسيحى للقصة ورد فى كتاب « حياة الآباء Vitae Patrum » من تأليف Rosweyde وأوردها ابن حزم مفصلة فى كتابه « طوق الحمامة » ص١٨٥ طبعة دار المعارف بتحقيقنا ويلاحظ أن الذى روى القصة لابن حزم طبيب يهودى .

(١٩) أنظر بقية رأيه فى كتابه : ابن حزم القرطبى ، الجزء الأول ، وقد ترجمناه إلى اللغة العربية وسوف ينشر قريباً .

(20) William C. Atkinson : Histoire d'Espagne et du Portugal. p. 81, Paris 1995 .

(٢١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٤ ، ١٥ .

(22) Maranon Gregorio : Ensayo Biologica so-bre Enrique IV, p. 94. 9 edicion, Madred 1960.

(٢٣) المرجع السابق ص ٣٤ ، ١٩ .

(24) Fornieles Salvador : La Espana del Siglo XVI pag. 88, Buenos Aires, 1951.

(25) Pfandal Ludwig : Juana la loca, p. 181 ss, Madrid, 1959.

(٢٦) المرجع السابق ص ١٠ .

(27) Maranon, op. cit., p. 107.

(28) Historia de Espana y América : Social y Economica, dirigida por : J. Vicens Vives 3 ed. p. 149 ss., Barcelona1971.

(29) Fedrico Revilla :El sexo en La historia de Espana, p.158 ss., Barcelona 1975.

(30) Lévi-Provencal, E. : Espana Musulmana, p. 47. Madrid, 1950.

(31) Amèrico Castro : La Realidad historica de Espana, pag. 191 ss., 2 edicion, Mexico, 1962.

مقدمة لطوق الحمامة *

للفيلسوف الإسباني الكبير : أورتيجا إي جاسيت

صداقتي لإميليو غرسية غومث مترددة : تتأرجح بين أن تكون أخوة وبين أن تكون أبوة ، الأبوة تأتي من أن عمري أكثر اتساعا من عمره ، وتعود الأخوة إلى أن طريقنا واحدة ، وعندما نتحدث عن فلان نتفق .

وعندما يتفق إثنان أو أكثر في رأيهم عن فلان ، يتفقون فيما عدا ذلك ، والعكس صحيح أيضا ، ولا يتطلب الاتفاق ، وحتى لا يفضل ، أن يكون الرأي متطابقا . ولسنا بصدد اتفاق الآراء ، وإنما توافق الحياة ، فليس في الدنيا من تتماثل آراؤه مع آخر ، إذا كانت لديه آراء حقا ، لأن الرأي شيء ذاتي للغاية ، وغير قابل للانتقال . وعندما تكون لدينا فكرة مشتركة تأتي المخاطرة الكبرى في ألا تكون رأيا ، وإنما عكس ذلك تماما ، أن تكون شيئا مكرورا ، والشيء المكرور موضع ، والموضع عام ، إنه المكان الذي يتفق فيه الناس كثيرا ، ويتميزون ، وتختلط عليهم الأمور ، شيء لا يمكن أن يحدث إلا عندما يصبح الأفراد معادن ، ويفقدون صفتهم الإنسانية ، لأن الرجال في أصلهم ، وحقيقتهم ، اجتماعيون إلى حد كبير . و « المدرسيون » أنفسهم ، وإحساسهم بمثل هذه الموضوعات متواضع للغاية ، يعرفون الشخص بأنه غير قابل للانعزال ، ويرون أن الآراء يمكن أن تختلف إلى حد بعيد ، ولكنها تتفق فيما هو وحيد ومهم : في أنها كانت موضع التفكير من نفس المستوى . وأخيرا فإن معاناتنا عندما نتعامل مع الغير ، تجيء عادة من أننا نفكر ونشعر ونحن فوق مستويات مختلفة :

---

* كتب أورتيجا إي جاسيت هذه الدراسة كمقدمة للترجمة الإسبانية ، لكتاب « طوق الحمامة » ، وقام بها المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومث ، وصدرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٥٢ ؛ وأعاد نشرها في كتابه « دراسات عن الحب » ، وهو كتاب واسع الانتشار ، وبلغت طبعاته ، في سلسلة واحدة ، حتى كتابة هذه السطور خمس عشرة طبعة ، فيما أعلم . (المترجم) .

وهذه بالدقة إحدى الهبات السحرية التى تملكها الحب ، وعنها يتحدث هذا الكتاب فى عمق . إليه — مثلا — تعود الظاهرة الرائعة فى أن المرأة عشيقة الرجل ، تبدو صفاتها أرفع بكثير من صفاته ، ولا ندرى كيف ، أبمجرد أنه عاشق يرتفع إلى مستواها ، أو العكس . وقد التقط الشاعر الألمانى الكبير جوته ، فى بيتين من شعره ، فى نهاية كتابه الخالد « فاوست » صورة هذا المستوى . فالأنوثة الخالدة حقيقة محلقة : وعندما يحب الرجل يرتفع إلى مستواها ، لا بقوة الصعود نفسها ، وإنما بقوة الجذب ، فهو مجذوب إلى عالم أكثر سمواً . ولا ينكر أحد على أن المرأة ، إذا كانت شيئا ، تكون جذابة ، جذابة بالضرورة ، ولكن جوته يسترعى انتباهنا بأن جاذبيتها دائما ، دائما ، قمة :

ما هو أنثوى

يجذبنا إلى أعلى

وبذلك سقطنا من باب مسحور فى عمق هذا الكتاب ، وقد بذل إميليو غرسية غومث جهداً كبيراً ومضنيا فى ترجمته ، وهو دين فى عنق الإسبانيين ننهض به متعاونين ، لأن هذا الكتاب أروع ما خط عن الحب فى الحضارة الإسلامية ، ولأنه وليد فكر وحياة إسبانيين ، وكتبه عربى « إسبانى » على أرض إسبانية ، وقد ترجم من زمن إلى لغات أخرى ، ولكن أحدا لم يجرؤ قبل غرسية غومث على أن يمسك بمادته ؛ ويدفع بها خلال اللغة الإسبانية .

ومن الواضح أننى حين أدعو ابن حزم عربياً إسبانياً ، فإنما أنسبه إلى العربية جادا ، وإلى الإسبانية بصورة غير جدية ، ودون أن أحول بين الآخرين وبين أن يصنعوا ما يحلو لهم ؛ ولست مستعداً من جانبى أن أغامر فأدعو « إسبانيا » فى جدية كل من يولد على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية ، حتى ولو كان من دم إيبيرى أصلا ، وحتى لو كان قد عاش فيها كل حياته . فالأرض والجبلة الدموية تأتى فى آخر قائمة الخصائص التى يمكن أن تحدد قومية الإنسان . لأن هذه خلاصة الواقع التاريخى ، وإنما تكون لهما فعالية فحسب ، حين تحتلان منه المكان الأول ، قبل كل الخصائص الأخرى . والدليل عليه ، بسيطاً وشهيراً ،

يتمثل فى أن بالإمكان أن يصبح المرء إسبانياً ، بأقصى ما تحتمله الكلمة من معنى ، دون أن يكون قد رأى الأرض الإسبانية مطلقاً. وعلى النقيض ، يمكن أن يكونه ، وبالمستوى نفسه ، دون أن تجرى فى عروقه نقطة من دم جنسنا ، أو فيه منه شىء قليل للغاية .

ويصدق ذلك فى عصرنا الآن ، لأن إسبانيا ، منذ وقت طويل ، حققت كامل قوميتها ، أعظم بكثير جداً عما كانت عليه خلال القرنين العاشر والحادى عشر، عندما بدأ الشىء الذى يدعى « إسبانيا » ينبثق فحسب. وكل هذه الصفات القومية تعنى ، إذا أخذت بمعناها الدقيق ، الانتماء الأصيل لمجتمع محدد ، وكان مجتمع الأندلس العربى مختلفاً ، وشيئاً آخر غير المجتمع ، أو المجتمعات غير العربية ؛ التى كانت تسكن إسبانيا إذ ذاك (١) .

ولكن ذلك لا يلغى ، كما قلت ، علاقاتنا مع عرب الأندلس، أو الإسبانيين، ولا يعفينا من بعض الواجبات فيما يتصل بتاريخهم : واجبات عمادها ، فى النهاية ، الفائدة التى تعود علينا من وراء القيام بها ، لأننا بهذا نغذى ذات جوهرنا ، ونثرى حاضرنا ، ونعلى من قدر إسبانيتنا . لأن مجتمعنا عايش على امتداد قرون طويلة هذا المجتمع الأندلسى ، وجهاً لوجه ، فى احتكاك مباشر ، من القبلات والسهام ، والأخذ والعطاء ، والتأثير والتأثر. وإحدى المخجلات الكبيرة التى تعيب الدراسات التاريخية أنها فى أوج تقدمها ، لم تستطع أن تجلو ، ولو من بعيد ، حقيقة العلاقات بين كلا المجتمعين : وذلك هو سبب التأرجح المتطرف بين الآراء ، عن التأثيرات بين جانب وآخر ، والذى أشار إليه غرسية غومث فى مقدمته . ومن الحق أن نعترف بأن المستشرقين الإسبان ، ابتداء من خوليان ريبيرا ، تقدموا خطوات هامة على طريق المحاولة ، وأظهروا فى دقة كبيرة كيف تعايش

(١) لكى لا تبقى الفكرة غامضة ، أضيف أننى أفهم من «مجتمع» مجموعة من البشر يحكمها نظام معين من العادات .

الأندلسيون والإسبان ، ولكن القضية لا يمكن أن تتقدم كثيراً إذا لم تؤخذ على نحو أكثر عمقاً . ومن الضروري بمكان في الحقيقة أن نحدد بالدقة تركيب المجتمعين ، تحديداً منفصلا وجيداً ، لكي نستطيع فيما بعد أن نظهر التكامل والتلاقي بينهما .

ومع ذلك ، لا يمكن أن نقف بالقضية عند حدود إسبانيا وحدها ، فهي أكثر اتساعا ، لأن الجانب الأكبر من أوربا كانت له أيضاً صلات مستمرة مع الحضارة العربية ، وتجاور مباشرة معها ، ولكن المؤرخين الأجانب أيضاً لم يسكبوا شيئاً من الوضوح فوق هذا العمل ، وهو إحدى الحقائق الكبرى في تاريخ الغرب ، وكان ذلك التقصير أحد الأسباب الجوهرية التي عاقت الذكاء الأوربي الوسيط . وليس ممكناً أن نفهم حدثاً تاريخياً ، مهما يكن ، إذا لم ننجح في تأمله من وجهة النظر التي تظهر ، على نحو أفضل ، معناه الأكثر دقة ، أي من تلك التي تدرك متذوقة ، وبكل طاقتها ، مساحة الواقع الإنساني التي ينتسب إليها الحدث التاريخي . وكل نظرة إلى الواقع من خلال مساحة جزئية ، مهما تكن عميقة ، يشوهه أو يزيفه آلياً . وعلى أية حال فمنذ أعوام طويلة ، وإميليو غرسية غومث شاهد عظيم على ، وأنا أرى أن العصر الأوربي الوسيط لا يمكن أن يرى بوضوح إذا نظرنا إليه وقد ركزنا تاريخ تلك القرون في تطور المجتمعات المسيحية وحدها .

إن العصر الأوربي الوسيط ، في حقيقته ، لا ينفصل عن الحضارة الإسلامية ، لأنه يقوم بالدقة على التعايش ، إيجاباً وسلباً في الوقت نفسه ، بين المسيحية والإسلام ، فوق رقعة مشتركة : مشبعة بالحضارة الإغريقية الرومانية ، ومن هنا فإن وجهة النظر الوحيدة المناسبة من عدم المبالاة أمام هذين المنحدرين من حياة العصر الوسيط ، متأملين ظاهرها المزدوج ، واختلافها وحدة واتفاقاً ، يحملان في داخلهما نموذجين مختلفين : والسبب القوى في هذا أن كلا العالمين المسيحي والإسلامي وجهان لعالم جغرافي واحد ،

يشكلى تاريخياً من الثقافة الإغريقية الرومانية ، والإسلام نفسه يجئ امتداداً للمسيحية (وناسخاً لها !) (١) ولكن هذا الامتداد ماكان ممكناً أن يتضح بدوره لولم تتلاق الشعوب الأوربية والشعوب العربية ، على مساحة احتلتها الإمبراطورية الرومانية على امتداد قرون من الزمان :

فالعرب والجرمان شعوب خارجية ، تعيش على حافة هذه الإمبراطورية ، وتاريخ العصور الوسطى هو تاريخ ما يجرى بين هذين الشعبين ، تبعاً لتوغلهم فى عالم الإمبراطورية الرومانية : مقيمين فيه ، وممتصين جوانب من ثقافته ، جاسئة ونخرة . والعصر الوسيط ، فى جانب منه ، نسق من التلقى العملاق ، تلقى الشعوب ذات الثقافة البدائية للثقافة القديمة ، والسوابق المسيحية للإسلام ليست إلا حالة خاصة فى مجال هذا التلقى ، أحدثته نفس الآلة التاريخية التى حملت عرب القرن التاسع على تلقى أرسطو وأبقراط وجالينو وإقليدس وديوفان وطلميوس ، وما اكثر ما ننسى أن العرب قبل محمد عاشوا سبعة قرون تحيط بهم من كل الجوانب شعوب كانت ، فى قليل أوكثير ، مشبعة بالثقافة الهلينية ، وعاشت تحت الإدارة الرومانية ، لا فى سوريا فحسب ، حيث هبت فوق العرب عاصفة القديم الكبرى ، وإنما فى فارس وبكترانيا والهند : وعلى النقيض من ذلك ، ظلت أوربا فى جانبها الشمالى متحررة من التأثير الإغريقى الرومانى ، واستطاعت أن تحتفظ لزمن أطول بأصولها البدائية سالمة .

أطوار هذا التلقى تتشابه فى البدء كثيراً ، والاختلاف الوحيد فى تلك الفترة ، وهومهم دون شك ، يتمثل فى أن العرب تلقوا « القديم » فى شكله الإمبراطورى الرومانى الشرقى ، وتلقاه الأوربيون فى صيغته الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأدى هذا — مثلا — إلى أن العرب استطاعوا فى سرعة فائقة أن يكون لهم أرسطو الخاص بهم : و على النقيض

---

(١) الإضافة التى بين القوسين من عندى ، لتوافق الجملة وجهة النظر الإسلامية (المترجم) .

فإن المسيحية التي جاورت الإسلام كانت للنسطورية ، ومسيحية القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح ، وهما وجهان قديمان للعقيدة المسيحية . وفى الأطوار التالية أخذ التلقى شيئاً فشيئاً ملامح أكثر تميزاً ، إلى آن توقف فى القرن الثالث عشر بين العرب ، فجفت حضارتهم وتحجرت ، وقنعت بالقرآن ، وركنت إلى الصحراء ، ولأن الصحراء تطوق العالم الإسلامى من الشرق والجنوب كانت تدفع فوقه من حين لآخر بموجات من التمسك العنيف بالدين ، وكان البدو حملتها ، وآخر الموجات وصولا ، وحدثت من قريب حركة الوهابيين فى نجد ، وقد أطبقت بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، وبقيادة ابن سعود ، على الجزيرة العربية ، واستولت على مدينتى مكة والمدينة .

فكرتى إذن أنه عندما بدأ ما يدعى بالعصر الوسيط ، كانت الجرمانية والعربية جسمين تاريخيين متجانسين إلى حد بعيد ، فيما يشكل اللبنة الأولى لحياتهما ، وفيما بعد، وشيئاً فشيئاً ، أخذا يتمايزان تدريجياً إلى أن وصلا فى هذه القرون الأخيرة إلى تباين جذرى. والرأى المعارض ، وهو الشائع دفع به جيل تلقائى بلا تفكير ، وهو شىء يحدث كثيراً فى عالم المؤرخين ، لأنهم رسموا لتلك القرون صورة بالغة الخلف عما نجده الآن عند مجموعة هذه الشعوب أو تلك.ولكن ذلك بدوره ماكان ليقع لو تمت تحليلياً عملية إعادة بناء التركيب الأساسى للحياة الإنسانية فى العصر الوسيط ، إذن لبدا لهم ساعتها إلى أى مدى كان حاسماً ، فى تكييف سلوك الإنسان وفى الحياة ، واقع أن شعوباً ذات ثقافة بدائية واحدة ، جاءت لتعيش فى حيز اجتماعى ، حيز الإمبراطورية الرومانية ، حيث سبقت إلى الوجود حضارة وصلت إلى آخر مراحل نموها ، وبالتالى أوج تعقدها وصقلها . ولحسن الحظ فإن هذه الحضارة توقف نموها ، وشاخت، وبلغت قدراً كبيراً من الانحطاط ، وبالتالى فقدت بالضرورة جانباً كبيراً من ثرائها الوفير ، وعادت اختصاراً لما كانت عليه فى سابق أيامها . تذكر مثلا ، فى المجال الثقافى ، الثقافة

الإغريقية الرومانية قريباً من القرن الخامس الميلادى ، لقد انحصرت وتركزت الملخصات والموسوعات والمعاجم ، ولولم تكن هكذا لأصبح الصدام ، ويدعوه اليوم علماء الأجناس البشرية من الأنجلوساكسون الاصطدام الثقافى ، مفرطاً وعنيفاً ومختلف النتائج إلى حد بعيد ، ولضاعت الشعوب الجديدة كما لوكانت فى غابة مرعبة من فيض الحياة الكلاسيكية . ولحسن الحظ ، وأعيد القول ، فإن هذه تعرضت للاختصار ، على نحو ما فى طبعات الدلفين ، سواء أكان الدلفين عربياً أم جرمانياً (١) .

ونصل الآن إلى الملاحظة المثمرة حقاً ، ومعها نضع يدنا على مفتاح ذكاء العصر الوسيط ؛ ولم نر أبداً من عبر عنه . فالثقافة الكلاسيكية حتى وهى متقلصة ، وجفت أنسجتها ، كانت ترمز إلى مجموعة من أشكال حياة بالغة التعقيد إلى حد بعيد ؛ وأرق من الحياة التقليدية لتلك الشعوب المغيرة ، ولم يستطع الجرمانى ولا العربى فهمها جيدا ، لا لأنهـا معقدة ورقيقة فحسب ، ولكن لأنها انحدرت من أصول بعيدة عنهما ، أوحت بهـا تجارب تاريخية تختلف عن تجاربهما ، ولكنها من جانب آخر فرضت عليهما فى بعض الحالات لأسباب عملية ، كما فى الإدارة ، ودائماً بسبب مكانتها الفريدة . ولست أعرف ، أخيراً ، ما إذا كان يمكن القول بأن الإمبراطورية الرومانية كانت الحدث الأعظم أهمية فى التاريخ حتى وقتنا هذا ، ولكنى لا أرى مبالغة القول بأن ما كان لها من مكانة ، وقوة شديدة التماسك لما يزل يلقى بثقله علينا . ويمكن القول أن هذا أدى إلى ازدواجية درامية فى أسس حياة العصر الوسيط نفسها ، عندما التقى الجرمانى والعربى فى مجموعتين مختلفتين من الأشكال أمامه ، وكل واحدة منهما مثل مجرى ، تغرى الإنسان

---

١ — الدلفين لقب كان يطلق فى فرنسا الملكية على ولى العهد منذ عام ١٤٣٩ م ، ثم أصبح يطلق على الطبعات الممتازة للأدب الكلاسيكى اللاتينى التى تطبع ليستخدمها الدلفين ، ابن لويس الرابع عشر ، وكانت تحذف منها النصوص ذات المجون الشبق ، وتطلق الآن سخرية على الطبعات التى تخضع لرقابة الكنيسة أو غيرها .

بأن يتدفق معها عبر سلوكه الحياتي . والأنماط الموروثة من ماضيه تكشف ، على الأقل ، عن حياته اليومية ، ولكن هذه لا تترك الأثر بأنها « حياة » ، لأنها عادة خالصة ، وعندما نخرج عن عاداتنا التي اكتسبناها عن طريق العادة الخالصة فحسب ، ولا نقف عندها آليا ؛ نصنع قضية « الحياة » ، وعندما نبحث عن النقيض المقابل « للحياة المعتادة » نبحث عن « الحياة كما يجب » . وأشكال الحياة الإغريقية الرومانية تبدو ، لمكانتها ، أمام الشعوب الجديدة في ملامح « الحياة كما يجب » في مواجهة « الحياة كما هي عادة » ، ولهذا كانت الحياة في العصر الوسيط بالغة الإثارة . إنها حياة من طابقين دون انسجام كاف بينهما ، فهناك في أسفل طابق العادات القديمة المتأصلة ، وفوقها طابق السلوك النموذجي ، ذلك يعاش حقيقة ، وتلقائيا ، وهذا سلسلة اندفاعات مقلدة ، والعلاقة بين الإنسان وما يصنع ليست في التلقائية ، ولا في هذا الإحساس الصادق ، وإنما في الرغبة أن يكون غير ما هو كائن . فالجرمان والعرب عكفوا على تقليد الإغريق والرومان ، في محاولة لصياغة أشكال حياتهم في الإدارة والقانون ومفهوم الدولة والعلم والشعر (١) . والدين نفسه أخذ عندهم جوانب مثيرة من الانسجام مع البيئة . فالإسلام امتداد للمسيحية ، بطريقة مختصرة للدلفين الذي يعيش في الصحراء ، ومسيحية الجرماني أيضا ليست إلا تقليداً لمسيحية آباء الكنيسة .

هذا التركيب الأساسي لحياة العصر الوسيط كان وراء حدث بالغ الإثارة والروعة ، وراء « المدرسيين » مثلا ؛ أعني وراء الفلسفة التي غرستها الجامعات الغربية بقوة خلال ذلك العصر ، وهو حدث مازال ينتظر من يجلو غوامضه ، لأن أحداً لم ينظر إليه حتى الآن في ضوء « فلسفات

١ — لا أود بهذا أن أقول أن كليهما متساويان في الإفادة من هذه الفروع ، فعلى حين أن العرب — مثلا — تشربوا العلوم الهلينية في الحال ، ظلوا جامدين في مواجهة الشعر القديم ، وكان الأوربيون على النقيض منهم تماما .

مدرسية » أخرى كثيرة . وما شهر بهذا الاسم ليس إلا حالة خاصة فى طبقة تاريخية واحـــدة ، من المدرسية فى طابعها الشامل ، وأثمرت ولا تزال تعطى ثمارها فى كثير من العصور والأمكنة . ونطاق المدرسية على كل فلسفة متلقاة ، فى مواجهة كل فلسفة مبدعة ، وأطلق لفظ « متلقاة » على كل فلسفة تنتمى إلى محيط ثقافى مختلف ، ويبتعد فى الحيز الاجتماعى أو الزمن التاريخى ، عن الفلسفة التى يتعلمها أو يطبقها .

والذين يجهلون من أية مادة تتكون الآراء يعتقدون فى سهولة تسربها من شعب إلى آخر ، ومن عصر سابق إلى عصر لاحق ، يجهلون أن ما هو أطول حياة فى هذه الآراء ليس ما نفكر فيه بوضـــوح ، ثم يجئ ثمرة الإحساس بالتفكير فيه ، وإنما الغاية التى نفكر فى ظلها ، ومما يبقى مما ذكرنا عند استخدامها . وهذه العناصر غير المرئية ، والخفية ، هى أحياناً نسيج شعب تكون خلال آلاف الأعوام . وهذا العمق النابض بالآراء ، والذى يبقى عليها فياضة ومغذية ، لا يمكن أن ينتقل ، كأى شىء هو حياة إنسانية حقيقية . إن الحياة لا تنتقل أبداً ، إنها قدر تاريخى !

الانتقال الكامل للآراء خادع إذن ، إنما ينتقل « الساق » ، و« الزهر » فحسب ، وربما متدلياً من الأغصان ، ثمرة تلك السنة ، وهو الشئ النافع منها فى تلك اللحظة مباشرة . ولكن فى تربة المصدر ما هو حى من الآراء ، يبقى جذرها ، والنبت الإنسانى أقل قابلية للانتقال من الأشجار بكثير ، إنه تحديد مرعب ، ولكنه حتمى ومأسوى !

والادعاء بأن أولئك الرهبان من ذوى الرءوس الحليقة ، كانوا قادرين على إدراك المفاهيم الإغريقية ، كفكرة الوجود مثلا ، جهل بالبعد المأسوى الذى يصحب الحدث التاريخى كالخيط الأحمر يمضى مع كل حبال البحرية البريطانية . وعندما نتلقى فلسفة بعيدة عنا ، فإن الجهد العقلى يستغل قيادته ويعمل ، لا لكى يفهم المشكلات ، والأشياء كما هى ، وإنما لكى يصل

لفهم ما فكر فيه آخرون حولها ،وعبروا عنه فى تعريفات معينة . والتعريف ليس كلمة من اللغة ، وإنما رمز مصطنع ، ولهذا لا يفهم دون زيادة . وقد وضع بمقتضى تحديد ما ، ويجب أن نصل إليه وفى ذهننا هذا ، وهو بدوره مكون من ألفاظ ، ومن هنا فإن « المدرسية » كلها ليست إلا تجريداً للمعرفة لتصبح مجرد مصطلح (١).

ولم يكن أوائل « المدرسين » رهبان الغرب ، وإنما عرب المشرق ، فقد تعلم توماس الإكوينى على أرسطو عن طريق ابن سينا وابن رشد ، وفضلا عن ذلك فإن ملامح المدرسية أشد وضوحاً فى الحضارة الإسلامية منها عند الشعوب الأوربية الوسيطة . وهذه الشعوب ، حتى وهى فى دور المراهقة ، كانت تملك منذ زمن مبكر جداً ، ربما بفضل تركيبها الجرمانى ، أسلوباً خالقاً لم يكن عند العرب أبدا ، ولهذا تجمد هؤلاء فى اللحظة التى توقفوا فيها عن التلقى . وما يهمنا هنا إبراز الطابع المدرسى المشترك بين الحضارتين ، والذى يعود إلى التكوين المزدوج ، غير الطبيعى ، للحياة الإنسانية خلال العصر الوسيط ؛ ليس من الحتم ، إذن ، أن نبحث عن سبب هذا الطابع فى نزوعات سلالية مزعومة ، لأن « النوع » فى إحدى المجموعتين من الشعوب ، يختلف عنه فى المجموعة الأخرى ، ولكن كليهما خضع لضغط الظروف الأساسية نفسها : ظروف الحياة فوق تربة تحتلها ثقافة عظيمة ، وغريبة عليه .

هذا الرأى عن الحياة فى العصور الوسطى هو ، لا أكثر ولا أقل ، ما يجب أن يكون عليه أى رأى ، أى مشروع مربعات هائلة ، علينا أن نخلط فوقها واقع الحياة العربية الأندلسية ، وليست إلا كتاب الحب هذا ، وقد نسجته يراع ابن حزم . لأن الكتب ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، أعمال الرجال ،

---

١ — أستخدم هنا فقرات من كتابى « فكرة المبدأ عند ليبنز وتطور نظرية الاستدلال » ومن ثم فإن « الإنسانية » عدوة « المدرسية » لم تكن بدورها إلا مدرسية ، ذات شعار مختلف ، ولكن النتائج متشابهة ، ولا تزال تلقى بثقلها على العقل الأوربى .

وليست زوائد نباتية فى الأشجار ، أو رواسب جوية : وقد وقف الكتاب على الحب ، وفى منهج حديث ، على نحو ما أدعو وأصر عليه من زمن طويل ، وأول ما يتطلبه الكمال أمام نص أن تضع نفسك فى موقف واضح من الشىء الذى يتحدث عنه . من الضرورى أن ننتهى من هذا التحديد اللغوى الحرفى الخالص ، وأعتقد أنه أدى مهمته فى ربط نص بآخر ، وهكذا إلى ثم ما لا نهاية ، ونحن نطلب تحديداً لغوياً عمليا ، ومن ثم يجب أن نبدأ ، أمام هذا الكتاب العتيق ، وقد شغل بالمهمة الإنسانية العظمى ، التى تسمى الحب ، بأن نوضح قليلا ما هية هذا الشىء . ولكن ذلك مستحيل الآن ، وهنا ، لا لأنه يحملنا بعيداً فحسب ؛ وليس من المناسب كتابة « رسالة » أخرى عن الموضوع الذى تعمق فيه القرطبى الصالح ، بل لأن كثيرين من حولنا الان مقتنعون تماماً بأن العالم خلق لصالح الراهبات ، والحديث عن الحب حرام Tabu ، كما لو كان شيئاً شاذا ، مرضاً تفجر فى هذا العالم ، وهؤلاء الناس يزعمون السيطرة عليه لصالحهم ، ووفق طموحهم .

أول فضول أحسست به ، وأنا أطل بين صفحات « طوق الحمامة » ، تقصى ما إذا كان الحب عند العرب نفس الحب الذى بيننا . والظن بأن ظاهرة كالحب ، موغلة فى الإنسانية ، وجدت دائما ، وتوجد إلى الأبد ، على صورة متماثلة ، خطأ فادح ، كالاعتقاد بأن الإنسان ، مثل المعدن والنبات والحيوان ، له طبيعة ثابتة ودائمة ، وجهل بأن كل شىء فيه تاريخى . نعم ، كل شىء فيه ، حتى ما ينتمى منه فعلا للطبيعة ، كما هو الحال فيما ندعوه غرائز .

وليس ثمة شك أنه يوجد فى الإنسان — وشكراً لله ! — مجموعة باقية من الغرائز ، بينها هذه الجاذبية الجنسية المثيرة بين شخص وآخر . ومن الواضح أن ذلك موجود دائماً ، ولكن من الضرورى أن نضع فى حسباننا أن بقية الغرائز حتى ولو كانت فعالة فى الإنسان ، لا تؤثر ولا تعمل منفصلة أبداً . وحتى غريزة « حفظ النوع » ، وهى الأقوى بين كل الغرائز ، تبدو متداخلة مع أشد المواضعات غموضاً وإنسانية فى نوعيتها ، كالشرف والإيمان بعقيدة

دينية واليأس ، وتستطيع هذه أن توقف عماها . وهذا التوافق بين ما هو طبيعي وما هو ثقافي يجعل الغريزة متناقضة ، ويحولها إلى عظمة تاريخية ، تولد يوماً لتختفي في يوم آخر ، وبينهما تعاني من أشد التغييرات عمقاً .

ولسوء الحظ فإن فهم هذه الحقيقة مضطرب ، ولأنها أساسية يجب أن تكون متألقة ، وقد جرت العادة ، معيبة ومتأصلة ، أن نطلق كلمة الحب وحدها على أشياء بالغة التباين ، وهو نفس الخطأ حين نطلق كلمة شعر فحسب على ما أبدع هوميروس ، وما أنشد فرلين ، على حين أننا ، في الحقيقة ، بصدد اهتمامات لا تكاد تتساوى : وفي الحالة التي نحن بصددها نجد الموقف اللغوي تعساً على وجه خاص ؛ لأن كلمة حب amor تطلق في اللغات الرومانثية romances على هذه المجموعة من المشاعر ، وهي كلمة ، بالنسبة لنا غامضة إلى حد بعيد ، لأنها تنحدر عن أصل ميت لا معنى له ، أخذته لغاتنا من اللاتينية ، ولكن الكلمة ليست لاتينية ، لأن الرومان تلقوها بدورهم من لغة الإتروسك Etrusco (١) ، وهي اليوم لغة مجهولة وغامضة . وهذا الواقع اللغوي بليغ جداً بنفسه . ماذا يعني أن يطلق الرومان على حقيقة بالغة الشفافية ، وإنسانية عالميا ، فيما يبدو ، مثل التوتر العاطفي ، كلمة ذات أصل أجنبي ؟ . هل يعني هذا أن الرومان قبل أن يحضرهم الإتروسك لم يكونوا يعرفون هذا الشيء الذي كان هؤلاء يطلقون لفظ « حب » ، ومن ثم كان هذا بالنسبة لهم نظاماً جديداً ، شيئاً يشبه تغيير النسق في الحياة الخاصة ؟ أو أن شيئاً حدث شبيهاً بهذا ، يصبح دليلاً على أن هذا الحديث لغوي . وحينئذ يسأل كل واحد منا نفسه ، أي شيطان هذا الذي اخترعه الإتروسك ، وانكب عليه وصقله أولئك الذين تلقوه عنهم ، ولأسباب ترتبط بمعاني الكلمات ، وتخفى علينا ، فإن لفظة «حب» تطلق على هذا الهدف السامي : والتاريخ ؛ إذا عرفنا كيف ننظر فيه ، مليء بأبواب مسحورة مثل هذه . وما يعرف من حياة الإستروك يوضح في كفاية أن « الحب » كان في حياة ذلك الشعب شيء

(١) الإترو سيك : شعب مجهول الأصل عاش في توسكانيا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

يختلف للغاية عما سوف ينتهي إليه بيننا ، وربما عندما نطلق لفظ « حب » على مشاعرنا الأكثر دفئاً وصفاء تجاه امرأة ، نطلق عليها دون أن نعرف شيئاً قبيحاً . وكان شعب الإتروسك واحداً من أشد الشعوب شهوانية على ظهر البسيطة ، وكانت شهوانيته مرعبة ، مغيظة ويائسة ، ولدى أفراده عبقرية أن يموتوا من شدة الشهوة .

في صفحة ١٥ من كتاب ابن حزم نقرأ هذه الأبيات(١) :

أودك وداً ليس فيه غضاضة   وبعض مودات الرجال سراب
وأمحضتك النصح الصريح وفي   الحشى لودك نقش ظاهر وكتاب
فلو كان في روحي هواك اقتلعته   ومزق بالكفين عنه إهاب
ومالي غير الود منك إرادة   ولا في سواه إليك خطاب
إذا حزته فالأرض جمعاء والورى   هباء ، وسكان البلاد ذباب

والقارىء غير المسئول ، وهو الأكثر شيوعاً ، ينزحلق بعينيه عبر هذه الأبيات ، ويعتقد أنها مفهومة ، لأنها لا تضم رموزاً رياضية مبهمة ، ولكن القارىء الجيد ينتهي من قراءتها ولديه انطباع ، يكاد يكون دائماً ، أنه لم يفهمها تماماً . والحقيقة أن هذه الأبيات لا يمكن أن تفهم بدقة ، لأننا لا نعرف ماذا يريد المؤلف بكلمة « حب » ، أو « ود » .

لا أظن أن فقه اللغة العربي أصبح على قدر من التقدم والدقة في دراسة معاني الألفاظ ، وأننا نستطيع معه أن نصل إلى تحديد ما كان يفهمه المجتمع الأندلسي من كلمة « حب » في القرن العاشر الميلادي ، عندما يسمع هذه الكلمة أو يقرأها ، لأنها ، وأعيد القول ، كانت تعني شيئاً مختلفاً إلى حد بعيد . يكفي أن نلاحظ أن الشاعر يتوجه بوده

(١) أرقام الصفحات في الأصل تشير إلى الترجمة الإسبانية ، أما هنا ، وفي المواضع التالية ، فقد جعلتها تعود إلى (طوق الحمامة) في نصه العربي ، طبعة دار المعارف بتحقيقنا ، القاهرة ١٩٧٥ .

الأبيات إلى رجل ، وطبعاً أعرف أنه يوجد بيننا أيضاً حالات من الشذوذ الجنسى ، حب الرجل لرجل ، ولكن المسلم به فى أوربا أن كلمة « حب » تعنى أولا ، وبالتحديد ، شيئاً يودعه الرجل فى المرأة ، وترسله المرأة إلى الرجل ، أما حب الرجل لرجل ، والمرأة لامرأة ، فلا نفهمه ، دون أن أزيد شيئاً . بل علينا أن نمارس عملية صعبة تقوم على تجريد الكلمة من معناها الأول ، وأن نحاول خبط عشواء أن نلبسه معنى آخر مختلفاً ، لكى نتصور عشق الرجل لرجل . وقد أثبت غرسية غومث فى مقدمته لهذا الكتاب أن الحب لا يبالى بالتباين الجنسى ، وذلك كاف لكى نتصور الحب العربى حقيقة شديدة الاختلاف عما باشرناه ، ونباشره ، معشر الغربيين . وأيضاً لا يمكن القول أنه يشبه الحب الذى وصفه أفلاطون ، لأن الحب عند أفلاطون لا يدير ظهره للجنس ، ومعناه الأصلى عنده حب الرجل لرجل ، وهو — أى أفلاطون — على النقيض منا ، لا يفهم جيداً ما يمكن أن يكون حب رجل لامرأة .

لست أهدف من وراء كل هذا ، إلا أن أدفع بمزيد من الحيوية ، بأشد الطرق إيجازاً ، إلى الإحساس بأن موضوع الحب هذا خطير للغاية ، ولا يوجد حب طبيعى نضع فى مواجهته ، كمقابل له ، الغراميات الشاذة ؛ نعم ، يستطيع الذين يتخذون الرأى المقابل لهذا الحكم ، الزهو إلى حد كبير بعقائدهم الأكثر سمواً ، وبدل أن يحتمسوا فى طبيعة مفترضة ؛ تنصح بحب تراه طبيعياً ، وترفض أنواعاً أخرى منه تراها شاذة ، أن يتحدثوا فى حماسة عن ألوان معقولة منه ، وألوان أخرى غير صحيحة ، عما هو مستقيم وما هو غير أخلاقى ، والحب ، كما ألمحت من قبل ، نظام وابتداع إنسانى ، وليس ابن عم الهضم أو زيادة الكلور فى المعدة .

هذا الكتاب ذو العنوان الجميل (١) يبدأ بأفكار فلسفية مختلفة عن الحب ، ذات طابع « مدرسى » خالص ، وكان يمكن أن تقال بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان ، فى لاتينية هزيلة ، على لسان أى راهب فى الغرب . ففى صفحة ٢١ نلتقى عنده بأفكار استخلصها مما قال أرسطو ، وفى صفحة ٢٢ نصطدم « بمدرسية » تقليدية متحذلقة ، وفى صفحة ٢٣ يحدد لنا أسباب الحب ؛ فيلجأ إلى الجانب الآخر من المدرسية ، أعنى الأفلاطونية . ومن المؤكد أن ابن حزم فى هذه النقطة صوب فكر ابن داود ، وقد سبقه فى محاولة وضع « نظرية الحب » ، ويتيح لنا هذا التصويب إدراك التقدم الذى أحرزته الأوساط العربية فى معرفة أفلاطون ، على امتداد قرن ونصف من الأعوام . وفى الحق أن ابن داود ، ويدعى أنه أفلاطونى ، ارتضى فى جد مضحك القولة الساخرة لتفسير الحب ، ووضعها أفلاطون على لسان أرستوفان البالغ السخرية ، وطبقاً له : « أن الله ، جل ثناؤه ، خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطها أيضاً فجعل فى كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع ، من النصف الذى معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك حسب رقة طبائعهم » (٢)*

---

(١) فيما يرى غرسية غومث فإن كلمة « طوق » تعنى عقد ، ولكن أليس من الأفضل أننا بصدد ما يدعى فى الغرب ، منذ الإغريق ، « عنق Cuello الحمامة » ، وكان رمزا لثروة لا تنفد من الألوان ؟ ففى صفحة ١٠٩ أجد هذه الفقرة : « إنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر الحب فقط ، وهذا أمر كان يطول جدا ، إذ الكلام فيه يتفنن كثيرا » .

(٢) آثرت أن أجىء بنص ابن داود كاملا ، لتبدو فكرته ، أى فكرة إفلاطون ، أكثر وضوحاً ، وقد نسبها ابن داود إلى « بعض المتفلسفين » ، دون أن يذكر اسم أفلاطون صراحة . أنظر :

* كتاب الزهرة ، النصف الأول ، ص ١٥ ، الطبعة الأولى ، تحقيق لويس نيكل وإبراهيم طوقان ، بيروت ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ » . (المترجم)

وقد اتخذ ابن حزم الأندلسى من هذا الكلام « المدرسى » المطروق إطارا فحسب ، عالج من خلاله موضوع العشق فى دقة ، وهو فى هذا ليس « مدرسياً » على الإطلاق . وتفيض كتابات ابن حزم بذكرياته الذاتية ، وذكرياته عن غيره ، يقصها بطريقة مباشرة دقيقاً وقوياً ، ويحلل فى مواطن أخرى ، واضحاً وفطناً ومدهشاً ، مواقف مختلفة تتصل بالحب . وليس مهما أن أنقل هنا فقرات من النصوص التى سوف يجرى بينها القارىء ، وأكتفى بأن أشير من بينها إلى عدد من الفقرات يبدو لى مفيداً أن أوصى بها : فى صفحة ٧ مجموعة رقيقة من الأشياء التى تدل على أن اثنين فى حالة عشق ، وفى ٧٩ نلتقى بأسباب تمكن الحب من النساء ، إنهن ، فيما يرى ابن حزم : « متفرغات البال ، إلا من الحب ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شأن لهن غيره ، ولاخلقن لسواه ، وفى صفحة ٤٤ حديث عن تفاوت رد الفعل عند ممارسة الحب ، وما يترتب على ذلك سلباً وإيجاباً ، وهى مشكلة حقيقية ، وشائعة بين الجنسين ، وتهم أطباء اليوم كثيراً . وفى صفحة ٤٧ إشارة إلى تأثير الحب الأول فى الغراميات اللاحقة ، مما يعيد إلى الذاكرة ما ذكره ديسكارت Descartes (١) عن نفسه ، وكيف أنه أحب أول مرة حولاء ، فظل يشعر دائماً بالميل والاهتمام بكل النساء الحولايات ، وفى صفحة ٩٠ إحساس واضح بما للحب من تأثير نافذ على الكيان الإنسانى لا يدانيه شىء . وندرك معه فى صفحة ٩١ أن الخلسة فى الوصل قمة الحب — ويالها من حقيقة كبرى ! — وفى صفحة ٩٦ وصف رائع للقاء غير متوقع بين حبيبين ، يحكيه صاحبه وأعضاؤه تضحك كلها بهجة ، وفى صفحة ١٧٢ قصة البحار وآلته وسكينه ، والعائدات من الحج .

لا يمكن أن نستقصى أفكار ابن حزم ، وهو يعرض لنا ما كانت عليه ملامح الحب الأندلسى فى أيامه ، ولا أن ندرك حقيقتها التاريخية ،

(١) فيلسوف ورياضى وعالم طبيعة فرنسى (١٥٩٦ – ١٦٥٠) (المترجم) .

ولا نستطيع أن نقارن بينها وبين الحب عند شعوب أخرى . إنما علينا أن نتمعن جيداً ما يقصه علينا ، وفيما يحدده لنا ، وفى الملامح المميزة لطريقة الحب تلك ، وسوف يبدو لنا للوهلة الأولى ، أنه لا يوجد خلاف ، وهو نفس ما يحدث لنا عند نقرأ الكتاب الوحيد ، الدقيق والحجة ، عن الحب عند شعب بدائى : « الحياة الجنسية عند البدائيين » ، لمؤلفه مالنوفسكى Malinowski (١) ، ونعرف منه أنه لا يكاد يوجد خلاف بيننا وبين « تروبرياند Trobriand » ، شعب بدائى للغاية يعيش فى فى جزيرة غينيا الجديدة ، فى الواجبات العاطفية ، أكثر من أنهم يجهلون ، مثل شعوب آسيا ، تأثير القبلة الحلو ، وعلى النقيض يستالمون عض الأهداب ، أمراً يبدو لنا غريباً وغير مألوف . وهذا الظاهر ، وهو ذاتى بحت إلى حد كبير ، يدفع إلى عقولنا بتحذير جوهرى ، فى أن العواطف الإنسانية ثرية بقدر هائل لا يصدق ، فى نباتها وفى حيوانها ، ولكن لا تستطيع وفقاً لطبيعتها أن تعبر عن نفسها ، وإنما تعتمد على الأعمال والملامح الجسدية ، ومجموع مفاتيح هذه الملامح الجسدية التى تجدها عواطفنا تحت تصرفها ، لتعبر بها عن نفسها ، محدود للغاية إذا قورن بالتنوع الوفير لأشكال الحياة فى مشاعرنا . ومن هنا عليها مع الملمح نفسه أن تظهر حقائق حنواً ، بليغة التباين ، رغم أن كل الغراميات إذا تأملناها من بعيد تبدو متشابهة .

أعمال قليلة ، كهذا الكتاب ، أتاحت لى متعة عظيمة ، ولقد اقتحمت صفحاته بمجهر أحاول ، مبتدئاً مما يقصه علينا وما يفسره لنا ، الوصول إلى صيغة مميزة لما كان عليه الحب عند هؤلاء العرب المصقوليين فى القرن العاشر الميلادى ، وما تعنى بالنسبة لنا ، وهو موضوع يحتاج إلى مزيد من الوقت ومن الفراغ ، لأنه يستطرد بنا إلى موضوعات تنتمى إلى عالم العلاقة بين الرجل والمرأة ، وعنها ، ولو أنه يبدو أكذوبة ، كل شىء تقريباً فى انتظار من يدرسه أو يقول عنه شيئاً .

---

(١) عالم أجناس بريطانى الجنسية ، بولندى الأصل (١٨٨٤-١٩٤٢) (المترجم)

وإذا أردنا أن نضرب مثلا بالغ الروعة للإهمال الذى تعانيه هذه النماذج الإنسانية من الحب ، يكفى أن نتوقف لحظة عند الكلمات الأخيرة للفترة السابقة : « ما يكون الحب اليوم بالنسبة لنا » . عن أى « يوم » يتحدثون هنا ؟ لأننا لا نستطيع أن نقول إن العشاق الأوربيين منذ خمسين عاماً وعشاق اليوم شئ واحد أو متطابق ، رغم أن المسرح واحد ، وأن البعد بين الاثنين قصير جداً ، ومع ذلك فإن مسافة الخلف بين حب تلك الأيام وحب الأجيال الجديدة واسعة إلى حد بعيد :

لقد تسلطت الحروب والثورات على عقول الناس ، فلم يعيروا اهتمامهم الموضوع واضح ، وهو أن التغيير الأبعد غوراً فى شكل الحب الأوربى ، منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، حدث فى هذه المسافة القصيرة ، وفسدت خلالها ، فى كثير من الحالات ، التقاليد العالمية المتنوعة ، وربما كان أبلغها فسادا ، ووقع صامتاً دون دوى ، وعلى نحو لم يحدث مع أى شىء آخر ؛ وبطريقة جذرية عنيفة ، ما حدث فى أساليب الحب . ومنذ تلك الأيام أخذت نماذج الحب تتطور على نحو مستمر ودقيق ، كجنس أدبى ، وهو كذلك على نحو ما ، حتى بداية هذا القرن . ولهذا مرت العلاقة بين الرجل والمرأة بعصر من الاضطراب العنيف ، وليس من موضوعنا هنا أن نتعمق فيها دراسين .

لكى نعرف جيداً ما هية الأشياء يجب أن نمشى معها على مهل وأن نضع بعضها فى مواجهة البعض الآخر ، ومع المقابلة تتوهج خصائص كل واحدة. وهكذا من الأوفق لنا الآن أن نضع طرائق الحب التى اكتشفها ابن حزم ، والذى ندعوه بالحب الأندلسى ، فى مواجهة حب البدو ، وينتشر بين القبائل التى تحتفظ اليوم بأصولها العربية فى نقاء كامل ، وتعيش فى الصحراوات العطشى لشرقى شبه الجزيرة العربية ، على ضفاف الخليج العربى : لقد نشر ديكسون H.R.P. Dicksen فى ١٩٤٩ م كتاباً مفصلا وممتعاً عن الحياة بين هذه القبائل ، وقد ولد ديكسون فى سورية ، وأرضعته بدوية تنتمى لهذه القبائل ، واعتبر كواحد من أبناء القبيلة الأقوى نفوذا ، وهو يحدثنا كيف

أن هذه المنطقة من الجزيرة العربية ، وعلى نحو ما كل شبه الجزيرة ، لا تعرف الخيانة الزوجية . صحيح أن سهولة الطلاق لا تدع فراغاً يمكن لهذه أن تأوى إليه ، ومن جانب آخر تمضى المرأة محجبة ، وقد أخفت رأسها تماماً ، ولا يستطيع من يصنف نفسه حبيباً لها أن يعرف منها أكثر من مجرد رؤيتها على هذا النحو ، وإلا فسوف يرى نفسه مضطراً لأن يشك فيها ، فالمرأة إذن تدخل عالم الحب مثل كائن مجهول ، ولهذا لا مجال للدهشة إذا انطوت ليلة الزفاف على كفاح عنيف بين الزوج والزوجة ، عنف يبلغ حد أن تتعرض الزوجة غالبا لكسر واحد من أضلاعها أو أكثر .

كيف يمكن أن يكون الحب الذى يتحرك بين مثل هذه العادات ؟ والملك الحالى للجانب الأكبر من الجزيرة العربية ، ابن سعود العظيم ، وهو مسلم متشدد ورئيس الوهابيين المتشددين ، قص على ديكسون أن عنده ، حتى وقت الحديث ، أكثر من أربع مئة امرأة ، لم ير وجه واحدة منهن . وبالنسبة لنا معشر الغربيين ليس سهلا أبداً أن يكون حب بدون وجه ، لأن الوجه بالدقة هو المكان حيث يتدفق الحب الحقيقى ، ومن ثم وجب أن يعنى كثيراً بظاهرة أن الوجه الأنثوى لا يثير الشهوة فى الرجل ، على حين أن بقية جسمها كله ، حتى اليدين ، يمثل دائماً إثارة خطرة وصريعة . وربما كانت الشفاه تقوم بواجب يتجاوز حد الحنان ، ولكنها تقريباً تأتى فى المقام الثانى ، عندما تكون الشهوة قد اندفعت عبر مجالات عاطفية .

والقضية التاريخية الكبرى التى تتخذ من هذا الكتاب منطلقاً ، يجب أن يكون واجها مهاجمة القول بتأثير العرب فى شعر الغزل الأوربى الوسيط بعامة ، وفى شعر وتقاليد التروبادور بخاصة ، وهى نظرية شائعة ، وموطن نقاش فى الوقت نفسه . وهذه القضية عش زنابير لم يحاول أحد حتى الآن أن ينظمه .

ففى نهاية القرن الحادى عشر ، ومطلع القرن التالى ، بدأت فى فرنسا طريقة لإحساس الرجل بالمرأة ، ليس لها صلة مباشرة لا بالثقافة القديمة ،

ولا يقرون العصر الوسيط السابقة ، يسعد الرجل حين يعتبر المرأة شيئاً أسمى منه ، ويخضع لها خاشعا ، وتقوم العلاقات العاطفية بين الجنسين على فكرة « التى » ، الذى يبدأ فى اللحظة نفسها بإعلام المجتمع ، والمرأة سيدة ، والرجل تابع لها ، والشهوانية التى تتناثر هنا وهناك فى أشعار الغزل ؛ تأخذ فى أسلوب شعراء التروبادور بعامة طابعاً شارداً فحسب ، وعلينا أن نؤكد ذلك إزاء إصرار بريفو Briffautl على التقاط النصوص الجريئة (١) .

ومشاعر التروبادور نحو المرأة تتطلب البعد ، فيما يبدو من نصوصهم ، وتبدو الحبيبة بالضرورة نائية المقام ، ويتردد بكثرة أنها كالثريا بعدا ، وليست فى متناول اليد ، وبالتالى ليست موطن مداعبة ، ليست شيئاً يداعب ويستمتع به ، وإنما شيء يبتعدون عنه فى ألم ، ويشتاقون إليه دائما . ومن ثم يزهر شعر التروبادور الأنين والشكوى ، ويعرض الحب كألم المديد ، أو جرح محظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى رودال Geoffroi Rudal فى بساطة إن حبه « حب الأرض للقمر »! .

ملامح حب التروبادور هذه لها خصائص أخرى كثيرة ، لا أستطيع أن أضيفها هنا ، وكانت سبباً فى أن نبحث لها عن أصل فى صورة الحب الذى أزدهر بين العرب قبل ابن حزم بقرن من الزمان ، ويطلقون عليه عادة « الحب البغدادى » . ولكن حب بغداد هذا ليس إلا واحداً من التأثيرات التى حدثت فى جماعات كبيرة ، وأتخمت ثقافة على مائدة الأفلاطونية التى شاعت فى ذلك القرن ، وبين هذه الجماعات تشكلت أسطورة قديمة تتحدث عن قبيلة بنى عذرة ، وفيها يموت الرجال من الحب ، لعزوفهم عن التمتع بالمحبوبة . هل يمكن حقاً تفسير الحب عند التروبادور بما يقابله من أشكال الزهد المتطرفة ذات المحتوى العاطفى ؟

وهنا يحق لى أن أشكو من الطريقة التى عولجت بها كل القضايا التى

---

(١) Robert Briffaut, Les Troubadoudrs et Le Sentiment romanesque ,1945 , pp. 92 - 94 .

تتصل بالشعر فى القرون الثلاثة : الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر . فمن الواضح أنه قبل أن نقارن بين شعر الغزل الأوربى فى هـذه القرون ، وبين نماذج منه عند الشعراء العرب ، من الأوفق أن نحدد فى دقة خصائص كل منهما ، ولو تحقق هذا لرأينا أن شعر الغزل الأوربى رغم أنه مشاعر تنأى عن « الحنين والشوق » ، إلا أنها لاتتطلب العزوف ، بل على النقيض ، ترغب فى كل شىء ، ولكن من بعيد . وهو مايفسر لنا النصوص التى تنضح أدباً جنسياً ، والتى التقطها بريفو ، ومن يدرى ربما كانت الشهوة الإنسانية الحقة ابنة التنائى ، ولا تنبثق أو تزدهر إلا مع بعد الغاية ! »

مـزاج ابن حـزم

من خلال الطوق

صورة له بقلمه

لست أعرف فقيهاً كابن حزم ترك الآخرين يلمسون عيونهم وعقولهم فى أعماقه ، ليروا على هدى من اعترافاته ، وفى ضوء ما على لهم من حياته كيف هو ومن يكون . ولقد حطم كل الحياء المصطنع ، وأتى على كل الأسوار العالية ، التى تعزل الفقه عن الحياة ، حين يقول الفقهاء للناس شيئاً ويصنعون شيئاً آخر ، أوحين يمسكون بخناق الناس تضييقاً ، جرياً وراء فهم قاصر ، أونفاقاً للسلطان ، أوبحثاً وراء زائل من عرض الدنيا ، ويجعلون من سماحة الشريعة قيوداً ، ومن وعيها جموداً ، وكان هذا هو الفارق الكبير بين ما يجرى فى الحياة الإسلامية واقعاً ، وما يكتبه الفقهاء فى مؤلفاتهم تشريعاً ، أويلقونه فى حلقهم درساً ، أويبشرون به بين الآخرين واعظين .

لقد تركنا ابن حزم نطل على حياته من خلال مؤلفاته كلها بعامة ، وعرى نفسه فى كتابين محددين بخاصة : خط أحدهما وهو فى ريعان الشباب ، يفيض تحدياً ويلتهب حماسة ، ويعترض بكل ما أوتى من قوة أحداثاً كباراً تجرف فى طريقها الخلافة ، نظاماً وأشخاصاً ، وكان يراها شرعة قائمة ، يلوذ بها الخائف ، ويستظل فيها المظلوم ، ومعها تقوم الدولة ، وتطمئن الجماعة ، وتتطور الحياة ، فدافع عنها ، عن الشرعية الدستورية فى لغة السياسة الحديثة ، بكل قدرته ، وبما هو فوق طاقته ، ثم رآها تنهار ، وينهار معها المجتمع والدولة وكل القيم الجميلة ، فأشعل الحرب على كل أمير خائن ، وكل فقيه مرتش ، وكل شاعر منحل ، ولم يلق السلاح إلا جدثاً محمولا على الأكتاف ، إلى رحاب الله الواسعة ، وكان هذا الكتاب هو : طوق الحمامة .

أما الكتاب الثانى فقد خطه حين أدار ظهره لعالم الخديعة حوله ، وقد أثقل كاهله النضال على كل الجبهات ، ورأى القيم التى عاش لها وعليها تتهاوى واحدة وراء أخرى ، فلم يستسلم لها ، وانسحب إلى قريته منت لشم ، من بادية لبلة ، وقنع بعلمه وكتبه و طلابه ، وكان بين ما خطه منها ، فى هذه الأيام، كتابه : « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » ، وهو مجموعة رائعة من الاعترافات الذاتية ، خطها ابن حزم وقد حنكته التجربة ، وصقلته الأحداث ، وصهرته المعاناة ، وهدهد الزمن من جموحه . وإنها لمتعة رائعة حقاً أن يقارن الإنسان بين تجارب وأفكار ابن حزم فى « طوق الحمامة » ، ولما يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره ، وبين أفكاره شيخاً على أبواب السبعين ، وسنضع يدنا على الحقيقة بيضاء ناصعة : إن أفكار وآراء ابن حزم على امتداد نصف قرن من الزمان تقريباً ، رغم كل ألوان المعاناة ، لم تتغير شيئاً .

ليس من قصدى هنا الموازنة بين الكتابين ، ولا أنا بصدد دراسة الكتاب الثانى ، فلذلك مكانه من فرصة قادمة إن شاء الله ؛ وإنما أحاول أن أعرض صورة لجانب من مزاج ابن حزم ، فى زهوة شبابه ، كما رسمه لنا بقلمه ، فى كتابه « طوق الحمامة » .

* * *

لاتكاد تمضى خطوات مع ابن حزم فى طوق الحمامة حتى تجد نفسك أمام فيض من ذكرياته ، عن نفسه وعن أصدقائه ، وآخرين مجهولين ، وكلهم من العشاق ، زفراتهم حارة ، وأحاسيسهم صادقة ، يخلطون المداد بالدمع أو الريق ، ويستخدمون فى التراسل الحمام والعيون والرسل ، ويعانون من الوشاة ، ويموتون من الحب . وهو إلى جانب ذلك معرض حافل بالحديث عن شيوخ ابن حزم ، والشخصيات العامة فى قرطبة ، وبالإشارات التاريخية ، والأحداث الهامة ، والحفلات الخاصة ، وتخطيط العاصمة ومعمارها ، ومساكن آل حزم ومستواها ؛ وكلها تتحرك نابضة

بالحياة ، وتمضي متماسكة مثل عناقيد العنب ، وهو قبل ذلك كله سيرة ذاتية للمؤلف ، خطها بقلمه ، واعترافات مخلصة ألقى بها فى جرأة وصدق غير معهودين فى الفكر العربى على أيامه وما بعدها إلى أيامنا .

هل تصلح اعترافات ابن حزم وثيقة لتصوير ما كان عليه مزاجه ؟. لا يمكن القول بداهة أن ابن حزم حدثنا عن كل شيء فى حياته ، لأن هناك منطقة فى حياة الإنسان تظل سراً مكتوماً إلى الأبد ، لا تتجاوز طيات ضميره ، ويحملها معه إلى القبر ، نجد ذلك عند ابن حزم ، وعند غيره ، وكل ما هناك أنها تضيق عند البعض ضيقاً كبيراً ، فلا تمس إلا أشياء محدودة مغرقة فى الخصوصية ، وتتسع عند آخرين حتى تشمل كل شيء فى حياتهم ، ومن جانب آخر لم يكن قصد ابن حزم بكتاب «طوق الحمامة» أن يكتب سيرة حياته ، وإنما عرض لجوانب منها تتصل بموضوع الكتاب . والواقع أن أياً من أشد خصومه ، وفى أعنف المعارك التى خاضها ، لم يجرؤ على تكذيبه ، وواقع حاله ، مؤرخاً وفقيهاً ، يدعم صدقه فيما يقول ، وتاريخ حياته شاهد على ما حدث به عن نفسه . ولم يكره ابن حزم فى حياته شيئاً كما كره الكذب والكذابين ، وأدان هذه الخصلة الذميمة بأعنف ما يملك من وسائل التعبير .

يقول عن نفسه : « وما أحببت كذاباً قط ، وإنى لأسامح فى إخاء كل ذى عيب وإن كان عظيما ، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل ، وآخذ ما ظهر من أخلاقه ، حاشى من أعلمه يكذب ، فهو عندى ماح لكل محاسنه ، ومعف على جميع خصاله ، ومذهب كل ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلا ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن الاستتار به ، والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ، ولا إلى كتمانه حيث كان . وما رأيت قط ، ولا أخبرنى من رأى ، كذاباً ترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت بقطيعة ذى معرفة إلا أن أطلع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته ، والمتعرض لمتاركته » .

وهو يرتفع بالكذب إلى مرتبة الكفر ، بل إن شئت يرى الكفر شعبة من الكذب ، لإنه إخبار عن الله بغير ما هو عليه ، ويورد ، على غير عادته ، الكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، الدالة على فضل الصدق وبشاعة الكذب ، ويأتى بشواهد تاريخية ، ويعدد أفراداً شهروا بالكذب على أيامه . ويرى الواشي والناقل والنمام لشر جميع الناس ، « وإن النميمة لطبع يدل على نتن الأصل ، ورداءة الفرع ، وفساد الطبع ، وخبث النشأة ، ولابد لصاحبه من الكذب . والنميمة فرع من فروع الكذب ، ونوع من أنواعه ، وكل نمام كذاب » . وهو أصل كل فاحشة ، وجالب كل سوء ، ولايقف ابن حزم بدوره عند الأفراد ، وإنما يتجاوزهم ، فى نظرة متقدمة ، ليدرك دوره فى تدمير حياة الأمم والجماعات : « ومارأيت أخرى من كذاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ، ولا سفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب » .

ويفرق الناس بين الناصح والنمام ، وهما صفتان متقاربتان فى الظاهر ، متعاونتان فى الباطن ، أحدهما داء والأخرى دواء ، والثاقب القريحة لايخفى عليه أمرهما . « فليس ناقلا من نبه غافلا ، أو نصح صديقاً ، أو حفظ مسلماً ، أو حكى عن فاسق ، أو حدث عن عدو ، مالم يكن يكذب أو أو يتعمد الضغائن . « لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضى فى الديانة ، ونوى به التشتيت بين الأولياء ، والضريب بين الإخوان ، والتحريش والتوبيش والترقيش » .

وهو رجل مجدد ، يكره التقليد ، ويعاف أن يسير فى طريق سار فيه الآخرون ، ومن هنا كانت صرخته فى بداية الكتاب : « دعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضى مطية سواء ، ولا أتحلى بحلى مستعار » .

وكان إحساس ابن حزم بطبقته واضحا ، إذ تحدث عن أبيه ذكر : « أيام وزارة أبى » أو « إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله » ، « وأيام

دولتنا وامتداد ظلنا » . وعندما يعرض لواحد من أبناء الخلفاء يلحقها بقوله وهو صادق فيما يقول ، وكان لى صديقا ، وعندما يتحدث عن أبى عامر ، حفيد المنصور بن أبى عامر ، يقول : إن دارهم ملاصقة لدارنا ! ولأنه كان من أبناء الصفوة لم يهتم أبداً بالطبقة الدنيا فى قرطبة ، ولم يلق بالا إلى حياة المستعربين أو المولدين ، أو الطبقات الشعبية باختصار ، ولم تتسرب إلى كتابه « طوق الحمامة » لفظة رومانثية واحدة . والمرة الوحيدة التى عرض فيها لواحد من غير طبقته كانت فى نهاية الكتاب ، فى الخاتمة منه ، حين احتاج لمثل يضرب به فى الصبر على المكاره ، وتحمل شظف العيش ، فذكر أن ميسورا البناء جارهم فى قرطبة ، يصبر عن الماء أسبوعين فى حمارة القيظ ، ويكتفى بما فى غذائه من رطوبة . ومع ذلك فالبناء ، كبقية الحرفيين فى عاصمة الخلافة ، يقف على أكتاف الطبقة الدنيا ، وتحت أقدام الطبقة الوسطى ، يهرب من الأولى ، وتصده الثانية ، فلا ينسب واقعاً فى أى منهما .

وكان ابن حزم حفياً بالصداقة ، يرى فيها السند عند الشدة ، ورواء للروح لحظة البهجة ، أصدقاؤه لداته ، فى عمره ومن طبقته ، أبناء كبار الموظفين والبيوتات العريقة ؛ ومرت على قلبه ألوان منهم : هناك من عرفهم ، أو عرفوه ، شهرة وتراسلا ، فلما التقيا تأكدت بينهم المودة واتصلت وتمادت ، ومن كان له على ود أكيد ، وخطاب كثير ، وما تراءيا ، ثم منح الله له لقاءه ، فما هى إلا أيام قليلة حتى وقعت المنافرة عظيمة ، والوحشة شديدة ومتصلة . ومنها ما بدأ منافرة ووحشة وانتهى صداقة وودا ، كالذى جرى بينه وبين أبى عامر ، حفيد المنصور بن أبى عامر ، وكانت الكراهية شديدة بينهما فى البدء ، ولم ير أحدهما الاخر ، « وكان أصل ذلك تنقيلا يحمل إليه عنى ، وإلى عنه ، ويؤكده انحراف بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ، ووجاهة الدنيا ، ثم وفق الله الاجتماع به فصار لى أود الناس ، وصرت له كذلك ، إلى أن حال بيننا الموت » .

ولم يكن أصدقاؤه من معدن واحد ، فى فترة قلقة سياسياً واجتماعياً ، تهبط بالمرء فى لحظات من العرش إلى اللحد ، وترتفع به من عامة الناس إلى قمة المجد ، فمنهم من تغير مع الدنيا ، أقبلوا عليه حين كانت منه مقبلة ، وأعرضوا عنه حين أدارت له ظهرها ، لقد اتصل به محمد بن وليد ، وانقطع إليه حين كان أبوه وزيرا ، فلما اقتحم البربر قرطبة ؛ وتغيرت الأحوال ، خرج محمد بن وليد إلى بعض النواحى ، واتصل بصاحبها ، وعرض جاهه ، وحدثت له وجاهة ، وحالة حسنة ، وحل ابن حزم تلك الناحية فى رحلة له ، فلم يوفه حقة ، وثقل عليه مكانه ، وأساء معاملته وصحبته ، وكالفه حاجة فلم يقم فيها ولا قعد ، واشتغل عنها بما ليس فى مثله يشغل ؛ ومن الوزراء من عرض جاهه فأمسك عن ابن حزم ، فلما ذهبت أيامه ، وانقضت دولته ، عاد يبدى له من المودة والأخوة غير قليل .

وكان يرغب فى أن يكون أصدقاؤه معه ، إلى جواره ، فى أى المواقف يختار ، وعتب على أبى السرى عمار بن زياد صديقه ، لأنه أكثر من عذله فى نحو نحاه ، وأعان عليه بعض من لامه فى ذلك الوجه [١] ، ويعقب ابن حزم على ذلك الموقف : « وكنت أظن أنه سيكون معى ، مخطئاً أو مصيباً ، لوكيد صداقتى ، وصحيح أخوتى به » ، ولقد تمسك بالصداقة رغم كل الهزات التى تعرض لها ، والتى جعلت جانباً من الذين أحاطوا به ينفضون من حوله ، نجاة بأنفسهم أو تقية أو بحثاً عن الجاه والمغانم ، وكان يأخذ من أصدقائه ما ظهر له من أخلاقهم ، فلا يلتمس لهم عيباً لا يراه ، ولا يؤاخذهم بنقيصة لا تمسه ، ويحسن الرأى فيهم دائماً ، متمثلا بقول عمر رضى الله : « ضع أمر أخيك على أحسنه ، حتى يأتيك على ما يغلبك عليه » . ويبقى على أسرارهم معه ، حتى ولو جاءت القطيعة ، وسقطت المئونة ، وأفشى صاحبه بما يعرف عن أسرار عنه .

كان أبو بكر محمد بن إسحاق أظهر أصدقاء ابن حزم ، ويتردد فى

صفحات الطوق كثيرا، ويروى عنه ابن حزم عدداً من الأحاديث والأقاصيص، ويدعوه دائماً : « صاحبي » ، وكان أبوه فيما يبدو ، مثل والد ابن حزم ، من وزراء المنصور ، ولا نجد له فى كتب التراجم ، التى بين أيدينا ، غير سطرين خصهما به الضبي فى كتابه « البغية » ، وإليه توجه ابن حزم برسالته : « فضائل أهل الأندلس » ، وفيها يناديه : « أما بعد ، يا أخى أبا بكر ، سلام عليك سلام أخ مشوق طالت بيناك وبينه الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليالى، ثم لقيك فى حال سفر ونقلة ، ووادك فى خلال جولة ورحلة ، فلم يقض من مجاورتك أربا ، ولا بلغ فى محاورتك طلباً . . » وقد صحب ابن حزم فى هجرته من قرطبة مضطهداً ملاحقاً، حينما اقتحم البربر العاصمة ونهبوها ، ومعهما صديق ثالث لهما ، أبو عامر الذى أشرنا إليه من قبل، وكان ثرياً وجيها، شريفاً ونبيلا ، تضرب به قرطبة المثل فى الملاحة فيقال : « أجمل من وجه أبى عامر » . ويقص علينا ابن حزم فى الطوق مشهداً إنسانياً مؤسياً ومؤثراً : لقد فر الثلاثة بحياتهم وحريتهم من قرطبة ، ثم استقر بهم المقام فى مالقة ، وفى هذه المدينة آثر ابن أبى عامر أن يرحل إلى شرق الأندلس ، وتخلف صاحباه فيها يدبران أمرهما ، ولحظة الفراق وقفا على شاطئ البحر الأبيض يلوحان له مودعين ، وفى أعماق كل منهما ، والحوادث الهوج تعصف بالأندلس ، أنهما لن يرياه ثانية ، فجعل أبو بكر يبكى لحظة وداعه وهم وقوف على ساحل البحر ، ويردد بيت أبى عطاء السندى متمثلا :

ألا إن عيناً لم تجد يوم واسط عليك بباقى دمعها لجمود

وجعل ابن حزم يكثر التفجع والأسى ، وعينه لا تساعده ، فأجاب أبا بكر ببيت له ارتجله :

وإن امرأ لم يفن حسن اصطباره عليك وقد فارقته لجليد

وكان ابن حزم شحيح الدمع ، ويعلل ذلك بأنه أصيب بخفقان فى القلب، فأدمن على الكندر ، فإذا عرضت له المصيبة الفادحة تفطر قلبه ، وفاض

بغصة أمر من العلقم ، تحول بينه وبين توفية الكلام حق مخارجه ، وتكاد تشوقه نفسه أحياناً ، ولكن عينه لا تستجيب له ألبتة إلا فى الندرة ، بالشيء اليسير من الدمع :

وابن حزم رقيق الإحساس ، سريع التأثر ، يهوى الشكل الجميل ، أو الصورة الحسنة فيما يقول ، ويعى جيداً ما يحدثه فى الأرواح من هزة ، وما يثيره فى النفوس من رجة ، لأن « النفس الحسنة تولع بكل شيء حسن » ، ويرى فى إثارة الجمال سلطاناً لا يقاوم ، والقرآن الكريم يحدثنا عن افتتان المصريات بالجمال الذى كان عليه يوسف ، وما أحدثه فى أعماقهن من أثر . لقد راودته امرأة عزيز مصر ، « التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله إنه ربى ، أحسن مثواى » ، « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » ، وشاع خبرهما ، « وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن ، أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ، ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » .

ولقد عاش ابن حزم فى بيئة عامرة بالصبايا الجميلات ، وأحب فى سن مبكرة للغاية ، صبا قلبه ولما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، وكان فى حبه غربياً عصرياً للغاية ، يتميز عن الروح الشرقى والعربى تماماً ، فلا يؤمن بالحب مع النظرة الأولى ، ويعجب ممن يدعى أنه يحب من نظرة واحدة فقط ، ولا يكاد يصدقه ، ويجعل مثل هذا الحب ضرباً من الشهوة ، لا ينفذ إلى حجاب القلب ، ولا يتمكن من صميم الفؤاد ، فالشهوة تسقط على المرء مع أول نظرة ، والحب يحتاج إلى زمن ومعاناة وفهم متبادل ، ويقول عن نفسه معترفاً : « ما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل » : فالشهوة تتعدد باختلاف ما تقع عليه العين من أشكال الجمال ، والحب

متوحد دائماً ، فإذا رأيت من يحب اثنين فى الوقت الواحد ، فاعلم أنها الشهوة ، تسمى على المجاز حباً .

والتفرقة بين الحب والشهوة نظرة عصرية للغاية ، وما زال فى ذهنى صور من أيامنا الأولى فى إسبانيا ، عرب وشرقيون ، نطل على عالم جديد لم تكن لنا به صلة من قبل ، اللقاء فيه سهل ، والاختلاط متاح ، والخلوة ممكنة ، وإذا بالواحد منا يقول لأول فتاة جميلة يلقاها : إننى أحبك . وتنظر إليه فى دهشة : كيف وما التقينا إلا منذ ساعات ؟! تقصد تشتهينى ؟ ، ذلك شيء مختلف . ولم نكن قد قرأنا ابن حزم بعد ، لأن أحداً لم يهدنا إليه فى دراستنا ، لم يشر به أحد علينا ولو كمصدر نقرأه أو نعود إليه فى أبحاثنا ، وربما لأننا مع التخلف نراه كتاباً لا يصح أن يقرأ ، ولأن أحداً لم يعرفنى به قبل أن أذهب إلى إسبانيا دارساً ، لم أكن أعرف أن ما قالته لى أول فتاة إسبانية عرفتها ، قاله ابن حزم قبلها بما يزيد عن تسع مائة عام .

وما من ضرورة تدعو إلى أن يهرب المحب بأشواقه ، خوف أن يسم فنفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة ، يفر منها ويتفادى ، وليس هذا بصحيح ، « فيحسب المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة ، وأما استحسان الحسن ، وتمكن الحب ، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ، وأما المحبة فخلقة ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة » . ولم يجد ابن حزم حرجاً فى أن يعترف بعدد من غرامياته ، على غير ما هو معهود فى أيامه وما بعدها ، وحتى يومنا هذا . حدثنا عن حبه لنعم ، جاريته الشقراء ، أكثر من من مرة ، مصرحاً باسمها تارة ، ومفهما أخرى ، ومن خلال قصائده أحياناً وبدأ حياته العاطفية معها فى سن مبكرة ، وكانت فيما يبدو لى أول من أحب ، وأصبحت الفتاة امرأة على يده ، فيما يقول عن نفسه « وكنت

أبا عذرها ! » ، وتكافأت المحبة معه ؛ وتركت فى أعماقه ذكريات لاتنسى، وترصد بأخرى زمناً طويلا ، ولم ينته حبه إلى غاية ، وخشى مع الثالثة أن يقع فى مهاوى الفتنة فأمسك عن التردد على بيتهم .

وأعطانا، خبيراً ومجرباً ، صورة دقيقة للسعادة التى تغمر أعطاف المحب الناجح ، وما فى الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من البين ، ورغبا عن الهجر ، وبعدا عن الملل، وفقدا العذل ، وتوافقا فى الأخلاق ، وتكافيا فى المحبة ، وأتاح الله لهما رزقاً داراً، وعيشاً قاراً ،وزمناً هادياً ، وكان اجتماعهما على مايرضى الرب من الحال ، وطالت صحبتهما ، واتصلت إلى وقت حلول الحمام الذى لا مرد له ، ولا بد منه » «ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ؛ ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبرى الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ، ولا أعظم سروراً بما هو فيه ، من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه ، وصحت مودته له » .

ويدعنا نفهم دون مواجهة ، وفى غير مواربة ، أن حبه ليس عذرياً وكلمة عذرى لاترد على امتداد كتابه ولامرة واحدة ، وليس فاجرا فى الوقت نفسه ، ولقد اعترف بأنه بلغ مع « نعم» غايته ، وكان فى غرامياته نهماً لايتوقف عند حد ، يقول :

« ما رويت قط من ماء الوصل ، ولا زادنى إلا ظمأ » ، «ولقد بلغت من التمكن ممن أحب أبعد الغايات التى لايجد الإنسان وراءها مرقى ، فما وجدتنى إلا مستزيدا ؛ وحين يكون مع من يحب لايحول بخاطره فن من فنون الوصل ، إلا وجدته مقصراً عن مرادى ، وغير شاف وجدى ، ولا قاض أقل لبانة من لباناتى ، ووجدتنى كلما ازددت دنواً ازددت ولوعاً ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى» . ويرى التوافق فى ممارسة الحب يقويه ، « إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها » ؛

ويرد العفة إلى أسباب موضوعية ، إلى طبع يميل بالرجل أو المرأة إلى غير هذا الشأن ، واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه ، فهو لا يجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ، ولا في يوم ولا في يومين . ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به الجادت طباعهم ؛ وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك . وإما ببصيرة حضرت في ذلك الوقت ، وخاطر تجرد انقمعت به طوالع الشهوة .

ويقرر حاسماً وصريحاً : « وبالجملة فإني لا أقول بالمراءاة ، ولا أنسك نسكاً أعجمياً ، ومن أدى الفرائض المأمور بها ؛ واجتنب المحارم المنهي عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس ، فقد وقع عليه اسم الإحسان » ؛ ورأى ابن حزم أن يقطع السبيل على كل راغب في النيل منه ، أو متخذاً من اعترافاته سبيلا إلى اتهامه ، فكان بيانه القاطع : « يعلم الله ، وكفى به عليما ، أني بريء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجزة ، وإني أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا ، مذ عقلت إلى يومي هذا » .

وكان ابن حزم يحترم أسرار الناس ، أو ما نسميه في عصرنا بالحياة الخاصة للآخرين ، فلما كلفه صاحبه أن يكتب له في الحب ، وأدرك أن ذلك يحتاج إلى أمثلة وشواهد يلتقطها مما رأى بعينه ، وأدرك بنفسه وحدثه به الثقات من أهل زمنه ، لم يترك نفسه على سجيتها في رواية الأحداث ، لأنها تمس الجانب الشخصي البحت من حياة الناس ، وهو ملك لأصحابه وحدهم ، ليس من حق أحد أن يشاركهم فيه ، أو يطل على داخلهم منه ، ويربأ بالحياة الخاصة لرجال الدولة ، من الأمراء والخلفاء مما ينفردون به في قصورهم مع عيالهم ، أن تكون مجالا للقول . ولكنه ذكر من لا ضرر في تسميته ؛ ولا يلحقه والمسمى عيب في ذكره ، إما لأن الخبر ذاع واشتهر فطيه لا يغني عنه شيئا ، أو لأن المخبر عنه راض بظهور خبره ، غير منكر لنقله ، أما الآخرون فقد أكني عنهم ، لأن في ذكرهم

عورة لا يستجيز كشفها ، أو لأنها تمس صديقاً ودوداً ، أو رجلا جليلا .

وهو يقدر محن الناس العاطفية ، يوردها مثلا ، وقد يذكر معها أسماءهم ، ولكنه لا يتشفى فيهم ، ولا يجدها وسيلة للنيل منهم ، والولوغ في أعراضهم ، أو التظاهر عليهم بالصلاح والتقى ، ويورد قصص أولئك الذين انحرفت بهم عواطفهم ، أو يعشقون صورة الجمال الكامل في وجوه الغلمان ، فلا يرفع في وجوههم سوطه الفارع ، أو يلاحقهم بالسب القارص ، ولا يزيد قوله عن : « عفا الله عن الجميع » .

ويقيم ابن حزم على الوفاء لمن عرف ، ويمد لأصحابه حبل الود وإن أساءوا إليه ، أو قلبوا له ظهر المجن ، ويحن إلى كل عهد تقادم حتى ليغصه بالطعام ، ويشرقه بالماء ، ولا يمل شيئاً إذا عرفه ، ولا يسرع في أنسه مع أول لقاء ، ولا يميل إلى استبدال ما يألف من الأخوان ، أو الأشياء من مركوب ومطعوم ، ورثاؤه لديارهم في بلاط مغيث ، وقد أخبر بانتهاب البربر لها ، مثال صادق لهذا الشعور ، إلى ما فيه من تصوير دقيق لمنازل آل حزم ، وما آلت إليه ، وما تعكس من حنين جارف وارتباط بالمكان. ويرى الوفاء فضيلة يزهو بها : « ولقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إلى بلقية واحدة ، ووهبني من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثته ساعة حظا » ويقع فراق الأحبة من نفسه موقعا أليما ، ويعترف : « ما انتفعت بعيش ، ولا فارقني الإطراق منذ ذقت طعم فراق الأحبة . وإنه لشجى يعتادني ، وولوع هم ما ينفك يطرقني ، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه » . وإذا نعي إليه من يحب ، وواجه الفراق الأبدي ، وكان نازحاً وحيدا ، فر بنفسه إلى المقابر يمشي بينها ، ويتعزى بأبيات من الشعر يترنم بها .

وظل يعاني مما يفرضه عليه الوفاء ، مما يصطدم أحياناً بعزة نفسه ، واحترام ذاته وكرامته ، « وعني أخبرك : أني جبلت على طبيعتين لا يهنئني

معهما عيش أبداً ، وإنى لأبرم بحياتى باجتماعهما ، وأود التثبت من نفسى أحيانا ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لايشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التى لم تعزف بها نفسى عما دربته ، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته . وعزة نفس لا تقر على الضيم ، مهتمة لأقل مايرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة للموت عليه ، فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإنى لأجفى فأحتمل ،واستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذى لايكاد يطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسى ، تصبرت » .

وماشيء أثقل على نفس ابن حزم من الغدر ، « ولعمرى ما سمحت نفسى قط فى الفكرة فى إضرار من بينى وبينه أقل ذمام ، وإن عظمت جريرته ، وكثرت إلى ذنوبه ، ولقد دهمنى من هذا غير قليل فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى » .

وابن حزم واسع الصدر فى القضايا العلمية والاجتماعية ، عند الحوار ، يناقش ويدلى برأيه ، ويسمع وجهة نظر معارضه ، لا يضيق بها ، ولا يفقد هدوءه بإزاء محدثه ، يناقش أبا عبد الله من أهل القيروان ، وكان طويل اللسان جدا ، مثقفاً للسؤال فى كل فن ، أيام كان لاجئاً فى المرية ، حول الحب ومعانيه ، وماذا يصنع محب كره المحبوب لقاءه ، وتجنب قربه . يرى ابن حزم : « أن تسعى فى إدخال الروح على نفسك بلقائه وإن كره » . ويرى أبو عبد الله : « بل أوثر هواه على هواى ، ومراده على مرادى ، وأصبر ولو كان فى ذلك الحتف » . ويمضى الحوار على النحو الذى أورده ابن حزم فى الطوق ، عالم قرطبة يقف على أرض صلبة من الواقع ، وأديب القيروان يتشبث بما هو نظرى ومن صنع الخيال ، ويفقد صبره فى مواجهة ابن حزم ، ويصيح به : « أنت رجل جدلى ، ولا جدل فى الحب » .

وكان ابن حزم يفرق بين الصلات الشخصية ، والخلافات الفكرية

والعقائدية ، لقد تعرف خلال إقامته بالمرية على طبيب يهودى ، يدعى إسماعيل بن يونس ، وتعود أن يختلف إلى دكانه ، ويصف اليهودى بأنه كان بصيراً بالفراسة محسناً لها . ولست أشك فى أنه تعرف بها إلى يهود آخرين ، فقد كانت المرية فى تلك الفترة من التاريخ ، أى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، موطناً لحركة ثقافية وأدبية مزدهرة ، وموطناً ليهود كثيرين ، علماء وأغنياء ، وأرجح أنه تعرف فيها إلى صمويل ، أو إسماعيل ، بن النغرلة ، قبل أن تؤهله مواهبه العالية لأن يصبح وزير باديس بن حبوس أمير غرناطة ، ويسيطر على مصائر الدولة دونه ، ثم يورثها ابنه يوسف من بعده ، فيثير جمهرة المسلمين بحمقه وتحديه واستهتاره ، فتأتى عليه وعلى نفوذ اليهود ثورة عارمة ، لعب الشعر فيها دوراً رئيسياً (١) . وقد وقف ابن حزم موقفاً متشدداً من اليهود ، حين طما طغيانهم السياسى ، وتجاوزوا حد الأدب فاستطالوا على المسلمين ، واستباحوا مقدساتهم ، وناقش اليهودية كعقيدة وواعياً عنيفاً ، وأميل إلى أن بداية دراسته لليهودية بدأت فى هذه المرحلة من حياته .

وكان له فى المرأة رأى عرضنا له من قبل ، ويعرف ابن حزم للأستاذية جلالها وقدرها ، فلا يتحدث عن أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى ، إلا وأردف قائلا : أستاذى :

ويبرئ ابن حزم من عادة الشراب ، وكانت شائعة على أيامه ، ووجد كثيرون مندوحة لهم فى المذهب العراقى ، وأوجز ابن عبد ربه اتجاههم فى فى بيته الشهير :

دينا ، فى السماع ، دين مدينى ، وفى شربنا الشراب عراقى

وجاء رفضه له عرضاً حين تحدث عن مذهب الشعراء المجددين فى ذم البكاء على الدمى ، والثناء على اللذات ، وأن الحسن بن هانئ ، أبا نواس ،

١ — أنظر : غرسية غومث ، مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، صفحة ١١٧ وما بعدها ، القاهرة ١٩٧٤ .

أكثر فى هذا الباب وافتخر به ، « وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره ، تحكماً بلسانه ، واقتدارا على القول » . ثم يشحذ ابن حزم قريحته بأبيات على مذهب أبى نواس فيقول :

خل هذا وبادر الدهر وارحل — فى رياض الربى مطى الغفار
واحدها بالبديع من نغمات الـ — ـعود كيما تحث بالمزمار
إن خيراً من الوقوف على الدا — ر وقوف البنان بالأوتار
وبدا النرجس البديع كصب — حائر الطرف ماثلا كالمدار
لونه لون عاشق مستهام — وهو لاشك هائم بالبهار

ويعقب على هذه الأبيات بقوله : « ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس طبعاً لنا ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقا ، وكساد الهمة لنا صفة ... ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ » . والحق أن الطوق عرض لألوان من الحب مقبولة وشاذة ، حلالا ومحرمة ، ولكن حديث الشراب ومجالسه وألوانه لا ترد فيه أبدا .

المرأة فى قرطبة

من خلال طوق الحمامة

مع قلة الوثائق وغيبة الشواهد تختلف الآراء حول المرأة الأندلسية اختلافاً بيناً ، وفى دوائر المستشرقين بخاصة ، لأن أبحاث الدارسين العرب فى مجال الأندلسيات لما تزل محدودة ، وقليل جدا بينها من يقول شيئاً نافعاً ، أو يضيف إلى ما نعرف جديداً ، لأن الاهتمام بالأندلس ، تاريخه وحضارته وأدبه ، جاء متأخراً ، والقائمون عليها الآن ، وهم قلة ، أمامهم سنوات مضنية من العمل ، لكى يزيحوا عن هذه المنطقة من تراثنا غبار الإهمال ، ويعبدوا أمام الأجيال القادمة طرائق البحث ، من نشر المخطوطات ، وتوفير المصادر ، ودراسة اللغة الإسبانية ، وكل تخصص فى مجال الأندلسيات دون التمكن منها ، ثماره عقيمة ، وحظه من النجح محدود .

حاول المستشرقون إذن أن يدرسوا وضع المرأة الأندلسية ، وبذلوا جهوداً طيبة ، وقد أخفق بعضهم ، على ما سنعرف ، فى جانب من آرائه ، قليل أو كثير ، لأن عقدة التعالى على العرب ، أو البغض للإسلام ، كانت تحكم أبحاثه . وضل الطريق آخرون ، لأن دلالات النصوص البعيدة ، والتى تعتمد على تذوق اللغة ، وإدراك الفروق الدقيقة بين معانى الألفاظ المختلفة ، كانت تفلت منهم ، وهو شىء طبيعى ؛ فأدى بهم ذلك إلى أحكام خاطئة وجائرة أحيانا ، ولكنهم فى كل الأحوال أسدوا إلى هذا التراث يدا ، يستحقون عليها أن نقول لهم شكرا ، ومن عمل وأخطأ ، خير ممن لا يعمل شيئاً على الإطلاق .

ليس فى نيتى ، ولا بإمكانى أيضاً ؛ أن أتتبع آراءهم جميعاً ، ولكنى سوف أحاول أن أعطى صورة لهذه الاتجاهات المختلفة ، فى خطوطها العامة ، موجزة نعم ، ولكنها كافية لكى نعرف كيف يفكرون فى هذا الجانب ، وأين نقف منهم .

كان المستشرق الألمانى ، البارون فون شاك Von Schack أول من تحدث فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى كتابه : « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية Poesie und Kunst der Araber in Spanien und sicilien وصدرت الطبعة الأولى منه فى برلين عام ١٨٦٥ م » ، عن المرأة الأندلسية ، وجاء حديثه عنها كمقدمة للفصل الرابع من الكتاب ، وأوقفه على دراسة شعر الغزل فى الأندلس ، وانتهى فيها إلى « أن وضع المرأة فى إسبانيا كان أكثر تحرراً عما كان عليه فى بقية الشعوب الإسلامية الأخرى ، فأسهمت بجهدها فى كل ألوان الثقافة المعروفة على أيامها ، وليس بقليل عدد أولئك اللائى بلغن شهرة واسعة لدورهن فى مجال العلم ، أو مزاحمتهن الرجال فى قرض الشعر . وفى ظل هذه الحضارة الراقية بلغن فى إسبانيا احتراماً لم تعرفه المرأة أبداً فى المشرق الإسلامى . فعلى حين أن الحب هناك ، باستثناء حالات نادرة ، ينهض على الشهوة ، كان هنا ينطلق من تعاطف روحى عميق ، وعلاقة نبيلة بين المرأة والرجل ، وكثيراً ما كانت عبقرية المرأة وثقافتها أشد جاذبية للعاشقين من جمال جسمها وسحر مفاتنها ، وعادة يكون الميل المشترك إلى الشعر أو الموسيقى الخيط الرفيع الذى يربط بين قلبين عاشقين » .

ثم جاء المستشرق الإسبانى الجليل خوليان ريبيرا (١٨٨٧ — ١٩٢٧ م) فعرض لجانب من قضية المرأة ، فى بحثه الذى ألقاه فى المجمع الملكى الإسبانى . عند اختياره عضواً فيه عام ١٩١٢ م ، وكان عن « ديوان ابن قزمان » : ولم تكن المرأة موضع دراسته بدءاً ، وإنما عرض لها عند حديثه عن اللغة التى كان يتكلمها سكان الأندلس ، وهو أول من اكتشف بين الباحثين المحدثين أن الأندلسيين كانوا يتكلمون لغتين عاميتين مختلفتين معا ، العربية والرومانثية ، وإذا نحينا المبالغات التى شابت بحثه ، وكان فيه رائدا ، وتحكمه حماسة مخلصة وصادقة ، فإن النتائج التى انتهى إليها كانت فتحاً جديداً فى عالم الأندلسيات .

تحدث ريبيرا عن دور المرأة البالغ الأهمية فى أسبنة المسلمين القادمين من

المشرق أو من شمال إفريقية ، وفى إشاعة اللغة الرومانثية والإبقاء عليها ، والحفاظ على الخصائص البيولوجية الإسبانية ، والتقاليد التى كان عليها الإسبان قبل الفتح الإسلامى بعامة ، وفى مجال الحياة العاطفية والأسرية على نحو خاص :

لقد جاء العرب أو البربر جنوداً فاتحين ، أو أفراداً مهاجرين ، وتزوجوا فى الأندلس من نسائها ، جوارى أو حرائر ، وفى كل الأحوال كن ينحدرن ، فى الأعم الأغلب ، من أصول إسبانية ، ونشأ أولادهم هجناء فى بيت مختلط ، يعيشون طفولتهم على الأقل فى مناخ إسبانى . ويمضى ريبيرا بعيداً مع فكرته لينتهى بها إلى أن العرب القادمين إلى الاندلس فقدوا خصائصهم السلالية كجنس سامى ابتداء من الجيل الثالث ، واتخذ من الأمويين أمراء الأندلس وخلفائه مادة لتحليله ومثلا .

« لا أحد يشك ، فيما يقول ، أن الأسرة الأموية التى استولت على الإمارة فى إسبانيا تنتسب إلى أعرق الأصول العربية ، وإذا حاول متخصص فى علم الأنساب أن يقيم نسباً لهشام الثانى المؤيد فسيلتقى بقائمة طويلة من الأسماء العربية . إلى أن يبلغ بها أكرم القبائل وأعرقها فى الجزيرة العربية ، بل وسوف تتصل بنسب الرسول عليه السلام ، فهو هشام الثانى ، ابن الحكم الثانى المستنصر ، ابن عبد الرحمن الثالث الناصر ، ابن محمد ولم يتول الإمارة ، ابن عبدالله ، ابن محمد الأول ، ابن عبد الرحمن الثانى ، ابن الحكم الأول ، ابن هشام الأول ، ابن عبد الرحمن الأول الداخل ، ابن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان ، حتى نهاية السلسلة ، أى أننا إذا نظرنا إلى هشام الثانى المؤيد من خلال نسبه الأبوى فحسب ، وجدناه عربياً خالص النسب تماما .

« ولكن الطبيعة تسلك طريقاً آخر غير طريق الزهو الإنسانى ، لأن أى وليد ليس نتاج أبيه فحسب ، وإنما لأمه نصيب منه أيضا ، ونصيب أكبر بالتأكيد ، لأنها حملته فى بطنها تسعة أشهر وأرضعته عشرا . ولو أعددنا سلسلة النسب من جانب الأم ، لخرجنا بانطباع آخر مخالف للغاية :

« ونحن نعرف يقيناً أن كل الأمويين الذين تولوا الإمارة فى الأندلس ينحدرون من أمهات عشيقات أو جوار ، أى من نساء لسن من أصل عربى ، وطبيعى ألا تولد الجوارى من السلالة الحاكمة ، وإنما بين السلالات المغلوبة ، من الشعوب التى فتحها الإسلام : كان عبد الرحمن الأول الداخل ، ابناً لجارية بربرية ، وهشام ابنه ولداً لجارية إسبانية ، أهدتها إلى أبيه ابنة يوسف الفهرى ، وعلى هذا النحو نلتقى بهم جميعاً ،

« وإذا أردنا أن نحدد العنصر السلالى بطريقة رياضية ، وأخذنا فى اعتبارنا جانب الأم ، وأضفنا إليها ما يعادلها من جانب الأب ، نجد أن نصف عبد الرحمن الداخل كان بربرياً والنصف الآخر عربياً ؛ هذا إذا افترضنا نقاء سلالته السابقة تماماً ، وبلغة الأرقام يصبح ٥٠٪ منه عربياً ، و٥٠٪ منه بربرياً :

« وابنه هشام الأول ابن جارية غير عربية ، فيه ٥٠٪ من سلالة أمه ، و٢٥٪ من بربرية أبيه و٢٥٪ فحسب كل ما تبقى له من العروبة .

« وإذا مضينا مع أحفاده على هذا النحو ، فسنجد أن الحكم الأول ليس فيه من العروبة إلا ١٢,٥٪ ، وعبد الرحمن الثانى ٦,٢٥٪ ، ومحمد ٣,١٢٪ ، وأخوته المنذر وعبد الله ١,٥٦٪ ، ومحمد ولم يتول الإمارة ، ٠,٧٨٪ ، وعبد الرحمن الناصر ٠,٣٩٪ ، والحكم المستنصر ٠,١٩٪ ، فإذا وصلنا إلى هشام المؤيد تهبط بنا النسبة إلى ٠,٠٩٪ ، أى أن نسبه يحفل بالأسماء العربية ، أما إذا درسنا الأمر رياضياً فليس فيه من السلالة العربية ما يصل إلى ملليجرام واحد ! » .

وقد تساءل خوليان ريبيرا عن السلالة التى ينتمى إليها الأمويون فى ضوء نظريته هذه ، فدرس فى أناة وثائق بيع الرقيق ، ووجد أن الغالبية العظمى ينحون من شمال إسبانيا ، من غاليسية ، أو جليقية فى المصادر القديمة ، أو من مقاطعة ليون ، أو من أشتورياس ، أو من قطلونية ، وانتهى إلى أن هؤلاء الأمويين كانوا ، طبقاً لنظريته السابقة ، إسبانيين دماً ، ولم لا ؟ ألم يكن

عبد الرحمن الناصر أحمر الوجه ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ؟ !

وهى دراسة فيها الكثير من المتعة ، ومن رياضة الذهن ، ولكنها تبسط الأمور بأكثر مما يجب ، ومما تحتمل ، وتجعل من القضايا الاجتماعية المعقدة المتشابكة شيئاً ذهنياً مجرداً ، كما لو كانت لعبة شطرنج أو تمارين هندسية . من الذى قال — مثلا — إن الإبن يأتى إلى الدنيا حاملا من خصائص أمه وأبيه نسبة متساوية ، ٥٠٪ لكل منهما ؟ . ليس هناك قاعدة علمية واحدة تحكم هذه الظاهرة ، فيما أعلم ، والذى أعرفه أن الطفل يأخذ من أبيه ومن أمه بنسب تتفاوت ، أحياناً ، إلى حد كبير ، لصالح الأب أو لصالح الأم ، وأحياناً تعود به هذه الخصائص ، من لون العينين ، وطول القامة ، وشكل الوجه ، وأشياء أخرى جسمية أونفسية ، إلى أفراد سبقوا فى نسبه الأموى أو الأبوى ، دون أن يكون فى أبيه أو أمه شىء مما فيه . ونعرف أن المناخ الاجتماعى بجوانبه المختلفة ، والظروف الطبيعية فى مظاهرها المتعددة ، تلعب دوراً هاماً فى حقل هذه الخصائص وتطويرها ، حتى البيولوجى منها .

نحن إذن مع خوليان ريبيرا فى الدور الذى لعبته المرأة الإسبانية ، بوصفها هذا ، فى مجال الحياة الأندلسية ، وكان واضحاً ومقدراً ، ولكننا لانتابعه فى لعبة الأرقام التى اعتمدعليها ، وأدارها فى مهارة ، وسذاجة فى الوقت نفسه ، لأن العلم والشواهد التاريخية ، والظواهر النفسية والاجتماعية ، تقف فى الجانب المقابل منها .

أما سانشيث البرنس فيصدر فى دراساته لتاريخ الأندلس ، وهى كثيرة وعميقة ومتنوعة ، عن روح قومى متشدد ، يضل معه أحياناً جادة الصواب ، ولست أريد أن أعرض لكل ما قال ، ودراساته تقوم على أن المسلمين جاءوا الأندلس خلواً من كل شىء ، وأن الذين كانوا يقيمون على بطحاء شبه الجزيرة الإيبيرية قبل مجىء المسلمين ، ورآهم أرقى ثقافة وعادات وتقاليداً ، هم الذين أعطوها الصورة الوضيئة لحضارتها المزهرة والراقية .

وبحسبي أن أشير إلى كتاب محدود الحجم بين دراساته ، نافع ومفيد ، وزحمه بمصادر لا حد لها تتجاوز مادة الكتاب نفسها ، عن « إسلام إسبانيا والغرب El Islam de Espanay el Occidemte) ، ونشره تحت صور مختلفة ، وآخر طبعة له فيما أعلم صدرت فى مدريد عام ١٩٧٤ ، فى السلسلة الثقافية الشهيرة : « مجموعة أو سترال » ، التى تصدرها دار « إسباسا كالبى » ؛ وكان قبلها محظورا على الناشرين فى إسبانيا ، أن يطبعوا أو ينشروا له شيئاً ، لأنه جمهورى ، وكان رئيس حكومة الجمهوريين فى المنفى .

تدور مادة الكتاب كلها عن إسبانيا ما قبل الإسلام ، وما أسهمت به إسبانيا الإسلامية فى مجال الثقافة والمعمار والموسيقى فى إنهاض أوربا والعالم المسيحى فى الغرب ، ولن أقف عند هذا كله ، لأنه خارج عن نطاق القضية التى أعرض لها هنا ، إنما يهمنى منه إشارته إلى قضية المرأة فى الأندلس ، ويعرض لها قليلا ، وإشاراته إليها عابرة ، ولكنه يأتى بها فى صورة قاطعة ، وهنا موضع الخطورة . فهو يرى أن الأندلسيين « كانوا يتيحون للمرأه حرية فريدة فى خروجها للشارع ، من الصعب ربطها بالعادات الإسلامية ، والدليل عليها ما أورده ابن حزم فى كتابه « طوق الحمامة » ، « روايات تاريخية أخرى معروفة ، فهم يحترمونها ويضعونها موضع التقدير ، وكلاهما إرث إسبانى خالص . وقد أشار هنرى بيريس إلى موقف المرأة المسلمة المتميز بالنسبة للمرأة المشرقية ، وبلغ الأمر بليفى بروفنسال أن صرح بأنهن كن فى أيامهن تلك ، على نحو ما يعترف به لهن اليوم فى المغرب الأقصى ، بين البيوت الإسلامية ذات الأصل الإسبانى ، من حق مشاركة الرجل فى كل تصرفاته ، وكما بلغ التأثير مسامى شبه الجزيرة الإيبيرية أدرك المسلمين الإفريقيين ، وعلى العكس يزيد الأمر وضوحاً ما نعرفه عن دور المرأة فى إسبانيا البدائية » .

وكان المستشرق الفرنسى هنرى بيريس أكثر تعقلا من غيره ، فقد

تحدث عن « المرأة والحب » فى فصل خاص من كتابه القيم : «الشعر الأندلسى حتى القرن الحادى عشر : جوانبه العامة ، وموضوعاته الرئيسية ، وقيمته وثيقة» ، وحاول فيه أن يستنطق قصائد الشعراء وإشاراتهم ، وانتهى إلى أن الإسلام استطاع أن يسم المجتمع الأندلسى « بطابعه فى بعض مظاهره الخارجية دون أن يشكله بعمق ، واستطاعت المرأة رغم كل الضواغط الدينية أن تلعب دوراً رئيسياً ، أوضح مظاهره هذا القلق الذى تثيره فى فكر الرجل » . ولم تكن المرأة الأندلسية « منزوية على نحو ما كانت نظم الإسلام تريدنا أن نراه فى كل امرأة مسلمة. وثمة وقائع عديدة تؤكد ما نشعر به من خلال أحاسيس الشعراء القوية . فالرمادى يتجول فى يوم جمعة ، بين رياض بنى مروان فى قرطبة ، ويلتقى بفتاة شابة تأخذ بمجامع قلبه فيحادثها ، ولا يدعها تمضى إلا بعد أن يحصل منها على موعد بلقاء فى يوم الجمعة التالية . وكانت هذه الفتاة الشابة تسمى « خلوة » ، وكانت تضع خماراً على التأكيد ، ولكن كيف نتصور رجلا يستطيع أن يتحدث طويلا وعلانية إلى امرأة ، على قارعة الطريق ، دون أن يتعرض لنظرات شذرة ، لو لم يكن الجنس اللطيف يتمتع بحرية حقيقية ؟ » ويستشهد بوقائع متعددة ، فى قرطبة وغيرها ، وردت فى طوق الحمامة ، أو نفح الطيب ، أو قلائد العقيان ، وفى مصادر أخرى ، دون أن يجزم برأى قاطع . ودعا إلى التفرقة بين ما هو غربى أصيل ، وما هو شرقى وافد ، ورد عدداً من مظاهر حرية المرأة إلى المناخ المسيحى الذى تحرك عليه الإسلام فى أرض شبه الجزيرة الإيبيرية .

وموقفنا من مثل هذه الآراء أن إلقاء أحكام « عامة » فى قضية اجتماعية كهذه بالغة التعقيد ، تمس مجتمعاً متعدد السلالات والأديان والطبقات ، عرضة للخطأ الجسيم ، فالمرأة اليوم فى مصر وبلاد عربية أخرى تتمتع بحرية واسعة إلى حد كبير ، تذهب إلى الجامعات ، وإلى بلاد أجنبية لتتعلم ، أو تتاجر ، أو للسياحة وتلبس أحدث نماذج الأزياء ، دون نظر لغير متطلبات العصر ، وثمة فتيات أخريات قعيدات البيت ، يؤثرن الانزواء ، أو يراد لهن ، يغطين الرأس «

ويلبسن الساتر من الثياب ، ويرين مخاطبة الرجل إثماً ، فهل يعقل أن نرسل عن الأندلس حكماً عاماً ، استنادا إلى رواية وردت فى كتاب ، أو بيت من الشعر جاء فى قصيدة ؟ .

وإذا أخذنا العربية السعودية ، وأخالها من أشد البلاد العربية محافظة فى قضية المرأة ، ويراها المستشرقون مثلا أبلغ لما هو أسوأ من المحافظة ، وتجاوزنا السطح إلى العمق ، الشكل الخارجى إلى واقع الحياة ، فسنجد من الخطأ إرسال حكم عام عليها ، لأن المرأة فى البادية غيرها فى الحاضرة ، وهى داخل الجزيرة غيرها فى الخارج . ولقد أتيح لى فى بعض رحلاتى إلى أوربا أن ألتقى بفتيات سعوديات ، كن مثلا عاليا فى الشخصية والثقافة والأناقة والجمال ، فى مستوى أرقى ماوصلت إليه المرأة فى عالمنا المتحضر .

إنما تجيء أخطاء المستشرقين من المقارنات الخاطئة ، ومن دراسات تقوم فى جلها على كتب الفقه ، وهى لا تقدم مايحدث فى واقع الحياة ، وإنما تعكس فى الكثير من الحالات مطامح أصحابها وعقلياتهم وانحرافاتهم أيضا : ولو رجعوا إلى واقع المرأة العربية ، فى حياتها اليومية ، خلال عصر النهضة الإسلامية ، قبل أن تزحف على الإسلام ظلامات الفكر الأوربى الوسيط ، لوجدوها تعمل إلى جانب الرجل ، وموضع الرعاية والتكريم منه ، وعلى مستواه من حماية القانون ، وإذن فالقول برقى المرأة الأندلسية لأنها تنحدر من أصول غير عربية فيه مجافاة للواقع ، وعدوان على العقل :

والذين يلمحون لأسباب دعائية غير علمية إلى أن المسيحية كانت وراء هذا القدر من الحرية ، يتناسون ، عامدين أن إسبانيا لم تكن وحدها البلد المسيحى الذى اجتاحه الإسلام ، فمثلها كان الشام والعراق ومصر وشمال إفريقية ، فى جانبه الساحلى على الأقل ، والذين يتشبثون بأسباب الحضارة الرومانية ، ينسون أيضاً أنها كانت فى الشام والإسكندرية أوضح منها فى إسبانيا ، وهذا إذا سلمنا جدلا ، وهو أمر غير مسلم ، أن مستوى المرأة

فى الحضارة الرومانية كان أرق منه فى الحضارة العربية أو الإسلامية ، وهو أمر ليس عليه شاهد من أحداث التاريخ .

وإذا أخذنا المثل مثلا من مقاطعة بروفانس ، فى جنوب فرنسا ، على أيام ابن حزم ، وستصبح أرق بلد أوربى فى تلك الفترة ، وبتأثير أندلسى ليس هنا مجال درسه ، فسنجد مثلا أن « الزاوج يتم بين السيدين ، فى ضوء مصالحهما الإقطاعية ، أكثر منه تحقيقاً لرغبة الشاب أو الفتاة ، ومع الزواج يملك الزوج جسد الفتاة كله ، ولم يكن فى حاجة أبداً لأن يترضاها فى شىء يملكه قانوناً ، وله حق تأديبها مادياً ، يضربها حين لا تتقبل أو امره ، أو تثير له تزعجه ، شريطة أن يكون هذا باعتدال ، وألا يؤدى إلى موتها ، وكانت التقاليد قاسية جداً على المرأة فى حالة الخيانة ، فالمرأة المخطئة تسجن فى الدير طوال حياتها ، وإذا ضبطت متلبسة ، فإن الزوج يأتى بأولادها ليشهدوا لحظة إعدامها . أما الزوج المخطىء فكان على النقيض ، يخرج سالماً من أوسع الأبواب » .

« كان العصر الأوربى الوسيط ، بتأثير المسيحية ، عدواً لدوداً للمرأة ، ولم يعطف عليها رجال الكنيسة أبداً ، ولا تأتى فى كتاباتهم إلا مقرونة بوصف مسىء ، فهى : ذكرى مزعجة ، والطريق إلى النار ، وسلاح الشيطان ، وحارس جهنم المتقدم ، وشبح إبليس ، وسهم الشيطان ، وغيرها من النعوت ، نجد ذلك عند سان يوحنا ، وسان أنطونين ، وحنا الدمشقى ، والقديس جيروم ، وغيرهم . وسار على طريقهم من بعدهم كل الدعاة ، ورجال الأخلاق ، وهكذا ظلت قلوب رجال الدين طوال العصور الوسطى مغلقة فى وجه المرأة ، ومغلفة بالقسوة ، وكان الفرسان الحديديون ، العائدون من الشرق الأوسط ، بعد الحروب الصليبية ، أو من الأندلس بعد غاراتهم أو رحلاتهم أو مساعدتهم لرفاقهم فى الدين هناك ، أول من اعترف بها إنساناً لطيفاً . لقد عاش هؤلاء يتغنون بالبطولة ، لايشغلون أنفسهم بغيرها ، حتى ولا ما اتصل منها بالدين نفسه ، وإذا لم تؤد الحروب الصليبية إلى

النتائج المنتظرة من الاستيلاء على الأرض المقدسة ، وامتلاك بيت المقدس، فقد أدى الاصطدام بين الشرق والغرب إلى نتائج هائلة ، فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى على الأقل ، فترك الشرق ،وكان أغنى ثروة وأرقى حضارة ، تأثيراً واضحاً فى حياة الصليبيين ، وسرعان ما تهذبت هذه الأعداد الكبيرة ، بقدر لا يتصور ، فدرجت على تذوق الترف ، وتفتح عقلها وخيالها على ألوان من الحياة الراقية كانت تفتقدها تماماً . وفى حروب دينية كهذه لم يعفوا عن حمل الثروات والغنائم ، وما أسرع ماغيروا عاداتهم عندما عادوا إلى أوطانهم . وعاصرت الحروب الصليبية نمو التجارة فى البحر الأبيض المتوسط ، وفى الموانى الإيطالية بخاصة ، وشهدت أيضاً ازدهار المعارض التى تحمل كل منتجات الشرق : السجاد والمرايا والتوابل والأقمشة الجميلة ، وتحمل اسم دمشق موطن صنعها .

وشهدت بداية العصر الوسيط احترام المرأة فى أوربا ، وارتفاع الكنيسة إلى مستوى الفرسان ، وشعراء التروبادور من هؤلاء هم الذين انتقلوا بها من مخلوق لا يلعب فى الملاحم وفى الحياة دوراً أكثر من عبادة الله والسيد والوطن ، إلى شيء جميل يحترمونه ، ويتغنون به ، ويغنون له ، ويعتبرون التسامى به ، والتذلل له ، والذوب صبابة فى حبه ،خلقاً كريماً ، وعادة مرعية ، وشرفاً لا يبلغه غير الفرسان :

* * *

كيف وجد المسلمون المرأة فى شبه جزيرة إيبريا غداة الفتح الإسلامى ؟ سؤال من الصعب الإجابة عليه ، لأننا نفتقد الوثائق التى تساعدنا على تحديد موقف المرأة ، والبناء الأسرى الذى كان سائداً فى المجتمع الغربى بين القرنين الثامن ؛ وتم الفتح الإسلامى فى بدايته ، والقرن الحادى عشر وعاش فيه ابن حزم جل حياته ، ومعه بدأت دول شمال الأندلس المسيحية تأخذ شكل مجتمع متميز ، رغم حاجتنا الشديدة إلى هذه المعرفة ، ذلك أن المرأة الأندلسية فى جمهرتها الغفيرة هى أولا وقبل كل شيء

إسبانية ، سواء أكانت حرة أم رقيقة ، زوجة أم عشيقة ، مولدة أم مستعربة . والقليل الذى وصلنا عنها ناقص ومضطرب ومتناقض .

والحضارات التى تركت فى أوربا تأثيرا واضحاً ، وهى : ما قبل الرومانية والرومانية والجرمانية والمسيحية كانت توجه المجتمع الغربى نحو التضييق على المرأة ، وتضع عليها قيوداً لن نلتقى بها فى الحياة الأندلسية فيما بعد ، وكلها تؤكد تميز الرجل ، فالفتاة تخضع لأبيها ، وإلى الأكثر قرباً عند غيابه ، ثم لزوجها فيما بعد ، وفضلا عن ذلك كانت روما تعرف وأد البنات . ويبدو أن المرأة تمتعت بين القوط ، وهم الذين حكموا الأندلس لحظة الفتح الإسلامى ، بقدر أكبر من الاحترام ، فنعرف أن سن الرشد لها فى القرن السادس الميلادى كان مساوياً لسن الفتى ، وأنها أهل لأن تتولى الوصاية على أبنائها إذا كانت أرمل ، وأن تتزوج ثانية إذا أرادت ، ويتوقف الزواج على موافقتها ، ويصبح المهر الذى يقدمه الزوج حقاً لها ، ومنذ القرن السابع نجدها فى القانون القوطى تتساوى مع الرجل فى الميراث . ومن المؤكد أن هذه الحقوق ظلت نظرية فى جانب منها ، واقتصرت فى جملتها على طبقات اجتماعية معينة وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحقوق دون ما تتمتع به المرأة العربية والمسلمة ، واقعاً ونظرياً بكثير . وينبغى ألا ننسى أن العنصر العربى على قلته ، أعطى إسبانيا اللغة والعادات والنظم والدين ، ونماذج الحياة المشرقية ، ولون المجتمع الأندلسى بمثاله ، وكلها عربية ، وفيما يرى أميركو كاسترو : «التعريب اللغوى يحمل معه التشريق الخلقى والعقلى ، وعلينا أن نضع فى الاعتبار دائماً أن تطبيق لغة سامية وانتشارها ، وإحلالها لهجة مشتقة من اللاتينية ، لا بد أن يؤدى إلى عدد من النتائج من بينها تطوير العقلية » .

* * *

عماذا تحدثنا نصوص «طوق الحمامة» عن المرأة ؟ . لقد عرض الباحثون الكتاب كثيرا بوصفه دراسة فى الحب وعن المحبين ، لكن أحداً لم يقف

طويلا إزاء ما يمكن أن يضيفه إلى معرفتنا بالحياة الاجتماعية فى الأندلس خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وسندرس هنا صورة المرأة فى قرطبة من خلال الطوق لا لكى ندعم فكرة أو نناهض أخرى ، وإنما لنصل إلى تصور قريب عما كان عليه حالها واقعاً فى الحياة على أيام ابن حزم :

وعندما يتحدث ابن حزم عن المرأة فى قرطبة فإنما يفعل ذلك خبيراً بهن ، عالماً بأمورهن ، فهو فيما يحدث عن نفسه : « شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ما لا يعلمه غيرى ، لأنى ربيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب ، وحين تفيل وجهى » ، واهتم بالبحث عن أخبارهن ، وأنسن منه الكتمان فكشفن له عن أسرارهن ، وأطلعنه على غوامض أمورهن ، وأشرف من أسبابهن على غير قليل ، فشب يعرف الكثير من دخائل القصور ، ومؤامرات النساء ، وحيل الجوارى ، وأكسبه ذلك شكاً فيهن ، وسوء ظن فى جهتهن . ولكنه لم يورد لنا كل ما عرف ، ولم يحدثنا بكل ما سمع ، فأبقى على عورات يستعاذ بالله منها فى طى الكتمان .

وأول ما نلحظ فى حديث ابن حزم أنه يقف عند نساء الطبقة العالية ، أى فتيات الأسر التى ينتمى إلى طبقتها ، وحتى الجوارى منهن يتصل حديثهن برجال هذه الطبقة ، ولم يعرض لنساء مشرقيات إلا نادراً ، فى مجال الموازنة ، أو بالدقة فى ثلاث حالات على وجه الحصر : عرض لقصة جرت فى القاهرة ، حين أحب العزيز الفاطمى خليفة مصر ، جارية شغلته عن مولد ابنه المنصور ، والذى سيصبح فيما بعد خليفة مصر ، ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر الله . وحكاية موجزة لقرطبى كان فى بغداد ، هام بعراقية ، وتزايد عليه أمرها ، وخشى الفتنة ، فخرج إلى البصرة ومات بها عشقا . والحكاية الأخيرة رواها أبو بكر محمد بن بقى الحجرى عن نفسه ، فقد التقى فى

بغداد بابنة وكيلة الخان الذى ينزل فيه ، فأحبها وتزوجها ، ولـكنها فارقته لسبب لا أرى ذكره مناسباً هنا(١) .

ولم يتعرض للمرأة فى الطبقة الوسطى أو الدنيا ، ولا نجد لديه ولا إشارة واحدة ، حتى ولو من بعيد ، عن المرأة المستعربة أو اليهودية ، وهو أمر طبيعى من رجل لا يكتب بحثا ، وإنما يدفع بذكرياته ، وما رأى أو سمع ، من خلال دراسته عن الحب ، وما كان لأى من هاتين الطبقتين أن ترتفع إلى مجلس ابن حزم ، خارج نطاق الدرس ، ولم يجلس فيه أستاذاً إلا بعد سنوات من تأليفه « الطوق » ، أو يعير أحداثها نصيباً ، من اهتمامه ، وبداهة كانت تحب وتعشق وتتحرك فى حياتها العاطفية داخل قيم ، قد تلتقى أو تختلف مع مثل الطبقة العليا ، ولـكنها متأثرة على التأكيد بوضعها الاقتصادى والطبقى الذى تعيش فيه .

يهدف كتاب « طوق الحمامة » إلى تحليل المشاعر العاطفية ، ومواقف العشاق ، ويأتى الحديث عن المرأة فيه بوصفها ط. فأ فى هذه القضية ، وليدعم ابن حزم آراءه أورد عدداً من الوقائع الغرامية حدثت فعلا ، ولو أنه يصعب علينا فى أحوال كثيرة أن نحدد نوع المحبوب : أهو فتاة أم غلام ، أو نعرف ظروفه الاجتماعية ، وأحياناً ترد القصص فضفاضة ، يعسر علينا أن نستنتج منها شيئاً محدداً ودقيقاً ، ويتعمد ابن حزم ذلك ، حفاظاً على أسرار الناس ، واحتراماً لحياتهم الشخصية ، وكثيراً ما يكنى عن الأسماء ، لأنها « إما عورة لا نستجيز كشفها ، وإما نحافظ فى ذلك صديقاً ودوداً ورجلا جليلا » ، واكتفى بأن يسمى من لا ضرر فى تسميته ، ولا يلحقه والمسمى عيب فى ذكره ، « إما لاشتهار لا يغنى عنه الطى وترك التبيين ، وإما ارضا المخبر عنه بظهور خبره ، وقلة إنكاره منه لنقله » .

---

١ — أنظر صفحة ١٣٨ من كتابه طوق الحمامة ، بتحقيقنا ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٥ .

والقصص المتصلة بالجوارى أكثر من تلك التى يرد فيها ذكر الحرائر ؛ وكلمة «جارية » فى كتاب « الطوق » تستحق وقفة مستأنية . لقد وقف أورتيجا إى جاسيت فى مقدمته التى ترجمناها ، وأوردنا نصها فيما مضى من صفحات عند كلمة « الحب » ، وتساءل عما إذا كان فقه اللغة العربية قد توصل إلى تحديد دقيق لمفهوم اللفظ عند عرب الأندلس فى القرن الحادى عشر ؟. وبدورى أوجه السؤال نفسه : ترى ما هو مفهومهم ، ومفهومنا ، لكلمة « جارية » عند ما ترد فى نصوص « طوق الحمامة » ؟.

تجئ المرأة القرطبية محبوبة خلال « طوق الحمامة » فى ثلاثين موقفاً ، وكلهن ينتمين إلى الطبقة العليا دون شك ، وفى خمسة وعشرين منها نجد أنفسنا . بإزاء حب المؤلف نفسه ، أو حب واحد من أصدقائه ، أو شخصية معروفة له ، لواحدة يصفها بأنها « جارية » ، وفى الحالات الخمس الباقية يشير إلى نساء حرائر صراحة ، من الطبقة نفسها ، على قدر كبير من الثقافة والرقى والصقل ، لايقل عما كانت عليه الجوارى ، ويلعبن فى الحياة العاطفية والاجتماعية دوراً ملحوظاً ومتقدماً . وفيما يتصل بالأحداث العاطفية المتصلة بالجوارى نحن بإزاء لونين منهن : حالات ينص فيها ابن حزم صراحة على أنهن جوارى تجرى عليهن أحوال البيع والشراء ، أو يدعنا نفهم ذلك يقينا ، وفى حالات أخرى صمت وتركنا فى حيرة ، ولو أن جو الأحداث يجعل من المؤكد أن « الجارية » فى مثل هذه الروايات فتاة حرة ، وأن اللفظ يجئ صفة لها ، إيماء إلى ما هى عليه من ثقافة وصبى وجمال ، وأحياناً تأتى فى سياق من المستحيل معه أن تكون أمة رقيقة . والكثرة الغالبة من المستشرقين أقامت دراستها على أن لفظ « جارية » يعنى دائماً أنها رقيقة مشتراة ، والقلة تجاوزت اللون الأخير ، الذى عرضنا له ، دون أن تتوقف عنده أو تبنى عليه حكماً .

إزاء هذا الواقع بدا لى من المفيد أن نحدد أولا معنى كلمة « جارية » . إذا عدنا إلى المعاجم العربية ، وهى بداية طريقنا لتحديد المحتوى ، وجدنا

أنها تعنى فى القاموس المحيط للفيروزبادى : « فتية النساء » ، وفى ديوان الأدب للفارابى : « التى نهد ثديها » ، وتوسع المصباح المنير للفيومى ، وتميز من بين كل المعاجم بأنه يشير إلى الدلالات الفقهية للألفاظ ، فذكر أنها « الشابة لخفتها ، والجارية السفينة ، سميت بذلك لجريانها فى البحر ، ومنه قيل للأمة جارية ، على التشبيه ، لجريانها مستسخرة فى أشغال مواليها ، ثم توسعوا حتى سموا كل أمة جارية ، وإن كانت عجوزاً لا تقدر على السعى ، تسمية بما كانت عليه » . فأنت ترى أن كلمة جارية يراد بها لغة ، فى الأصل : « الفتاة الكاعب الشابة » ، وأضيف أنا ، أنها كانت تطلق فى قرطبة على الفتيات والشابات من الحرائر أيضاً ، ممن يجمعن هذه الصفات ، وصفات أخرى ارتبطت بالجوارى فى تلك الأيام ، من التربية العالية ، والثقافة الواسعة ، والعواطف الدافئة ، والتمكن من الموسيقى ، عزفاً وتذوقاً ، ومعرفة الغناء ، وحفظ الشعر ، وألوان من الجمال الحسى ، كبياض البشرة ، وشقرة الشعر ، وزرقة العينين ، مما حدثنا عنه ابن حزم نفسه ، وسنعرض له فيما بعد .

إذن ليست كل جارية « رقيقة » فى كتاب الطوق ، وتجاهل هذه الحقيقة أدى إلى أخطاء فادحة فى تقييم وضع المرأة الأندلسية ودورها ، وغراميات ابن حزم الثلاثة ، التى تحدث عنها فى الطوق ، تدور حول جوار . فى إحداها يقول : « أحببت فى صباى جارية ... » ، ثم يضيف : إنها نشأت فى دارهم ، ولكننا سوف نجد فى منتصف الطريق من القصة ، أنها لم تنتقل معهم ، حين تركت أسرته منية المغيرة إلى مساكنهم القديمة فى بلاط مغيث ، لأسباب لم يفصح عنها ، واكتفى بقوله : « ولم تنتقل بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك » .

أما فى القصة الثانية فيقول : « كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لى ، كانت فيما خلا اسمها نعم ... » . وتلحظ هنا أنه أضاف الجارية لنفسه ، وأعطانا اسمها ، وتركنا نفهم فى لباقة أنه بلغ بحبه لها غايته ، فعرف

الحياة معها لأول مرة ، وأصبحت هي على يده امرأة ، وكانت المودة بينهما متكافئة ، وأن الموت اخترمها منه فتية ، كان حين ماتت فى سن العشرين ، وكانت هى دونه ، وأقام بعد وفاتها سبعة أشهر حزيناً عليها ، « لا يتجرد عن ثيابه »(١) ، وأنه بكاها طويلا ، على شحيح دمعه ، وجمود عينه .

وأما القصة الثالثة : فجرت فى بيت امرأة من معارفه مشهورة بالصلاح والتقوى ، ومعها « جارية من بعض قراباتها . . . » من اللائى قد ضمها معه النشأة فى الصبا ، ثم غاب عنها أعواما ، تركها حين أعصرت ، وعاد فوجدها جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت فى وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبعثت فى خديها أزاهير الجمال فنمت واعتمت ، وكانت من أهل بيت صباحة ، وظهرت على صورة تعجز الوصاف ، وطبق وصف شبابها قرطبة . وبات عند المرأة التى يعرفها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب عنه الجارية ، على جارى العادة فى التربية ، وكاد قلبه أن يصبو ، ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسى الغزل ، وامتنع بعد ذلك من دخول هذه الدار ، خوفاً على لبه أن يزدهيه الإحسان ، رغم أنها وجميع أهلها ممن لاتتعدى الأطماع إليهن ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل .

فابن حزم ، كما ترى ، يستخدم فى مغامراته الثلاث لفظاً واحدا ، ومع ذلك فأنت لاتشك أنك فى المغامرة الثانية أمام جارية أمة ، أحبها وتركت فى أعماقه ذكرى آسية ؛ ولكنها ذكرى موصول استمتع ، حزين على ماضاع منه . على حين يتحدث فى الثالثة عن فتاة حرة يقينا ، تنادى جارية دلالا ،

---

(١) التعبير لابن حزم ، ومعناه فى لغة العواطف الخاصة غير ما يفهم من ظاهره ، تماما ، إنه يعنى أن ابن حزم لم يمارس ، الحب طوال هذه الشهور السبعة ، على نحو حلال طبعاً ، مع زوجة له ، أو جارية ملكتها يمينه ، وليس المراد منه ، كما يفهم من حرفيته ، أنه لم يغير ثيابه طوال هذه المدة . والتعبير مستخدم حتى الآن بين عدد كبير من القبائل العربية المقيمة فى أهلى صعيد مصر ، وبعضها قدم من المغرب .

لأن الجارية لا تحجب ، وهي موضع الطمع ، وليست لها عائلة تنسب فيها ، وإنما لها سادة يتصرفون في شأنها ، وفتاته هنا على النقيض من ذلك كله ، من بيت كريم ولها أهل ، وليست مطمعا لأحد ، فاختصر الطريق وأمسك بنفسه عن الزلل ، وامتنع من التردد على بيتهم . ويرجح بلك الظن في الأولى رجحاناً لا يبلغ حد اليقين ، أن الجارية فيها حرة وليست من الإماء ، لأن ابن حزم اشتهاها ، وتابعها في إصرار ، وصدته في لطف ، وبقي على الرغبة فيها عامين كاملين ، ولو كانت من الجواري حقا ، تباع وتشترى ، لاشتراها لنفسه ، أو لاشتراها له أبوه ، أو لأفصح عن رغبته هذه على الأقل ، ولقد عرض أكثر من مرة لبيع وشراء الجواري العاشقات أو المعشوقات .

وقد تتبعت استخدام اللفظ ، في وقتنا الحاضر ، في بعض مناطق من العالم العربي ، فوجدت القبائل العربية التي استقرت في أعلى الصعيد من جنوب مصر ، قادمة من المغرب في القرن الحادي عشر الميلادي وما تلاه ، والأندلسيين الذين استقروا في الجزائر أو المغرب أو تونس ، بعد طردهم من وطنهم عام ١٦١٣م ، ما زالوا يستخدمون الكلمة في حياتهم الأسرية ، ينادي بها الرجل زوجه تدليلا لها وتودداً إليها : يا جارية ! .

وتحدث ابن حزم أيضاً عن فتيات حرائر ، يذكرهن بأسمائهن حين لا يسيء ذلك إليهن ، ولا يمس القاعدة التي اختطها لنفسه في أول «الطوق» ، وأشرنا إليها من قريب ، وكلهن ينتسبن في الطبقة العالية التي ينتمي إليها ، ونعرف من روايته أنهن لسن دون الجواري ثقافة وتمكناً من المعارف العامة ، وإجادة للفنون الجميلة وإقبالا عليها ، فهو يحدثنا عن ضنى العامرية ، كريمة المظفر عبد الملك بن أبي عامر ، الذي ولي الحجابة بعد أبيه ، وكان يقرب منه هيبة ونفوذاً وإن قصرت أيامه ، ونعرف أنها تعزف الموسيقى ، وتصنع الألحان لنفسها وتطلب من ابن حزم أن ينظم لها شعراً تلحنه ، وتتغنى فيه .

وعرض ابن حزم مرة واحدة لحالة في أسرتهم ، وذكرها بالاسم ،

حين حدثنا عن الحب العنيف المتبادل بين أخيه أبي بكر ، وزواجه عاتكة بنت قند ،وكانت فيما، يقول : لا مرمى وراءها فى جمالها،وكرم أخلاقها، وكان أبوها قائد الثغر الأعلى على أيام المنصور ابن أبي عامر ، وقد شفها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، وأنحلها شدة كلفها به ، وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه ، لايلهيها من الدنيا شيء ، ولا تسر من أموالها على عرضها وتكاثرها بقليل ولا كثير ، إذا فاتها اتفاقه معها ، وسلامته لها . فلما توفى فى الطاعون الذى اجتاح قرطبة عام ٤٠١ هـ = ١٠١١م ، وهو ابن اثنين وعشرين سنة ، لفها السقم والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام . ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهي كذلك لم يكن لها غيره .

وتستطيع المرأة فى المجتمع القرطبى إذا فاضت مشاعرها أن تعشق ، وأن تعبر عن عشقها ، وأن تأخذ زمام المبادرة ، وأورد لنا ابن حزم مثالين لهذا ، فتاتين حرتين ، وكليهما من طبقته على جاري عادته ، ذكر اسم الأولى ومن أحبته ، لأن غرامهما انتهى بالزواج ، وفارق الزوج والزوجة هذه هذه الدنيا فى زمن متقارب ، قبل أن يحرر كتابه بسنوات ، فلم يجد فى ذكر الأسماء حرجا ، وهي عاتكة بنت قند وأخوه أبو بكر ، على نحو ما ذكرنا من قريب . أما المثال الثانى فعن فتاة من « ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد » ، وأطلق عليها لفظ « جارية » ، رغم أنها حرة أكيداً ، لأن صاحبتها كانت فيما يبدو على قيد الحياة ، وهو يكتب « طوق الحمامة » ، فلم يرد أن يكشف حالها ، ولأن الشاب الذى عشقته كان أكثر من صديق ودود لابن حزم ؛ فهو يصفه بأنه : « من إخوانى جداً » ، وكان الفتى من أبناء الكتاب ، وبلغ بها حبه مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت تختلط ، واشتهر الأمر وشاع جداً ، حتى علمه الأباعد ، إلى أن تدوركت بالعلاج :

وكان الذين يجمعون إلى المركز الاجتماعى المرموق ، صباحة الوجه ، ورجاحة العقل ، واكتمال الصورة ، وارتقاء السلوك ، يصبحون مهبط

الأطماع ، وقبلة الفتيات ، ويحدثنا ابن حزم أن أبا عامر ، ابن المظفر عبد الملك الحاجب الثانى للعامريين ، وحفيد المنصور بن أبي عامر ، كان جاراً لهم ، وبيته ملاصق لبيتهم ، حين كان آل حزم يسكنون منية المغيرة فى الجانب الشرقى من قرطبة ، ويصفه بأنه « من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم ، والمنصب الفخيم ، والجاه العريض » ، وحسن الوجه ، إذا صار إلى بيتهم تخطفته عيون الفتيات ، وتزاحمن على رؤياه ، ومات كثيرات من محبته ، لأنهن علقن أوهامهن به ، وخانهن ما أملنه فيه ، ويقدم لنا ابن حزم واحدة منهن ، جارية تسمى عفراء ، عرفها وعهدها لا تتستر بمحبته حيث جلست ، ولا تجف دموعها ، ويضيف أن أباعامر أخبره بأنه « على اسمها فضلا عن غير ذلك » .

ويقص حديث امرأة مصرية النشأة ، عالية المنصب ، غليظة الحجاب ، رأت فتى من أبناء الكتاب عابراً قرب منزلها ، فعلقته وعلقها ، وتهاديا المراسلة زماناً على أرق من حد السيف ، ويتركنا ابن حزم عند هذا القدر من القصة لايزيد شيئاً ، لأن بطليها معاصرين له ، والمعاصرة حجاب ، ويعتذر لنفسه : « لم أقصد فى رسالتى هذه كشف الحيل وذكر المكائد » ويدعو الله لهما ، ولجميع المسلمين ، أن يسبل عليهم ستره .

كانت المرأة الأندلسية إذن تتمتع بقدر من الحرية لابأس به ، إذا قيس الأمر بأحوال تلك الأيام ، وهى حرية تتحرك فى نطاق تقاليد العصر نفسه ، ومن الخطأ أن نوازن بينها وبين واقع المرأة فى العالم المتحضر على أيامنا . مثلا لم يكن طابع الحياة الاجتماعية يسمح بالاختلاط فى دائرة واسعة على النحو المعهود بيننا ، ولكن الرجال والنساء كانوا يلتقون فى ساحة الدرس ، وفى السمر العائلى ، وفى الحفلات الاجتماعية ، وأعجبنى ابن حزم حين رد حجب الفتيات عن الفتيان الأجانب عن الأسرة فى البيوت

إلى جارى العادة وحدها ، فهو يقول عن الفتاة الجميلة التى التقى بها عند سيدة من معارفه بأنها : « لم تحجب عنى على جارى العادة فى التربية » ، والعادة تختلف من طبقة إلى أخرى ، وتتمايز بين جماعة وجماعة ، وتتفاوت من جيل إلى جيل ، وهو نفسه يحدثنا عن جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، عفيف ومتصاون وبعيد عن المعاصى ، ولا علم عنده ، وكثر غمها ، وطال أسفها ، وضنيت بحبه ، وهو بغرارة الصبا لا يشعر ، ويمنعها الحياء من إبداء رأيها إليه ، وكانا إلفين فى النشأة ، فلما تمادى الأمر شكت ذلك إلى امرأة صائبة الرأى ، كانت تثق بها لأنها قامت على تربيتها ، فنصحتها بأن تعرض له بالشعر ، ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه بها ، إلى أن عيل صبرها ، وضاق صدرها ، ولم تمسك نفسها فى قعدة كانت لها معه ، بعض الليالى منفردين ، فلما حان قيامها عنه ، بدرت إليه فقبلته فى فمه ، ثم ولت ولم تكلمه ، تتهادى فى مشيها ، فبهت وسقط فى يده ، وفت فى عضده ، وكان هذا بدء الحب بينهما دهراً ، إلى أن جذت جملتها يد النوى »

وسيدات الطبقة التى منها ابن حزم وخبرها «مقصورات» «ومحجوبات» على حد تعبيره ، ولكن كلمة «مقصورة» أو «محجوبة» لا تعنى أنهن بمعزل عن الرجل ، وأن أسواراً عالية وصفيقة من التفرقة تقوم بينهما ، وإنما تشير إلى مركزهن الاجتماعى من الثراء والرفاهية ، فهن لا يفارقن البيوت عاملات أو ساعيات فى طلب الرزق ، ولهن من الخدم والأعوان ما يغنيهن عن الخروج ، فهن يقضين حياتهن فى البيوت — وأى بيوت ! يجلسن جماعات ، تأتيهن الأخبار ، ويتبادلن آخر الإشاعات ، ويحببن على الوصف « أقاربهن من الرجال ، وحب النساء فى هذا أثبت من حب الرجال » . ويقص علينا ابن حزم خبر صديق له من سروات الرجال ، دهى بمحبة جارية مقصورة ، وهام بها ، وقطعه حبه عن كثير من مصالحه ، إلى أن كانت هى التى تعذله على ما ظهر منه ، ومما يقوده إليه هواه . فكرهت

تأتى لهذه « المقصورة » أن تعذله له لو لم تكن تلقاه. وتتحدث إليه ؟

ويدرك ابن حزم واعياً دور الفراغ والتبطل ، والترف مع القدرة ، والسلامة والصحة ، في حياة المرأة ، وكيف يصبح الزواج معها مطلباً وغاية وبهجة ، وإليها يرد دوران فكرها حول الجنس ، وإلحاحها عليه، « وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء ، إلا أنهن متفرغات البال من كل شىء ، إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه، لا شغل لهن غيره ، ولا خلقن لسواه . والرجال مقتسمون فى كسب المال ، وصحبة السلطان ، وطلب العلم ، وحياطة العيال ، ومكابدة الأسفار ، والصيد وضروب الصناعات ، ومباشرة الحروب ، وملاقاة الفتن ، وتحمل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهكذا كله متحيف للفراغ ، صارف عن طريق البطالة » وهى لفتة عصرية ، رغم ألف عام مضت عليها ، تحسب لابن حزم ، وتلتقى مع أحدث نظريات علم النفس الحديث .

وقدم لنا ابن حزم عرضاً ، وفى إلماحات خاطفة ، ألواناً من المهن التى أسهمت فيها المرأة أو اختصت بها ، من غير طبقته بالطبع ! ، فهى تعمل مربية ومدرسة لأبناء الطبقة العليا ، وتربى هو نفسه على يدها ، تعلم معها القرآن ، وأجاد الخط ، وتذوق الشعر ، ومنهن كانت الطبيبة والحجامة ، والسراقة والدلالة ، والماشطة والنائحة ، والمغنية والكاهنة ، والمعلمة والمستخفة ، والصناع فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك ، ومن نافلة الحديث القول بأن المرأة فى الطبقة العليا كانت تحسن الموسيقى ، وتعزف ألوانها المختلفة ، وتجيد الغناء فى ألحان تصنعها أو تصنع لها ومن بينهن الثريات اللائى تتميز أملاكهن عن أملاك أزواجهن ، ويدرنها لحسابهن ، أملاك عريضة وواسعة ومن الجوارى من كانت للبهجة والمعاشرة ، فهى مثقفة قارئة ، تغنى وتجيد الموسيقى ، وتقرض الشعر ، وتنشده لغيرها إن لم تحسن نظمه ، ومنهن التى ليست على شىء من ذلك ، أو حظها منه قليل ، فهن للخدمة وما شق من أعمال البيت .

وكانت المرأة تتراسل مع من تحب ، وتتلقى رسائله أيضاً ، وقدم لنا ابن حزم ألواناً من هذا التراسل ، صوره وطرائقه وحيله وكيف يجرى ، فالرسالة تجىء فى « ألطف الأشكال ، وجنسه أملح الأجناس » وهى لا تعنى أن اللقاء بين الاثنين عسير دواما ، فقد تكتب لهذا السبب ، أو لأنها أبلغ تعبيراً فى بعض الأحيان ، لحصر فى الإنسان ، أو حياء أو هيبة ، وبعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ، ويحسن الوصف ، ويعبر عما فى ضميره بلسانه عبارة جيدة ، ويجيد النظر ويدقق فى الحقائق ، لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل ، قريب الدار ، أنى المزار ، ويحكى أنها من وجوه اللذة . ويحمل الرسائل عادة النساء من ذوات المهن اللائى أشرت إليهن من قريب ، وكان دخولهن إلى البيوت سهلا وميسورا ، إلى جانب من لا يخشى خطره ، ولا يلفت النظر إليه ، لأنه خامل لا يؤبه به ، ولا يهتدى للتحفظ منه ، من الصبيان وأصحاب الهيئة الرثة ، أو البذاذة فى الطلعة ، وممن لا يلحق الشك به لنساك يظهره ، أو سن عالية قد بلغها ، ويبدو أن دور النساء العجائز بين هؤلاء كان أكثر شيوعاً ، ينفذن إلى الحجب المصونة ، ويخترقن الأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، ويعرف ابن حزم أمثلة واقعة لكل هذا ، ولكنه لا يذكر أسماء أصحابها ، ولا يزيد الأمر توضيحاً حتى لا ينبه عليها ، ويكتفى بأن يؤكد على « ذوات العكاكيز والتسابيح ، والثوبين الأحمرين » ، ويشير إلى أن الفتيات الشابات كن يتلقين التحذير منهن ، ويحدث أحيانا أن تستخدم المرأة او الرجل حاملا للرسالة ذا قرابة من المرسل إليه ، لا يضن معها عليه بهذا العون . وكان المقتدرون يستخدمون الحمام الزاجل أحيانا .

وكان العشاق يتبادلون الهدايا ، على قدر متساو بين المرأة والرجل ، نعرف ذلك من ألوان الهدايا التى ذكرها ابن حزم ، ويبدو أن الأمر كان شائعاً ، فقد جاء به عالم قرطبة الكبير مؤكداً فى أسلوب القصر :

« ومارأيت قط متعاشقين إلا و هما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعنبر ، مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت فى أصلها بالمصطكى ، وبالشمع الأبيض المصفى ، و لفت فى تطاريف الوشي والخز ، وما أشبه ذلك ، لتكون تذكرة عند البين . وأما تهادى المساويك بعد مضغها ، والمصطكى إثر استعمالها ، فكثير بين كل متحابين حظر عليهما اللقاء » .

ونعرف أن الزواج كان يتم فى سن مبكرة للغاية ، فقد تزوج أبو بكر ، أخو ابن حزم ، فى الرابعة عشرة من عمره تقريباً ، على ما نفهم من قصة له فى الطوق ، ونفترض أن زوجته كانت فى مثل هذه السن تقريباً ، إن لم تكن أصغر قليلا ، فقد توفى فى الطاعون الذى اجتاح قرطبة فى يولية من عام ١٠١١م ، فى الثانية والعشرين من عمره ، بعد زواج استمر ثمانية أعوام . والعجائز كن يلعبن دوراً فى تهيئة الظروف بين الخطيبين ، فالمرأة إذا أسنت وصلحت ، وانقطع عندها الرجاء ، انصرفت إلى العبادة ، ونسكت بعمل الخير ، فهى تذلل العوائق ، وتحمل الرسائل ، وتحفظ السر ، وأحب الأعمال إليها ، أو أرجاها للقبول ، سعيها فى تزويج يتيمة ، او إعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة . ويؤثر أبناء الطبقة العليا أن يتزوجوا من فتيات ينتسبن فى طبقتهم نفسها ، إلى جانب ما يتسرون ، وتتدخل الأم إذا حاد ابنها عن هذا النهج ، ويقص علينا ابن حزم أن يحيى بن محمد بن عبدة ، وهو من بيت قرطبى عريق ، أراد أن يتزوج من جارية كانت فى بيتهم ، فباعتها أمه على غير إرادته ، وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات ، ففقد عقله ، وأصيب بالجنون :

ونعرف من «الطوق» أن رجال الطبقة العالية يفضلون الشقروات ، وكن العنصر الغالب بين نساء الأندلس فيما يبدو ، وكانت نعم صاحبة ابن حزم التى عرضنا لها من قبل شقراء ، ولم يكن يرضى بغير الشعر الذهبى بديلا حتى ولو كان على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، ويجد ذلك فى أصل تركيبه ، ولا تواتيه نفسه على سواه ، ولا يحب غيره ألبتة ، وجاء فى هذا على مذهب أبيه كما يقول . وكان أمراء الأندلس وخلفائه مجبولين على تفضيل الشقراوات ،

لاختلاف فى ذلك منهم مختلف ، وكانوا أنفسهم شقراً نزاعاً إلى أمهاتهم ، وترك ذلك الاتجاه بصماته واضحة فى شعر الغزل الأندلسى بعامة ، وعند أبى عبد الملك مروان المعروف بالطليق بعامة ، وكان أشعر أهل الأندلس على زمانه ، وجاء شعره الغزلى كله فى شقراوات (١).

وكانت عادة التسرى واتخاذ الجوارى إلى جانب الزوجة شائعة ، لأن ابن حزم حين أراد أن يثنى على الحياة الزوجية لأخيه قال إنه لم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وبالمثل يمكن القول ، وهو رد فعل طبيعى ، أن الرجل حين لا يقنع بزوجه ، ولا يخلص لحياة أسرته ، أن تمد الزوجة رغبتها إلى غيره ، ويذكر ابن حزم أيضاً ، فى مقام الثناء على زوجة أخيه ، أنها لم يكن لها غيره. ولكن الجارية تستطيع أن تصد سيدها عن الاستمتاع بها ، وبخاصة إذا كانت تبيت على حب قديم ، ويحدثنا ابن حزم عن جارية رائعة جميلة كانت فى دار ابن الركيزة ، محمد بن أحمد بن وهب ، سبق لها مولى ، وجاءته المنية ، وبيعت فى تركته ، فأبت أن ترضى بالرجال بعده ، وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله ، وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ، ورضيت بالخدمة ، والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة ، وفاء منها لمن ذهب ووارته الأرض ، والتأمت عليه الصفائح ، ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريه ، ويخرجها مما هى فيه ، فأبت . فضربها غير مرة ، وأوقع بها الأدب ، فصبرت على ذلك كله ، وأقامت على امتناعها .

وكانت المرأة صاحبة الرأى فى زواجها ، ويحدثنا « الطوق » عن جارية جميلة كانت لسعيد بن منذر بن سعيد ، صاحب الصلاة فى جامع قرطبة ، على أيام الحكم المستنصر ، أحبها وتعلق بها وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها ، فطلبت منه ساخرة أن يتخفف من لحيته ، وكانت طويلة كثة ، لأنها تستبشع

---

(١) أنظر دراسة كاملة عنه فى : غرسية غومث ؛ مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، ص ٨٣ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م .

ضخامتها ، وأعمل فيها الجاهين ، على حد تعبير ابن حزم ، حتى لطفت ، ثم دعا بجماعة أشهدهم على عتقها ، وحين خطبها لنفسه لم ترض به ، وكان في جملة من حضر أخوه حكم بن منذر ، فأسر إلى واحد في المجلس أن يعرض عليها رغبته في خطبتها لنفسه ، فرضيت به ، وتزوجته في ذلك المجلس بعينه ، وكرهت قرطبة هذا الموقف من الحكم ، على نسكه وورعه واجتهاده ، ولكن الجارية أنفذت رأيها ، وما كانت لتستطيع لو لم يكن لها ذلك حقاً مقرراً .

وقد حرص الحادون من الكبار والقادة على أن يقيموا دون حياتهم الخاصة أسواراً عالية ، وأستاراً صفاقاً ، ينأون بها عن أحاديث السمر ، ويجلون أشخاصهم أن تصبح موضع القال ، ولقد تغزل شاعر من قرطبة في السيدة صبح أم هشام المؤيد ، وكانت في فترة من حياتها على صلة بالمنصور بن أبي عامر ، ودفع بالشعر على لسان جارية تغني في مجلسه ، فلما غنت به ، حتى أمر بقتلها . وكان البيت المالك ينأى بفتياته أن يصبحن حديثاً يدور على ألسنة الشعراء تغزلا وإعجاباً ، وحين تغزل أحمد بن مغيث ، وينتسب أسرة قرطبية عريقة ، بإحدى بنات الخلفاء ، ولم يفصح لنا ابن حزم عن اسمها ، كجاري عادته في مثل هذه المواقف ، قتل وأبعدت أسرته عن المناصب العامة ، وكان ذلك سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم .

ويقدم لنا ابن حزم صورة دقيقة ومفصلة للمرأة حين ترغب ، ولها حين تكره ، « ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل ، فعهدتها أصفى من الماء ، وألطف من الهواء ، وأثبت من الجبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون في الملون ، وأنفذ استحكاماً من الأعراض في الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كدر القطا ، وأعجب من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجمل من وجه أبي عامر ، وألذ من العافية ، وأحلى من المنى ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش في الحجر » .

« ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أقطع من الموت ، وأنفذ من السهم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحمق ، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية المصاب ، وأشنع من خرق العادات ، وأفظع من فجأة البلاء ، وأبشع من السم الزعاف ، وما لا يتولد مثله عن التحويل والترات ، وقتل الآباء وسبى الأمهات » :

وتبقى نظرة ابن حزم إلى المرأة . هل أستطيع القول أنها نظرة الكثرة الغالبة من طبقته وفى جيله ؟ . هممت أن أرجح ذلك ، لولا أن ابن حزم حرر كتابه ولما يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، وهى سن تغلب فيها الحماسة والاندفاع والانفعال ، فيجيء حصادها الفكرى متسما بالقوة والتوهج ، ولكنه أقرب إلى الذاتية المنفعلة منه إلى الموضوعية المتأملة ، ولعله فيما عاش من أعوام امتدت به حتى قاربت السبعين ، طامن من حدته ، وأعاد النظر فى أفكاره ، ولو أنها فى جوهرها ظلت صحيحة وسليمة دون ما شك . وقد أنصفها فى مواطن كثيرة ، فيرى أن الرجال والنساء سواء فى قمع الشهوات والميل إليها : « وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب ، وطال ذلك ، ولم يكن ثم مانع ، إلا وقع فى شرك الشيطان ، واستهوته المعاصى ، واستفزه الحرص ، وتغوله الطمع . وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ، حتما مقضيا ، وحكما نافذاً » . « وشئ أصفه لك تراه عيانا ، وهو أنى ما رأيت قط امرأة فى مكان تحس أن رجلا يراها ، أو يسمع حسها ، إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه فى غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك ، ورأيت التهمم لمخارج لفظها ، وهيئة تقلبها ، لا ئحاً فيها ، ظاهراً عليها ، لاخفاء به . والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء » :

« ولست أبعد أن يكون الصلاح فى الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا ، وإنى رأيت الناس يغلطون فى معنى هذه الكلمة ، أعنى الصلاح ، غلطا بعيداً . والصحيح فى حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هى التى إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت : والفاسدة هى التى إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت فى أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة فى الرماد ، لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شئ » .

ويرى أن المعاناة اليومية إذا جارت ، والخدمة إذا تجاوزت الحد ، والغذاء إذا قل ، تذهب بجمال المرأة وتأتى على نضارتها ، « وإنما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت . ولذلك قال من قال : إن حسن الرجال أصدق صدقا وأثبت أصلا ، وأعتق جودة ، لصبره على مالقى بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح ، واختلاف الهواء وعدم الكن » . ولست أرى الأمر كذلك ، فالحق أن الرجل والمرأة فى هذا سواء أيضاً .

ولم يكن ابن حزم يرى فى سماع الغناء ، ولو من امرأة ، أو الموسيقى ، شيئاً يكره ، أو يخالف قواعد الشريعة ، مادامت المتعة تجئ من الفن وحده ، دون أن تحرك المرأة كأنثى فى أعماق الرجل اللذات الشهوة ، ويقول عن نفسه : « وإنى أذكر أنى دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صوته ، وتألف القلوب أخلاقه ، للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه ، فسارعت إليه ، وكان هذا سحراً » . لقد استجاب ابن حزم للدعوة ، ولكنه أمسك عن الذهاب ، بعد أن صلى الصبح ، وأخذ زيه ، لأن فكراً طرقه ، فسنحت له أبيات من الشعر ، فبقى معها حتى أكملها ، ثم كتبها ودفعها إلى صديق كان معه .

ولم يكن ابن حزم محسن الظن بالمرأة كثيراً ، وهى نتيجة طبيعية لما مر تحت عينه من تجارب وأحـــداث ، حين كان صبياً ، أو فى سن فتية ، فلم يستطع لها تعليلا علمياً ، ولا ردها إلى أسبابها المنطقية ، ولا نسى شيئاً مما رآه بينهن ، فأدى ذلك إلى غيرة شديدة طبع عليها ، وسوء ظن فى جبلتهن فطر عليه ، وقد أشرف من أسبابهن على غير قليل .

ونلاحظ فى نهاية المطاف أن ابن حزم على امتداد كتابه أمسك عن أية إشارة تتصل بحياته الأسرية ، ولم يعرض لأية أحداث تتصل بعائلته ، فلا نعرف شيئاً ، ولو عارضا ، عن زوجه أو أمه ، خارج اعترافاته الذاتية عن غرامياته ، ولم ينته فى أى منها إلى زواج ، وعدا حديثه عن أخيه أبى بكر وزوجه عاتكة. ولا نجد بين صفحات الكتاب صدى لولادة بنت المستكفى ، وعاصرت ابن حزم ، وكانت حديث قرطبة ومنتدياتها ، لأن ولادة أخذت طريقها إلى الشهرة والتحرر بعد وفاة والدها الخليفة المستكفى عام ١٠٢٥م ، وهى على أبواب السادسة عشرة من عمرها ، طرية الإرادة ، غفلا من التجربة تشق طريقها إلى المجد خائفة وجلة ، وسط أحداث صاخبة ، وفى عاصمة قلقة ، تبيت على فتنة وتصبح فى بركان . ومع خطاها الأولى لم يكن ابن حزم فى قرطبة ، كان خارجها ملاحقاً ومضطهدا ومنفياً ، وقبل هذا التاريخ لسنوات ثلاث تقريباً كان فى شاطبة يحرر رسالته ، ولم يكن ساعتها فى حياة ولادة ما يرفعها إلى مرتبة أن تصبح واحدة من بطلات الطوق ، وأن تدخله تاريخاً يروى ، وحدثاً يسجل ، وعرفها ابن حزم على التأكيد طفلة ، كما عرف أبوها ، وكان قد ألقى به فى « المطبق » أقسى سجون قرطبة ، مع ابن عمه(١) أبى المغيرة واحتفظ له ابن حزم بكراهية عميقة واحتقار شديد .
ولا يعرض الكتاب لغير نساء الطبقة العليا من قريب او بعيد ويجئ حديثه عن المرأة أصلا فيما يتصل بموقفها محبوبة أو عاشقة ، وهو الموضوع الذى أدار عليه رسالته ، ويجيء غيره قليلا وعرضاً ، للتأكيد أو التدليل أو التوضيح .

---

(١) أنظر صفحة ٦٦ من هذا الكتاب .

مؤلفات فى الحب

سبقت طوق الحمامة

شغلت قضية الحب العرب علمياً مع بداية الازدهار الثقافى ، ن مطلع القرن التاسع الميلادى ، حين وضع كل شئ على بساط البحث ، وتعرضت كل الآراء لسهام النقد ، ونظر الباحثون فى كل المسلمات ، وشغل العصر بألوان من الفكر والجدل ، والإيمان والإنكار ، على نحو لاتتسع له الحياة إلا حين ترقى ، وبحسبك أن حياتنا الإسلامية الآن ، بعد ألف عام كاملة من الزمان ، لاتتسع لمثل هذه الألوان من الدرس ومن الخلاف .

يذكر المسعودى فى الجزء الثانى من كتابه « مروج الذهب : « تنازع الناس فى ابتداء وقوع الهوى وكيفيته ، وهل ذلك من نظر وسماع واختيار واضطرار ، وماعاد وقوعه بعد أن لم يكن ، وزواله بعد كونه ، وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه »(١) .

وتضم طبعة باريس منه ، فيما يذكر المستشرق جوستاف فون جرنباوم ، حديثا مفصلا عن مجلس فى قصر يحيى بن خالد البرمكى ، ضم اثنى عشر مسلماً وموبذاً واحداً ، قدم كل واحد منهم رأيه فى طبيعة العشق ، فى جمل محكمة ، تتفق جوهرا ، وإن اختلفت شكلا وتركيبا ، وجملة ما رأوا : أن الحب ثمرة المشاكلة بين المحب والمحبوب ، ولا يكون إلا بازدواج النفسين ، وامتزاج الشكلين ، وهو دليل على تمازج الروحين : ومن اعتدال الصورة ، وتكافؤ فى الطريقة ، وملاءمة فى الهمة ، ويتخلل فى القلب كما تتخلل قطرات المطر بين ذرات الرمل . وهو سحر ، أخفى وأحر من الجمر ؛ والمحب جواد مشرق الطبيعة ، فائق الشمائل ، وينبعث من تجانس الأرواح نور ساطع تهتز لإشراقه طبائع الحياة ، فيصير من ذلك اللمح نور خالص ،

---

١ — طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، صفحة ٢٨٤ .

لاصق بالنفس ، متصل بجوهريتها ، يسمى عشقاً . والعشق نار تتأجج فى القلب ، يعقد اللسان ، وبه يصبح المحب عبداً مملوكاً ، ولا ينجح فيه علاج ، والإفراط فيه يحطم الجسد ، ويعانى المحب من اللوعة والأرق ، « صومه البلوى ، وإفطاره الشكوى » ، وهو أشرف سبب للفناء » .

وهؤلاء الرجال كما سماهم المسعودى (١) :

• على بن الهيثم ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من المصادر

• أبو مالك الحضرمى ، وليست له أية ترجمة فيما رجعت إليه من المصادر .

• محمد بن الهذيل العلاف ، أبو الهذيل ، ولد حوالى سنة ١٣٥ هـ — ٧٥٢ م ، وتوفى ٢٢٦ أو ٢٣٥ هـ — ٨٤٠ أو ٨٥٠ م ، وكان مولى لقبيلة عبد القيس ، وتلميذ عمرو بن عبيد ، وهو مولى كذلك ، وعرف بالصلاح والتقوى ، واشتهر بالزهد والورع ، واعتنق رأى واصل بن عطاء فى الاعتزال ، وألف كتباً كثيرة لم تصلنا . ويعد أبو الهذيل من كبار المعتزلة ، وهو المؤسس الحقيقى للتأليف فى علم الكلام .

• هشام بن الحكم الكوفى ، المتوفى نحو عام ١٩٠ هـ — ٨٠٥ م ، متكلم مناظر ، كان شيخ الإمامية فى وقته ، ولد بالكوفة ، ونشأ فى واسط ، وسكن بغداد ، وانقطع إلى يحيى بن خالد البرمكى ، فكان القيم بمجالس كلامه ونظره ، وصنف كتباً منها : الإمامة ، والقدر ، والشيخ والغلام ، والرد على المعتزلة فى طلحة والزبير ، والرد على الزنادقة ، وغيرها . وكان حاضر الجواب ، سئل عن معاوية : أشهد بدرا ؟ فقال : نعم ، من ذاك الجانب ! ، ولما حدثت نكبة البرامكة استتر ، وتوفى على إثرها بالكوفة ، ويقال عاش إلى خلافة المأمون .

• إبراهيم بن سيار النظام ، أبو إسحاق ، كان من أعظم تلاميذ محمد بن

---

١ — فون جرنباوم ، دراسات فى الأدب العربى ، ص ٨٧ ومابعدها ، ترجمة إحسان عباس وآخرين .

الهذيل العلاف ، ترك البصرة موطن نشأته إلى بغداد بعد مدة ، وتوفى بها فى عنفوان شبابه ، بين سنتى ٢٢٠ و٢٣٠ هـ — ٨٣٥ و٨٤٥ م ، ووقف حياته على مقاومة الدهرية والديصانية ، أو بمعنى آخر ضد الفلسفة الهلينية ، والتى أثرت على الرغم من هذا فى بناء مذهبه الدينى تأثيراً حاسماً ، ودافع عن القول « بخلق القرآن » ، وحارب قول الحنفية « بالرأى والقياس » ، وكان إلى جانب ذلك بارعاً فى اللغة والجدل وقول الشعر ، وكان الجاحظ من أظهر طلابه ومريديه ، وقد تعارفا فى البصرة فى مجالس أبى الهذيل العلاف ، رغم أن التلميذ كان يكبر أستاذه بعشرين عاما ، إلا أن الأستاذ كان يتمتع بمنزلة عالية فى علم الكلام ، وبمكانة اجتماعية رفيعة .

• على بن منصور ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من المصادر .

المعتمر بن سليمان بن طرخان ، أبو محمد ، ولد سنة ١٠٠ هـ — ٧١٨ م وتوفى عام ١٨٧ هـ — ٨٠٣ م ، كان وأبوه من العباد النساك ، ومن حفظة الحديث فى البصرة ، انتقل إليها من اليمن ، وكان ثقة ، حدث عنه كثيرون منهم أحمد بن حنبل ، وله كتاب فى المغازى .

• بشر بن المعتمر ، أبو سهل ، المتوفى عام ٢١٠ هـ — ٨٢٥ م ، ينحدر من الكوفة ، ولكنه استوطن بغداد ، ونظم تعاليم المعتزلة فى شعر لتشيع بين الناس ، وكان من أنصار الإمام على رضى الله عنه ، على النقيض من معتزلة الكوفة ، فوضعه هارون الرشيد فى السجن ، غير أنه عاد فاكتسب نفوذاً قوياً فى عهد المأمون وانتهت إليه رآسة المعتزلة فى بغداد ، وكان إلى جانب ذلك شاعرا ، وله قصيدتان تعليميتان أوردهما الجاحظ فى كتابه الحيوان وشرحهما ، وألف لهارون الرشيد « صحيفة » فى البلاغة أوردها الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » .

• ثمامة بن أشرس النميرى ، مولى بنى نمير ، كان زعيم القدرية فى زمان المأمون والمعتصم والواثق ، وهو الذى دعا المأمون إلى الاعتزال ، وتروى عنه قصص تشير إلى استخفافه بالدين ، من ذلك أنه رأى الناس

يوم جمعة يتعادون إلى المسجد الجامع لخوفهم من فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : أنظر إلى هؤلاء الحمير والبقر ! ، ثم قال : ماصنع ذلك العربى بالناس ، وقتل ثمامة فى زمن الواثق ، وقيل توفى عام ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م .

• السكال ، من الإمامية ، ولعله محرف عن « السكاك » ، وهو الذى جادل جعفر بن حرب ، وتوفى عام ٢٣٦ هـ — ٨٥٠ م ، وصاحب هشام بن الحكم ، ولم أجد فى كتب التراجم مايلقى على شخصيته المزيد من الضوء .

• الصباح بن الوليد ، من المرجئة ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من المصادر .

• ابراهيم بن مالك ، فقيه بصرى ، جدل لا يعرف له مذهب ، ويظن جرنباوم أنه : ابراهيم بن مالك بن بهوذ البزاز ، المتوفى عام ٢٦٤ هـ — ٨٧٧ م ، ولم أجد فى كتب التراجمات التى بين يدى مايدعم هذا الكلام ، أو ينفيه ، أو يضيف إليه جديدا ، يلقى على شخصية الرجل مزيداً من الضوء .

والشخصية الأخيرة هى الموبذ ، أى قاضى المجوس ، واكتفى المسعودى بوظيفته دون أن يقدم لنا اسمه ، أو من يكون .

فأنت ترى أننا أمام حشد من رجال الفكر ، يمثلون مختلف جوانبه ، فيهم المسلم والمجوسى ، والمتكلم والفيلسوف ، والأديب والفقيه ، ويكاد اجتماع هؤلاء فى مجلس واحد أن يكون ضربا من المستحيل ، ولكنه دون شك يقدم لنا تصوراً دقيقاً وموجزا لما كانت عليه أفكار العلماء ، فى البيئات الثقافية المختلفة ، عن الحب ومشاكله ، ونجد صداها واضحاً عند بعض الشعراء المعاصرين لهم ، وبخاصة عند العباس بن الأحنف ، وفى مؤلفات الدارسين من تلاميذهم ، وممن جاءوا بعدهم .

* * *

كان الجاحظ (٧٦٧ — ٨٦٨ م) ، فيما أعلم ، أول مؤلف عربى كتب فى الحب الإنسانى ، وقد عاصر بعض من ذكرنا فى الفترة السابقة ، وتتلمذ

على البعض الآخر ، وجاء حديثه عنه مختلفاً عن الجميع ، مستمداً من منهجه فى الكتابة ، فهو يجمع بين التسلية والمسامرة ، والإفادة والتعليم . ولقد عرض له فى موضعين ، أولهما فى كتابه « الحيوان » ، حيث أفاض القول عن الجانب العملى منه ، ما يحسن ويسعد ويجمل ، وما يكون فى صالح طرف دون الآخر ، فيؤدى إلى الملل والنفور والتعاسة ، ووازن بين ألوان ممارسته عند الشعوب المختلفة ، وبين المخلوقات غير الإنسانية ؛ وخلال ذلك كله يلقى بتجاربه وملاحظاته ، وهى مفيدة ومتقدمة ، وتقع من العلم الحديث موقع الرضى ، ويتحدث عنها صريحاً ، لا يتحرج ولا يوارى ولا يكنى . وكان « الحيوان » مما كتب فى أواخر حياته ، فجاء حافلا بالمعارف الصادقة فى هذا الباب .

وأما الكتاب الثانى فرسالة صغيرة « فى العشق والنساء » ، وهى فيما يبدو مقتطفات من كتاب لم يكن الجاحظ راضياً عنه كل الرضى ، أو لعله رأى فيه ما يثير مشاعر المحافظين ، « وكان يحرص دواماً على أن تكون حياته الخاصة ملكاً له ، لا يجاهر بمعصية ، ولا يباهى بخطيئة ، يؤثر الستر ، ويبتعد عن مواطن الإثارة ، ولا يرى فى مداراة العامة عيباً ، ويتخذ من مرضاتها مذهباً ، ما دام ذلك لا يحمله على غير ما يرغب فيه من الأفكار والعادات » (١) ويقول فى خاتمة الرسالة ، معتذراً عن الإطناب فيها : « فمنع من ذلك فرط الكبرة ، وإفراط العلة ، وضعف المنة ، وانحلال القوة ، فلما وافق هذا الكتاب منا هذه الحال ، وألفى قلوبنا على هذه الأشغال ، اجتنبنا أن نقصد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجل والمرأة ، فلما اعتزمنا على ما ابتدأنا به ، وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر عددها ، وتبعد غايتها فرأينا — والله الموفق — أن نقتصر منه على ما لا يبلغ بالمستمع إلى السآمة ، وبالمألوف إلى مجاوزة القدر » :

---

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دراسة فى مصادر الأدب ، ص ١١٢ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ ، وقد نفدت والطبعة الرابعة قيد الصدور .

واختتم الجاحظ رسالته ، بما ابتدأ به ابن حزم وغيره كتبهم ، معتذراً عما فيها ، « وليس ينبغى لكتب الآداب والرياضيات أن تحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعانى الصعبة ، التى تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل . على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف ، كما أنه إذا كثر جده ثقل ، ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارىء ، وينفى النعاس عن المستمع » . ولم يصلنا الكتاب الأصلى فيما أعلم ، ولم أجد بين من درسوا الجاحظ من وقف عند المشكلة وأبدى فيها رأيا ، ويبدو لى وقع الجاحظ فى الرسالة مختلفاً ، غامضاً ومضطرباً ، ونلتقى به فى السطور الأولى كمن يكمل حديثاً ليس بين أيدينا بدايته ، ويرد على قوم لانعرف دعاواهم ، ونحن معه بين مترادفات لا تنتهى إلى شىء واضح ومحدد ، وتدور الرسالة إجمالا حول محورين :

• المرأة ، ويتحدث عن مكانتها ، ويراها أرفع حالا من الرجل فى أمور منها : « أنها التى تخطب وتراد وتعشق وتطلب ، وهى التى تفدى وتحمى » : « مما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالله الذى لا شىء أعظم منه ، وبالمشى إلى بيت الله ، وبصدقة ماله ، وعتق رقيقه ، فيسهل عليه ولا يأنف منه ، فإن استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه ، وطار الغضب فى دماغه ، ويمنع ويعصى ، ويغضب ويأبى ، وإن كان المحلف سلطاناً مهيباً ، وإن لم يكن يحبها ولا يستكثر منها ، وكانت قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة الصداق ، قليلة النشب ، وليس ذلك إلا لما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات فى صدور الأزواج » . « ولسنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل ، إن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكنا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال » :

ويقدم صورة مفصلة للمرأة المفضلة على أيامه عند عامة الناس ، من البصراء بجواهر النساء ، وجهابذة الأمر ، فهم « يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون فى منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولا بد من جودة القد ، وحسن الخرط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام ، بين الممتلئة والقضيفة . وإنما يريدون بقولهم مجدولة : جودة العصب ، وقلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول . ولذلك قالوا : خمصانة وسيفانة ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها قضيب خيزران . والتثنى فى مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك من الضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة فى المجدولة أعم ، وهى بهذا المعنى أعرف ... وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : أعلاها قضيب ، وأسفلها كثيب » .

● والمحور الثانى الحب ، ودوره فى حياة الناس ، وما يمليه من مواقف أو يفرضه من سلوك ، وثمة رجلان « لا يعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه مشغول عن التوغل فيــه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن ، لأن فى الرياسة الكبرى ، وفى جواز الأمر والنهى ، وفى ملك رقاب الأمم ، ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب ، والاحتراق فى العشق » .

ويقسم الحب إلى مراتب ثلاث : الحب والهوى والعشق ، فالحب أصل الهوى ، ومن الهوى يتفرع العشق ، والعشق ما يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كمداً على فراشه . ويعرض لبعض ما يعترى العشاق والمحبين من الغضب والنفور والسلو والحنين ، ومن الرغبة والعجز والحاجة إلى إشباع الغريزة ، وسيطرة المرأة على الرجل ، واستحواذها على جانب من فكره ، على الرغم من المشاغل التى تزحم حياته ، وتستغرق فكره ، والسعادة التى تعقب نوال العاشق معشوقه ، وهى سعادة ، فيما يرى الجاحظ ، لا تعدلها سعادة . ثم يقارن بين لذة الظفر بالعدو ، ونيل العاشق ، فيرى

الثانية أقوى أثراً ، وأبلغ متعة : « فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها، وأكمل لذاتها ، ظفر المحب بحبيبه ، والعاشق بطالبيه » .

والرسالة قصيرة ، لاتتعدى عشر صفحات فى طبعة حسن السندوبى لمجموعة « رسائل الجاحظ » (القاهرة ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣ م) ، ويغلب على الشكل الذى جاءت فيه الطابع الإنشائى ، والملاحظات العجلة ، لا يقف معها الجاحظ عند أية فكرة مستغرقاً أو معللا ، ولا يلتقط لها مما حوله شاهداً ، على جارى عادته ، إلا فى حالة واحدة .

وقد دخلت كتب الجاحظ الأندلس فى زمن مبكر ، فى حياة الجاحظ نفسه ، فنحن نعرف أن فرج بن سلام لقى الجاحظ ، وتوثقت الصلة بينهما ، وجمعتهما صداقة وطيدة ، وجاء بكتبه إلى الأندلس ، ومن بينها « البيان والتبيين » أكيداً ، لكن لا يمكن الجزم بأن رسالته « فى العشق والنساء » كانت بينها ، لأن الجاحظ فيما يبدو لم يكن راضياً عنها ، ولا حفياً بها ، وأبعد منه أن نقول أن ابن حزم عرفها ، أو أفاد منها ، لأن المنهج عند كليهما مختلف ، والنظرة متباينة ، ولا نلمح لها فى « طوق الحمامة » أثراً .

وفى الفترة نفسها عاش أبو يوسف يعقوب ، الشهير بالكندى (٨٠٣–٨٧٣ م) ، وتميز بين فلاسفة عصره فى الشرق بأنه من سلالة عربية أصيلة ، ومن ثم أطلق عليه لقب فيلسوف العرب ، وهو أول ، وآخر ، تلميذ لأرسطو عربى الأرومة فى خلافة المشرق ، وكان انتقائياً فى فلسفته ، فحاول على طريقة الأفلاطونية الحديثة أن يوفق بين آراء أفلاطون وأرسطو ، ويرى أن رياضيات فيثاغورس الجديدة أساس كل العلوم . وقد جمع إلى الفلسفة معرفة واسعة بالنجوم والكيمياء والنظريات البصرية ، والموسيقى ، وينسب إليه عدد لايقل عن ٢٦٥ مؤلفاً ، من بينها رسالة فى « العشق » ، ولكنها ضاعت ، شأن معظم مؤلفاته الأخرى ، وقد شاعت كتبه فى الشرق والغرب ، وقرأ روجر بيكون كتابه فى البصريات فى ترجمته اللاتينية ،

وباشرت تأثيراً واضحاً عليه ، ولقد حفظت لنا الترجمات اللاتينية ، ومن بينها ما قام به جيرار الكريمونى ، نسبة إلى كريمونا فى إيطاليا ، عدداً من مؤلفات الكندى أكثر مما هو موجود فى أصولها العربية . ورغم ذلك لا يمكن الجزم بأن مؤلفاته دخلت الأندلس صريحة ظاهرة بوجه مسفر ، وربما دخلت إليه كغيرها صحبة العلوم التطبيقية من فلك ورياضة وطب ، أو تسربت إليه متسترة فى ثنايا الاعتزال ، ولم يصلنا شيء من رسالته فى « العشق » ، ولعلها استقرت مترجمة إلى اللاتينية فى خزانة كتب مغمورة ، فى جانب من أوربا ، تنتظر اليد التى تزيح عنها الغبار . وأتصور أنها دراسة فلسفية تتناول الأمر من جنابه النظرى ، المتصل بالأرواح وتآلفها ، وليس فى « الطوق » ، ولا فى حياة ابن حزم ، ما يرجح أنه رأى الرسالة أو أفاد منها .

* * *

ثم نلتقى بعد الكندى بأبى بكر محمد بن داود الظاهرى (٨٦٨ — ٩١٠م) ، فى كتابه « الزهرة » ، ومن المؤكد أن كتباً أخرى ، غير ما ذكرنا ، سبقته ، ضاعت ولم تصلنا ، لأنه يذكر فى مقدمة كتابه : « وقد رأيت ممن ينسب نفسه إلى الأدب ، ويتحقق بتأليف الكتب ، قصد فى مثل هذا الكتاب إلى مقصد يبعد به عندى من الصواب ، ابتدأ بذكر من عشق من المتقدمين حتى ارتقى إلى ذكر بعض الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وذكر أنهم كانوا من أتباع الهوى على حال لا يجوز أن يضاف مثلها إليهم » . وهى إشارة لا يمكن أن تنصرف واقعاً إلى رسالة الجاحظ ، لأنها على غير ما يصف أبو بكر ، ولا تصوراً إلى رسالة الكندى ، لأن هذه فلسفية وتلك أدبية تاريخية .

يصف أصحاب التراجم أبا بكر بأنه كان عالماً أديباً ، شاعراً ظريفاً ، من أذكياء زمانه ، لين الجانب مصقول المواهب ، وكان رفاق صباه ينادونه « عصفور الشوك » لنحافته وصفرته ، وخلف والده فى رآسة المذهب الظاهرى ولما يبلغ من العمر ستة عشر عاماً ، وتولى التدريس ، وألف فى

الفقه الظاهرى وفى الأصول . وكانت بغداد على أيامه مزدهرة الثقافة ، تتدافع فيها الحركات الفكرية بكل ألوانها ، ترجمة وتأليفاً وحواراً ، تظلها حماية الدولة ، وتغذيها حرية واسعة بلا حدود ، أشبه بما كانت عليه أثينا أيام سقراط ، أو الاسكندرية فى عهد البطالسة ، أو فلورنسة تحت حكم آل مديتشى ، بل إن بغداد وجدت فى شخص الحلاج الصوفى الشهير سقراطها أيضاً ، ولعب ابن داود دوراً فى محاكمته ، ولكنه توفى قبل أن أن يشهد إعدامه فى عام ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م .

كان ابن داود حاد العاطفة منذ صغره ، ويقول عن نفسه : « ما انفككت عن هوى منذ أن دخلت الكتاب » ، وعرف بالتقوى فى الوقت نفسه ، وقاسى من إلحاح الرغبة ومقتضيات العفة ، ومن ثم وجد متنفسه فى البحث عن مثل أعلى فى الحب وفى الحياة ، تستطيع رغباته المكبوتة أن تعبر عن نفسها من خلاله ، فبدأ يؤلف كتاب الزهرة منذ حداثته ، ولما يزل المبتدأ يتردد على الكتاب ، وأطلع أباه على أكثره ، وإذا عرفنا أن الأب توفى عام ٨٨٣م ، أدركنا أن ابن داود كتب الجانب الأكبر من كتابه ولما يتجاوز الستة عشر عاماً من عمره ، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن الكتاب أخذ شكله النهائى فى هذه السن ، وربما كان اختيار الأشعار يعود إلى هذه الفترة ، أما المقدمات والأفكار وترتيب الأبواب فجاء فى مرحلة تالية . وقد شهر صباه بالميل إلى محمد بن جامع الصيدلانى ، وعمل كتاب « الزهرة » بسببه ، فيما يروى الخطيب البغدادى ، وإليه توجه بالحديث فى المقدمة دون أن يشير إلى اسمه ، أو يومئ إلى صفات تحدده .

مهد أبو بكر لكتابة بمقدمة مسجوعة ، ثم عرض لمنهجه ، فذكر أنه استودعه مئة باب ، ضمن كل باب مئة بيت ، ذكر فى الخمسين باباً الأولى منها جهات الهوى ، وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، وجعل الأبواب المنسوبة إلى الغزل أمثالا ، ورتبها على ترتيب وقوعها حالا فحالا ، فقدم وصف الهوى وأسبابه ، وبسط ذكر الأحوال العارضة فيه بعد استحكامه ، ومن

الهجر والفراق وما أوجبه غلبات التشوق والإشفاق ، ثم ختمها بذكر الوفاء بعد الوفاة ، بعد أن أتى على ذكر الوفاء فى الحياة ، ووضع لكل باب عنواناً مسجوعاً ، مثالاً محكماً ، يومئ إلى محتواه ، مثل : « من كثرت لحظاته دامت حسراته ، العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير ، من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه ، ليس بلبيب من لم يصف مابه لطبيب ، إذا صح الظفر وقعت الغير .... » وعلى هذا النحو يمضى فى بقية الأبواب .

أما الخمسون باباً الأخرى فأفانين من الشعر ، اقتصر فيها على قليل من كثير ، وقنع من كل فن باليسير ، وأشار إلى منهجه فيها عند نهاية القسم الأول ، وجاءت أبوابه على النحو التالى : « ماقيل فى تعظيم الله ، ما مدح به النبي وما استشهد به وأنشد بين يديه ، ما قاله شعراء الإسلام فى أهل بيت النبي ، مراثى الملوك والسادات وأهل الفضل والرياسة ، نوح الأهل والأخوان على مافقدوه من الشجعان ، ذكر النوح على من مات من الأبناء والقرابات ، ذكر من جزع فاحتاج إلى تعزية أوليائه ومن رزق الصبر فاستغنى بحسن عزائه ، ذكر التزهيد فيما يفنى والترغيب فيما يبقى ، ذكر أشعار الظرفاء من الملوك والخلفاء ... » ويمضى المؤلف فى عناوين أبواب النصف الثانى على هذا النحو . وهذا القسم ليست له أية صلة بموضوع العشق ، وإنما هى مختارات شعرية تتناول قضايا عامة ، مما يدور حولها الشعر العربى عادة ، وتعرض لها كتب السمر والمختارات ، يعلق عليها بر أى مقتضب له ، أو ينقل عن غيره ، ومن بين الشعراء الذين تتردد أسماؤهم كثيرا : امرؤ القيس وأمية بن أبى الصلت ، والنابغة الذبيانى ، والقطامى ، والحطيئة ، وأبو تمام ، والبحترى ، وبشار بن برد ، وجميل بن معمر ، والحسن بن الضحاك ، وذو الرمة ، ومجنون بنى عامر . ولم يهمل الآحاد غير المشهورين من الرجال والنساء ، المعاصرين له أو الذين بلغته الرواية عنهم ، على غير السائد فى عصره ، وبين المؤلفين على أيامه .

لقد وصف المستشرق الفرنسى ماسنيون فى كتابه « محنة الحلاج »

كتاب الزهرة « بأنه كتاب رائع عن الحياة العاطفية فى تلك الأيام ، ومعرض فنى بآراء المفكرين والأدباء فى بغداد ، وما كان يدور بأذهانهم عن موضوع الحب » ، ويمكن أن نقول : « إنه أول مجموعة من الشعر ، تدور حول الحب الأفلاطونى ، قيلت فى اللغة العربية فى بغداد خلال النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى » .

وصل كتاب الزهرة إلى قرطبة ، كأشياء كثيرة من المشرق ، فى زمن مبكر ، مبشراً بالحب العذرى بين الأندلسيين ، وبعد ثلاثة أرباع القرن من تأليفه ، أثناء خلافة الحكم الثانى ٩٦١—٩٧٦ ، ألف ابن فرج الجيانى ، ويجب أن يكون قد مات فى السجن عام ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م ، كتاب الحدائق ، مختارات من شعر الأندلسيين ، نحا فيه منحى ابن داود فى كتابه الزهرة ، وحاول أن يبزه ، فجعل « الحدائق » فى مائتى باب ، يضم كل باب مائتى بيت من الشعر ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئا ، ويبدو أنه لم يقف بتقليده عند الشكل ، وإنما تجاوزه إلى المحتوى ، فقد حفظ لنا الذين نقلوا عنه قصيدة له تفيض عذوبة وتنضح عذرية :

وطائعة الوصال عففت عنها ... وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت فى الليل سافرة فباتت ... دياجى الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها ... إلى فتن القلوب لها دواعى
فملكت النهى جمحات شوقى ... لأجرى فى العفاف على طباعى
وبت بها مبيت السقب يظما ... فيمنعه الكعام من الرضاع
كذاك الروض ما فيه لمثلى ... سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات ... فأتخذ الرياض من المراعى

ولم يصلنا كتاب « الحدائق » لسوء الحظ ، فلا نعرف عنه إلا القليل جداً الذى نقله عنه ممن جاءوا بعده ، وضاعت معه ثروة هائلة من الشعر الأندلسى تبلغ أربعين ألف بيت ، فى هذه الفترة المبكرة من الحياة الأدبية فى الأندلس ، فلم يكن قد مضى على فتحه غير قرنين ونصف من الزمان .

أخذ كتاب الزهرة شعراً واتجاهاً جانب الحب العذرى ، « وهو موقف ، فيما يرى غرسية غومث فى مقدمته لترجمة الطوق إلى الإسبانية ، يمثل ثورة حقيقية ، لانعرف بالدقة حجم صداها فى واقع الحياة ، لكن دورها فى شعر الغزل الأندلسى ، على الأقل ، كان واضحاً وملموساً . لقد كان الشعر قبله قصائد تدور حول الأغراض التقليدية المعروفة ، أو مقطعات كثيرة ذات نغم فظ وشبق ، مثل ما نجد فى شعر الغزال ، شاعر إسبانى كبير من القرن التاسع الميلادى . وقد وجد هذا التجديد الثائر فى شعر الغزل أنصاراً متحمسين خلال فترة الحجابة العامرية ، وتبنته أخيراً أقلية من الشباب ، يوجهها ابن شهيد وابن حزم ، وجعلته بين دعامات منهجها الجمالى ، ووجدت فى الأخير خير من يدافع عنها ، وربما واحداً من قلائل حاول احتذائها فى حياته ، وأعطاها الطابع الأدبى النهائى بكتابه « طوق الحمامة » ، ممزوجة بالاطف ولون فريد من العفة ، ويمكن أن تدعوها إفلاطونية ، كما يقال عادة وفى تعبير شائع » .

« لقد عرف ابن حزم كتاب الزهرة لابن داود مباشرة ، وهى حقيقة لما تدرس كما يجب ، ذلك أن الأديب القرطبى عرف الفكر الظاهرى فى زمن مبكر ، أسبق بكثير مما يظن عادة ، وقد ارتبطت نظرية الحب البغدادى المصقول ، إلى حد ما ، بوجود المذهب الظاهرى ، غير أنه من الضرورى أن نضيف ، إنه على الرغم من وجود إشارة نصية بسيطة ، ومن التوافق فى الاتجاهات العاطفية ، فإن « الطوق » لا يكاد يدين « للزهرة » بشىء ، أو إن شئت يدين لها بشىء محدود للغاية : لقد تغربت النظرية وتأسبنت ، وفقدت تكلفها الواضح ، وتحذلقها الخنث ، وما كان يقال فى بغداد نثراً رقيقاً ، أو شعراً ملتقطاً ، أخذ ابن حزم يقوله فى شاطبة ، دافئاً وإنسانياً ، عن نفسه وعن أصدقائه فى قرطبة ، وأنت العاطفة واللهفة ، وهما خاصيتان إسبانيتان ، على أسوار التقليد التى تحول دون

تدفق النبع ، فارتووا من أعماقه ، ولكنهم مزجوه بدمائهم . إن الزمن لم يذهب عبثاً ! » .

فعالا أنا مع غرسية غومث فيما ذهب إليه ، لأن التقاء ابن حزم ، كما سنرى ، مع ابن داود فى أكثر من فكرة لا يقلل من أصالته ، لأنه تناول الأمر على نحو مختلف تماماً ، وإن اتفقا فى رأس الموضوع وعنوانه .

أول ما نلحظ من اتفاق بينهما أن كليهما استجاب فى تأليف كتابه لعاطفة دافعة ، ميل ودود عند ابن داود لشخص لم يصرح به ، وذكر المؤرخون اسمه ، «شكا إليه عدم وجود نديم يأنس به فى الخلوات ، ويجد عنده العزاء عن النائبات ، يورد له الأخبار ويكتم عليه الأسرار ، فلما رأى ما به من غلبة الاشتياق ، ومن ميل إلى تعرف أحوال العشاق ، عزم على أن يوجه إليه نديما يشاهد به أحوال المتقدمين ، ويحضره أخبار الغائبين ، ينشط بنشاطه ويمل بملاله ، إن أدناه دنا ، وإن أقصاه نأى » . وصداقة متينة عند ابن حزم ربطته بشخص من المرية لم يصرح باسمه ، ولم يحفظه لنا التاريخ ، لقيه فيها أيام أن هبطها لاجئاً ، مهيض الجناح وحيداً ، إلا من رفقة مواسية ، وما لبث أن لحق به ، بابن حزم حين ترك المرية إلى شاطبة ، كتب إليه أولا ، ثم شخص إليه ثانية : « فإن كتابك وردنى من مدينة المرية إلى مسكنى بحضرة شاطبة ، تذكر من حسن حالك ما يسرنى ، وحمدت الله عز وجل عليه ، واستدمته لك ، واستزدته فيك ، ثم ألبث أن اطلع على شخصك ، وقصدتنى بنفسك ، على بعد الشقة ، وتنائى الديار ، وشحط المزار ، وطول المسافة ، وغول الطريق ، وفى دون هذا ما سلى المشتاق ، ونسى الذاكر ، إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمة ، ووكيد المودات ، وحق النشأة ، ومحبة الصبا ، وكانت مودته لله تعالى » . « وكلفتنى — أعزك الله — أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا متزيداً ولا مفننا ، لكن موردا

لما يحضرنى على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعة باعى فيما أذكره ، فبدرت إلى مرغوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته » .

وكلاهما دافع عن نفسه فى مواجهة اتهام بعض معاصريه له ، أن الكتابة فى العشق أمر لا يليق بأولى الفضل ، يرفع ابن داود فى وجه معارضيه رأيه : « ونحن لو شئنا أن نذكر من كتاب الله جل وعز ، ومن أخبار المتقدمين من أنبيائه ، وأيضاً نخبر من أوليائه ، ما يسهل سبيل الهوى على من أنكرها ، ويقربها من فهم من لم ير أثرها ، من حيث لا يستوجب به من عاقل أنكار ، ولا يلحق بأحد من الأئمة فيه عار ، لرجونا بإذن الله أن لا نقتصر عن ذلك . غير أن هذا الأمر ليس من أمور الديانات التى لا تثبت إلا بالاحتجاجات ، وإنما هو شىء يختص به قوم برقة طباعهم ، وتآلف أرواحهم ، فمن كان مثلهم فهو يعذرهم ، ومن خرج عن حدهم هان قوله » . ويرد ابن حزم على ناقديه : « وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفى لمثل هذا ، ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجافى عن وجهته ، وما أحل لأحد أن يظن فى غير ما قصدته » .

وفيما يتعلق بذكر أسماء العشاق ، يتحرك ابن داود فى نطاق دينى خالص ، فيرفض ما يلهج به الناس على أيامه من عشق الأنبياء ، وأنهم كانوا من أتباع الهوى ، على حال لا يجوز أن يضاف مثلها إليهم ، لأن « إذاعة تلك الأخبار على العامة ونشرها بين الناس خطأ ، فإن العامة قد تفهمها على غير وجهها ، وتستند إليها فى التفريط والعصيان أو تضعها موضع الإنكار ، والنبيون عليهم السلام ، والصالحون من أئمة أهل الإسلام ، يجل مقدارهم عن أن تذكر للعوام أخبارهم ، فيضعوها فى غير موضعها إن قبلوها ، أو يكذبوا حاكيها إن أنكروها » . ولم يكن فى حاجة لأن يوضح موقفه من غير هؤلاء ، لأنه لم يعرض لأحد من معاصريه ، إلا ما كان قصصاً شائعاً ، يتناشده السمار . ويصدر ابن حزم فى هذا

الجانب من منطلق رفيع ومتحضر ، يأخذ الشواهد مما رأى وسمع وحدث له ، ولكنه يلزم نفسه الكناية عن الأسماء : « فهى إما عورة لا نستجيز كشفها ، وإنما نحافظ فى ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً . وبحسبى أن أسمى من لا ضرر فى تسميته ، ولا يلحقنا والمسمى عيب فى ذكره ، إما لاشتهار لا يغنى عنه الطى وترك التبيين ، وإما لرضا المخبر عنه بظهور خبره ، وقلة إنكار منه لنقله » . ويرفض أن يقحم نفسه فى الحياة الخاصة لأمراء عصره ، « وإنما هو شىء كانوا ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم ، فلا ينبغى الإخبار به عنهم » ، لأن « حقوقهم على المسلمين واجبة ، وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين » .

وقد يتفق العنوان عند الإثنين ويختلف المحتوى : فكلا الإثنين ، ابن داود وابن حزم ، خص الرقيب بباب خاص ، ولكن شتان بين معالجة الإثنين ، الأول غرق فى مختارات من الشعر بعد خمسة سطور ، على حين عرض ابن حزم لأمر الرقيب فى جوانبه المختلفة ، وقدم عليه شواهد من عصره ، ومختارات من شعره ، ولو أن حديثه أيضاً كان قصيراً نسبياً .

والشىء نفسه يمكن أن يقال عن « الرسول » ، وهو السفير عند ابن حزم ، قدم ابن داود لهذا الباب بحكاية عن جميل ، يغلب عليها طابع القصة المخترعة ، دون أن يزيد شيئاً ، بينما تحدث ابن حزم عن دور السفير وهيئته وصفاته ، وما يجب أن يتحقق فيه من شرائط ليؤدى مهمته على أكمل الوجوه ، وعدد من كانوا يقومون بهذه المهمة حرفة أو تطوعاً . وكان فيه ، كالعادة ، موفقاً يقف على أرض الواقع ، ونلحظ أن ابن حزم فرق بين الرسول ، وأسماه السفير ، وهو من يقوم بالمهمة بنفسه شخصياً ، وبين المراسلة وتتم عن طريق تبادل الرسائل ، مما ينبىء بأن القراءة والكتابة كانت شائعة فى الأندلس بين الرجال والنساء ، وعند كل الطبقات ، ويبدو أنها لم تكن فى بغداد على هذا المستوى ، لأن ابن داود لم يعرض لهذا الضرب منها ، لا فى باب « الرسول » ولا فى باب آخر مستقل بها .

وكلاهما أوقف على الوشاية باباً مستقلا . وكسره ابن داود على ثلاثة أقسام : سعاية المتحابين إلى غيرهما ، وسعاية المحب إلى محبوبه ، وسعاية المحبوب لمحبه ، وهى قسمة تلمح فيها جانب المنطق الشكلى ، لأنها الصور العقلية للقضية ، دون أن يعنى ذلك أن لها الطابع نفسه فى واقع الحياة . وجعل التأثر بالوشاية على ضربين ، لأنه يختلف تبعاً لأحوال العشاق : « فالعشاق المتيمون لايقبلون قول الوشاة بل لا يسمعونه ، لأن الثقة منهم بأحبابهم ماحية لقول من وشى بهم » . « وأما أهل الوله المتوطون فيقبلون مالا يسمعون فضلا عما يسمعون » . وعرض ابن حزم للوشاية فى حديث مستفيض ، قسمها من حيث الغاية على ضربين : واش يريد القطع بين المتحابين أذية ، وثان يسعى للقطع بينهما لينفرد بالمحبوب ويستأثر به ، وألحق بهما ثالثاً يسعى بهما جميعاً : ويعرض لوسائل الواشى وألوانها تفصيلا ، فى حديث طويل يتناول فيه الكذب والنميمة ودورهما فى إفساد المجتمع بعامة ، ويفرق بين النميمة والنصح تفريقاً جميلا ، ويحمل عليهما بشدة ، ويستشهد على ما يقول بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأشعار له ، وأمثلة لما يعرف مما حدث فى مجتمعه : فالبون شاسع بينهما فى هذا الباب أيضاً ، ولا يدين أديب قرطبة ولا يسطر واحد مما كتب لأفكار فقيه العراق .

ويلتقيان فى موضوع الهجر ، واختار له ابن داود عنواناً مسجوعاً على عادته : « بعد القلوب على قرب المزار أشد من بعد الديار من الديار » . واختار له ابن حزم عنواناً موجزاً ، كلمة واحدة : « الهجر » . وتناولهما للموضوع مختلف جداً ، فابن داود يجعل أضرب الهجر فى قسمة عقلية أربعة : هجر ملال ، وهجر دلال ، وهجر مكافأة على الذنوب ، وهجر يوجبه البغض المتمكن فى القلوب » . على حين يلتقط ابن حزم مادته من حياة العشاق نفسها ، فيجعله : هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر ، وهجر يوجبه التدلل ، وهجر يوجبه العتاب ، وهجر الملل ، وهجر القلى ، وهجر الجفاء . وقد التقى ابن حزم مع ابن داود فى أقسامه وزاد عليها ،

ولكنهما افترقا فيما هو أهم ، ألقى ابن داود بأقسامه الأربعة ثم مضى إلى ما استعذب من شعر غيره ، جرياً على عادته والتزاماً بمنهجه ، أبياتاً وراء أخرى ، دون تعليق منه . وفصل ابن حزم القول فى كل قسم من هذه الأقسام ، عوارضه ونتائجه ووقعه فى القلب ، وضرب الشواهد من حياته نفسه ، وعن أحداث صحبه ، ووشاه بأبيات من شعره منشداً أو متذكراً .

واستشهد ابن حزم بالقرآن والحديث كثيراً : لأنه عرض للكذب والفجور والغدر والنميمة ، وأدانها بشدة، وأوقف باباً على «قبح المعصية»، وآخر على « فضل التعفف » ، ومادة كليهما دينية ، تنهض على أساس من القرآن والسنة ، على حين لا تظهر فى كتاب ابن داود ولا آية قرآنية واحدة، والحديث الوحيد الذى أورده : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ، نلتقى به فى « طوق الحمامة » أيضاً، وهو حديث نبوى متواتر يجرى على الألسنة دواماً ، ولا يحتاج ابن حزم لأن ينقله من كتاب « الزهرة » ، أو يحفظه عن طريقه .

وعلى النقيض من ذلك ، تجد الفلسفة اليونانية صدى أكبر فى كتاب ابن داود ، فقد كانت بغداد على أيامه موطناً لترجمة الفكر الإغريقى إلى اللغة العربية ، وتمتعت بغداد فى عصره بحرية فكرية أوسع بكثير مما تمتعت به قرطبة على أيام ابن حزم ، فكانت مسرحاً لآراء متطرفة وعنيفة فى شتى المجالات ، دينية وفلسفية وسياسية ، ووجدت الفلسفة من الدولة رعاية وتشجيعاً ، على حين سيطر المذهب المالكى على عاصمة الخلافة فى الأندلس ، واقام دون الأفكار الأخرى صعاباً بليغة ، ولم تصبح الفلسفة أمراً محبباً ومرغوباً فيه ومتداولا بين عامة المفكرين ، إلا فى فترات محدودة ، وعلى نحو متواضع . ومن ثم تتردد فى كتاب الزهرة أسماء عدد من فلاسفة اليونان ، ينقل لنا عن بطليموس رأيه فى الصداقة والعداوة ، وعن جالينوس « أن المحبة قد تقع بين العاقلين من باب تشاكلهما فى العقل ، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق ، لأن العقل

يجرى على ترتيب فيجوز أن يتفق فيه على طريق واحد ، والحمق لا يجرى على ترتيب فلا يجوز أن يقع به اتفاق بين اثنين » . ويحكى عن أفلاطون قوله : « ما أدرى ما الهوى ، غير أنى أعلم أنه جنون إلاهى ، لا محموم ولا محمود » . وأخذ على نحو جاد التفسير البالغ السخرية الذى وضعه أفلاطون على لسان أرستوفان لتفسير ظاهرة الحب ، ولكن دون أن ينسبه إلى أفلاطون : « وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً فجعل فى كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك على حسب رقة طبائعهم » . ونسب إلى بعض المتطببين ، دون أن يفصح من هم ، رأياً فى « أن العشق طمع يتولد فى القلب ، وتجتمع إليه مواد من الحرص ، فكلما قوى ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج وشدة القلق ، وكثرة الشهوة ... » ، وأرجح أيضاً أنه ينقل هنا عن طبيب يونانى .

وكان ابن حزم أيضاً على وعى بالفلسفة اليونانية ، واستخدمها على نحو أقل من ابن داود ، وصحح له ما نقل عنها ، حين أخذ رأى أفلاطون فى تفسير ظاهرة الحب ، فهو يرى « أنه اتصال بين أجزاء النفس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة : الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها فى مقر عالمها العلوى ومجاورتها فى هيئة تركيبها » . وأورد حكاية نسبها إلى أفلاطون حين سجنه بعض الملوك ظالماً ، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته ، ثم مضى مع الحكاية إلى نهايتها ، يدعم بها رأيه فى تفسير ظاهرة الحب ، ولم يهتد أحد إلى مصدر هذه الفقرة التى أوردها لنا ابن حزم . ثم نقل قول أبقراط الطبيب : « ما أحبنى أحد إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه » ، وهذه الفقرة أيضاً لا ترد فيما بين أيدينا من التراث اليونانى . ويستشهد بأفليمون صاحب الفراسة : فى أن العين باب إلى القلب ،

ومنا فلذ نحو النفس ، ويجيء عنده بطليموس فى بيت من الشعر ، مؤداه : لو عاش بطليموس لشهد بمهارته فى رصد جرى الكنس . وكان ابن حزم فى كل هذه الحالات أصيلا فى ثقافته ، ولم ينقل عن ابن داود، ولا أفاد شيئاً ، وارتضى أن يصحح له ما خالفه فيه .

ويمكن القول إجمالا ، أن ابن داود وابن حزم يتفقان فى عدد من رءوس القضايا المتعلقة بالحب ، ولكن النبع الذى يصدران عنه مختلف جدا ، فابن داود متأثر بالصور المنطقية لكل قضية ، وبما قرأ أو درس حوله ، يأتى بها فى أول الباب موجزة ، ثم يلحقها بما يناسبها من أشعار فى حدود المئة بيت ، كما اختط لنفسه منذ البدء ، وغلب الشعر على كتاب «الزهرة» وقلت الأخبار فيه ، وحتى ما ورد به من حكايات فإنما هى قصص لمشاهير العشاق ، أخذت طابعاً شعبيا ، وخضعت لقواعد الأسطورة ، وكل جماعة تلونها بما هو أقرب إلى ذوقها ، فأنت معها لا تدرى أين تبدأ الحقيقة وأين ينتهى الخيال ، مثل مجنون ليلى ، وأخبار جميل بثينة ، وكثير عزة ، وعروة وعفراء ، وغيرهما . أما ابن حزم فيصدر عادة عن تجربته الذاتية ، أو تجارب معاصريه التى شهدها أو عرفها ، وربما تجد فى « الطوق » صدى قراءات بعيدة ، فى ثقافات مختلفة ، ولكنها خافتة ، وتأتى ممتزجة بتربة الأندلس ، ومن خلال عادات أهله وحياتهم وتقاليدهم . فكتاب ابن داود مجموعة رائعة من شعر الغزل ، لا تنتمى إلى عصره ، وإنما تعود إلى شعراء عاشوا قبله بقرن أو قرنين من الزمان ، صنفها على أبواب ارتضاها ، دون أن تعكس فى شيء نبض المجتمع حيث يعيش الحب واقعاً ، أما كتاب «طوق الحمامة» فلقطات واقعية لحركة مؤلفه، والذين حوله ، فى مجالات العاطفة، حية ودافئة ، وتنضح إنسانية فى كل جوانبها .



وهناك آخرون عاصروا ابن داود ، وبالتالى سبقوا ابن حزم ، وعرضوا لموضوع الحب أيضاً ، وهم : أديب ، وشاعر ، وجماعة . أما الأديب

فهو : محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء ، أبو الطيب (٨٦٠ — ٩٣٦ م) فى كتابه « الموشى » ، وشهر باسم : « الظرف والظرفاء » ، ولن أقف عنده هنا ، لأن المستشرق الإسبانى غرسية غومث عرض له فى دراسة ترجمتها ، وضمنتها هذا الكتاب ، وجاءت فيه تحت عنوان : «كتاب سبق طوق الحمامة ، وآخر جاء بعده » ، وفيها الغناء ، أو إن شئت ليس عندى ما أضيفه إليها الآن .

وأما الثانى فهو الشاعر العباسى الشهير : أبو العباس بن المعتز (٨٦١ — ٩٠٨ م) ، وولد فى بيت ملك ، وتفيأ أمجاد الخلافة ، وربى فى باحة النعيم وموطن الجلالة ، فنشأ نبيل النفس ، دقيق الحس ، قوى الشعور بالجمال ، ولوعاً بالأدب والموسيقى ، شغله الأدب والطرب واللعب عن دسائس القصر ، ومطامع الحكم ، فلما ولى المقتدر ابن عمه ٢٩٥ هـ = ٩٠٨ م ، وترك تدبير الحكم وأمور السياسة لأمه ومن حولها من النساء والخصيان ، التف الحانقون حول ابن المعتز فخلعوا المقتدر وبايعوه ، فما تبوأ الخلافة غير يوم وليلة ، لأن أعوان المقتدر لم يستسلموا ، وحاربوا خصومهم وقهروهم ، وأعادوا المقتدر إلى عرشه ، واختفى ابن المعتز فى دار ابن الجصاص التاجر الجوهرى ، ولكن أعوان المقتدر سرعان ما اهتدوا إليه واعتقلوه ، ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخازن فخنقه وسلمه إلى أهله ملفوفاً فى كساء .

كان ابن المعتز شاعراً رقيق اللفظ ، سهل العبارة ، بليغ الاستعارة ، رائع التشبيه ، بريئاً من كذب المدح وذم الهجاء ، ويعكس فى شعره ما كان ينعم به من ترف العيش ، ورفاهية النشأة ، وتتجلى فيه معارفه الواسعة من فلك وتنجيم وفلسفة ، وقد أمعن فى اتباع مذاهب القدماء فى الشعر ، ولكنه تأثر بخطى أبى نواس إلى حد بعيد ، وبرع فى وصف الطبيعة ، ومطاردة الصيد ، ومراسلة الإخوان ، وإلى جانب الشعر له مؤلفات أخرى هى : البديع ، والجوارح والصيد ، وأشعار الملوك ،

وطبقات الشعراء ، والزهر والرياض ، وكتباً أخرى ضائعة . ويذكر الأستاذ هلال ناجى ، نقلا عن الدكتور صلاح المنجد ، أن له كتاباً « فى العشق » ، توجد مخطوطته فى مكتبة طشقند فى الاتحاد السوفيتى ، ولا أعرف مصدراً آخر من الدارسين أو فهارس المؤلفين أو المكتبات أشار إليها ، وأجهل محتواها تماماً ، وأتصور أن فيها ما يفيد البحث ، ويضيف إلى سلسلة الكتب التى تدرس الحب جديداً ، وتلقى أضواء كاشفة على طبقته ، وعلى ما بين أيدينا من مصادر أخرى .

وفى غيبة النص لا يمكن القطع ، أو حتى الترجيح ، بأن ابن حزم قد قرأ الرسالة وتأثر بها ، ولكننا نعرف على وجه اليقين أن ابن المعتز كان معروفا فى الأندلس ، ومعروفاً لابن حزم بخاصة ، عرض له فى رسالته « فضائل أهل الأندلس » ، حين وازن بينه وبين الشاعر الطليق : «وأبو عبدالملك» هذا فى بنى أمية ، كابن المعتز فى بنى العباس ، ملاحة شعر وحسن تشبيه» . وكان فى تراث ابن المعتز ، و فى حياته ، الكثير مما يعجب به ابن حزم ويحرص عليه ، وأقف بالاحتمال عند هذا القدر ، إلى أن يتاح لى أن أقف على رسالة ابن المعتز « فى العشق » أو أقرأ عنها ما يعين على اليقين .

وأما الجماعة فإخوان الصفا ، وهى مدرسة فلسفية ازدهرت فى البصرة قريباً من نهاية القرن العاشر ، حوالى عام ٩٧٠ م ، وتميل إلى الفيثاغورية ، وكان لهم فرع فى بغداد ، ولم يكونوا جماعة فلسفية فحسب ، وإنما لهم ميول سياسية ودينية ، ذات ميول شيعية متطرفة ، ربما كانت إسماعيلية ، وتشكلت من عدد من كبار العلماء والفلاسفة هالهم ضعف الخلافة ، وفساد الأخلاق ، وفقر الشعب ، فحاولوا تجديد السياسة والأخلاق عن طريق الانفتاح الثقافى ، لأن الحقيقة تنضج وتزدهر فى لقائها وصراعها مع الأفكار الأخرى ، فإذا ما عزلت ، أو انعزلت ، تطرق إليها الوهن والعفن والفساد. وكانوا يتناولون فى حرية كاملة كل القضايا الجوهرية ، ويرمون إلى إسقاط الحكم القائم على أيامهم عن طريق تربية الشعب عقلياً ودينياً ، وفى هذا

ما يفسر الغموض الذى أحاط بالأعضاء ونشاطهم .

كتب إخوان الصفا مجموعة من الرسائل مرتبة على غرار الموسوعات ، وبعض المقالات مذيل بأسماء غير معروفة ، وتبلغ عدتها اثنتين وخمسين رسالة ، تعالج الرياضيات والفلك والجغرافيا والموسيقى والأخلاق والفلسفة ، وتضم كل المعلومات والمعارف التى يتطلب عصرهم من الرجل المثقف أن يلم بها . وقد خصصوا الرسالة السابعة والثلاثين ، وهى السادسة بين مجموعة للرسائل الخاصة بالعلوم الطبيعية وعلم النفس ، وفيها عرضوا للعشق ، ومحبة النفوس ، والمرض الإلهى . وأوردوا طرفاً مما قالت الحكماء والفلاسفة فى ماهية العشق وكمية أنواعه ، وكيفية نشوئه ومبدئه وعلله الموجبة له ، والأسباب الداعية إليه ، والغرض الأقصى منه ، ووقفوا عند الحكماء الذين ذموا العشق وذكروا مساوئ أهله وقبح أسبابه ، وما زعموا من رزيلة فيه ؛ وعند الحكماء الذين قالوا إن العشق فضيلة نفسية فمدحوه ، وذكروا محاسن أهله ، وزينوا أسبابه ، وعند أولئك الذين لم يقفوا عند أسراره وعلله وأسبابه ، وحقائقها ودقة معانيها ، فزعموا أنه مرض نفسى ، أو جنون إلهى ، أو همة نفس فارغة ، أو فعل المتبطلين لا شاغل لهم ، ولا همة عندهم . وقد ردت الرسالة على هؤلاء جميعاً :

« ولعمرى إن العشق يترك النفس فارغة من جميع الهم إلا هم المعشوق ، وكثرة الذكر له ، والفكرة فى أمره ، وهيجان للفؤاد ، والوله به وبأسبابه ، ولكن ذلك من فعل البطالين الفراغ ، كما زعم من لا خبرة له بالأمور الخفية ، والأسرار اللطيفة ، ولا يعرف من الأمور إلا ما تجلى للحواس وظهر للمشاعر ؛ وأما الذى يدرك منها بصفاء الذهن ، وجودة التمييز ، وكثرة الفكر ، وشدة البحث ، ودقة النظر ، فهم بمعزل ؛ وذلك أن الذين زعموا أن العشق هو مرض نفسانى ، أو قالوا إنه جنون إلهى ، فإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يعرض للعشاق من سهر الليل ، ونحول الجسم ، وغؤور العيون ، وتواتر النبض ، والأنفاس الصعداء ، مثل ما يعرض للمرضى ، فظنوا أنه مرض نفسانى ... »

« وأما الذين زعموا أنه جنون إلهي فإنما قالوه من أجل أنهم لم يجدوا لهم دواء يعالجونه ، ولا شربة يسقونها إياهم ، فيبرؤون مما هم فيه من المحنة والبلوى ، إلا الدعاء لله بالصلاة والصدقة والقرابين فى الهياكل ورقى الكهنة ، ما شاكل ذلك ، كما حكى العاشق بقر، ، وهو عروة بن حزام قتيل الحب :

بذلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد ، إن هما شفيانى
فما تركا من سلوة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقيانى
فقالا : شفاك الله والله مالنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

وكان أخوان الصفا ، فيما يبدو ، يميلون فى تفسير ظاهرة العشق إلى أنه هوى غالب فى النفس ، نحو طبع مشاكل فى الجسد ، أو نحو صورة مماثلة فى الجنس ، وربما كان هذا التفسير دليلا تؤكده شدة الشوق إلى الاتحاد ، وامتزاج الروح بالروح ، كما قال ابن الرومى :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها ، وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاها كي تزول صبابتى فيزداد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وأفاضت الرسالة فى تأكيد هذا الوجه ، وتعرف أسبابه منذ يبدأ نظرة عجلة ، أو التفاتة سريعة ، إلى أن يصبح تفانياً ، وتحدثت عن الاشتياق والهيام ، وأن كل محب لشئ من الأشياء مشتاق إليه ، هائم به ، وأنه متى وصل إليه ، ونال من يهواه منه ، وبلغ حاجته من الاستمتاع به ، والتلذذ بقربه ، فإنه لابد يوماً من أن يفارقه أو يمله أو يتغير عليه ، وتذهب تلك الحلاوة ، وتتلاشى تلك البشاشة ، ويخمد لهيب الاشتياق ، إلا المحبين لله تعالى من المؤمنين ومن عباده الصالحين . وهنا تعرض الرسالة للعشق الصوفى ، والغاية من وجود العشق فى جبلة النفوس و محبتها الأجساد ، استحسانها لها ، وتفسره بأنه تنبيه النفوس من نوم الغفلة ، ورقدة الجهالة ، ورياضة لها ، وتخريج بها ،

وترقية من الأمور الجسمانية المحسوسة إلى الأمور النفسية المعقولة ،

وتدلل الرسالة على ماذهبت إليه من خلال نموذج تكشف فيه عن الحنين والتذكر ، وتنحصر لنا ظاهرة نفسية واضحة طالما تحدث عنها الشعراء ، ووقفوا حيالها مذهولين ، وشغلت حيزاً واضحاً من الأدب العربى ، فتشير إلى معرفة من عشق يوما من أيام عمره لشخص من الأشخاص ، ثم تسلى عنه أو فقده او تغير عليه ، ثم إنه وجده من بعد ، وقد تغير عما كان عليه وعهده من الحسن والجمال ، وتلك الزينة والمحاسن التى رآها على ظاهر جسمه ، فإنه متى رجع عند ذلك ، فنظر إلى تلك الرسوم والصور التى هى باقية فى نفسه منذ العهد القديم ، وجدها بحالها تلك ولم تتغير ، ولم تتبدل ، ورآها برمتها ، فتشاهد النفس فى ذاتها حينئذ من تلك المحاسن والصور والرسوم والأصباغ ماكانت من قبل تراها على غير تغير ، وتجد فى جوهرها ما كانت قبل ذلك تطلبه خارجاً عنها ، فعندذلك تبين له وعلم أن المعشوق والمحبوب بالحقيقة إنما هو تلك الرسوم والصورالتى كان يراها على ذاك الشخص [١] ، وهواليوم يراها منقوشة فى نفسه ، مرسومة فى جوهره ، مصورة فى ذاته ، باقية لم تتغير ،

والرسالة على الرغم من صغرها تثيرجوانب كثيرة من المسائل المتعلقة بالعشق ، ونظرة الناس إليه ، وقد حاولت تقديم الدراسة النفسية العميقة لتعليل الظاهرة من خلال الثقافة التى كان العصر يزخر بها ، وقد حددت معالم كل اتجاه من الاتجاهات وفق الصورة التى تراها ، وفى محاولة للرد على هذه الاتجاهات حددت النظرة العملية ، وأكد إخوان الصفا على الجانب الاجتماعى للحب ، واهتدوا إليه من خلال استيعاب ظواهره ، نفسية واجتماعية ودينية وفلسفية وحسية ، وحاولوا تفسيره وربطه بالفكر الإسلامى ، من خلال مذهبهم وحده ، دون أن يعرضوا لرأى الآخرين فيه ، من خلال كتاباتهم ومؤلفاتهم ،

ومن المهم أن نشير إلى أنهم وقفوا بدراستهم عند نزعة الحب ، والأسس

النظرية التى تقوم عليها هذه النزعة ، ولم يعرضوا للجانب الأدبى منها ، ومع ذلك كان لهم دورهم الواضح فى توجيه الأذهان نحو الحب العذرى ، من حيث لا يشاءون ، فنحن نعرف أن أبا حيان التوحيدى (ت ٤١٤ هـ — ١٠٢٣ م) وكان تلميذاً للجماعة ، وإن لم يكن عضواً نشطاً فيها ، يعزو التدهور فى أيامه ، وما لحق الناس من غلبة الشهوات المادية على نفوسهم ، إلى انصرافهم عن مذهب الهدوفى العشق ، أو ماندعوه الآن بالحب العذرى .

دخلت رسائل أخوان الصفا فى الأندلس ، على يد العالم الرياضى مسلمة المجريطى ، أبو القاسم ، المتوفى عام ٣٩٧ هـ — ١٠٠٧ م ، إثر عودته من رحلة دراسية قام بها فى المشرق ، ولهذا يذكر فى بعض المخطوطات على أنه مصنفها ، والحق أنه اختصرها ، وتوجد مخطوطة لمختصره فى مكتبة الإسكوريال ؛ وكان مسلمة معاصراً لابن حزم ، وأورد عنه خبراً عاطفياً برواية أبى دلف الوراق ، ونعته بالفيلسوف المعروف ، وما أشك فى أن ابن حزم قرأ رسائل أخوان الصفا التى حملها مسلمة ؛ وأرجح أنها كانت وراء اختياره « طوق الحمامة » عنوانا لكتابه . ذلك أن إخوان الصفا ، فيما يرى الباحثون ، أخذوا اسمهم من باب « الحمامة المطوقة » فى كليلة ودمنة ، حيث يطالب دبشليم الملك من بيدبا الفيلسوف أن يحدثه ، إن رأى ، « عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ، ويستمتع بعضهم ببعض » ، فليس ببعيد أن يكون ابن حزم استلهم عنوانه من هذا الباب أيضاً ، متأثراً بكليلة ودمنة مباشرة ، أو عن طريق « إخوان الصفا » ، والباب يدور حول مايصنعه الود فى إنقاذ من التقوا على الحب فى لحظات الحرج والضيق .
وكذلك يمكن القول أن فلسفتهم أعانت ابن حزم فى تكوين نظرته الفلسفية عن ظاهرة الحب وتفسيرها ، دون أن تتجاوزها إلى تأثيراته فى الحياة ، وجوانبه وظواهره ، وفى أمثلته وشواهده ؛ فقد جاءت هذه فى كتاب الطوق ذاتية مصفاة ، وأندلسية خالصة .

* * *

ويأتى ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧ م) بعد هؤلاء ، وقد جاء بعد ابن داود وقبل ابن حزم ، وهو أشهر شخصية فى عالم الطب العربى ، بعد الرازى ، ويسميه العرب الشيخ الرئيس ، وفيه تجمعت عدة علوم عربية ، فكان طبيباً وفيلسوفاً ولغوياً وشاعراً ، وتبلغ جملة مؤلفاته ٩٩ كتابا ، بينها عدد من الرسائل أو الكتب الصغيرة ، وكان رائداً عظيما بلغ الغاية ، ولم يكن ماقدمه اللاتينيون بعده بقرنين من الزمان على أنه الفلسفة « المدرسية » إلا موجزاً لما انتهى إليه فى فلسفته « ماوراء الطبيعة » ، وكتاباه : « الشفاء » و « القانون » يمثلان الآن ذروة الفكر فى العصر الوسيط ، ويشكلان فيما يقول المستشرق الفرنسى جاك س . ريسلر « محاولة من أعظم المحاولات الموسوعية فى تاريخ الحضارات » . ويهمنا من بين كل مؤلفاته هنا رسالته « فى العشق » ، وهى أقل كتبه شيوعاً واعتناء من الدارسين فى العالم العربى ، على حين أنها تجد فى الغرب عناية أكبر ، وقد ذهب الأب إسكندر دينومى أخيراً ، وهو يبحث عن الأصول العربية للحب العفيف فى الغرب بعامة ، وعند شعراء التروبادور بخاصة ، إلى أن هذه الأصول يجب البحث عنها فى الفلسفة العربية ، وبالدقة عند ابن سينا فى رسالته : « فى العشق » ، فقد « أعطى للحب البشرى ، أى لعشق القوى الحيوانية ، دوراً إيجابياً ، يسهم به فى توجه النفس نحو الحب الإلهى والاتحاد مع الله » . أى أن ابن سينا تغلب على الهوة التى تفصل نشاط النفس الحيوانية عن نشاط النفس الناطقة فى الإنسان ، وبذلك استطاع أن يصل بين طرفى الحب الطبيعى والروحى ، وبذلك « أعطى للنفس دوراً من المشاركة مع النفس الناطقة العاقلة فجعل حب الجمال الظاهرى ، أى الحب الجنسى ، عوناً فى الاقتراب من الإله ، فإذا انضمت النفس الحيوانية إلى الناطقة اكتسبت من اتحادها هذا بتلك القوة السامية سمواً وشرفاً » . ومن ثم تعتمد الدرجة الحقيقية فى الحب الإنسانى على مدى ماتعين به الإنسان للاتحاد بالخير المطلق . يقول ابن سينا : « ومهما أحب الصورة المليحة باعتبار عقلى ، على ماأوضحناه ، عد

ذلك وسيلة إلى الرفعة والتناهى فى الخيرية ، لو او هه عما هو أقرب فى التأثير من المؤثر الأول والمعشوق المحض ، وأشبه بالأمور العالية الشريفة » .

« و واضح من هذا أن تفكير ابن سينا لايتناول من الخصائص الأربع للحب العفيف ، تناولا مباشراً ، إلا القول بأنه قوة تسمو بالنفس ، مع أننا لو تتبعنا فكرة « الحب من أجل الحب» وإعلاء شأن المحبوبة ، لوجدناهما متوفرتين فى الأدب العربى ، لا فى الفلسفة العربية ، منذ قرنين أو أكثر قبل ابن سينا . أما القول بأن الحب رغبة لايرجى لها أن تتحقق ، فإنه موجود ضمنا فى الشعر وإن لم يصنعه الشعراء فكرة أو يجعلوا منه مبدأ . وهو أيضاً ينطوى فى الفكرة التى ترى أن « الرغبة » قوة دافعة لتطهير النفس وصعودها نحو الإله ، تلك الفكرة التى تمثل محور فلسفة الأخلاق فى الأفلاطونية الحديثة . فإذا تحدث ابن سينا عن الحب الأرضى ونسب إليه أثراً خلقياً ، ولا أقول تهذيبياً ، فإنا لانبعد عن الصواب إذا رأينا فى اتجاهه هذا توسيعا فى فكرة اشتياق النفس للاتحاد بالله ، وهذا الشوق ، فى رأى أفلوطين ، كامن فى النفس منذ الأزل ، ويمثل حاجتها إلى أن تصعد من خلال التكيف الروحانى فى مراتب الوجود ، وتنأى عن موضعها الغامض فى هذه الحياة إلى التأمل المستمر فى الواحد أو فى الوجود ذاته» (١) .

وواضح من هذا أن تفكير ابن سينا لايتناول من الخصائص الأربع للحب العفيف تناولا مباشرا ، إلا القول بأنه قوة تسمو بالنفس ، وليس فى رسالته : « فى العشق » مايوحى بأنه يقيم أساساً فلسفياً للحب العذرى ، وليس فيها شاهد واحد على أنه كان يوجه نظره إلى الأدب ، بل إن الإحكام الدقيق فى عرض آرائه ينبىء بأنه كان يطبق مبدأه العام فى النفس وأجزائها على مشكلة أو ظاهرة بعينها ، ويحاول أن يجد لها مكانها الصحيح فى نظامه الفلسفى ، وهو فى كل الرسالة يعالج مبادىء عالجها على نحو أكمل فى

١ — جوستاف فون جرنباوم ، دراسات فى الأدب العربى ، ص ٨٣ وما بعدها ، ترجمة إحسان عباس وآخرين .

مؤلفات أخرى . والحق أن الحب فى ذاته لا يمثل نقطة انطلاق فى تفكيره ، وحين يعرض له لا يتناول صورة نزعة الحب فى الأدب ، ولكن دراسته تقدم من بعض الوجوه الأسس النظرية التى تقوم عليها هذه النزعة الإنسانية .

كان ابن سينا معاصراً لابن حزم ، وأسبق منه بسنوات ، وأقطع بأن العالم القرطبى لم يكن عرف رسالة ابن سينا « فى العشق » حين حرر كتابه « طوق الحمامة » ، حتى لو افترضنا أن ابن سينا حرر رسالته فى بدء حياته ، وهو افتراض مشكوك فيه إلى حد كبير .

* * *

تلك هى الكتب التى عرضت لموضوع الحب قبل ابن حزم ، لا يعرض الأديب القرطبى لأى منها فى كتابه ، غير إشارة جاءت فى مقام التصحيح لابن داود ، وبقيتها ربما كانت قد قرأ وتمثل ، ومن المحتمل أنها تركت شيئاً فى أعماقه ، ولكنه فى كل الحالات كان سيد قضيته وموضوعه ، لا يستلهم شيئاً غير فكره الخالص ، وأحاسيسه الذاتية ، وتجاربه الشخصية . وقبل أن نتابع دور الطوق فى كتب الحب ، سابقاً ومؤثراً فى هذه المرة ، أدع الفرصة للمستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث ليحدثنا بدوره عن كتابين ، سبق أولهما ابن حزم وجاء الثانى بعده .

كتاب سبق طوق الحمامة

وكتاب جاء بعده

للمستشرق الإسبانى : إميليو غرسية غومث

«عن مجلة الأندلس ، المجلد ١٦ ، سنة ١٩٥١ ، ص ٣٠٩–٣٣٠»

— ١ —

كتاب الموشى للوشاء(١)

يحدث أحياناً فى مجال الأدب العربى أن المؤلفات الأشد انزواء ، هى التى تأخذ طريقها إلى النشر قبل غيرها ، وتفسير هذا التناقض الظاهرى والطريف أن الاستعراب علم حديث النشأة نسبيا ، وأن حجم الكتب المخطوطة غير المنشورة مازال يتجاوز الحصر ، ومن ثم اتجه اهتمام المختصين إلى المخطوطات ، وابتعدوا عن الكتب المطبوعة ، إلا فى حالات نادرة تعود إلى أهميتها أو طابعها العملى ، لأن هذه ، على النقيض من تلك ، لاتقدم الصورة المثيرة لأمر كان مجهولا . ولاشىء غير هذا يفسر لنا الظلام النسبى الذى يلف كتاب «الموشى» ، لأبى الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء ، وعاش تقريباً بين ٨٦٠ و ٩٣٦ م ، على الرغم من أنه طبع فى ليدن بهولندة ، فى مطبعة بريل عام ١٨٨٦ م ، بتحقيق رودولف إ. برونوف R. E. Brünnow ، وعن هذه الطبعة طبع مرتان فى المشرق ، إحداهما فى القاهرة عام ١٣٢٤ هـ ، فى مطبعة التقدم ، بعنوان : كتاب الظرف والظرفاء ، (٢) ، والملاحظات

---

(١) القسم الأول من هذا المقال ترجم إلى الفرنسية بعنوان : المصادر الشرقية لكتاب طوق الحمامة لابن حزم القرطبى : كتاب الموشى للوشاء ، وقرىء فى الجلسة التى عقدت فى يوم ١٧ سبتمبر ١٩٥١ ، فى المؤتمر الدولى للمستشرقين الثانى والعشرين ، وقد اجتمع فى اسطنبول ، خلال الأيام من ١٥ إلى ٢٢ سبتمبر ١٩٥١ .

(٢) أنظر : مقدمة برونوف — وبروكلمان ، تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ١٢٤ ، والملحق جـ ١ ص ١٢٤ ، وإحالاته على : ابن النديم ، وابن الأنبارى ، وياقوت ، والسيوطى ، وفلوجل ، وفوستنفلد .

التالية تدور حول الموازنة بين هذا الكتاب وكتاب آخر استفاد منه ، وكان هذا ، على العكس من الأول ، قد نال شهرة مستفيضة ، بلغت قدراً لا يناقش ، وهو كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم القرطبي (٩٩٤-١٠٦٣م) ، ويعتبر حجر الزاوية فى موضوع تأثير الأدب العربى فى الأدب الأوربى ، وكتاب قمة فى الأدب الأندلسى ، وقد درس وصحح مراراً ، وطبع نصه أربع مرات (*) ، وترجم حتى الآن إلى اللغات : الإنجليزية والروسية والألمانية والإيطالية والفرنسية (١).

وفى مقدمة ترجمة سادسة للطوق ، إسبانية فى هذه المرة ، وقد أنهيتها وتظهر هذا العام (٢) ، حاولت أن أضع كتاب ابن حزم الشهير فى مكانه بين بقية الكتب المماثلة ، وهو يمثل فيما أرى ، إلى جانب كتابات أبى عامر ابن شهيد (٩٩٢- ١٠٣٥م) ، خير ما أبدعت المدرسة الأدبية التى يمثلانها ، وتنتسب إلى عالم الخلافة الأموية فى قرطبة ، ذلك أن التوهج الأدبى يجىء على الدوام متأخراً بالنسبة إلى التوهج السياسى ، توهج سرعان ما انطفأ لانتثار عقد الخلافة سريعاً ، وعلى غير توقع . وإذا بدا لنا أن نحدد فى إيجاز عجل ملامح هذه المدرسة أمكن أن نقول إنها :

• أرستقراطية الحياة ، تطابق الاتجاهات الفكرية الجديدة للنظام القائم ؛

• عربية الولاء ، أى أنها لا تلقى بالا إلى حياة المستعربين أو ثقافتهم ، أو حتى مجرد الاهتمام بالحياة الشعبية .

• قومية الاتجاه ، على الرغم من ولائها العربى ، وتمكنها من الأدب

---

(١) توجد ترجمة وافية لابن حزم ، بقدر ما سمحت لى المراجع التى بين يدى ، يمكن الرجوع إليها فى الملحق الثانى للترجمة الإسبانية التى سوف أشير إليها فى الفقرة التالية .

(٢) طوق الحمامة فى الألفة والألاف ، لابن حزم القرطبى ، ترجمة إميليو غرسية غومث ، من النص العربى ، مدريد ، جمعية الأبحاث والنشر ١٩٥١ .

* بلغت طبعات النص فى اللغة العربية حتى كتابة هذه السطور إحدى عشرة طبعة فيما أعلم ، أدقها وأرقاها الطبعة التى صدرت عن دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٥ . (المترجم)

العربى المشرقى ، مجاراة لموقف الأسرة الأموية فى إسبانيا فى مواجهتهم للعباسيين ، أى أنها تحاول أن تجارى النماذج المشرقية وأن تنافسها .

• عصرية الطموح ، تهتم بالإنسان ، وقل ما تعنى بالكتب ، ربما بسبب تسرب الروح الغربى إليها ، أى أنها تنهض على مزاج الكاتب أكثر مما تقوم على ثقافته الواسعة ، أو تمكنه من قواعد اللغة ، وتحاول أن تهرب من الرذيلة المشرقية ، فى الاعتماد الدائم على المؤلفات السابقة .

وهذه الملامح الأربعة يمكن أن نلتقى بها كلها ، فيما أعتقد ، عبر صفحات طوق الحمامة ، والملمحان الأخيران على الأقل تجدهما واضحين وموجزين فى تلك الجملة الشهيرة التى جاءت فى آخر المقدمة : « دعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا . وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ، ولا أتحلى بحلى مستعار » . والواقع أن ابن حزم قص علينا فى كتابه الشهير ، كما نعرف ، تجاربه الذاتية ، وتجارب أصدقائه ، وشخصيات أخرى سبقته ، وكلهم فى كثرتهم الغالبة أندلسيون . وفيما خلا الأحاديث النبوية ، والنصوص الدينية ، وبعض الأمثال ، وقليل من الإشارات العارضة ، لم يذكر فى مصادره غير كتاب واحد : كتاب الزهرة لابن داود الأصفهانى (٨٦٨ — ٩١٠ م)(١) ، وجاء به فى الحقيقة فى مجال تصحيح ما فهم المؤلف المشرقى من فقرة التقطها من حديث أفلاطون عن الحب والجمال فى محاورة « المسأدبة » Le Banquet ،

---

(١) نشرة النصف الأول من هذا الكتاب الشهير ، واسترعى اهتمام ماسينيون بقوة فى كتابه : محنة الحلاج (١٩٢٢) ، لويس نيكل ، بمساعدة إبراهيم طوقان ، عام ١٩٣٢ ضمن السلسلة التى تنشرها جامعة شيكاغو ، وعن مخطوطات النصف الثانى ، ولما يزل مخطوطاً ، أنظر : مجلد الأندلس — المجلد ٤ ، عام ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، ص ١٤٧ — ١٥٤ .

• نشرت وزارة الإعلام العراقية النصف الثانى من الكتاب ، فى سلسلة « كتب التراث » بتحقيق ابراهيم السامرائى ونورى حمودى القيسى ، بغداد عام ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م (المترجم) .

ويمكن الظن بدءاً أن كتاب الزهرة مصدر مباشر لطوق الحمامة ، فهو أى كتاب الزهرة ، يدور حول الحب أيضاً ، أوكان معروفاً جيداً فى إسبانيا ، بل وهناك من قلده فى زمن الحكم الثانى(١) ، ومؤلفه ظاهرى ، ابن مؤسس هذا المذهب ، وقد انحاز إليه ابن حزم نهائياً . ولكن الواقع أن ما هو مشترك بين الكتابين قليل جداً. فالكتاب المشرقى مختارات من شعر الغزل خاصة ، لا تمت إلى مؤلف الكتاب بصلة ، على حين أن الكتاب الأندلسى دراسة نفسية ، ذات حواش فلسفية ، والكتاب الأول طافح بالصناعة الممتازة ، والتحذلقات الخنثة ، ويتميز الثانى بأنه طبيعى وإنسانى ، مباشر ودافىء .

هل يمكن القول إذن أن « طوق الحمامة » عمل أصيل بكامله ؟ . لا ، على التأكيد . ليس ثمة عمل أدبى يفتقد السوابق واللواحق ، ولوكان مجرد الدبال الذى تولد منه : وفيما عدا ذلك يؤكد لنا ابن حزم أنه ترك جانباً « أخبار الأعراب والمتقدمين » ، وكان يعرف جيداً الكثير من الأخبار التى تروى عنهم : والجو الذى نتنسمه عبر صفحات « الطوق » لم يظهر فى الأندلس عفوياً على يد جيل معين ، وإنما نعرف أنه جاء من المشرق الإسلامى ، من البيئة التى عاشت فيها ، أدبياً على الأقل ، أسطورة الحب العذرى ، ثم تحددت أدبياً أيضاً . وفضيلة ابن حزم التى لا جدال فيها ، تقوم بالدقة على أنه أسبن أو غرب هذا الجو ، عراه من أرديته البدوية ، أو البغدادية ، وحتى من اسمه ، فكلمة « عذرى » لا تظهر ولا مرة واحدة على امتداد كل صفحات الكتاب ، لكى يكسوه من جديد ثياباً قرطبية ، ومن الطبيعى أن تتخلف فى تربته وفى أساسه المواد التى يسرت لابن حزم أن يطبقها ، مواد من الصعب جداً تحديدها ، لأن المؤلف ، فيما نقول ، لم ينسخها بالمعنى الحرفى للكلمة ، وإنما تمثلها وطورها عفوياً ، أعطى لها روحاً جديداً ، وشكلا مغايراً ، وحياة مختلفة .

---

(١) أنظر مقال الياس تيريس ، مجلة الأندلس ، المجلد ١١ ، عام ١٩٤٦ ، ص ١٣١–١٥٧ .

تتبع أثر هذه المصادر الخفية مخاطرة إذن ، لسكل ما قلت ، ولأن الدراسة الواعية للصلات بين الأدب الأندلسى والأدب العربى فى المشرق لما تزل متلعثمة ، ومن ثم كان جرأةمنى أن أعرض مؤقتاً ، وفى شكل مقال ، وكمحاولة لجس النبض ، لواحد من هذه المصادر ، وهو كتاب « الموشى » للوشاء : ولقد صرحت فى البدء بأن الـكتاب غير معروف تقريباً ، ودرج الدارسون على اعتباره آلياً ، وعلى نحو تقليدى ، مجرد قائمة بالأخلاق الفاضلة ، وقوانين السلوك ، ليتصرف المجتمع العربى فى أزهى عصوره على هديها . هكذا اعتبره مثلا آدم ميتز فى كتابه نهضة الإسلام ، ويقول عنه بروكلمان فى دائرة المعارف الإسلامية : «دليل الحياة الأنيقة فى عالم بغداد العظيم » . وعبثاً يمكن مثلا أن تجد له أثراً بين مصادر دراسة الحب فى الأدب العربى الكلاسيكى ، وحررها علماء من الطبقة الأولى ، مثل جولدتسيهر(١) أو ريتر(٢) . والحق أن كتاب الوشاء حتى ولو كان مرشداً عظيم الفائدة إلى الأخلاق الفاضلة ، فإنه أصلا كتاب عن الحب فى الجانب الرئيسى منه ، وهو على التأكيد الجانب الأكبر اتساعاً ؛ وهو شئ منطقى جداً ، لأن الحب فى حد ذاته ، وفى مظاهره المصقولة ، قناعة أنيقة تخضع لقواعد دقيقة مسلم بها . وكان الوشاء متخصصاً فى الموضوع ، فهو لا يحلل نفسية الحب العذرى فى دقة فحسب ، وإنما يضيف إليه النصوص والقصائد الأكثر روعة ، والأجمل توجيها . وعرض لحب القيان ، وشق طريقه محظوظاً ، ثم انتهى بالسيطرة على كل الأوساط البغدادية ، بل ويصرح

---

1 - Goldziher I· : Vorlesungen Über dan Islam, P · 192'y ZDMG, 69 (1915)' pp· 192 - 207 ·

2 – Ritter H· : Philologika VII (Arabische Und persische Schiften Über di profane Und die mystiche Liebe) en Der Islam'XxI ' 1933 ' PP· 84 – 160 ·

فى كتابه « الموشى » أنه خص هذين الموضوعين ، كل واحد منهما بكتاب مستقل ، ولعلهما فقدا لسوء الحظ ، لأنى لا أراهما واردين فى قائمة مؤلفاته ، وهما : كتاب المقتفى(١) ، وكتاب القيان(٢) . ورغم أننا نجهل هذين الكتابين فإن مادة الموشى ربما كانت أفضل ما نملك بين أيدينا عن الحب بين العرب ، وهو أكثر فائدة من كتاب الزهرة لابن داود ، وأشد قرباً ، كما سنرى ، فى روحه إلى ابن حزم فى طوق الحمامة .

وفى حدود ما أشرت ، فى قراءة مستأنية ولكن ليست مستوعبة ، سأحصى وأجمع الفقرات التى فى الموشى أو فى طوق الحمامة(٣) ، والتى أعتقد أن بينها بعض الشبه . ويجب أن أضيف إلى ذلك أننى بصدد مقال ، نتائجه مؤقتة تماماً ، لأن الشبه يمكن أن يجئ من مؤلف آخر اختار الاتجاه نفسه ولما يعرف ، وأن هذه المشابهات لها ، فيما أرى ، بعض القيمة المقنعة إذا أخذت فى جملتها فحسب ، أى أنها تدعم بعضها بعضا ، وتحليلها منفصلة يجعلها تبدو ، وهى كذلك حقاً ، غير ذات معنى وقليلة الإقناع ، فنحن نتحرك ، وأعيد القول ، على تربة ظنية . وبدل أن أتبع ما ورد فى الموشى أو فى الطوق متسلسلا ، رأيت لسهولة العرض أن أجمع على نحو غير طبيعى قليلا ، وكمجرد توجيه فحسب ، الفقرات التى وازنت بينها ، طبقاً لما تخضع له من تشابه .

---

(١) فى صفحة ٥٤ من طبعة ليدن : « ونحن مفردون لأهل العشق كتاباً نذكر فيه أخبار المتيمين ، وملح المتعشقين ، وأشعار المتغزلين ، مع جملة من صفات الهوى ، فى كتاب المقتفى ، إن شاء الله تعالى » .

(٢) فى صفحة ١١٣ من طبعة القاهرة : « وقد أفردنا كتاب القيان لذم معظم القيان ، فأغنى ما فى ذاك الكتاب عن تكثير هذا الباب ، فاعرفه ، إن شاء الله » .

أشير فى بعض الإحالات ، كما فى هذه ، إلى الطبعة المشرقية ، لأن طبعة ليدن ليست بين يدى وأنا أحرر هذه الصفحات .

(٣) فيما يتصل بالموشى استخدمت ، إلا فى حالات نادرة كالإحالة السابقة ، طبعة برنوف التى أشرت إليها فيما سبق ، وفيما يتصل بطوق الحمامة استخدم طبعة بتروف ، ليدن - بريل ١٩١٤ . وتحمل المشابهات الأرقام من ١ إلى ٢٧ .

• تسهيلا للقارىء العربى استخدمت طبعة دار المعارف لكتاب طوق الحمامة ، القاهرة ١٩٧٥ ، بدلا من طبعة بتروف .

- في الاقتباس ، أو الأسلوب ، أو اللغة .
- في التعليق على عدد محدود من الوقائع .
- في الملاحظات النفسية .
- في الأفكار أو في المواقف الشاعرية .
- في التقسيم وعناوين الأبواب .

وأؤكد على أننا بصدد تشابه يجيء من الذاكرة القوية التي شهر بها العرب ، ومستمد من رواسب القراءة ، أكثر مما يعتمد على النسخ أو الاقتباس . وأستبعد الفرض الذي يخرج عن نطاق الموازنة ، ويجب أن يضاف إذا أكدته المشابهات الأخرى ، وهو أن الموشى يمكن أن يكون واحداً من الكتب التي قرأ فيها ابن حزم « أخبار الأعراب والمتقدمين » ، والتي أدار عليها ظاهره كتابه .

١ — التشابه في الاقتباس أو الأسلوب أو اللغة

- ثلاثة على الأقل الاقتباسات المشتركة المهمة التي وجدتها :

١ — الحديث النبوي : « الأرواح جنود مجندة ، ماتعارف منها إئتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، ويشير إليه الموشى صفحة ٢٥ ، ويوجد في الطوق صفحة ٢٣ * .

٢ — الحديث النبوي الثاني : « حبك الشيء يعمي ويصم » ، جاء به الموشى في صفحة ٦١ ، وذكره الطوق صفحة ٢٩ ، دون أن يشير إلى أنه حديث نبوي .

٣ — والحديث النبوي الثالث ، فيما يظن : « من عشق فعف فمات فهو شهيد » ، ويظهر في الموشى ص ٧٥ ، ويختلف قليلا عما عليه في الطوق صفحة ١٥٢ ، وجاء به ابن حزم دون أن يشير إلى أنه حديث واكتفى بقوله : « وقد جاء في الآثار : » .

* أذكر القارىء بأن الكاتب يستخدم عادة طبعة ليدن من الموشى ، إلا في حالات قليلة أشار إليها . أما صفحات الطوق فتشير إلى طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٥ م . (المترجم) .

• وإليك الآن حالتين يتشابه فيهما الأسلوب :

٤ — يقول مؤلف الموشى ، مع بداية الجزء الثانى ، أنه سوف يتضمن شيئاً من الهزل أكثر مما فى الجزء الأول : « ولابد من خلطها بشىء من الهزل ، إذ فى ذلك ترويح لقلوب ذوى العقل » . ويتهيأ مؤلف الطوق فى مقدمته ، ليبرر تناوله موضوعات قد لاتبدو جادة ، مشيراً إلى آراء مؤلفين آخرين ، ويبدؤها : « أجموا النفوس بشىء من الباطل ليكون أعون لها على الحق » ، أو « أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » .

٥ — فى صفحة ٧٧ من الموشى يتحدث المؤلف عن مال بعض المحبين الكاذبين ، فيقول : « فاستحسن الناس الملل والاستبدال ، والغدر والانتقال ، وأنا أبرأ إلى الله أن يكون هذا من شعر ظريف ، أو من فعل حصيف » ويورد ابن حزم فى صفحة ١٤٩ ، بعد أن بين أن : « للشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكى على الدمن ، ويثنون على المثابر على اللذات» ، حالة أبى نواس ، وأنه « كثيراً مايصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره » ، ويقلد الشاعر المشر فى بأبيات له ، ثم يعقب عليها بقوله : « ومعاذ الله أن يكون نسيان مادرس لنا طبعاً » .

• وأخيراً يتوافقان فى حالتين لغويتين :

٦ — يقول الموشى فى صفحة ٥٤ : « وأما من عشق من الشعراء فما يحصرهم عدد ، ولايحصيهم أحد » ، وفى الطوق ، صفحة ١٩ : « وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم ، فأكثر من أن يحصوا » .

٧ — ويقول الموشى فى طبعته المشرقية ، صفحة ٤٩ ، إن الحب « أمير مطاع ، وقائد متبع » : ويذكر الطوق ، صفحة ٨٣ : « لعلمت أن الهوى سلطان مطاع » .

٣ — التشابه فى التعليق على عدد محدود من الوقائع

٨ — الضرب الأول من الحب ، بين ضروب الحب التى ذكرها ابن حزم ، صفحة ٢٣ : « محبة المتحابين فى الله عز وجل » ، وهو عنوان

باب من أبواب كتاب الموشى : « باب صفة المتحابين فى الله عز وجل » :

٩ — ذكر الطوق من علامات الحب وشواهده الظاهرة عند المحب ، صفحة ٢٨ : « شرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء » . وفى الموشى ، صفحة ٩٣ ، نجد الجارية التى أرادت أن تعشق فتى غنيا : « شربت من فضلة كأسه » :

١٠ — فى الفصل الثالث من الطوق وأوقفه المؤلف على قصة أبى السرى عمار بن زياد ، الذى أحب جارية رآها فى النوم ، نجد ابن حزم يعذله قائلا : «ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندى أعذر» . ونجد فى الموشى ، صفحة ٥٦ : » وبلغنا أن منهم من عشق صورة فى حمام ، وخيالا فى منام ، وكفا فى حائط ، ومثالا فى ثوب ، والعشق ألوان وأنواع وضروب وفنون وأمره عجيب » :

١١ — ويتحدث الطوق عن المراسلة ، صفحة ٥٦ ، فيقول : « وأما سقى الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك » : ويورد الموشى ، صفحة ١٥٤ ، قصيدة فيها : « مزج المداد بدمعه » : وبعد ذلك بقليل : فى أبيات شعر أخرى : « هذا كتابى بدمع عينى » .

١٢ — ويقول الطوق ، عند الحديث عن الهدايا التى يتبادلها العاشقان ، صفحة ١٣٠ : وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خصل الشعر ... وأما تهادى المساويك بعد مضغها فكثير » . ونقرأ فى الموشى ، صفحة ٩٣ : « وتبعث إليه بخاتمها وخصلة من شعرها ... وقطعة من مسواكها » ، وفى صفحة ١٤٠ : « وقد تهادى أيضاً أهل الظرف بالمساويك » .

٣ — التشابه فى الملاحظات النفسية

١٣ — فى الباب الخاص بماهية الحب من طوق الحمامة ، ص ١٤ ، نجد هذه الملاحظة : « والحب — أعزك الله — داء عياء ، وفيه منه الدواء على قدر المعاملة ، ومقام مستلذ وعلة مشتهاة ، لا يود سليمها البرء ، ولا يتمنى

عليها الإفاقة » . وفى الموشى ، صفحة ٨١ من الطبعة المشرقية : « الحب مع مافيه من المرارة والنكد ... مستعذب عند أربابه ، مستحسن عند أصحابه» .

١٤ — وربما كان الباب الخاص بعلامات الحب فى الطوق ، من أظهر الأبواب أصالة ، وأغناها بالملاحظات النفسية ، فى صفحة ٢٧ ومابعدها ، ونلتقى فى الموشح بسلسلة الملاحظات أيضا ، استخدم لها المصطلح نفسه : علامات . ففى صفحة ٤٨ : « واعلم أن أول علامات الهوى على ذى الأدب نحول الجسم ، وطول السقم ، واصفرار اللون ، وقلة النوم ، وخشوع النظر ، وإدمان الفكر ، وسرعة الدموع ، وإظهار الخشوع ، وكثرة الأنين ، وإعلان الحنين ، وانسكاب العبرات ، وتتابع الزفرات . وعن تأثير الحب فى العاشق يقول طوق الحمامة ، صفحة ١٨ وما بعدها : « فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب » . وفى الموشى ص ٤٩ من الطبعة المشرقية : «وقد يشجع الجبان ، ويسخى البخيل ، ويطلق لسان العى ، ويقوى حزم العاجز » .

١٥ — وفكرة أن للحب سلطاناً لايقاوم ، ونلتقى بها ، فى الطوق ، صفحة ٤٧ ، ونصها : « إن للحب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وامراً لايخالف ، وحداً لا يعصى .. » توجد أيضاً فى الموشى ، صفحة ٤٩ من الطبعة المشرقية : « و يذل له العزيز ، ويخضع له المتجبر ، ويبرز له كل محتجب ، وينقاد له كل ممتنع » . ومن جانب آخر يعرض الطوق للفكرة مرة أخرى فيما بعد ، على نحو أشد تفصيلا ، فى باب الطاعة ، صفحة ٦٨ ومابعدها . والملاحظة التى ترد فى نفس الفصل الخاص بعلامات الحب ، صفحة ٥٠ ، وتعرض للمحب المزيف ، ممن « يتحلى بشيم قوم ليس منهم ، ويدعى غريزة لاتقبله » ، نجد لها سابقة فى كتاب الموشى ، صفحة ٤٨ : « ولن يغنى ادعاء أنه قارن العشق والهوى ، لأن علامات الهوى ثائرة ، وآيات الادعاء ظاهرة »

١٦ — وتأكيد طوق الحمامة ، صفحة ٦٠ ، فى باب طى السر ، أن

الحب لايمكن إخفاءه ، ونص عبارته : « وبأبى السر الدقيق ، ونار الكلف المتأجج فى الضلوع إلا ظهوراً فى الحركات والعين » ، توجد فى الموشى أيضاً ، فى صفحة ٤٨ : « ولن يخفى المحب وإن تستر ، ولاينكتم هواه وإن تصبر » .

١٧ — وفى مقابل باب المساعد من الأخوان ، فى طوق الحمامة ، صفحة ٧٧ ومابعدها ، يستخدم الموشى ، صفحة ١٧ ، الصديق المساعد ؛ يقول ابن حزم مشيراً إلى المساعد من الأخوان : «فإن ظفرت به يداك فشدهما عليه شد الضنين ، وأمسك بهما إمساك البخيل ، وصنه بطارفك وتليدك..» ، ويذكر الموشى ، فى الصفحة التى أشرنا إليها ، مشيراً إلى الغرض نفسه ، بيتاً من الشعر تعود سفيان الثورى أن يردده :

فإذا وجدت أخا الأمانة والتقى　　　فيه اليدين قرير العين فاشدد

١٨ — فى طوق الحمامة ، فى باب الواشى ، صفحة ٨٣ وما بعدها ، يدين ابن حزم فى عنف بالغ الوشاة والكذابين ، وفى الموشى ، صفحة ٣٣ ، باب كامل بعنوان : « باب ماجاء من فضل الصدق لذوى الآداب ، وماكره من الكذب لذوى الألباب » .

١٩ — وتشهير ابن حزم بخيانة المرأة وغدرها عنيف ومعروف ، أنظر مثلا صفحة ١٠٩ ومابعدها من طوق الحمامة ، وصفحة ١٦٥ . وفى هذه الأخيرة يقول : « ولولا أن أكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبهن فى الشر ، ومكرهن فيه ، عجائب تذهل الألباب » ؛ وعرض الموشى للفكرة أكثر من مرة ، فهو يقول فى صفحة ٧٩ : « إن للغدر فى النساء طبع ... » ، وفى صفحة ٨٨ و ١٢٠ : « مع أن مكرهن أخفى من الخيال ، وأعظم من راسيات الجبال ، تنفذ حيلهن على الرجال ، ويتمكن كيدهن من الأبطال » ؛

٢٠ — وتحمل الغدر ، وعدم الثورة عليه ، ومواجهته بمثله ، هو فيما يرى ابن حزم دناءة وخسة ، يقول فى صفحة ١٤٨ من الطوق : « ومنها

« أي من الأسباب الموجبة للسلو) الغدر ، وهو الذي لا يحتمله أحد ، ولا يغضى عليه كريم ، ولا يلام السالي عنه . . . بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه... فما يصبر عليه إلا دنيء المروءة ، خسيس النفس : نذل الهمة ، ساقطة الأنفة ».
وتجيء الفكرة نفسها في الموشى ، صفحة ١١٨ : « ثم أن أجهل الجهالة ، وأضل الضلالة ، صبر الفتى الأديب ، على غدر الحبيب ، فإن الصبر على الخيانة والغدر ، يضع من المروءة والقدر» .

٢١ — وأصرف النظر عن بعض فقرات أزيد جاءت في الموشى ، دون أن يكون لها شبيه محدد من فقرات أخرى في الطوق ، ولكنها تسير على خطى هذا الكتاب ، وانظر لها مثلا ، الموشى صفحة ١١٢ : « اعلم أن صبر المحب على هجر الحبيب ، تجرعه الغصص والتعذيب ، ومعالجة الزفير والنحيب ، وتقلقله القلب لفرق الوجيب ، من العجز الظاهر ، والموت الحاضر ، والمبادرة بالانصراف ، بعد تغير الآلاف ، من الحزم المكين ، والرأي الرصين . . . » .

٤ — التشابه في الأفكار أو في المواقف الشاعرية

٢٢ — يتحدث الموشى ، صفحة ٧٨ ، عن استحالة أن يحب الإنسان حباً حقيقياً شخصين في الوقت نفسه : « وهل يجتمع وحدان في موضع » ؟ وفيما بعد ، في صفحة ٩٩ ، يورد قصيدة من بحر السريع ، لأديب مجهول ، يعرض للموضوع نفسه ، ومنها هذا البيت :

نـاداك منه حسن جـائر   أم ليس يرضى الله دينين

ونجد في الطوق ، صفحة ٤٦ ، قصيدة لمؤلفه ، من بحر الخفيف ، منها هذان البيتان :

ليس في القلب موضع لحبيبـ   ـن ولا أحدث الأمور بثان
وكذا الدين واحـد مستقيم   وكفور من عنده دينان

٢٣ — فيما يتصل بموضوع المراسلة (أنظر رقم ١١) ، يورد الموشى في الصفحة ١٥٩ ، هذا البيت من بحر الكامل لشاعر مجهول :

مازلت أبكى مذ قرأت كتابها   حتى محوت سطورها بدموعى

وفى صفحة ٥٧ من الطوق ، نجد هذا الشطر من بيت شعر لابن حزم ، وجاء فى بحر الطويل ، والتشابه اللغوى بينهما واضح :

* فما زال ماء العين يمحو سطوره *

٢٤ — فى الموشى ، صفحة ٣٧ ، نجد هذا البيت من الشعر ، فى بحر الرمل ، لشاعر مجهول ، ويعرض لكتمان السر :

أمت السر بكتمان ولا   يبدون منك إذا استودعت سرى

ويورد ابن حزم فى صفحة ٦٢ من كتاب الطوق ، قطعة من قصيدة له ، جاءت فى بحر البسيط ، ومنها هذا الشطر :

أميته وحياة السر ميتته

٢٥ — ويجىء الموشى فى صفحة ٥٣ بقصيدة من بحر الوافر ، للشاعر العباسى على بن الجهم (ت ٨٦٣ م) ، مهداة إلى الخليفة المتوكل ، وسقط صريع حب جاريته قبيحة ، وإليك من أبياتها الثمانية هذه الأبيات الثلاثة :

تنكر حال علتى الطبيب   فقال : أرى بجسمك مايريب

جسست العرق منك فدل عندى   على داء له شأن عجيب

. . . .

فحرك رأسه ودنا منى   وقال : الحب ليس له طبيب

وفيما أرى فإن هذه القصيدة هى المصدر المباشر الذى ألهم ابن حزم قصيدته التى من بحر الوافر أيضاً ، وجاءت فى ستة عشر بيتاً ، ونلتقى بها فى الطوق ، الصفحة ١٣٧ ، ومنها أشطار الأبيات هذه :

* يقول لى الطبيب بغير علم *

* فقال : أرى نحولا زاد جداً *

* فأطرق باهتاً مما رآه *

٢٦ — وفى الموشى ، الصفحة ٦٧ ، نجد هذا البيت من بحر البسيط لشاعر مجهول :

الحب أوله عذب مذاقته   لكن آخره التنغيص والكدر

وبيت آخر من بحر البسيط للشاعر ابن أبي رعد :

الحب أوله عذب وآخره   مثل الحزازة بين القلب والكبد

وفي الصفحة ١٨٢ من طوق الحمامة نجد قصيدة طويلة لابن حزم ، من بحر الطويل ، ومنها هذا البيت :

رأيت الهوى سهل المبادى لذيذها   وعقباه مر الطعم ضنك المسالك

٥ — تشابهات في التقسيم وعناوين الأبواب

هنا علينا أن نتحدث حقاً عن اختلافات أكثر مما نعرض لألوان من المشابهات . وفيما يتصل بمنهج الكتاب وتقسيمه إلى أبواب ، ليس ثمة شك في أن الطوق قطعاً أفضل نهجاً وتنظيما وترتيباً من كتاب الموشى أو كتاب الزهرة . فابن حزم وهو فيلسوف وعالم اهتم ، بروح غربي ، بمناقشة حتى خطة الكتاب تفصيلا ، الصفحتان ١٧ و ١٨ ، ويمكن أن نقول الشيء نفسه فيما يتصل بعناوين الأبواب ، وثمة شيء من تشابه بين عناوين الموشى وطوق الحمامة . فحيث يقول الموشى ، في الصفحة ٦٤ : « باب من مات من شدة التتمد ، وتضعضعت أعضاؤه من شدة الوجد » ، يوجز طوق الحمامة الفكرة في : « باب الموت » . وحيث يقول الموشى ، في الصفحة ٢٧ : « باب الحث على كتمان السر ، في حفظ ما حنت عليه ضلوع الصدر » يختصره الطوق في : « باب طي السر » . وعناوين كتاب الزهرة مسجوعة وجادة وشاعرية ، وعناوين الطوق بلا سجع وعارية وموحية ، وذات وقع غربي .

ويتصل بهذا الغرض ، ولو أنني سأخرج عن الموضوع قليلا ، أن ألقي بملاحظة أراها مفيدة وجديدة ، ذلك أن أحد الأبواب الأخيرة في كتاب الموشى ، الصفحة ١٦٤ ، يدور حول العبارات التي ينقشها العشاق على خواتيمهم ، وعنوانه : « ومما ينقشه أهل الهوى على خواتيمهم » ، وفي الفقرة الأولى منه نلتقي بعشرة نقوش ، إليك أوائلها :

من كثرت لحظاته ، دامت حسراته .

من تداوى بدائه ، لم يصل إلى شفائه ؛

من قدم هواه ، دام أساه .

ونلحظ أن ثمانية نقوش منها ، دون تغيير أو مع تحوير طفيف ، عناوين أبواب فى كتاب الزهرة لابن داود ، وهي واقعة تثير الاهتمام ، لأن ابن داود والوشاء كانا متعاصرين ، فهل كان كتاب الزهرة مصدر هذه العبارات التى نقشها العشاق على خواتيمهم ، أم أن كتابات العشاق هى التى ألهمت ابن داود عناوين أبواب كتابه ؟

دراسة أصول كتاب أدبى قمة ، وهو طوق الحمامة فى حالتنا هذه ، مفيد دائماً وضرورى ، ولست أدرى ما إذا كانت الملاحظات التى سبقت مقبولة أم لا ، وما إذا كانت تسهم تاريخيا فى تفسير إمكانيات الإبداع فى كتاب ابن حزم القرطبى الشهير . وأعتقد ، فى حالة الالتفات إليها ، أن غايتى لاتتوقف عند هذه فحسب ، فمنذ زمن وأنا أدافع وأدعو ، معطياً المثل متواضعاً ؛ إلى أنه من غير الممكن أن ندرس الأدب الأندلسى علمياً دون أن نحدد ما به من عناصر مشرقية ، وماهو تجديد أو اقتباس إسبانى ، وهو أمر صعب للغاية من الوجهة التقنية فى حالات كثيرة . وحالة ابن حزم ، وابن شهيد أيضاً ، مثل متميز وواضح لمعرفة الصلة وردود الفعل المتباينة للتيارين ، والاصطدام بين العكرين ، المشرقى والغربى . ولو لم تمت القيادة الأدبية ، والتى يمثلها المؤلفان الكبيران ، تحت أنقاض الخلافة ، تاركة الطريق واسعاً وعريضاً لعصر من التشريق والبغددة ، كما انتهى إليه حال دول الطوائف ، لكان من المؤكد أن أدب الأندلس وثقافته ما كان ليصبح بالشكل الذى وصلنا عليه الآن ، مجرد مقاطعة تائهة من أدب العرب وثقافتهم ، بل كان سيرتفع شامخاً ، فى مملكة متألقة ومستقلة على نحو ما كانت عليه خلافة قرطبة .

— ٢ —

كتاب منية المحبين وبغية العاشقين

للشيخ يوسف بن مرعي الحنبلي

أن نقفو تأثيرات « طوق الحمامة » في الأدب التالي شيء مفيد ، لا لكي نعرف القدر الذي بلغه من الشهرة كتاب ابن حزم فحسب ، وإنما أيضاً لكي نغذي الأمل وندعمه في العثور يوماً على مخطوطة جديدة له ، لأن إمكانيات العثور عليها تزداد منطقياً مع اكتشاف أن دائرة انتشاره كانت أوسع مما برهنا عليه . وحتى الآن ، ماعدا الخطأ أو الإغفال ، درس الباحثون تأثير الطوق ، أو اكتشفوا إشارات إليه ، في المؤلفات التالية :

• في الأدب الأندلسي : في كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، طبعة الرباط عام ١٩٣٤ ، الصفحات ١٢٤ — ١٢٦ (١) ، وثلاث قصائد في كتاب نفح الطيب للمقري ، المجلد الثاني ، الصفحة ٤٠٦ ، من الطبعة الأوربية . •

• في الأدب الإسباني : تأثيرات موضع نقاش في كتاب « الحب المحمود » لكاهن هيتا ، وهو من القرن الرابع عشر(٢). وفي كتاب الراهب الكرملي جوزيف دي خسوس مارية Joseph de Jesus Maria ، وعنوانه

١ — أنظر : ليفي بروفنسال ، مجلة الأندلس ، المجلد ١٥ ، الصفحات ٣٣٩ — ٣٤٠ و ٣٦١ — ٣٦٣ .

• في الجزء ٣ ، الصفحة ٥٩٩ ، من طبعة إحسان عباس . (المترجم)

٢ — أنظر : أميركو كاسترو ، إسبانيا في تاريخها ، ص ٣٧١ — ٤٦٩ ، بونس أيرس ١٩٤٨ .

* ترجمت هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية ، وسوف تنشر ترجمته قريباً . وفيما يتصل بتأثير « طوق الحمامة » في كتاب « الحب المحمود » ، أنظر الفصل الخاص بتأثير الطوق في الأدب الإسباني ، من هذا الكتاب (المترجم) .

مزايا فضيلة العفة Exeelencias de la viitude de la eastidad ونشر في القاهرة عام ١٦٠١ م (١) .

• في الأدب العربي المشرقي : في « روضة المحبين » لابن قيم الجوزية (٢) وفي « ديوان الصبابة » لابن أبي حجلة (٢) ، ومع شيء من الشك في كتاب « تزيين الأسواق » للأنطاكي (٤) ،

وإلى هذه التأثيرات يمكن أن نضيف الآن تأثيراً واضحاً في كتاب آخر هو : « منية المحبين وبغية العاشقين » للشيخ السوري يوسف بن يحيي بن مرعي الطور كرمي الحنبلي ، ولم يرد في قائمة ريتر التي حررها عن كتب الحب (٥) .

وطبقاً لكتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبي ، الجزء الرابع ، الصفحة ٥٠٨ ، نعرف أنه رحل إلى مصر للدراسة عام ١٠٤٤ هـ — ١٦٣٤ م ، وعاد منها سنة ١٠٤٩ هـ — ١٦٣٩ م ، وكان مفتياً في نابلس ، وعلى مذهب ابن تيمية ، وتوفي يوم الإثنين ١٠ من صفر عام ١٠٧٨ هـ — ١ من أغسطس ١٦٦٧ م (٦) .

---

١ — أنظر : كاسترو ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣ ، وأنظر أيضا : خايمة أوليفر آسين ، مجلة المجمع الملكي الإسباني ، المجلد ٣٠ ، ص ٣٨٩ ، ٤٢١ ، ٥ عام ١٩٥٠ .

٢ — أنظر : بروكلمان ، مجلة إسلاميكا ، المجلد ٥ ، ص ٤٦٢ — ٤٧٤ .

٣ — أنظر : غرسية غومث ، مجلة الأندلس ، المجلد ٦ ، ص ٦٥٠ — ٦٧٢ .

٤ — أنظر المرجع السابق .

٥ — أنظر فيما سبق صفحة ٣٠٠ من هذا الكتاب الهامش رقم ٢

٦ — في فهرس مكتبة بلدية الإسكندرية ، ولا أعرف ما إذا كان بداية المخطوطة نفسها ، ومع ذلك يقال أنه توفي عام ١٠٣٣ هـ ، ١٦٢٣ م ، وذكر هذا التاريخ بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي ، جـ ٢ ص ٣٦٩ ، والملحق جـ ٢ ص ٤٩٦ ، ويدعوه بروكلمان : مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي ، زين الدين المقدسي الحنبلي ، ولد في طول الكرم ، قريباً من نابلس . ومخطوطة الإسكندرية تظهر عند بروكلمان في الملحق فقط ، جـ ١ ص ١٢٩٢ ، في الفقرة الخاصة بالمطبوعات .

وقد أمكنني أن أعود إلى مخطوطتين من « المنية » ، إحداهما كاملة في مكتبة بلدية الإسكندرية ، تحت رقم : ن — ٤٥٦٤ — ج ، وجاءت في ٣٥ ورقة ، بلا ترقيم ، وكتبت في خط شرقي جيد ، وهي التي سأحيل عليها دائما . والأخرى في دار الكتب المصرية ، وجاءت في ٥١ ورقة ، ومسطرتها ١٥ × ٢٠ ، وكتبت في خط مغربي ، وتحمل رقم ٦٢٥٢ أدب ، ولسبت إلى مجهول ، فكان عنوانها : « الحب والمحبة ، مؤلفه مجهول » ، ولو أنه يمكن التوصل إلى معرفة المؤلف في الحال .

نحن بصدد كتاب محدود الصفحات ، وبعد مقدمة قصيرة مسجوعة يقسم المؤلف كتابه في عشرة أبواب هي :

١ — في إثبات حقيقة المحبة وشرفها .

٢ — في كلام الخائضين في حقيقة المحبة .

٣ — في حقيقة العشق وأسبابه ومراتبه ، وفي الفرق بينه وبين الخلة والمحبة ، وفي أسمائه . وبين المؤلفين الذين يذكرهم في هذا الباب تظهر أسماء : أفلاطون ، (ولكن ليست نظريته في الأفلاك المقسومة) ، وابن سينا وأرسطو وأبقراط والمتنبي والأصمعي وابن تيمية والقاضي عياض وابن قيم الجوزية .

٤ — في كلام الخائضين بمدح العشق وذمه . وفيه يذكر كتاباً آخر له عن الحب بعنوان : « تسكين الأشواق بأخبار العشاق » .

٥ — في ذم الهوى وفي ذكر القلب ومدح العقل .

٦ — في علامات المحب والعاشق وماذا يصير لهما عند غلبة من السكر وغيره وماذا يترتب عليهما .

٧ — في حقيقة الشوق وهل هو يزول بالوصال أو يزيد ، وهل يصح كتمان المحبة ، وهل يتصور عند تمام المحبة هجر ، وهل إعراض الحبيب عن عداوة .

٨ — في إرشاد العاشق السقيم ، إلى الطريق المستقيم ، وبيان عقوبة من جنح للفعل الذميم .

٩ — فى الحذر من المرد وأصحاب العذار، وماقيل فيهم من الأشعار :

١٠ — فى فضل الشعر ، وفى ذكر شيء من أشعار المحبين . وهو مختارات من شعر الغزل ، ليست مهمة إلى حد كبير ، ويضمنها المؤلف أشعاراً له ، ويختمها بموشحة .

والإشارة الوحيدة التى يذكر فيها ابن حزم باسمه توجد فى الباب الرابع ، الورقة ٩ ب ، فى الوسط منها : « وقال ابن حزم : وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين خلق كثير ، وعبيد الله أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره وعد لائمه ظالما ، وعشق عمر بن عبد العزيز جارية زوجته فاطمة مشهورة» . وهذه الفقرة تلتقى فى جانب مع ماذكره ابن حزم فى كتابه « طوق الحمامة » ، الصفحة ٦ من طبعة بتروف . (أو الصفحة ٢٠ من طبعة دار المعارف) * .

وأما فى الباب السادس من « المنية » ، وهو الخاص بعلامات الحب ، فقد اتكأ الشيخ مرعى طويلا على كتاب ابن حزم ، ودون أن يشير إليه ، وإليك جانبا من نص المؤلف الشرقى ، وفيه صرفت النظر عن الأشعار التى تتخلله ، وهى غير ذات أهمية ، إلى جانب فقرة غير واضحة ، وقد ألحت إلى الاتفاقات الأكثر وضوحا ، وجئت بها فى حرف مختلف ، وعلقت عليها :

«فللمحب والعاشق علامات يعرف بها المحبون، وحالات يتميز بها العاشقون(١) . فمن العلامات (الورقة ١٢ ب) اضطراب أعضاء المحب العاشق عند نظر

---

* تختلف عبارة ابن حزم فى الطوق عما فى كتاب المنية شيئا فيما يتصل بعبيد الله ، ولم يشر الطوق من قريب أو بعيد إلى قصة عمر بن عبد العزيز ، فلعلها إضافة من صاحب المنية ، أو لعله رجع إلى نسخة من الطوق غير التى بين أيدينا ، نسخة كاملة غير مختصرة ، وهو ما أرجحه (المترجم) .

١ — فى طوق الحمامة ، الصفحة ٢٧ ، من طبعة دار المعارف : « وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى إليها الذكى » .

محبوبه ومعشوقه (١) : ورميه بطرفه نحو الأرض ، وتغيره تغير احمرار واصفرار ، وذلك من مهابته له ، وحيائه منه ، وعظمته فى صدره . . [بيتان من الشعر] . ولذلك قال بعضهم : من علاماته اصفرار وجه المحب عند رؤية حبيبه ، واحمرار وجه المحبوب عند مقابلة محبه . [بيتان من الشعر] . . ومنها أن يضطرب المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه (٢) . . . [بيتان من الشعر] . . ومنها أن يستدعى سماع اسم محبوبه ويستلذ الحديث فى أخباره (٣) وأشعاره ، ويحب أهل محبوبه وقرابته (٤) وغلمانه وجيرانه ومن ساكنه . . [بيتان من الشعر وتفصيل الموضوع] . (الورقة ١٢) . ومنها الإنصات لحديثه ، واستغراب ما يأتى به ولو كان عين المحال ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار . . واتباعه كيف سلك (٥) ، والإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه ، والدنو منه ، والتباطى عن القيام من عنده (٦) [بيت من الشعر] . . ومنها بذل نفسه والتكرم بها دون من

---

١ — فى طوق الحمامة ، الصفحة ٢٧ : « ومنها بهت يقع ، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة . . . »

(٢) فى الطوق ، فى الصفحة نفسها : « ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة » .

(٣) فى الطوق ، الصفحة ٢٩ : « ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ، ويستلذ الكلام فى أخباره » .

(٣) فى الطوق ، الصفحة ٣٢ ، « ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته . . . » .

(٥) فى الطوق ، الصفحة ٢٧ : « والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغراب كل ما يأتى به ولو أنه عين المحال . . . وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك » .

(٦) فى الطوق ، فى الصفحة نفسها ، « ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكونه

بحبه وبهواه . . (١) . . (الورقة ١٣) . . ومنها الانبساط الزائد الكثير ، والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشئ يأخذه أحدهما ، والتعمد للمس اليد عند المحادثة ، ولمس ماأمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب ما أبقى المحبوب فى الإناء (٢) . . . »

فى ضوء هذه الاستفادة ، أو إن شئت الدقة فى ضوء هذا النقل ، نستطيع أن نتوصل إلى النتائج التالية :

* أن طوق الحمامة كان معروفاً ، وجرت عليه أعين القراءة والكتاب فى سورية ، فى النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى (٣) . ومن ثم لايجب أن نفقد الأمل فى أنه يمكن العثور يوماً على مخطوطة جديدة له فى المشرق.

* لقد أتيحت لى الفرصة أن ألحظ فى مقدمة ترجمتى الإسبانية للطوق (٤) أن « باب علامات الحب » أتيح له من بين أبواب كل الكتاب ،

═ فيه ، والتعمد للقعود بقربه ، والدنو منه . . . والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه . . . »

(١) فى الطوق ، الصفحة ٢٨ : « ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما يقدر عليه مما كان يتمتع به قبل ذلك » .

(٢) فى الطوق ، فى الصفحة نفسها : « ومن علاماته . . الانبساط الكثير الزائد ، والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما . . والتعمد لمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء . . . »

* فى هذا الاتفاق إشارة جديدة على أن إضافة برشيه ، الصفحة ٣٤ من طبعته ، لتصبح العبارة « الانبساط الكثير الزائد فى المكان الضيق » ، نزوة خالصة ، مثل عدد من التصويبات الأخرى التى حاولها .

(٣) كل بقية المؤلفين الذين أشرنا إليهم : ابن الخطيب ، وابن قيم الجوزية ، وابن أبى حجلة ، من القرن الرابع عشر الميلادى ، وداود الأنطاكى من القرن السادس عشر . المقرى وحده توفى عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م ، وهو مع ذلك سابق للشيخ مرعى .

(٤) أنظر الصفحة ٢٩٧ الهامش ١ من هذا الكتاب .

أكبر حظ من الذيوع والانتشار ، فى الشرق والغرب على السواء ؛ فهل ياترى كان هذا الفصل يجرى بين يدى القراء وحيداً ، ومنفصلا عن بقية الكتاب ، أم أنه ضم ، مع فصول غيره ، إلى كتاب آخر لانعرفه ، وكان هذا الكتاب المصدر المباشر لمن استخدموه فى المشرق ، وحتى فى الغرب؟؛ فى هذه الحالة علينا أن نصرف النظر عن النتيجة الأولى .

* * *

● ملاحظة أخيرة :

لم تعرض لى فى مؤتمر المستشرقين ، ولكنى أبادر إلى رأى يمكن أن يقال عن القسم الأول من هذه الدراسة ، من الذين يرون أن التشابه صدفة فيما يتصل بالأفكار العامة فى الحب ، وفى العبارات والنغم ، سهل جداً ، لأننا ، فى رأى من يدافعون عن هذه الفكرة ، بصدد مشاعر ومجالات مشتركة بين كل عصر ومكان ، ولست من أنصار هذا الرأى . فالحب ليس شيئاً مشتركاً بين مختلف العصور والثقافات ، فضلا عما فيه من جانب تشريحى وآخر يمس وظائف الأعضاء ، ويقول أورتيجا إى جاسيت : « الظن بأن ظاهرة شديدة الإنسانية مثل أن نحب وجدت دائماً ، ودائماً فى صورة واحدة ، هو مثل أن نعتقد خطأ أن الأفراد يملكون مثل المعادن والنبات والحيوان طبيعة واحدة وثابتة ، ونجهل أن كل مافيه تاريخى ، كل شئ ، حتى ماينتمى منه إلى الطبيعة فعلا . كما هو الحال فى حاجاته الغريزية . . . الحب شكل واختراع ونظام إنسانى ؛ وليس ابن عم الهضم ولا زيادة الكلورفى المعدة » . وأحتفظ لنفسى بتطبيق أفكار أورتيجا إى جاسيت ، فى مستقبل غير بعيد ، على تطور الأدب العاطفى عند العرب : فقط أبادر هنا إلى القول بأنه يمكننا فى القريب أن نؤرخ فى عالم العرب المشارقة متى اقتحم الحب العذرى مجال الحب الطبيعى الجاهلى ، ومتى حل مكانه ، ومتى انتصر الحب الذى تمثله قصائد عمر بن أبى ربيعة

ورفاقه ، ومتى ساد حب الجوارى ، ومتى برزت ظاهرة حب الغلمان فى الأدب العربى ، ومن كل هذه الغراميات الأخيرة ، ذات التقليد المشرقى ، توجد عناصر فى طوق الحمامة لابن حزم . ومن جانب آخر ، بين الروحانيات العاطفية النبيلة للأديب القرطبى والفحش الجاسى لشاعر كبير من القرن التاسع الميلادى ، مثل الغزال ، تتوسط هوة عميقة ، لا يمكن أن نفسرها بردود فعل عفوية فحسب ، دون أى لون من تأثير التقاليد المشرقية التى سبقته مباشرة .

آخرون كتبوا فى الحب

بعد ابن حزم

كان ابن حزم نسيج وحده فى كتابه «الطوق» ، على نحو ما رأينا ، لم ينقل عن أحد ، ولم يتأثر فى منهجه بقراءة ، وترك أثره فيمن جاءوا بعده ، دون أن يبلغ أحد منهم مبلغه ، وأول هؤلاء فيما أعرف أبو محمد جعفر بن أحمد السراج ، المتوفى سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٧ م ، وإذا عرفنا أنه جاء إلى الحياة عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م ، تبين لنا أنه عاصر ابن حزم لسنوات طويلة تقارب الأربعين عاماً ، وكان عالم قرطبة ملء السمع والبصر ، ولكن تحديد الزمن الذى بلغت فيه مؤلفاته المشرق عسير ، ولما يدرس ، ويمكن القول إجمالا أن دنيا المشرق فى القرن الحادى عشر كانت مهيأة ، إن لم تقل متشوفة . إلى أن تقرأ كتاباً من طراز « طوق الحمامة » . دون أن نجزم بأن عينى السراج وقعت عليه ، وليس فى كتابه ما يرجح ظنا ، على نحو ما سنعرف بعد قليل .

يعرف السراج بالقارىء البغدادى ، لأنه ولد فى بغداد ، وعلى ساحتها لقى الله ، وكان رجلا كثير التجارب ، رحل إلى مكة والشام ومصر ، ويقول عنه جلال الدين السيوطى : « كان عالى الطبقة فى الحديث والقراءة والنحو واللغة والعروض » ، ومن هنا كانت أغلب تآليفه تقوم على الرواية والنقل ، والجمع والنظم ، وكتابه « مصارع العشاق » خير مثال لهذا ، فهو حشد من الروايات والأخبار والأشعار ، مسندة أو مرسلة ، يوردها دون أى تحليل أو نقد أو موازنة ، كأنما يستهدف الرواية وحدها ، وكأنما غايته التسلية والإمتاع وكفى .

ويختلف عن ابن حزم فى أنه فقيه سياسى ، ومحدث سلفى ، يجرى على مذهب العامة فى أيامه ، وليس له اطلاع على الفلسفة ، ولا مشاركة فى الثقافات الأجنبية المترجمة ، وعادى فى حياته وثقافته ، لا يتميز بموقف بارز فى أى مجال ،

وربما لهذا السبب لا تقف عنده كتب التراجم طويلا ، فهو محدث كمئات المحدثين الذين تضيق بهم بغداد ، ونحوى كآلاف منهم على امتداد العالم العربى ، وأقرب الظن أنه كان رقيق العاطفة ، يصبو للجمال ، ويتذوق الشعر ، ويقول الأبيات منه على استحياء ، يلفه الوقار ، وتكبح نزعاته التقاليد ، ويحرص دائماً على الأخلاق السائدة ، وأراه وجد فى الحديث عن العشاق غيره تسلية ، والحياة مع أخبارهم سلوى ، ولعله أراد أن يكتب تاريخه ، وأن ينفس عن مكنون صدره ، حين سطر سيرتهم فى : « مصارع العشاق » .

بدأ السراج كتابه بلا مقدمة تبين منهجه ، وانتهى به دون خاتمة توجز غايته ، وكسره على اثنين وعشرين جزءا ، زحمها بكل ما عرف من قصص العشاق ، حتى ما كان نادراً أو خرافة لا تصدق ، ولا تجىء أخباره مرتبة ، وقد يعرض للموضوع ثم يعود إليه ، وقد يجىء جانب منه فى جزء ، وجانب ثان فى جزء آخر ، ومحورها أخبار العشاق العذريين : وفاضت على أيامه ، وأصبحت تمثل فى بغداد تياراً ملحوظاً ، فى عالم الأدب على الأقل . ويأتى بأخباره مسندة ، وهو فى ذلك يجرى على عادة سارية ، لأن إسناد الخبر عنده ليس دليل الصحة دائما ، وإهماله ليس قرين الضعف . وأورد لنا عبر هذه القصص طائفة من الشعر لعدد كبير من الشعراء على أيامه أو قبلها ، مثل جرير ، وعمر بن أبى ربيعة ، وبشار بن برد ، وأبى العتاهية ، وأبى نواس ، وأبى تمام ، والبحترى ، وغيرهم . ولشعراء آخرين مجهولين من الأعراب وسواهم ، لا نعرف أسماءهم ، ولم تعن كتب الأدب برواية شعرهم ، وكان متداولا فى مجالس السمر البغدادية على أيامه ، ويأتى بها لأنها تكمل القصة التى يوردها ، أو توشى الموضوع الذى يتحدث عنه ، أو لأن ذاكرته فاضت بها . وعرض على نحو أقل للحب الإلهى ، وأورد عدداً من قصص الصوفية ، وأشعارهم فى حب الله ، أو الجنة ، أو الحور العين ، أو فى مدح صاحب الكعبة .

وحاول فى الجانب الأكبر من قصصه أن يؤكد خلود العاشقين ، وأن

يبرز ملامح النساك منهم ، والذين يخافون الله ، وأن يربط بين العشق والتقى والعفة ، وتركنا نفهم أن الدين يسهم بقدر فى توجيه الحب وجهة عفيفة ، فعشاقه يؤكدون من خلال تعاملهم على الوازع الدينى ، وأنه يحول بينهم وبين ارتكاب المعاصى ، أو يحملهم على إخفاء عواطفهم ، فصاروا أمثلة للتضحية والوفاء . وهو فى كل الحالات رجل إخبارى ، لا يحلل ولا يدرس ، لا يلتمس العلل ، ولا يدفع لك بالنتائج ، ومع ذلك فتحليل القصص الذى أورده يهدى إلى تفسير أدق لظاهرة الحب العذرى فى بغداد . ومن المفيد أن نشير إلى أن السراج ، وقد طوى كتابه على الكثير من أشعار العذريين وصرعى الحب الإلهى ، لم يجد حرجاً فى أن يتحدث عن عشاق الغلمان ، وأورد شيئاً من شعرهم الماجن ، وهى ظاهرة ترتبط بتقدم الحضارة ، وكانت بغداد فى قمة الحضارة على أيامه ، ولعلها لم تكن ترى فى الحديث عن مثل هذه الظاهرة الشاذة شيئا يعاب .

ومهما يكن فكتاب السراج قصص انفصل عن الواقع ، وعن الأسماء التى ارتبطت به ، زاد فيه الرواة وأعادوا تلوينه ، أو ابتدعوه أصلا ، ونثروا بين سطوره أسماء معروفة ، ليكون أقرب إلى الواقع ، وأنفذ إلى قلوب السامعين ، وهو يعكس دون شك ذوق الذين أقبلوا على هذه القصص ، يسمرون بها أو يؤرخون لها ، دون أن تصبح وثيقة لحياة أبطالها ، أو لواقع المجتمع الذى انتموا إليه ، ومؤلف الكتاب فقيه خائف ، يتوجس شراً من وراء رواية أية حكاية ، فيوردها مسندة ، كأنما يريد أن ينفض يديه من مسئوليتها ، ويوصد الباب دون مشاعره ، فلا يعرف أحد على نحو يقينى ما تنطوى عليه ، وكلها ملامح يقف ابن حزم فى الجانب المقابل لها تماما .

* * *

بعد ثمانى سنوات من وفاة السراج يجىء ابن الجوزى ، أبو الفرج عبد الرحمن ، القرشى البغدادى ، ولد فى بغداد عام ٥٨٠ هـ = ١١١٤ م ، وفيها توفى عام ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م ، والجوزى نسبة إلى « فرضة الجوز »

من ضواحي عاصمة الرشيد . وأمضى طفولة تعسة ، مات أبوه ولما يتجاوز الثالثة من عمره ، وأهملته أمه ، فرعته عمة له ، ثم احتضنته خالة حين ظهرت مواهبه ، وتفرد بين قرنائه ، واتجه صغيرا إلى الوعظ ، فبرع فيه ، أعانته عليه مشاعر رقيقة ، وحنان متدفق ، ورغبة في الإصلاح ، وعزم على مقاومة الفساد الذي عم وطم ، بالكلمة القارعة ، والقصة الموحية ، والمثل القدوة . ولكن مواهبه لم تقف به عند الوعظ ، فشارك في كل مناحي العلم على أيامه ، كتب في علوم القرآن والحديث ، والأدب واللغة ، والوعظ والفقه ، والتاريخ والسير ، وتعرف له المكتبة العربية قرابة ستين كتاباً بين مخطوط ومطبوع ، على حين يرتفع أصحاب التراجم القدامى بمؤلفاته إلى ثلاث مئة ، ويهمنا من بينها جميعا كتابه : « ذم الهوى » .

وقبل أن نعرض للكتاب نفسه أرى من المفيد أن نقف عند صورة دقيقة لمؤلفه ، أوردها ابن العماد الحنبلي ، نقلا عن الموفق عبد اللطيف ، ففيها ما يكشف اتجاهه ، ويلقى ضوءاً على مؤلفه ، يقول : « كان ابن الجوزى لطيف الصوت ، حلو الشمائل ، رخيم النغمة ، موزون الحركات ، لذيذ المفاكهة ، لا يضيع من زمانه شيئاً ، يكتب في اليوم أربع كراريس ، ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين ، وله في كل علم مشاركة... وكان يراعي حفظ صحته ، وتلطيف مزاجه ، وما يفيد عقله قوة ، وذهنه حدة ، يعتاض عن الفاكهة بالفاكهة ، لباسه الأبيض الناعم المطيب ... وله مجون لطيف ، ومداعبات حلوة ، ولا ينفك عن جارية حسناء ، وذكر غير واحد أنه شرب حب البلادر فسقطت لحيته ، فكانت قصيرة جداً ، وكان يخضبها بالسواد إلى أن مات » .

ورغم أن ابن الجوزى احتاط لنفسه ، فجعل عنوان كتابه : « ذم الهوى » ، مما يرفع الحرج عنه للوهلة الأولى ، احتاج كعادة الذين كتبوا في الحب قبله ، أن يشير إلى أنه يؤلف كتابه استجابة لرغبة أبديت له : « شكا إلى بعض من أثرت شكواه إثارة همتى في جمع هذا الكتاب ، من بلاء

ابتلى به ، وهوى هوى فيه ، وسألنى المبالغة فى وصف دواء دائه ، فأهديت له نصيحة وديد لأودائه ، وقد أتيت بها على أبلغ ترتيب ». وبعد مقدمة قصيرة جداً لاتتجاوز هذه السطور ، عقب بما يشبه أن يكون اعتذاراً عما مس وقاره من مضمون الكتاب : « واعلم أنى قد نزلت لأجلك فى هذا الكتاب عن يفاع الوقار ، إلى حضيض الترخص فيما أورد ، اجتذاباً لسلامتك ، واجتلابا لعافيتك ، وقد مددت فيه النفس بعض المد ؛ لأن مثلك مفتقر إلى مايلهيه من الأسمار ، عن الفكر فيما هو بصدده من الأخطار ، فليكن هذا الكتاب سميرك ، واستعمال ماآمرك به فيه شغلك ، والله ولى صلاحك ، فإنه لاعاصم إلا من رحم » :

ثم أتى على الأبواب التى تضمنها الكتاب ، وتبلغ الخمسين ، وتحت كل باب فصول عديدة ، تتناول الجوانب المختلفة للقضية التى يعالجها .

نحن مع « ذم الهوى » إذن أمام كتاب ضخم ، لعله أضخم كتاب ألف فى هذا المجال ، ولا غرو أن يكون كذلك ، فصاحبه واعظ ، معارفه وفيرة وعبارته مواتية ، ورغبته فى الإفاضة بينة ، وإدراكه لنفسية القارىء دقيقة ، وكانت دراسته جماع هذا كله ، جاء الجانب الأكبر منها فى التحذير والتذكير ، من التنبيه إلى فضل العقل ، وذم الهوى والشهوات والحض على مجاهدة النفس ومحاسبتها وتوبيخها ، ومدح الصبر والحث عليه ، وحراسة القلب من التعرض للشواغل والفتن ، وما يصدأ به وما يجلو صدأه ، أو يفرغه من محبة الرب .

ونحص النظر بأبواب عديدة ، تدور حول الأمر بغض البصر ، وذم فضول النظر ، والتحذير من شره ، والنهى عن النظر إلى المردان ومجالستهم ، وإثم النظر وعقوبته ، ومن عاقب نفسه عليه ، ومن طلب العمى خوف الفتنة ، وثواب من غض بصره عن الحرام ، ومعالجة الهم والفكر المتولد عن النظر ، والتحذير من فتنة النساء ، والتخويف من الفتن ومكايد الشيطان ، والتحذير من المعاصى وقبحها ، وفى ذم الزنا ، وعرض للعواطف المنحرفة ،

وحذر من ذلك كله ، وذكر بعقوبته ، وحث على التوبة لمن تردى فى مهاويها : وخرج من ذلك إلى نهاية منطقية فيها الحماية لمن أراد العافية ، فحبب فى الزواج ، وقرع من خبب امرأة على زوجها ، وبذلك انتهى الجانب الوعظى من الكتاب .

ومن الباب الخامس والثلاثين حتى نهاية الكتاب وقفه على العشق ، حقيقته وأسبابه وذمه ، وثواب العفة فيه ، وما يجرى على العاشق من المرض والضنى والجنون ، والحيل والمخاطرة والتهلكة لأجل لقاء المحبوب ، ومن ضربت به الأمثال من العشاق ، ومن حمله العشق على أن يزنى بمحارمه ، ومن كفر بسببه ، ومن دفع به العشق إلى أن يقتل نفسه أو معشوقه ، ومن قتله العشق ، وأدوية الشفاء ، وأخبار مشاهير العشاق ، وأنهى الكتاب بباب وقفه على الوصايا والزواجر والمواعظ .

كان اعتماد ابن الجوزى فى الجانب الخاص بالنهى والتحذير ، والإرشاد والتذكير ، قائماً على النقل عن الزهاد والعباد والمحدثين ، والفقهاء والمتصوفة والمفسرين ، والأدباء والعلماء وعلية القوم ، والبدو وعامة الشعب . وقد يذهب بعيداً فينقل عن السيد المسيح ، ويستشهد بأحوال الرهبان ، أو يضرب المثل بأنبياء بنى إسرائيل . وأفاد فى الأبواب الخاصة بالعشق من التراث اليونانى المترجم ، فهو ينقل عن أفلاطون ، وبوذجانس ، وأرسطوطاليس ، وفيثاغورس ، وجالينوس ، ويسميهم « الأوائل » ، ويعقب على آرائهم بالإسلاميين . إنه مفتوح العقل والقلب ، يلتقط أية مادة يسقط عليها عقله ، ما دامت تخدم الهدف الذى يسعى إليه . ويوشى قصصه بين حين وآخر بأبيات من الشعر تمتد أحياناً حتى تصبح قصيدة طويلة ، وأخباره مسندة دائماً ، وعبارته واضحة أبداً .

وحددت مهمته واعظاً نهجه فى الرواية ، فهو يهتم بالتأثير فى المقام الأول ، لا يعنيه المصدر كثيراً ، ولا صدق ما يرويه ، يحور القصة ويطورها ، وقد يوشيها بحديث ولو موضوع ، لكى يبلغ التأثير غايته .

يجرى قلمه بأبعد مما جرى به قلم أى واحد من الذين سبقوه ، يورد قصة الأم التى عشقت ابنها واحتالت عليه ، والأخ الذى أحب أخته واتخذها عشيقة ، ويمضى بالقصتين فى خبر مثير وأسلوب سهل جذاب ، يغرى بالقراءة ، ويمسك باهتمام القارىء حتى النهاية .

والكتاب صورة لما كان يجرى فى المجتمع العربى بعامة ، وفى بغداد على نحو خاص ، فى عصر المؤلف وما قبله ، وإذا صفينا مادته من طابع القصة ، وإرادة التأثير ، التقينا بالحياة كما هى ، وإذا البون شاسع بين ما يحدث فعلا ، وما يتمناه ابن الجوزى واعظاً ، وقد أسرف فى أمثلته ، وأراها لا تحقق ما أراد منها ، فبها أشاع نادراً ، وأذاع مجهولا ، وجعل من سقطات الأبرار مندوحة لعامة الناس .

وأدار المؤلف ظهره للأندلس ، والغرب الإسلامى ، وحتى مصر لا ترد إلا نادراً ، وكان فى ذلك مخلصاً مع نفسه ، فهو لم يبرح بغداد فيما يبدو ، والتقط مادته من روايات معاصريه الذين لقيهم ، وشهدة بنت أحمد من بينهم على نحو ظاهر ، والخبر الأندلسى الوحيد الذى اهتم به ، وأورده تفصيلا ، قصة أحمد بن كليب مع أسلم بن عبد العزيز .

وأكاد أجزم أن ابن الجوزى لم يقرأ « طوق الحمامة » ، أو حتى سمع به ، فهو لا يأتى على ذكر ابن حزم أبداً ، ولا يلتقى معه رأى أو منهج أو فكرة ، ومسافة الخلف بينهما واسعة ، مادة ومنهجاً ، ابن حزم أصيل وذاتى ومبدع ، وابن الجوزى قارىء ومختار وصانع ، والأول واقعى ومقرر وذاتى ، والثانى واعظ وقصاص وناقل . والقرطبى يقدم مادة لا نكاد نجدها عند غيره ، والبغدادى يقدم حشداً هائلا من الروايات ، ويمكن أن نلتقى بالجانب الأكبر منها مبعثراً فى مؤلفات أخرى ، ولكن ذلك لا يقلل من شأنه ، فهو شيق بحكاياته وأسلوبه ، وأنت تجرى بين سطوره ، وكأنك تقرأ كتاباً معاصراً ، لا تقع منه على جملة قلقة ، أو تعبير غامض ، أو كلمة صعبة تقف عندها ، أو تحتاج فى فهمها أن

تعود إلى المعاجم .

* * *

وبعد قرن تقريباً يجيء ابن قيم الجوزية ، ومن توافق الصدف أن البعد الزمني بين وفاة السراج ومولد ابن الجوزى ، يعادل تقريباً المسافة بين وفاة ابن الجوزى ومولد ابن قيم الجوزية ، سنوات تتجاوز التسعين وتقل عن المائة ، ؛ وثمة فارق جوهرى بينهم ، فالسراج وابن الجوزى بغداديان ، وابن قيم الجوزية دمشقى ، جاء إلى عاصمة بنى أمية عام ٦٩١هـ =١٢٩٢م ، وبها توفى عام ٧٥١ هـ = ١٣٥٠ م ، وعبر حياته الطويلة تنقل ما بين سورية ومصر ومكة . وكان تلميذاً لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٢٦٣ — ١٣٢٨م) ، لا يخرج عن شيء من أقواله ، وينتصر له فى جميع ما يصدر عنه ، وهو الذى هذب كتبه ، ونشر علمه ، وسجن معه فى قلعة دمشق ، وأهين وعذب بسببه ، وطيف به على جمل مضروباً بالعصى ، وأطلق سراحه بعد موته . وكان ابن تيمية إماماً جليلا ، لايخضع فى مذهبه إلا للقرآن والسنة والإجماع ، رغم أنه من أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، وقد رفع عقيرته ضد البدع عبادة الأولياء والحج إلى قبورهم ، والنذر لهم ، وسار الوهابيون على وبادئه فيما بعد .

وكان ابن قيم الجوزية حسن الخلق ، محبوباً عند الناس ، ذا عبادة وتهجد وطول صلاة ؛ تفنن فى كافة علوم الإسلام من تفسير وحديث وأصول ، متمكناً من النحو وعلم الكلام والتصوف ، أغرى بحب الكتب فجمع منها عدداً عظيما ، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً ، وألف تصانيف كثيرة تقارب السبعين ، أروجها : « زاد المعاد فى هدى خير العباد » ، ويهمنا من بينها كتابه : « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ، وأراد به فيما يقول : « عوناً على الدين والدنيا ، فتارة يضحك قارئه ، وتارة يبكيه ، وطوراً يبعده عن أسباب اللذة الفانية ، وطوراً يرغبه فيها » .

تناول ابن القيم الجوزية الحب من كل جوانبه ، حب الله والإخوان ،

والأموال والنساء والألحان ؛ « فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات ، وعليها فطرت المخلوقات ، ولها تحركت الأفلاك الدائرات ، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها ، واتصلت بداياتها بنهاياتها ، وبها ظفرت النفوس بمطالبها ، وحصلت على نيل مآربها ، وتخلصت من معاطبها » . ويرد الحب إلى أسباب ثلاثة : ما قام بالمحبوب من الصفات التى تدعو إلى محبته ، وما قام بالمحب من الشعور بهذه الصفات ؛ والموافقة التى بين المحب والمحبوب؛ ومتى قويت هذه الدواعي وكملت ، قويت المحبة واستحكمت ، والعكس صحيح أيضاً .

وهو رجل دين ملتزم ، وباحث جاد فى دروسه وفى حياته ، يعرض للجنس والحب فلا يرى له طريقاً غير حكم الشريعة ، لايرجع إلى عادة جارية فى أيامه ، ولا إلى تفسير مستعار ، لا يتساهل ولا يترخص ، « إذ فصل الخطاب هو أن الاتصال الجنسى الحرام يفسد الحب ، ولابد أن تنتهى المحبة بينهما إلى المعاداة والتباغض ، أما الاتصال المباح فإنه يزيد الحب إذا صادف مراد المحبوب ، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبة أخرى لم تكن حاصلة قبل الذوق » .

ويعرض للنظر على غير ما نظر فيه ابن الجوزى قبله ، يورد آراء الذين يرونه مباحاً ، لأن رؤية الجمال البديع تنطق ألسنة الناظرين بقولهم : سبحان الله رب العالمين ، وتبارك الله أحسن الخالقين ، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسن عبثاً ، وإنما أظهرها ليستدل الناظر إليها على قدرته ووحدانيته وبديع صنعه ؛ ولقد خطب رجل امرأة فاستشار النبي فقال : هل نظرت إليها ؟ فقال : لا . قال : اذهب فانظر إليها » . و « أمر النبي للخاطب بأن ينظر إلى المخطوبة إنما هو نظر للحاجة ، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحة راجحة ، وهو دخول الزوج على بصيرة ، فالنظر المباح أنواع هذا أحدها ، بخلاف النظر إلى الصورة المحرمة ، بل إن التلاصق لايذهب التقى إذا كان فى عشق مباح ، بل هو أمر مستحب ، كعشق الزوجة والجارية » . ويورد مناظرة طريفة بين

القلب والعين ، فالعين رائدة ، والقلب باعث وطالب ، وهذه لها لذة الرؤية ، وهذا له لذة الظفر ، ولهذا كانا فى الهوى شريكين ، فلما وقعا فى العناء ، واشتركا فى البلاء ، أقبل كل منهما يلوم صاحبه .

ويورد فى حقيقة العشق آراء الأطباء والفلاسفة ، والمفكرين العرب ، وأهمهم رأى ثمامة بن أشرس ، وهو موجود فى كل الكتب السابقة التى عرضت للحب ، ويعرض لإرادة الحب : هل هو اختيارى تابع لهوى النفس وإرادتها ، أو اضطرارى لايدخل تحت قدرة العبد ، فهو بمنزلة محبة الظمآن للماء البارد ، والجائع للطعام ، ويورد آراء كل من الفريقين ، ويفصل بينهما ، منتهيا إلى رأى وسط ، فالحب فى أوله ، من نظر وتفكير وتعرض ، أمر اختيارى ، ولكن ما يترتب على هذا الاختيار اضطرارى . ويضرب لذلك مثلا بالخمر والسكر ، فشرب الخمر أمر إرادى ، ولكن السكر الذى يتولد عنها اضطرارى ، ومتى وقع السبب اختيارا ، لم يكن فاعله معذورا فيما تولد عنه . فإذا حصل العشق بسبب غير محظور ، كمن يعشق زوجه أو جاريته ، ثم فارقها وبقى عشقها غير مفارق له ، لا يلام صاحبه عليه ، ولا يقف بالجبرية عند هذا الحد ، فمن وقع نظره فجأة على جميلة ، ثم صرف بصره ، ولكن العشق تمكن منه ، لم يكن مختاراً .

ويتناول قضية الحب من جانبها الفقهى ، وأكمله فيما يرى ما انتهى بالزواج ، فالعزوبة ليست من الإسلام فى شىء ، فإذا تزوج المحبان فإن للمعاشرة فوائد وآداباً وقواعد منها : « إكمال اللذة ، وكمال الإحسان إلى الحبيبة ، وحصول الأجر ، وثواب الصدقة ، وفرح النفس ، وذهاب أفكارها الرديئة عنها ، وخفة الروح ، وذهاب كثافتها وغلظها ، وخفة الجسم ، واعتدال المزاج ، وجلب الصحة ، ودفع المواد الرديئة ، فإن صادف ذلك وجها حسناً ، وخلقاً دمثاً ، وعشقاً وافراً ، ورغبة تامة ، فتلك اللذة التى لا يعادلها شىء ، ولاسيما إذا وافقت كما لها ، فإنها لاتكمل حتى يأخذ كل جزء من البدن بقسط من اللذة ، فتلذ العين بالنظر إلى المحبوب ، والأذن بسماع

كلامه ، والأنف بشم رائحته ، والفم بتقبيله ، واليد بلمسه ، وتعتكف كل جارحة على ما تطلبه لذتها ، وتقابله من المحبوب ، فإن فقد من ذلك شيء لم تزل النفس متطلعة إليه ، فلا تسكن كل السكون ، ولذلك تسمى المرأة سكناً لسكون النفس إليها ، قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » .

ويدرك واعياً أن الرغبة تشتد مع الصحة الكاملة ، والغذاء الجيد ، وتهبط أو تتلاشى مع المرض والجوع والحاجة ، فالصوم ، مثلا ، يكسر حدة الشوق ويضيق على النفس مجارى الشهوة . ويختم كتابه بخمسين وصفة لمن وقع فى الهوى وأراد أن يبرأ منه ، وهى نصائح مسجوعة ، ووعظ إنشائى ، قراءتها تسلى ، ولكنها لاتشفى عاشقاً ، ولاتأخذ بيد مريض .

لا ينفرد ابن قيم الجوزية بين رفاقه بأنه قرأ كتاب « طوق الحمامة » دون شك ، وعلى ذلك شواهد من حياة الرجل ، ومن طبيعة العصر ، ومن كتابه نفسه . فنحن نعرف أنه كان جماعة للكتب حفياً بها ، وخلف وراءه مكتبة غنية ، وكانت الصلة بين دمشق والأندلس أقوى بكثير فى هذه الفترة من الزمن مما كانت عليه بين الأندلس وبغداد بعد أن سقطت الخلافة ، واجتاح هولاكو عاصمة بنى العباس ، وأتى على معالمها تدميراً ، وأرسل بها إلى دائرة الظل لزمن طويل ، على حين صعد نجم القاهرة سريعاً ، وأصبحت قبلة العالمين العربى والإسلامى ، بعد أيام صلاح الدين المجيدة ، وبعد أن حطم الجيش المصرى بقيادة الظاهر بيبرس جيش التتار فى موقعة « عين جالوت » ، عام ١٢٦٠ م ، وحرر سورية ، وعاد بها من جديد إقليما من دولة كبرى عاصمتها القاهرة ، وتشمل مصر والشام والجزيرة العربية . وكانت مصر محط الأندلسيين فى طريقهم إلى الحج ، أو رحالة إلى الشرق ، أو تجاراً يعملون فى التصدير والاستيراد ، أو طلاباً يبحثون عن العلم ، أو أساتذة يحاولون أن يجدوا لهم فى حلق الأزهر مكاناً ، زهواً بما وصلوا إليه وبلغوه فى وطنهم ، أو هاربين من الملاحقة يطلبون الأمن

والمأوى . ومن القاهرة ينطلقون إلى الحجاز للحج ، وإلى القدس تبركاً ، وإلى دمشق طلباً لصناعاتها الدقيقة ، وكانت تشتهر بها على نحو عالمي ، طوال العصر الوسيط .

أما تأثير « الطوق » فى كتاب « روضة المحبين » ، فيتجلى من خلال مناقشة ابن قيم الجوزية لآراء ابن حزم وفيما نقل عنه ، فهو يرفض رأى عالم قرطبة فى أن سبب الحب «اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع » ، لأنه مبنى على القول بتقدم خلق النفوس على الأبدان وهو فاسد . وعلى خطى ابن حزم يؤمن بوحدانية الحب ، ولكنه لا يقف مثله بالفكرة عند جانبها العاطفى وحده ، وإنما يكسوها ثوباً دينياً ، فيذكر الآية : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، ويذكر آراء المفسرين فى أن المقصود عجز الإنسان عن العدل بينهن فى الحب والشهوة ، وإن كان يستطيع أن يفعل ذلك فيما هو مادى من الملبس والمسكن والنفقة . وينثر أبيات ابن حزم فى استحالة تعدد المحبوب ، ويصنع منها مثلا موجزاً : « ليس فى القلب حبان ، ولا فى السماء ربان » .

أما الباب الخاص بعلامات الحب ، فكان فيه عالة على ابن حزم تماماً ، ينقل عنه دون أن يشير إليه ، ويستشهد به ذاكرا له فى أكثر من موضع ، والفرق بينهما أن ابن حزم موجز ، يحاول أن يعطى صورة لنفسه ولمن حوله ، دون أن يرتدى ثياب الواعظ أو مسوح الراهب ، ولا يحاول أن يبحث عن أمثاله خارج حياته وحياة صحبه ، ولا يقتنص الشواهد مما قرأ فى كتب الآخرين ، على حين أن ابن قيم الجوزية يورد على ما يقول ، أو ينقل إن شئت ، الشواهد كثيرة ومتعددة ، وهو يؤرخ أو يحلل ، ولكن عينه على ما تقتضيه الشريعة إجازة أو تحريماً ، وقد كسا أفكاره أثواباً مشرقية ، وصاغها فى صورة دينية ، ليبلغ بها غايته ، وكان واثقاً من نفسه فلم يكن فى حاجة ليعتذر عن حديثه فى الحب ، أو ليبرر إقدامه على التأليف فيه .

• • •

وكان ابن أبى حجلة التلمسانى ، أحمد بن يحيى ، أبو العباس ، معاصراً لابن قيم الجوزية ، حنبلياً مثله فى اتجاهه الفقهى ، وهو يمثل وحدة الثقافة الإسلامية فى عصرها الزاهر خير تمثيل ، فقد ولد فى المغرب عام ٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م ، وأمضى شطراً من حياته فى دمشق ، ثم جاء القاهرة واستقر بها ، وولى مشيخة الصوفية بصهريج منجاك ، إلى أن توفى عام ٧٧٦ هـ = ١٣٦٦م ، وله أكثر من ثمانين مصنفاً فى الحديث والفقه والنحو والأدب ، وله شعر ونثر ، ويهمنا من بين كل مؤلفاته كتابه : « ديوان الصبابة » .

بدأ ابن أبى حجلة كتابه بمقدمة مسجوعة ، أبان فيها غايته بأنه يحوى أخبار من قتلهم الهوى ، وتركهم كهشيم محتظر ، ويزهو بأن جماعة من معاصريه غلبوا من تقدم بالتأليف فى هذا الباب ، ويقارن بين كتابه وبين ما ألفه الشهاب محمود ، ويرى أن ذاك بالنسبة إلى هذا مشكور ، ويشير إلى « طوق الحمامة » فى السطور الأولى من مقدمته إشارة غامضة ، لم أتبين مايريد منها تماماً ، ربما لأن النص الذى بين أيدينا مطبوع تجارياً ، يجىء على هامش كتاب « تزيين الأسواق » للأنطاكى ، فهو ملىء بالتحريف والأخطاء .

سلك ابن أبى حجلة فى تأليف كتابه طريق « الاختصار والاقتصار ، على النوادر القصار » ، واحتذى فيه شكلا منهج ابن حزم ، فرتبه على مقدمة وثلاثين باباً وخاتمة . أوقف المقدمة على ذكر حد العشق واشتقاقه ، وماقيل فى وسمه ورسمه ، وأسبابه وعلاماته ومراتبه ، وأسمائه ومدحه وذمه ، واختلاف الناس فيه : أهو اختيارى أم اضطرارى ، وخص الخاتمة بمن « مات من حبه ، وقدم على ربه ، من غنى وفقير ، وكبير وصغير » ؛ ودرس فى كل باب من أبوابه جانبا من جوانب الحب ، فبدأ بذكر الحسن والجمال ، والمحبين والظرفاء من الملوك والخلفاء ؛ ومن عشق على السماع ، ومن أحب من أول نظرة ، وتغير ألوان المحبين ، والغيرة ، وإفشاء السر ، ومغالطة الحبيب ، والرسل والرسائل ، وطيف الخيال ، والرقيب والنمام

والواشى ، والتعاتب بين الأحبة ، ومساعدة العاشق ، والشفاء من الجوى ، وتعنت المعشوق ، والدعاء على المحبوب ، والخضوع ، والوعد ، والرضى من المحبوب ، واختلاط الأشباح ، ونحول المحب ، وما يكابده المحبون ، وطيب ذكر الحبيب ، ووصف ما يحمل فى المحبوب شكلا ، وأخبار المطربين من الرجال وذوات الحجال ، ومن ابتلى بحب النساء والغلمان ، ومن اتصف بالعفاف . ويأتى بعناوين الأبواب مسجوعة فى تكلف ظاهر ، وتحت كل باب فصول تختلف طولا وعدداً من باب إلى آخر .

عاش ابن أبى حجلة فى عصر بدأت فيه الثقافة العربية تأخذ شكلا موسوعيا ، يقوم على الجمع والحفظ والترتيب ، وكان المغاربة أكثر ميلا ، وأسبق أخذاً ، فى هذا الاتجاه ، ويتجلى هذا واضحا فى « ديوان الصبابة » ، فقد زحمه صاحبه بأسماء الفلاسفة والشعراء والكتاب ، وهو لا يقنع من الأسماء الأجنبية بذكرها ، وإنما يضيف إليها تعريفاً موجزاً ، لا نجده عند من سبقوه ، ممن كتبوا فى هذا المجال ، فأرسطو فلكى وتلميذ أفلاطون ، وأفلاطون أخذ الحكمة عن فيثاغورس ، وبطليموس فلكى وعلى معرفة واسعة بالجغرافية ، وإلى جوار هؤلاء تلتقى بأسماء ابن سينا ، والجنيد ، ومن الشعراء أبو تمام ، وبشار ، وأبو نواس ، وامرؤ القيس ، والبهاء زهير ، وابن نباتة المصرى ، وآخرون كثيرون .

وينقل عمن سبقوه فى الكتابة عن الحب ، كالخرائطى ، وابن حزم ، والسراج ، وابن الجوزى ، وابن قيم الجوزية ، وعن أبى عمرو محمد بن أحمد النوقانى ، فى كتابة « تحفة الظراف » ، وشمس الدين بن الأكفانى فى كتابه : « غنية اللبيب عند غيبة الطبيب » ، وتفرد من بين هؤلاء جميعاً بأنه ضمن كتابه أمثلة أندلسية عديدة ، جاء بها من مصادر مختلفة ، أشار إليها حينا ، وأهملها حينا آخر ، وهو أمر طبيعى من مغربى يعيش فى المشرق ، ويشده الحنين دوما إلى مسقط رأسه ، وذكريات أمسه ، وكان الأندلس جزءاً من عالم المغرب أحاسيساً وذكريات . فقد أورد فى الباب الأول بيتين

للحكم بن هشام دون أن ينسبهما إليه ، مكتفيا بقوله : إنهما « لبعض ملوك الأندلس » وهما :

ظل من فرط حبه مملوكا ولقد كان قبل ذاك مليكا
تركته جآذر القصر صبا مستهاما على الصعيد تريكا

ثم عاد فى الباب الثانى ، وهو الخاص بذكر «المحبين الظرفاء ، من الملوك والخلفاء » ، فذكرهما ثانية ، وأضاف إليهما بيتين آخرين ، ونسبها إلى الحكم ابن هشام صراحة (١) ، وأتى بأبيات الرشيد فى جواريه ، وهى مشهورة ، ووصلت الأندلس فى زمن مبكر ، وراجت فيه كثيراً ، وأتبعها بأبيات الخليفة الأندلسى سليمان المستعين ، من قصيدته التى قالها يعارض فيها أبيات الرشيد ، وكان الأندلسيون يزهون بقصيدة أميرهم ، ويرون بحق أنها أرق من أبيات الرشيد ، وقد أتينا عليهما من قبل (٢) . وينقل بعدها رواية للشيخ أثير الدين أبى حيان نصها : « كان السلطان أبو عبد الله محمد بن السلطان الغالب بالله ، أحد ملوك الأندلس ، جميلا حسن السياسة ، متظاهراً بالدين ، رأيته مراراً بغرناطة ، وأنشدنى شعراً ، وحضرت عنده إنشاد الشعراء ، ومن شعره :

أيا ربة الخدر التى أذهبت نسكى على كل حال أنت لابد لى منك
فإما بذل وهو أليق بالهوى وإما بعز وهو أليق بالملك »

وهو كما ترى شعر سخيف ، وكل مبررات روايته وذكره أن قائله أمير . ويورد الأبيات التالية ، من قصيدة رقيقة وشهيرة لابن بقى ، نقلا عن ابن الأبار فى كتابه « تحفة القادم » ، وهى ليست موجودة فى « المقتضب » منه الذى اختاره أبو اسحاق إبراهيم بن محمد البلفيقى :

---

(١) المقطوعة من خمسة أبيات فى « الحلة السيراء لابن الأبار ، ج ١ ص ٤٩ ، طبعة القاهرة ١٩٦٣م

(٢) أنظر صفحة ١٢٢ من هذا الكتاب .

حتى إذا مالت به سنة الكرى ... زحزحته شيئاً وكان معانقى
أبعدته عن أضلع تشتاقه ... كى لا ينام على وساد خافق

ويعلق عليها ابن الأبار : « نسب بعض أهل عصرنا ابن بقى(١) إلى الجفاء فى قوله : « أبعدته عن أضلع تشتاقه » ، ولو قال : أبعدت عنه أضالع تشتاقه « لكان أحسن » . ويعقب عليه برأى ابن الأثير هذه الأبيات ، نقلا عن كتابه « المثل السائر » : « أبيات ابن بقى من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى ، ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصاً » . ولم يقف عند هؤلاء وحدهم ، فاستشهد بأبيات من شعر ابن عبد ربه ، وابن زيدون ، وابن شرف ، وابن رشيق ، وابن الزقاق ، وابن خفاجة ، وابن سهل الإشبيلى ، وغيرهم .

وقد اتكأ ابن أبى حجلة على ابن حزم فى أكثر من مكان ، وكان غرسية غرمث فطناً كعادته حين لحظ أن « باب علامات الحب » فى « طوق الحمامة » كان أكثر أبواب الكتاب ذيوعاً وتأثيراً فيمن جاءوا بعده ، ونجد ذلك واضحاً فى مقدمة « ديوان الصبابة » ، فى الفصل الخاص بأسباب الحب وعلاماته ، فهو يذكر : « ومنها أنه يستدعى سماع اسم محبوبه ، ويستلذ الكلام فى أخباره ، ويحب أهل محبوبه » ، « والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغراب كل ما يأتى به ، ولو أنه عين المحال ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك » « والإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه ، والدنو منه ، واطراح الأشغال الشاغلة عنه ، والزهد فيها ، والرغبة عنها ، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته ، والتباطىء فى المشى عند القيام عنه » . وهى فقرات نقلها كلها عن « الطوق » نصاً دون أن يشير إليه .

---

(١) وردت كلمة ابن بقى فى ديوان الصبابة المنشور فى المرات الثلاث (ابن تقى) ، وهو خطأ .

ويذكر ابن أبي حجلة في الباب الثالث من كتابه ، وهو « في ذكر من عشق على السماع ، ووقع من النزوع إلى الحبيب في النزاع » ، قصة أبقراط حين وصف له رجل من أهل النقص أنه يحبه ، فقال : ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه ، وقد نقلها نصاً عن ابن حزم ، وقد أوردها في « الطوق » في باب « الكلام في ماهية الحب » . وينقل في الباب التاسع والعشرين ، وهو « في ذكر من ابتلي من أهل الزمان بحب النساء والغلمان » ، قصة أوردها ابن حزم في « الطوق » في « باب فضل التعفف » ، وينسبها إليه في هذه المرة ، ويلقبه بالأموي ، ونص عبارته : « قال الحافظ أبو محمد الأموي ، أن امرأة يثق بها حدثته أن فتى علقها وعلقته ، وشاع أمرهما ؛ فاجتمعا يوماً خاليين ، فقال لها : هلمي نحقق ما يقال فينا . فقالت : لا والله ، لا كان هذا أبداً ، وأنا أقرأ : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

وأورد ابن أبي حجلة في الباب الثاني ، « في ذكر المحبين الظرفاء ، من الملوك والخلفاء » ، أبياتاً لابن حزم ، دون أن ينسبها إليه ، وقد جاءت في « الطوق » عند الحديث على وحدانية الحب ، في « باب من لا يحب إلا مع المطاولة » (¹) ولم يورد « ديوان الصبابة » البيت الأول ، وتقدم بالبيت الأخير بيتاً ، وتأخر بالذي سبقه ، وأعاننا على تصحيح كلمة فيه ، جاءت قلقة في طبعتنا الأولى « للطوق » ، وصححناه في الطبعة الثانية منه ، كانت في تلك « ذو شلك » ، فأصبحت في هذه « ذو شرك » ، وهي أقرب إلى الصواب . وفي الباب الثالث ، وهو « في ذكر من عشق على السماع » ، يورد ثلاثة أبيات من الشعر ، من بحر الهزج ، وينسبها لشاعر يدعى المدني ، على حين ينسبها ابن حزم في « الطوق » في « باب من أحب بالوصف » لنفسه ، والبيت الأول منها :

---

(١) طوق الحمامة ، ص ٤٦ ، الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٧ .

ويامن لامنى فى حب من لم يره طرفى (١)

وفى الفصل نفسه يورد ابن أبى حجلة أربعة أبيات من الشعر ، غير منسوبة لأحد ، ومطلعها :

يا ليت شعرى من كانت وكيف سرت
أطلعة الشمس كانت أم هى القمر

وقد نسب ابن حزم الأبيات لنفسه ، وجاء بها فى « الطوق » فى « باب من أحب فى النوم (٢) ، وأعانتنا رواية « ديوان الصبابة » على تصويب كلمة غامضة وغير واضحة فى البيت الثانى ، وهى « أظنة » فأصبحت « أظنها » ، وكلمة « تخيل » فى البيت الثالث فأصبحت « تحير » ، وبذلك استقام معنى الأبيات . وقد نسب ابن أبى حجلة فقرة فى الفصل الرابع ، من مقدمة كتابه إلى ابن حزم وهى : « قال رجل لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت امرأة فعشقتها ، فقال عمر : ذلك مما لا يملك ! » ، ولم يذكر المصدر الذى نقلها عنه ، ولا توجد فى نسخة « الطوق » التى بين أيدينا ، وهى به أشبه .

وقد نلتقى بالعنوان واحداً ، أو متقارباً ، عند الإثنين ، ولكنهما يختلفان فى تناوله ، فباب « الإذاعة » عند ابن حزم ، هو باب « فى إفشاء السر والكتمان عند عدم الإمكان » عند ابن أبى حجلة ، و « فى الرسل والرسائل ، والتلطف فى الوسائل » عنده ، نلتقى به عند ابن حزم فى بابى « المراسلة » و « السفير » . وهو يفرد بابا خاصا لكل من « الرقيب » و « الواشى » ، ولكن ابن أبى حجلة يجمعها فى باب واحد : « الرقيب النمام ، والواشى الكثير الكلام » . وابن حزم ، فى كل هذه الأبواب ، يتخذ مادته من الواقع ، ويوشيها بشىء من شعره ، أما ابن أبى حجلة ، فاكتفى فيها بأمثال عديدة من الشعر ، لشعراء مختلفين ، وقليل من حكايات مشرقية

---

(١) طوق الحمامة ، ص ٣٨ ، وفى ديوان الصبابة : أيامن ....

(٢) طوق الحمامة ، ص ٣٧

ينقلها عن الخرائطى ، دون أن يأتى بجديد أو ينقل عن ابن حزم شيئا .

والحق أنهما فى ماعدا ماأشرنا إليه من توافقات ، نقل فيها الأديب المغربى عن عالم قرطبة العظيم ، يختلفان دافعا ومناخا وغاية . لقد جاء ابن حزم فى وهج الخلافة ، وكتب « الطوق » فى عنفوان شبابه فكان صورة للتمرد والأصالة ، وعدم المبالاة بما حوله ، وألف ابن أبى حجلة كتابه وشمس الحضارة الإسلامية تسرع نحو الغروب ، فجاء مزيجا مما حوله : رواية وجمعا ، وخرافة وأساطير ، وفحشا وقلة حياء .

ولقد عالج ابن الحزم الحب عاطفة لاتقنن ، أمسك بجوانب غير قليلة من ظواهره ، وحاول أن يجد لها تفسيرا ، ودخل به ابن حجلة فى متاهات الفقه ، فيبحث مثلا : هل التداوى بالجماع يبيحه الشرع ، ويذهب إلى أن ذلك غير جائز إذا كان المحبوب ممن لايجوز نكاحه ، واما التداوى بالضم والقبلة ، فإن تحقق الشفاء به ، كان نظير التداوى بالخمر عند من يبيحه ، بل لعل ذاك أسهل من هذا ، لأن شربه من الكبائر وهذه من الصغائر » .

ويعرض لحق الزوجة على زوجها حين ترغب ، ويأتى بآراء الذين لايرون لها هذا الحق ، لأنه للزوج وحده . إن شاء استوفاه ، وإن شاء تركه ، ويراه أضعف الأقوال ، لأن القرآن والسنة والعرف والقياس يرفضه ، ويرده قول الله : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ». وقال آخرون بل هو حق واجب ، وحددوا له مواعيد ، وضربوا آجالا ، وكان ابن قيم الجوزية يرجح هذا الرأى فيما يشير .

وأسرف ابن أبى حجلة فى وصف المرأة حسيا ، وأوقف على ذلك فصولا تتناول كل أجزاء جسمها ، وما قال الشعراء فيها وتغزلوا به ، وهى أشياء برئ منها كتاب ابن حزم . والظاهرة التى استرعت انتباهى ، ووقفت عندها طويلا ، أن ابن حزم عرض لظاهرة حب الغلمان ، وجاء لها بشواهد واقعية تتناثر عبر صفحات الكتاب كله ، دون أن يخصها

بباب ، أو يحللها . أو يدلى فيها برأى ، إلا ما جاء فى الباب قبل الأخير ، وأوقفه على « قبح المعصية » وتحدث فيه عن حرمة الزنا واللواط بعامة . ولم يعرض لظاهرة حب المرأة للمرأة لا تلميحا ولا تصريحا ، ولا تمثيلا ولا حتى تقبيحا ، تجاهلها تماما . على حين خص ابن أبى حجلة ظاهرة التغزل فى الغلمان بباب كامل : « ذكر من ابتلى من أهل هذا الزمان بحب النساء والغلمان » ولم يقف بالأمر عند هذا الحد ، فتجاوزه إلى الحديث عن حب المرأة للمرأة ، وأفاض فيه ، وأسرف لونا وقولا فيما أتى به من شواهد وأمثلة وأشعار .

لا أظن سكوت ابن حزم عن هذه الظاهرة يعنى أن قرطبة قد خلت منها ، فليس ذلك من طبيعة الحياة فى القديم أو الحديث ، ولا أظنه تجاوزها تعففا فقد تحدث عن الحب يقع من الرجل على الغلام ، فهل يقع فى الظن أن الناسخ رفع من الكتاب ما اتصل بهذا الأمر ؟ ربما ، إنه فرض قائم حتى نجد للأمر تفسيرا آخر ، ولا يقلل من هذا الاحتمال أنه أبقى على ما اتصل منه بالغلمان ، فالرجل فيما يتصل بالمرأة أنانى بطبعه ، ولدينا على هذا شواهد كثيرة ، حذف فيها الناسخون أو الطابعون ما اتصل بحب المرأة للمرأة ، وأبقوا كل ما اتصل منها بالرجل مهما كانت معيبة .

بقى أن أشير إلى أن الأندلسيين احتفوا بديوان الصبابة على نحو لانعهده حتى مع كتاب ابن حزم ، فقد وصل الأندلس عام ٧٦٧ هـ = ١٣٦٦ م فيما أرجح ، أى قبل وفاة مؤلفه بعشرة أعوام كاملة ، ورفع إلى السلطان أبى عبد الله بن أبى الحجاج يوسف ، فأعجب به ، وأشار أصحابه على لسان الدين بن الخطيب أن يعارضه ففعل ، وجعل الموضوع أشرف ، فيما يقول : وهو محبة الله تعالى ، ألّفه فى أخريات أيامه ، مكرهاً لا بطل ، وأعطاه عنوان : « روضة التعريف بالحب الشريف » ، وجاء من بين أفضل ما سطر وزير غرناطة الكبير ، ومن سخريات القدر ، أن هذا السفر الجليل كان وثيقة الإتهام التى أدانته بها محكمة التفتيش ، ودفع حياته ثمناً

بتأليفه فى الظاهر وضحية ألاعيب السياسة وقذارتها فى واقع الحال .

* * *

وبعد أربعين عاماً من وفاة ابن أبى حجلة ؛ يجى إلى الحياة البقاعى ، إبراهيم بن عمر بن حسن ، وأصله من البقاع فى سورية ، وسكن دمشق ، وولد عام ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م ، وتوفى بها عام ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م ؛ وكانت له رحلة إلى القاهرة وبيت المقدس ومكة ، وهو مؤلف وأديب وشاعر ، وألف كتاباً عن الحب أسماه « أسواق الأشواق » ، لما يزل مخطوطاً ، ولم يتح لى الإطلاع عليه ، ولكن الأنطاكى يقول عنه إنه إختصار لكتاب « مصارع العشاق » للسراج البغدادى ، وعرضنا له من قبل ، ويصف مختصر البقاعى : « بأنه طال بغير طائل ، وجمع ما لا حاجة بهذه الصناعة إليه من المسائل ، كذكر الأسانيد والتكرار الذى هو شأن الأحاديث النبوية ، لتوثيق الأحكام الدينية ، وكالإخلال بمحاسن الأخبار ، ولطائف الأشعار ، التى هى بهذا الفن أعلق من الجوى ، بأهل الهوى ، وعدم الترتيب المستلزم لاختلال التهذيب ، وكالإعراض عن ذكر غالب أسباب وقوع بعض العشاق فى شرك الحب » .

* * *

وعلى نفس المسافة من مجيء البقاعى بعد ابن أبى حجلة ، يجيء داود الأنطاكى من البقاعى تقريباً . وهو داود بن عمر المعروف بالأكمه ، ولد فى أنطاكية فى تاريخ مجهول ، وحفظ القرآن ، وقرأ المنطق والرياضيات ، وشيئاً من الطبيعيات ، وتعلم اليونانية وأحكمها ، وكان عالماً بالطب والأدب ، وضريراً ، وإليه إنتهت رياسة الطب فى زمنه ، وهاجر إلى الديار المصرية ، « ومثل فيها بين يدى الأماثل ، وخدم من سما فيها من أرباب الفضائل » واستقر بالقاهرة زمناً ، ونال شهادة عريضة ، ثم رحل الى مكة ، وأقام بها سنة ، توفى فى آخرها عام ١٠٠٨ هـ = ١٦٠٠ م .

ألف الأنطاكى كتاباً فى الحب ، وأعطاه عنواناً : « تزيين الأسواق ؛ بتفصيل أشواق العشاق » ، وجاء اختصاراً لكتاب البقاعى ؛ إلى جانب

كتب أخرى كثيرة أفاد منها، وأشار إلى بعضها في مقدمته . ونشر كتابه في القاهرة عام ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م ، وبحاشيته «ديوان الصبابة » لابن أبي حجلة وعرضنا له من قبل . وليس من السهل علينا أن نحكم ، وكتاب البقاعي ليس بين أيدينا ، ماذا أخذ البقاعي عن السراج ، وماذا ترك ، وما الذي تجاوزه الأنطاكي من كتاب البقاعي وما الذي حرص عليه ، ولكن من يقرأ كتاب « تزيين الأسواق » ، يجد نفسه أمام الظاهرة التي تتميز بها كتب « المصريين » ، حين يتدفقون إملاء ، فتتدافع المادة في أفواههم ، وتجيء كيف ما اتفق .

وحكايات الأنطاكي وأمثلته وأشعاره مشرقية في جملتها ، ومصادره كذلك ، وأشك كثيراً أنه رأى « طوق الحمامة » ، فهو لا يشير إليه كتاباً أو مؤلفاً ولا مرة واحدة ، ولا يلتقي مع صاحبه في منهج أو إتجاه ، إذا استثنينا أمثلة ثلاثة توافق فيها الإثنان . الأول ، وينسبه الأنطاكي إلى « وحكى عن بعضهم » ، وهو : « حكى ، حكت لي إمرأة عن شخص هويها وهويته ، أن قال لها يوماً : هل لك أن نحقق ما قيل فينا ، فقالت : معاذ الله أن أفعل ذلك ، وأنا أقرأ : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » والثاني : حكاية الأندلسي الذي باع الجارية في أرض البربر ثم استردها والثالث : حب ابن كليب الكاتب ، الشهير بابن قزمان ، لأسلم ابن عبد العزيز ، ولا أرى الأنطاكي فيها جميعاً قد نقل عن « الطوق » . فالحكاية الأولى أرجح أنه نقلها عن « ديوان الصبابة » ، وجاءت فيه وذكره الأنطاكي بين مصادره ، وأما الثانية فيغلب على ظني أن ابن حزم والأنطاكي كليهما نقلا عن أصل ثالث ، وأما الأخيرة فيذكر الأنطاكي نفسه مصدرها الذي نقلها عنه ، وهو كتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة » للسان الدين بن الخطيب .

وإنها لظاهرة تسترعي النظر أن يكون « طوق الحمامة » بين يدي ابن أبي حجلة ، أو قرأه على الأقل ، وهو يحرر « ديوان الصبابة » ، ثم لا نلتقي

..ه بين مصادر الأنطاكى ، وكان حريصاً على أن يجمع بين يديه كل ما كتب عن الحب قبل أن يحرر كتابه ، ونقل عنها جميعاً ، وأشار إليها فى أحايين كثيرة ، وعلى الرغم من أننا نلتقى به بين الكتب التى نقل عنها المقرى التلمسانى صاحب « نفح الطيب » ، ومن نسخة تخالف نسخة « الطوق » التى بين أيدينا ، وجاء إلى القاهرة بعد سنوات قليلة من وفاة الأنطاكى ، وأرجح أنه استخدم نسخة وجدها فى القاهرة . لأنه يشير كثيراً إلى أنه خلف مكتبته وراءه فى فاس . ويخيل إلى أن المغاربة ، وتشمل الأندلسيين ، كانوا أكثر حرصاً على تسجيل تراثهم ، والحرص عليه ، والاحتفاظ به ، على حين كان المشارقة كالعادة ، لايرون فيما خطه هؤلاء جديداً يستأهل أن يقفوا عنده ، وأن يفيدوا منه .

* * *

وحول العام الذى توفى فيه الأنطاكى ، قبله أو بعده بقليل ، يجىء إلى الحياة يوسف بن مرعى الحنبلى ، وسوف يؤلف كتاب : « منية المحبين ، وبغية العاشقين (١) » ، وقد درسه غرسية غومث ، وتتبع تأثير الطوق فيه ، وترجمنا هذه الدراسة من قبل .

---

١ — أنظر صفحة ٣١١ من هذا الكتاب .

تأثير طوق الحمامة

في الأدب الإسباني

شوامخ الأدب الإسباني في فجر حياته ثلاثة :

* ملحمة السيد : قصيدة شعرية طويلة ، تدور أحداثها حول أندلسي مغامر . نصف عربي ونصف أسباني ، نصف مسلم ونصف مسيحي ، عاش في القرن الحادي عشر ، وتوفي في مدينة بالنسية عام ١٠٩٩م ، وأصبحت بطولته ومغامراته غذاء المشاعر عند عامة الناس ، على نحو ما أصبح عندنا عنتر بن شداد ، وأبو زيد الهلالي ، وسيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس ، وآخرون (١) .

* الحب المحمود Libro de Buen Amor : لكاهن مدينة هيتا (١٢٩٥ ـ ١٣٥٣ م) ، ومن الصعب أن نضعه تحت جنس أدبي معين . فهو قصيدة طويلة . تضم قرابة ألفي بيت من الشعر ، وتدور في جوهرها حول فن الحب ، وقد أزدهر هذا اللون من الشعر في أوربا ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، حين أدار الشعراء ظهورهم لشعر القديسين وقصائد الوعظ ، واتخذوا من الإنسان وحياته وحي إلهامهم ، وأبدعوا شعراً رقيقاً يدور حول الحب والخمر ، ويتخذ من الجامعات والمنتديات الثقافية مهبطا يلوذ به ويحتمي ، بتأثير من الأدب العربي ، وكان راقيا ومرغوبا ومطلوبا سماعه ، ومعرفته مجد يزهى به .

* لاثليستينا La Celestina : عنوان يمكن أن نترجمه بجاوزن (بالقوادة) ، وهي مسرحية مأسوية كتبها فرناندو دي روخاس (ت ١٥٤١ م) ، شأنها شأن « طوق الحمامة » ، و« الحب المحمود » تتخذ من الحياة العاطفية منطلقا للتعبير عن عدد من مشكلات العصر الذي كتبت فيه .

أما ملحمة السيد فبعيدة موضوعا وشكلا عن «طوق الحمامة » .

لأنها إبداع جماعى ، صنعها شاعر ، أوشعراء ، جوالون، ومادتها الحرب والنزال ، والشجاعة والأبطال ، ويأتى فيها الحب مختلفا ، فهى تعرض للمرأة زوجة وفية مطيعة ، وللإبنة عروسا مصونه مطلوبة ، ونقطة اللقاء الوحيدة بينهما أن ابن حزم والسيد القنبيطور تعاصرا أعواما . الأول شيخا اعتزل الحياة فى قريته منت لشم ، من مقاطعة ولبة جنوب غربى الأندلس آثر بعد نضال ثقافى عنيف ومرير أن يقنع بطلابه ومريديه ، إلى أن توفى عام ١٠٦٤ م. وولد الثانى فى بيبار ، شمالى مدينة برغش ، عام ١٠٤٥ م، وحين كان ابن حزم يودع الحياة إلى رحاب الله ، كان السيد فتى يافعا حرس الملك القشتالى ، يتهيأ لأن يكون واحداً من فرسانه ، وليشارك معه فى الحرب للمرة الأولى ، حين وقف ملك قشتالة إلى جانب حليفه المقتدر ابن هود ملك سرقسطة ، ضد راميرو الأول ملك أرجون ، فى معركة تمت فى ربيع عام ١٠٦٣ م (٢).

ويختلف الأمر فيما يتصل بالكتابين الآخرين ، فكلاهما تأثر «بالطوق» نقل عنه ، أو سار على هديه ، أو احتذاه أسلوبا ، ونبدأ بالأول منهما ، وندع الثانى لفرصة قابلة .

كان المفكر الإسبانى العظيم أميركو كاسترو أول من أشار فى كتابه : « أسبانيا بين المسلمين واليهود والمسيحيين » أوكما أسماه فى طبعته الثانية : « حقيقة أسبانيا التاريخية » ، إلى أن « طوق الحمامة » كان حاضراً فى الأدب المسيحى على امتداد القرن الرابع عشر . ويصف إميليو غرسية غومث عميد المستشرقين الإسبان فى وقتنا هذا كتاب مواطنه أميركو كاسترو — ويقف من آرائه فى الجانب المقابل — بأنه مثير ومدهش ودسم ، و« أول غزو يقوم به متخصص فى الدراسات الرومانية على حقل الثقافة العربية ، وجاء رداً على عدد من الرحلات التى قام بها المستشرقون فى مجال الدراسات الرومانية » (٣).

وقد عاش «طوق الحمامة» على نحوين مختلفين فى الأندلس ، الإسلامى والمسيحى على السواء : حوصر رسمياً وامتد شعبياً ، أما رسمياً فلأن الصراع الفكرى بين

ابن حزم ومناهضى مذهبه الظاهرى ، وفلسفته التشريعية ، وفكره المستنير جعل كتبه غير محببة ، ظاهراً على الأفق ، إلى القائمين على أمور الثقافة فى قرطبة الإسلامية . وأخير فلأنه كتاب صريح ، يتحدث عن الحب فى لغة علمية ، ويدرسه أمراً واقعاً ، يحلل ويوجه فى دقة الطبيب ، دون أن يرتدى ثياب الواعظ الردىء ، وما من خير يرجى فى أن نلاحق قضايا الباطنة سبباً ولعنا ، دون أن نغوص وراء أسبابها . وأما شعبياً فقد وجد طريقه إلى جمهرة القراء ، نكاية فى الدولة ، وتشفياً من الفقهاء ، واستمتاعاً بما بين دفتيه من علم وأدب .

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الكتاب فى الجانب المسيحى ؛ وقد عاش ابن حزم فترة التوازن الحربى بين الجانبين ، وشالت كفته بعد موته بواحد وعشرين عاماً لصالح المسيحيين ، حين سقطت مدينة طليطلة عام ١٠٨٥ م فى يد ألفونسو السادس ، ولكن عزوف المسيحيين الرسميين عنه يعود إلى أسباب أخرى . لقد ناقش ابن حزم فى كتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » المسيحيين فى عصره ، مناقشة علمية هادئة ومستنيرة[٣] ومقنعة ، فأكسبه هذا بغض رجال الدين المسيحيين على أيامه ، والحول بيدهم ، والكلمة إليهم ، ولم يكن لهم من سعة الثقافة ورحابة الأفق ما كان له ، فيفهمون قوله ، ويعرفون قدره ، ويدركون أن الأفكار تناقش ، والعلماء يجادلون . أما بين الجماهير ، وفى جانب كبير منها ، وبخاصة بين المستعربين الذين يقيمون فى الدولة الإسلامية ، أو المسلمين الذين تخلفوا فى المدن الإسلامية التى سقطت بيد المسيحيين ، وأولئك المسيحيين الذين كانوا يقيمون على الحدود ، فقد قرأوه فى العربية ، أو تناقلوا نصوصه شفاهاً « أو عرفوه كيفما اتفق » ، لأننا نلتقى بنصوص قشتالية (٤) ترجمة حرفية منه ، ولأن الحب بالأسلوب الذى عرضه ابن حزم ، كان مجهولا عند اليونان والرومان ، وظهوره فى العصر الوسيط صدى لكتب من طراز كتاب ابن حزم ويقول كاسترو فى صراحة : « على أولئك الذين لا يريدون أن يخطئوا تاريخيا

عندما يصدرون أحكاما على الإدب الإيبيرى (الإسبانى والبرتغالى) ، أن يعرفوا ما كان يحدث من الجانب العربى من الأندلس » . ولو أن واحدا من الأوربيين ، فيما يرى ، كتب صفحات كالتى كتبها ابن حزم ، لوضع على رأس قائمة عباقرة الأدب الأوربى (٥) .

بدءاً ، ما كتاب « الحب المحمود » ؟

إنه قصيدة طويلة ، جاءت فى ألفى بيت ، وتنتظم عناصر عديدة غير متجانسة ، ويمكن أن نردها إلى المحاور التالية :

مقدمة نثرية ، سبقتها صلاة شاعرة فى أبيات راقصة ، عرض فيها المؤلف غايته من الكتاب ، وأنه وقف بإزاء لونين من الحب : الحب المحمود كما تنظمه الشرائع ، والحب المجنون الذى يجتاح العالم . « وألفت هذا الكتاب الجديد ، وأوردت فيه بعض الطرق والحيل والخدع التى يستخدمها أبطال الحب الدنيوى المجنون فيخطئون . وقد قرأتها ، أو سمعتها ، من رجال ونساء عقلاء ، إذا أردت أن تنجو فسر على منوالهم ، ويمكنك أن تقول مع داود صاحب المزامير : اخترت طريق الحق » ! .

« والخطيئة شىء إنسانى ، وإذا كان بعضهم — ولا أنصحهم — يركنون إلى الحب المجنون ، فسوف يجدون له طرقا هنا ، لأن كتابى هذا للجميع ، رجالا ونساء ، موافقين وكارهين : من أراد الطيب ، واختار النجاة ، وعمل صالحا تقرباً إلى الله . ومن أراد الحب الدنيوى المجنون ، وسلك إليه الطريق الذى أراد ، ويمكن أن يقول : أما أنا فعلى الرب توكلت ، أبتهج وأفرح برحمتك ، لأنى نظرت إلى مذلتى ، وعرفت الشدائد فى نفسى » .

وقصص غرامى بطله مؤلف الكتاب نفسه ، يجىء فى شكل ترجمة ذاتية له ، يعرضها علينا خلال سلسلة من المغامرات العاطفية ، يحكيها فى ظرف ملحوظ . وتنتهى بالفشل عادة . والتاريخ العاطفى لرجل يدعى دون مليون ، وسيدة تدعى دونيا أندرينا ، وثالثة تعاون العاشقين ، وهى السفيرة عند

ابن حزم ، والقوادة عند كاهن هيتا ، ويستخدم لها أحيانا اللفظ فى صورته العربية alcahuete وأبيات مطولة فى نقد الحب ، اقتبسها من مسرحية لاتينية مجهولة المؤلف ، كتبت فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وتحكى قصة فتاة استسلمت لإغراء ، وانتهى أمرها بالزواج ، ومعركة رمزية ساخرة بين دون كرنال ، ودونيا كوارسما ، ومع كل واحد منهما جيشه .

ثم استطرادات ذات طابع تربوى أو اجتماعى وساخرة ، ليست دائما على صلة وثيقة بالأصل . أنه يصور لنا الصراع الحاد بين الإحساس الدينى وبين عواطف الإنسان العادى فى العصر الوسيط ، ويضعهما وجها لوجه ، فنحس بآلامه ، ونتمثل أزمة العادات فى عصره . وهو رجل دين ، ولكنه يصطدم بالتقاليد القابضة ، ولا يتردد فى أن يحمل على رجال الدين ، وأن يسخر من العلاقات الغرامية بين الرهبان والراهبات ، ومن ثم فهو يقدم لنا الجانب الواقعى ، من الحياة اليومية فى الكنائس والأديرة ، وما وصلنا من وثائق العصور الوسطى يؤيده فى روايته ، فنحن نعرف أن « المجمع الدينى » الذى عقد فى مدينة بلد الوليد ، فى الأندلس المسيحى ، عام ١٣٢٢م ناقش بالنص قضية « عشيقات رجال الدين » ، وأعطاهم مهلة شهرين لكي يفارقوهن ، ولكن المحاولة فشلت ، كما نتبين ذلك من المجمع الدينى الذى عقد فى مدينة سلمنقة عام ١٣٣٥ م ، وفشل أيضا فى محاولته ، واحتاج الأمر لعقد مجمع جديد فى مدينة القلعة عام ١٣٤٢ م . ونلاحظ أن كاهن هيتا يعطى أهمية قليلة للعلاقات الغرامية التى كانت قائمة بين القسس والراهبات ، حين يصف مغامرات بطاله ، أو أن شئت نفسه ، معهن ، وسوف ينتهى به المطاف أخيرا إلى التوبة ، فيذهب إلى دير يحاول أن يتطهر مما ارتكب من ذنوب فى سابق أيامه .

ويسخر من الغنى ، ومن الصراع المستمر بين رجال الدين وعامة الناس فى سباقهم من أجل الاستيلاء على أموال الذين يحتضرون ، ولا ينجو من سخريته القارصة العجائز المتصابيات ، ولا الثريات المتهتكات ، وخلال

ذلك كله ، ينثر العديد من الأساطير والحكايات والأمثال والمحاورات ؛ ويأتى بقصائد غنائية ، فى أوزان مختلفة ، ذات طابع دينى وموجهة إلى مريم العذراء ، أو علمانى لكى يتغنى فيها العميان والطلاب ، وأناشيد يترنم فيها العاشون لجمال الريفيات .

وهذه العناصر المتعددة ليست جزرا منعزلة ، وإنما يجمع بينها خيط فكرى تمثله رواية غرامية ؛ ذات سيرة ذاتية ، فيها خيال محلق ؛ وتقنية محكمة ، وتستلهم أشياء واقعية ؛ وهذا الخيط يحافظ على وحدة العمل الأدبى وتتجمع حوله الأفكار الأخرى للكتاب .

* * *

منذ البدء كان الوصول إلى حقيقة مؤلف كتاب « الحب المحمود » مشكلة ؛ وفكرة ملحة فى الوقت نفسه ؛ وحتى وقت قريب جدا كان شخصية غامضة ومبهمة ، تطل على الدارس من وراء ضباب معتم ؛ أو تناقض محير ؛ حتى أن محقق نص الكتاب ، الناقد الأسبانى خوليو ثيخادور يقول فى مقدمته للكتاب بالحرف الواحد : « خارج ما أورده المؤلف عن نفسه ؛ فى كتابه ؛ لا يمكن القول أننا نعرف عنه كلمة واحدة » . ولكن المشكلة قد حلت الآن أو هى فى طريقها إلى الحل ، وفى ضوء الوثائق الجديدة من الضرورى أن يعاد النظر فى تحليل مادة الكتاب ؛ على نحو أدق وأكثر موضوعية ، وكتابة حياة المؤلف وتاريخه . لقد نشر الفاتيكان جانباً محدودا من وثائقه السرية ، وفيها ما يلقى ضوءا كافيا على شخصية المؤلف ؛ إلى جانب وثائق أخرى عثر عليها فى « المعهد الإسبانى » ، فى وارسو عاصمة بولندا ، وفى كنائس أسبانية أخرى ، ولدراسة هذه الوثائق ، وتحقيق شخصية مؤلف كتاب « الحب المحمود » انعقد « المؤتمر العالمى لدراسة كاهن هيتا عام ١٩٧٣ » .

اسمه الحقيقى خوان رويث ، ودخل التاريخ الأدبى من خلال لقبه « كاهن هيتا » ، وهى الوظيفة الدينية التى كان يتولاها فى قرية هيتا ، من مقاطعة

وادى الحجارة ، شرقى مدريد وعلى مقربة منها . وطبقا لوثيقة دينية وجدت فى الفاتيكان ، وأشار إليها لأول مرة فى صيف ١٩٧٤ الدكتور أميليو سثيث الأستاذ فى جامعة برشلونة ، فى جريدة أ . ب . ث ، فإن خوان رويث ولد فى الجانب الإسلامى من الأندلس ، وربما فى قلعة يحصب (٥) ، ويطلق عليها الآن اسم « القلعة الملكية » ، وهى مدينة صغيرة فى مقاطعة جيان ، ابنا غير شرعى ، لرجل ثرى من بالنثيا ، يدعى أرياس جونثالث ، ومثل هذه الصلات كانت عملا عاديا فى تلك الأيام ؛ ونجد صدى ذلك واضحا فى الأشعار الشعبية القشتالية ، على حين تصمت المصادر والوثائق الرسمية ، ولا مجال للطعن فى صحة هذا الخبر . لأن الوثيقة المتصلة به ، كانت طلبا مقدما إلى البابا فى روما ليعفو عنه ، ويتجاوز عن هذه الصلة غير الشرعية ، ليمكن تعيين خوان رويث كاهنا لمدينة « سجوينثا » ، ومن الوثيقة نعرف أنه جاء إلى الحياة آخر عام ١٢٩٥م ، أو أول العام الذى تلاه .

وتقول الوثائق أن جده وعمه ، وعدداً كبيراً من أفراد أسرته ، قتلوا فى الصراع الذى كان دائرا بين المسلمين والمسيحيين على امتداد القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين . وأن أباه غير الشرعى كان أسيرا ، وعاش فى الجانب الإسلامى ٢٥ عاما ، وأن سيده المسلم قدم له جارية مسيحية كانت عنده ، لتصبح زوجة له ، على أن يصبح الذكور من أولادها أحرارا ، والبنات جوارى للسيد ، وأنجب أرياس من زوجته الرقيقة ستة أولاد ذكور ، ومن ثم اعتق السيد الزوجين وأبناءهم ، وهى رواية فوق الشك أيضاً ، لأننا نعرف أسماء وأعمار ثلاثة من الأخوة أصبحوا رجال دين ، وتقدموا إلى البابا أيضاً يطلبون إذنا خاصاً بتولى مهامهم لصغر سنهم ، وعفوا عن عدم شرعية مولدهم .

وقد أطلق سراح الوالد عام ١٣٠٥ م ، وتزوج ثانية فيما يبدو ، وكان له من زوجته الجديدة ، والشرعية من الوجهة المسيحية ، ثلاثة أولاد ، ونعرف أنه توفى عام ١٣١٢ م .

إذن فقد ولد خوان رويث ، كاهن هيتا ومؤلف « الحب المحمود » من أم كانت جارية لسيد مسلم ، يقيم فى مقاطعة جيان ، ولأب عاش أسيرا خمسة وعشرين عاما بين قوم يتكلمون العربية ، وإذا كان لمقاطعة أن تعرف كتاب « طوق الحمامة » وأن يسير فيها ذكره ، بعد قرطبة نفسها ، فهى كورة جيان ، مقاطعة الحياة اللاهية ، والرواقص المشهورات ، والقريبة من عاصمة الخلافة .

لم يكن خوان رويث مجهولا على أيامه ، ولا قليل الأهمية ، فقد تولى مناصب عديدة ، ذات أهمية اجتماعية كبيرة ، وأصبح فى رعاية مارية موليتا ملكة قشتالة ، وقد عين كاهنا لمدينة « سيجونثا » عام ١٣١٢ م ، وله من العمر ستة وعشرون عاما .

وفى عام ١٣١٨ م عين رئيسا للشمامسة فى « مدينة دل كامبو » ، وبعدها بعام عينه البابا يوحنا الثانى والعشرون كاهنا لمدينة « بالنثيا » وقد بذلت الملكة مسعى كبيراً لدى البابا ليعينه مطرانا ، وهو الثلاثين من عمره ، دون حاجة إلى عفو جديد عن مولده غير الشرعى ، وفى هذه المناسبة أشار البابا إلى الدماء التى بذلتها أسرته فى الحروب ضد المسلمين . وفى عام ١٣٢٢ نلتقى به فى مدينة « برغش » ، وحول هذه الأعوام سمح له البابا أن يدرس ، ربما فى جامعة « مونبلييه » ، وهى الجامعة التى كان يتردد عليها رجال الدين القادمون من ممالك شمال الأندلس المسيحية . وبعد فترة صمت امتدت حتى عام ١٣٤٣ م ، نلتقى به ثانية ، فى وثيقة مقدمة من مطران طليطلة ، يطالب له فيها وظيفة دينية فى « قلهرة » . وفى ما بين عامى ١٣٤٣ و ١٣٥٣ م ، نلتقى بفترة فراغ كبيرة فى حياته ، ويرجح المؤرخون أنه أمضاها فى السجن ، أو النفى ، بسبب كتابه « الحب المحمود » ، وفى هذا العام نلتقى به إلى جوار الكاردينال « خيل دى البرنس » ، ورحل معه إلى إيطاليا ، وإلى أفنيون فى جنوب فرنسا :

• • •

كشاعر يأتي خوان رويث في القمة ، لا بين عباقرة عصره فحسب ، وإنما على كل شعراء أسبانيا في العصر الوسيط ، دون استثناء أو عدوان على أحد . فهو خير من تحدث عن المرأة والحب في أيامه ، ودون مبالغة يمكن أن نضعه إلى جانب أوفيد ، ودانتي ، وبترارك ، وشكسبير ، وهاين ، وفرلين ، وعمر بن أبي ربيعة ، والعباس بن الأحنف . وابن زيدون . وهو — فيما يرى أمريكو كاسترو — يقدم لنا مجتمعا . متأثراً بالتقاليد الإسلامية إلى حد كبير .

ربما هناك من تنضج مشاعره الذاتية بحنان أكبر ، وكثيرون يتفوقون عليه في مصادر الإلهام ، أو في المفهوم الشعري للحياة ، ولكنه يتفوق على الجميع في شيئين أساسيين : كتب تاريخ عصره ساخراً ، وتميز في أمر آخر لم يبلغه الشعراء بعده إلا بقرون : وضوح شخصيته .

لقد ضمن كتابه كل ما عرفه عن العالم والحياة ، وليس قليلا ، فهو كمصدر تاريخي يساوي كثيراً ، ولولا كتابه « الحب المحمود » — والشيء نفسه يقال عن طوق الحمامة — لجهلنا الكثير من تاريخ العصور الوسطى . إن كتب التاريخ تحدثنا كيف قاتل آباؤنا ، وكتب التشريع تخطط لما أرادوه مثلا ، أما هو — أو هما — فيحدثنا كيف كان يعيش أهل عصره واقعا ، في بيوتهم وفي الأسواق ، في أحزانهم ومسراتهم ، ماذا كانوا يأكلون على موائدهم ، وكيف كانوا يلبسون ويعشقون .

كان خوان رويث مثقفاً في اللاتينية والعربية ، وفي القانون والتوراة ، وقرأ واعياً كتاب « كوند لوكارنو » ، مجموعة من الحكايات العربية ، ترجمت إلى القشتالية في زمن مبكر ، وحازت شهرة كاسحة ، لقد استوعب الحكايات وتمثلها ، وأفاد منها ، واقتبس بعضها .

وهو شاعر ساخر بكل ما تتسع له الكلمة ، لم ينج من سخريته شخص ولا موقف ، يبهج سامعيه بتصوير الحياة اليومية الطريفة ، يلاحظها بدقة ، وينقلها في أمانة ، ونظرته إلى الواقع نافذة ، كل شيء عنده يتحدث إلى

العين ، ويترجم إلى مشاعر ، وقادر دائماً على أن يجعلنا نرى المشاهد التى نقرؤها ، فهو صاحب واقعية شجاعة ، يجبن أمامها أكثر الناس جرأة ، على فهم كل ما فى قلبه ، وقلبه يسع العالم كله : إنه أشجع كتاب العصر الوسيط فى أسبانيا ، وأشدهم تحرراً .

وقد حار النقاد المحدثون فيه إنساناً ؛ وكتابه يمد كل طرف بما يريد من شواهد : لأنه يتلاعب بالألفاظ والمواقف ، فالأديب الفرنسى « بويمجر » (١٨١٦–١٩٠١) يراه فى كتابه : « الأدب القشتالى القديم » (ج٢ ص٨٣) « مفكراً حراً ، عدواً للكنيسة » ، ويشاركه هذا الرأى العالم الموسوعى الأسبانى منينديث أى بلايو فيراه : « رجل دين فاجر وسكير ، طواف ليل ، رفيق حانات » . والحق أن كاهن هيتا كان رجل دين ليس على شيء من الدين ، فهو يكره زملاءه على أيامه ، سمت درجاتهم أو انحطت ، من القلب ، وكان فى حياته أقرب ما يكون إلى شاعر من أشبيلية على أيام بنى عباد ، أو من بغداد على أيام أبى نواس . وكتابه أول نص أدبى أسبانى من العصر الوسيط يناهض الكنيسة ونفوذها ويفضح أخلاق أهلها .

كان خوان رويث شاعرى المزاج ، قلق الروح ، يعيش حياة فوضوية ، ويؤثر أن يتحرك وسط أجواء شعبية ، رفقة راقصات يهوديات . وزامرين مسلمين ، ورجال دين من عشاق السهر ، ورغم مهنته أمضى من حياته فى الحانات أكثر مما أمضى فى الكنيسة . وتحدث عن الحب والشعر والكأس ، أكثر مما صلى بالناس القداس ، أو ألقى عليهم من العظات . وجاء بين عصرين أدبيين دون أن ينتمى إلى أى منهما ، ونتاج أدبين يتقاسمان شبه الجزيرة ، العربى والأسبانى ، دون أن يكون خالصاً لأحدهما . وإذا كانت « ملحمة السيد » ابناً شرعياً للملاحم العربية التى سادت الأندلس . فقد جاء « الحب المحمود » ابناً شرعياً لكتاب « طوق الحمامة » .

* * *

اختلف النقاد فى موقفهم من أصول « الحب المحمود » . حاول الفرنسيون

أن يستولوا عليه دون أن يتركوا لغيرهم نصيباً منه ، فرأى بومحر فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل ، أن خوان رويث « تلميذ للأدب الفرنسى ، ولم يكن شاعراً أسبانياً فى شىء ، إلا فى لغته ، التى يتناثر بينها طوفان من الكلمات الأجنبية » . ولم يشر إلى شىء من التأثير العربى ، رغم أن الكلمات الأجنبية التى يشير إليها جلها عربى .

وتوزعت الأسبان اتجاهات شتى : بعضهم بحث عن أصول « الحب المحمود » فى أى مكان ، إلا فى المكان الذى يجب أن يبحث فيه ، فتحدث عن أصوله اللاتينية والفرنسية ، وسكت عن العربية ، أو مر بها تحت اسم الشرقية على استحياء ، أو تجاوز الصمت إلى الإنكار ، كأن القول بتأثر إنسان بالحضارة الأرقى فى وطنه شىء يعاب عليه ، ويقلل من أهميته ، أو كأن هناك فى عالم الأدب ما يوجد من عدم ، أو يبدأ من فراغ ، وبعضهم أحس بالأثر العربى عبر صفحات الكتاب فأشار إليه إجمالا دون أن يقف عند تفصيلاته لأنه لم يكن يعرف العربية على نحو يتيح له أن يقدم على ما يقول برهاناً ، ومن هؤلاء أميركو كاسترو ، وأشرنا إليه أكثر من مرة .

أما المستشرقون الأسبان ، والمثقفون الموضوعيون منهم بخاصة ، فقد وقفوا عند التأثير العربى على نحو أو آخر ، فعرض له « أنخل جونثالث بالنثيا » فى كتابه « تاريخ الأدب الأسبانى » ، وألمح إلى أنه « يتجلى عند خوان رويث على صورة لا يرقى إليها الشك ، ونرى ذلك بوضوح فى مواضيع شتى من كتابه الحب المحمود » ، وضرب لذلك عدداً من الأمثلة . ويشاركه هذا الرأى منيندث أى بلايو ، وزاد القول بأن خوان رويث كان يعرف من العربية ما يصلح للاستعمال الدارج ، لا ما تمكنه من دراسة الفنون الأدبية .

ودرست الكاتبة الأرجنتينية « مارية روزة ليدا » التأثير العربى فى « الحب المحمود » من جانب آخر . رأت الكتاب يشبه أن يكون ترجمة ذاتية لحياة مؤلفه العاطفية ، ومثل هذه التراجم نادرة جداً فى أدب العصور الوسطى الأوربية ، سواء فى الأدب اللاتينى أو الآداب الرومانثية التى

انفصلت عنه ، أو الآداب الجرمانية ، ولا نجد له مثيلا حتى القرن الثالث عشر ، حين كتب الشاعر الألمانى أولريش فون ليشتنشين (١٢٠٠-١٢٧٦ م) كتابه : « فضائل المرأة » ، وكتب أديب إيطاليا الكبير دانتى (١٢٦٥-١٢٧٦م) كتابه : « الحياة المجددة» (٦) . أما فى أدب القرن الرابع عشر القشتالى ، فكان «الحب المحمود » استثناء .

أمام هذا التميز حاولت ليدا أن تبعث من جديد ، وعلى نحو أكثر تفصيلا فكرة منسية دعا إليها من قبل المستشرق الأسبانى « فرانسيسكو فرنانديث اى جونثالث » (١٨٣٣ - ١٩١٧ م) ، وأصر فيها على أن هناك صلة بين الكتاب وفن المقامة العربية .

لقد ازدهر فن المقامة بين عرب الأندلس ، وخير شروح مقامات الحريرى قام بها أندلسيون ، ومضى نفر من أدبائه يكتبون على منوالها ، رسائل وخطباً ومواعظ ورحلات وعلوماً ، ومنذ القرن الثانى عشر أخذت المقامة فى شكلها العربى طريقها إلى يهود قطلونية ، وأدباء بروفانس ، وجنوبى فرنسا ، وأصبح واضحاً أنه أخذ طريقه إلى قشتالة أيضا ، بعد أن عثر أخيراً على قصيدة قشتالية ، كتبها «دون سم توب ديه كاريون » بعنوان : « محاورة بين القلم والجلم » ، وجاءت كلمة القلم من عنوانها فى صورتها العربية el Calamo وإلى فن المقامة ينتمى أيضاً « كتاب الطرب » ، وألفه يوسف بن مئير بن صبرة ، يهودى من برشلونة ، فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وفيه تلتقى شخصية البطل والراوى والمؤلف فى واحد ، ويصبح محوراً لعمل تلتقى فيه بالحكمة والمثل والخرافة والأسطورة ، ويختلط الحوار التربوى بالشعر الغنائى والسجع . ولم تضع ليدا يدها على نقط اللقاء بين المقامة وكتاب « الحب المحمود » تفصيلا ، ربما لأنها لم تكن تعرف العربية . إلا أنها أوضحت أن الشبه فى البناء الفنى بين « كتاب الطرب » ، وجاء فى شكل مقامة ، وبين كتاب « الحب المحمود » لايدع مجالا للشك أو التردد . وأخيرا فإن نشر قصيدة « الحوار بين القلم والجلم » ، وهو ليهودى من قشتالة ، ومعاصر لصاحب « الحب المحمود » ،

وجاءت فى شكل مقامة ، يفتح الباب واسعا أمام البحث الأدبى فى قابل الأيام ، لكى يتتبع تأثير المقامة العربية فى عدد من الأجناس الأدبية الأسبانية بخاصة ، والأوربية بعامة . ولكن ليدا ، وهى تقارن بين « الحب المحمود » وفن المقامة العربية ، كانت تهدف إلى حل مشكلة البناء الأدبى فى كتاب كاهن هيتا ؛ وفى كل كتاب أوربى ألف على منواله فى العصر الوسيط ، ومن ثم وقفت بجهدها عند الشكل . دون أن تتجاوزه إلى محتوى الكتاب ومادته .

* * *

كان إميليو غرسية غومث ، أول من عرض ، فيما أعلم ، للمشابهات بين محتوى « الطوق » ومحتوى « الحب المحمود » ؛ ورأى « أن كتاب كاهن هيتا لا يمكن أن يفهم دون افتراضات عربية كثيرة ، من بينها إذا أردت أن مؤلفه من المدجنين (٧) ، وأنه يلتقى فى نقاط كثيرة ومثيرة مع كتاب ابن حزم ، ولو أن من السذاجة بمكان القول بأن هذا أخذ من ذاك » .

وقد قام غرسية غومث بعـــدد من الموازنات بين نصوص متشابهة فى الكتابين ، ولكنه توقف إزاء غياب الوثائق التى تبرهن على الصلة المباشرة ، وكان حصيفا فطنا — كعادته — حين قرر أن « إنكار التشابه عمل غير علمى ، والقول به يجعل موقفى رديئاً — أى موقف غرسية غومث — يوم توجد وثائق تبرهن عليه ، وهو أمر محتمل تماما ، كما حدث فى الحوار الذى دار حول المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية لدانتى ، والتأكيد بالتبعية المباشرة مجازفة ؛ وأعتقد ، مثل كاسترو ، أنه توجد عناصر عربية كثيرة ، ولكنى أرى أنه يبعد كثيرا أن يكون « طوق الحمامة » من بينها ، كمصدر أصيل وبطريقة مباشرة ، لأن كتاب ابن حزم كان يتحرك فى نطاق محدود : إنه كتاب خاصة ، وصعب للغاية ، وتفصله عن « الحب المحمود » هوة عميقة من الاختلافات الفكرية » :

كتب غرسية غومث هذا الكلام فى مقدمته للترجمة الأسبانية التى قام بها لطوق الحمامة ، عندما صدرت للمرة الأولى عام ١٩٥٢ ، ومن ذلك الحين حدث فيما يتصل بكاهن هيتا أشياء كثيرة ، أبرزها الوثائق الدينية السرية فى

الفاتيكان وعدد من الكنائس الأسبانية ، وأشرنا لها من قبل ، ومنها يتبين أن مؤلف كتاب « الحب المحمود » ولد لجارية كانت فى حوزة سيد عربى فى قلعة يحصب من مقاطعة جيان ، وأن أباه غير الشرعى ظل أسيراً لسيده المسلم خمسة وعشرين عاماً ، وهى فترة كافية لتجعله متمكنا فى اللغة العربية ، وكانت لغة الثقافة ، وكان تعليم الجوارى فيها ، بنين وبنات ، أمرا شائعا .

وقلعة يحصب حيث ولد خوان رويث ونشأ ، وعاش أبوه من قبل أعواما طويلة ، كانت موطن ثقافة ، ومهبط شعراء ، ففيها عاش بنو سعيد المؤرخون والأدباء ، وإليهم نسبت القلعة أيضاً ، وتميز من بينهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد ، وكان غزلا فى الشعر وفى الواقع ، وله ... ة حب ذائعة مع حفصة الركونية الشاعرة ، لاتقل عنفا وشهرة عما كان ... بن ولادة وابن زيدون ، وكان ينافسه فى حبها أمير غرناطة من قبل الموحدين ، عثمان ابن عبد المؤمن ، ودفع أبو جعفر حياته ثمنا لهذا الحب . وتميز بنو سعيد بالعلم والثقافة ، وأنهم يتوفرون على مكتبة عامرة ، وشهر من بينهم أبو عمران موسى بن محمد (ت ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م) بأنه جماعة للكتب ، يطلبها أنى وجدها ، ويبذل فيها كل غال ومرتخص ، ويصفه ابنه أبو الحسن على بأنه « عاش سبعا وستين سنة ، ولم أره يتخلى يوما عن مطالعة كتاب ، أو كتب ما يحاوله ، حتى فى الأعياد » (٨) . وليس مهماً بعد ذلك أن تكون الأحداث قد عصفت بأبناء سعيد فهاجروا ، أو معظمهم ، إلى المشرق أو إلى مدن أخرى فى الأندلس . لأن الجو الثقافى الذى أزهر بهم ، ومن حولهم . تأصل فى هذه المدينة الصغيرة النائية ، فى منتصف الطريق بين قرطبة وغرناطة :

أكان ممكنا أن يحرص بنو سعيد على اقتناء الكتب ، وأن يكون لهم منها الكثير ، وبينها عدد من مؤلفات ابن حزم ، ينقلون عنها فى مؤلفاتهم ثم لايكون من بينها الطوق ؟ الأقرب إلى طبيعة العصر والناس ، وموقع المدينة ، ومكانة ابن حزم ، أن يكون كتاب « الطوق » معروفا ومتداولا ، وأن تقع عليه عينا والد خوان رويث ، ولعله تحدث به ، وقص ما عرف من حكاياته ، ولعله توفر لنفسه على نسخة منه ، فى عصر كانت فيه

معرفة العربية والتوفر على كتبها موطن اعتزاز ، ومدعاة فخر ، فى قشتالة نفسها ، حيث بذل ألفونسو العاشر ، أو العالم ، ملكها (١٢٥٢ — ١٢٨٤ م) جهدا مضاعفا لترجمة التراث العربى إلى القشتالية ، فترجم إليها القرآن والإنجيل وكتبا أخرى كثيرة . علمية وأدبية ، فدفع بالثقافة العربية إلى العقول القشتالية المثقفة وغذى النثر القشتالى بالأساليب والأساطير والأمثال العربية .

ثمة نقاط يلتقى فيها ابن حزم وخوان رويث ، وأخرى يقفان عندها على النقيض . كلاهما رجل دين ، وكتب أولهما « الطوق » منفيا ، أو نافيا نفسه ، وكتب الثانى « الحب المحمود » بين جدران السجون ، وكلاهما كان ثائرا على الجامد من أفكار عصره ، وعالجا موضوعا واحدا ، والتزما منه موقفاً متقاربا ، وأكدا على سلامة عقيدتهما : وكما كان الطوق صورة فريدة : فى جوانب منه ، للحياة العاطفية فى قرطبة القرن العاشر الميلادى وما بعده ، كان الحب المحمود صورة لها فى قشتالة على امتداد القرن الرابع عشر .

ويتقابلان فى الكثير أيضاً . كان ابن حزم يمثل حضارة فى القمة توهجا ، أنهكها الترف وحياة اللذاذة ، وتهيأ للانحدار ، وعاش خوان رويث فى مجتمع جاس ، ينفض عن بصره وعقله وقلبه غبار القرون الوسطى ، بكل ما تحمله من تخلف وظلام وجهالة . وكان ابن حزم موسوعى الثقافة : رفيع الفكر ، حاد الذكاء . وكاهن هيتا إذا قيس برفاقه فى قشتالة يجىء فى المقدمة ولكنه حين يقف إلى جوار ابن حزم يبدو متواضعا فى كل شىء ، معرفة وثقافة وفكرا ، وآثر ابن حزم أن يكون جادا وعنيفا ومستقيم السلوك ، واختار خوان رويث أن يكون ساخرا ومهادنا ومستهترا . ويذكر ابن حزم فيما يقدم من أحداث مجتمعه ، غالباً ، الاسم والمكان والحادثة ، وآثر قرينه القشتالى أن يتخفى وراء الرمز ، وأن يقف عند ما هو عام . وابن حزم من الخاصة ، أبوه وزير وتولى هو الوزارة ، وينتمى فى أسرة لها فى مجتمعه مكانة وجاء خوان رويث ابنا لعلاقة غير شرعية ، لم تراع فيها القوانين التى يجرى عليها أهل ديانته ، وكان عليه أن يطالب العفو عنها من البابا فى كل وظيفة

يتولاها . وأخيرا فكتاب ابن حزم ذو موضوع واحد ، وقلما يتجاوزه إلى أمر لا يتصل به ، وكتبه نثرا ، ووشاه بالكثير من شعره ، وكاهن هيتا اتخذ من حياته العاطفية إطاراً لكتابه ، وحمله كل ماعرف وأراد ، وإذا استثنينا المقدمة ، وهى قصيرة ، فقد جاء به شعرا كله .

أول ما تضع يدنا عليه من تأثيرات عربية فى كتاب « الحب المحمود » قدر هائل من الألفاظ العربية ، يستخدمها الشاعر فى مهارة ، ويرسمها بأحرف لاتينية فى دقة غير معهودة على أيامه ، ولا تقتصر على الأسماء والحروف كما عند الآخرين ، وإنما تتجاوزها إلى الأفعال وأسماء الفاعلين مثل : ياء النداء Ya وشيكمة Xaquima وفى الأسبانية الحديثة Jaquima ، ومرفوض Marfuz ، ومؤنثها : مرفوضة Marfusa ، وجملة كاملة مثل : قلبى عربى Calbi garabi ، وفعل الأمر مثل : اسكت ascut ! وامش amxi .

وأخذ عدد من قصائده شكل موشحات كاملة ، فى صورتها الفنية الدقيقة ، فهى ذات مطلع وأغصان وقفل ، وجاءت فى اثنى عشر دوراً ، وإذا كان من الوشاحين العرب من وجد عذوبة فى أن يوشى موشحاته بخرجة أعجمية ، فى شكل لفظ أعجمى أو من عامية أهل الأندلس ، فقد تجاوز كاهن هيتا هذه اللفتة بكثير ، وجعل خاتمة كل دور فى موشحته لفظاً عربياً ، على نحو ما نرى (٩) :

كاهن هيتا يرسل سفيرة إلى فتاة عربية

كى أنسى شجنى وحزنى وآلامى ،
رجوت عجوزتى أن تسعى فى زواجى ،
فتحدثت إلى فتاة عربية لم تعرها سمعاً ،
هى تصرفت بعقل وأنا غنيت طويلا ،

ياسمى قالت القوادة العربية :
يا صديقتى ، يا صديقتى ، طال الزمن ولم أراك ،
لم أنت هكذا ؟ ما أصعب أن القاك ،

حب جديد يحييك ، فردت العربية : لست أدرى Les nedri !

ابنتى : واحد من القلعة alcalà يسلم عليك ،
يرسل لك هذا الثوب açodra (١٠) مع هذه البراءة alvalà
الله معك ومن ذلك عندنا كثير ،
خذيه ، ابنتى ، أيتها السيدة . قالت العربية : لا والله Le gualà ؛

ابنتى الله يعطيك السلام والصحة ،
لا تستهينى بها ، لأنى لم أستطع أن أحضر لك أكثر ،
أحضرت لك هدية جميلة وردك يكون على الود ala wud (١١)
لن أمضى وحدى . قالت العربية : أسكت ascut !

وعندما رأت العجوز أنها لا تستطيع شيئاً
قالت : طالما قلت لك ، حتى هذا نفسه تفقدينه ،
لأنك لم تقولى شيئاً ، أنى أود الرحيل من هنا
هزت العربية رأسها وقالت : أمشى ، أمشى Amxi, amixi !

* * *

وإذا وقفنا عند المشابهات فى النصوص ، وضعنا يدنا ، فى قراءة عابرة « للحب المحمود » ، على بعض منها ، يكاد أن يكون ترجمة لما فى الطوق :

يقول ابن حزم يلتمس لنفسه مندوحة فى تأليف الكتاب : « ... كان القاضى حمام بن أحمد ، حدثنى عن يحيى بن مالك ، عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبى الدرداء أنه قال : أجموا النفوس بشىء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق . ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضى : « من لم يحسن يتفتى ، لم يحسن يتقرى » . وفى بعض الأثر : « أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » (١٢) .

وعن الموقف نفسه يقول خوان رويث :
« كلمات عالم وقالها كتون (١٣) :
الرجل بما فى قلبه ،

[تخلط أمواجاً وفكراً باسماً ،

[] لأن الأحزان الكثيرة تلد خطايا كبيرة » (١٤) .

ويقول ابن حزم مشيرا إلى تأثير الحب فى النفس : « ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له ، والمسعى فى حظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويرغب فى نفسه . فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب ، وجاهل تأدب ، وتفل تزين ، وفقير تجمل ، وذى سن تفتى ، وناسك تفتك ، ومصون تبذل » (١٥) .

وفى هذا المعنى يقول صاحب الحب المحمود :

ويخلق الحب من الخشن لطيفا ،
[ويهب القول الجميل لمن كانت كلماته صماء ،
وبه يعود الجبان شجاعاً ،
ويصبح الكسلان نشطاً وجاداً ،

ويحتفظ الفتى بشبابه طويلا ،
ويعود بالشيخ ، فى كثير ، فتى شابا ،
ويجعل من الأسود أبيض جميلا ، مثل السمك ،
ومن لا يساوى جوزة يعطه الحب شهرة عظيمة (١٦) .

ويتشابه موقف ابن حزم وخوان رويث من الرسول الذى يبعث به المحب إلى محبوبه فلا يكون وفياً ، يخون مهمته ، ويغدر بصاحبه ، ويصطفى الغنيمة لنفسه .

يقول ابن حزم فى باب « الغدر » : « ومن قبيح الغدر أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه ، يستريح إليه بأسراره . فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ، ويستأثر به من دونه ، وفيه أقول :

أقمت سفيراً قاصداً فى مطالبى وثقت به جهلا فضرب بيننا

وحل عرى ودى وأثبت وده وأبعد عنى كل ما كان ممكنا
فصرت شهيدا بعد ما كنت مشهدا وأصبحت ضيفاً بعد ما كان ضيفنا»(١٧

ويقص كاهن هيتا ما حدث له مع رسوله فرناندو غرسية ، وكيف أرسله إلى فتاة تدعى «كروث» ، تعمل خبازة ، فاختص بها نفسه :

عيناى لن تريا النور ،
لأنى فقدت كروث :

* * *

كروث الخبازة الحبيبة ،
اتخذتها عشيقة ،
حسبت الطريق إليها عريضا فوجدته ضيقا ،
مثل ما يفعل الأندلسيون .

* * *

فكرت أن تكون لى ،
قلت لفرناندو غرسية ،
احمل لها رضاى ورغبتى
وكن عنى محاميا لطيفا ولبقا .

* * *

قال لى : إنها أعجبته وكانت على هواه ،
وأنه جعل من كروث خاصة به وعشيقة ،
لقد تركنى اجتر النخالة ،
وأكل الخبز الأكثر حلاوة .

* * *

قدم لها عملا بنصيحتى
حنطة طيبة مضى عليها عام ،
وأهداها أرنبا

الخائن ، الزائف ، مرفوض

* * *

أخزى الله رسولا
عجلا ، بالغ الطيش :
ولا رعى الله صياد الأرانب ،
يخص نفسه بالصيد من وراء سيده (١٨) .

وربما كان الفصل الخاص بالسفير أوضح تأثيرا فى كتاب « الحب المحمود » ، وفى كتب إسبانية أخرى سوف نعرض لها فى مرة تالية ، من أى باب آخر ، وقد اختار ابن حزم هذا اللفظ الأنيق المهذب لكلمة « القوادة » ، وكانت شائعة بين العامة فى الأندلس ، مسلمين أومسيحيين ، يتحدثون العربية أو الرومانثية ، لقد دخلت هذه فى صورة aleahuete ، والسفير أو القوادة أو الرسول ، يطلق على المرأة ، والرجل قيلا ، الذى يقارب بين الرؤوس والقلوب فى الحلال أو الحرام ، وكانت هذه المهنة شائعة فى الأندلس ، ولم تكن محتقرة أو شراً خالصا على النحو الذى عليه اليوم ، فلم تكن القوادة إذ ذاك تسعى بين الذين يأتمون على أجر ، فهؤلاء يؤتهن المعروفة ، وأنما تتردد بين من تلتقى عواطفهم على حب ، ينتهى بهم إلى الزواج أو لاينتهى ، إنها تقوم بالوساطة بين المحبين ، رسولا يحمل الهدايا والأفكار ، فى مجتمع لم يكن قد عرف البريد المنظم ، أو الهاتف الموصل ، أنها أشبه ما تكون « بالخاطبة » فى المجتمع العربى المعاصر ، قبل أن ينتشر التعليم ويعم الاختلاط . وقد خص ابن حزم « السفير » بباب قصير ، أو وصلنا قصيرا ، عرض فيه لمهمته وصفاته واغراضه وحيله ، ولن نأتى بنص ما قال هنا ، وآنما نحيل إليه القارىء فى كتاب « طوق الحمامة » نفسه (١٩) .

هذا الباب واضح التأثير فى كتاب « الحب المحمود » ، وأزعم أن « طوق الحمامة » كان بين يدى خوان رويث ، أو فى ذاكرته على الأقل ، وهو يحرر كتابه . ولكن كاهن هيتا ، وهو رجل دين ، وأمضى حياته نائباً

للأسقف فى أكثر من مدينة أندلسية . فى منطقة التعاور . على الحدود بين المسلمين والمسيحيين ، دفع لهذه المهنة باسم جديد استمده من الحياة المحيطة به وهو Tortaconventos ، اسم كان يطلق فى البدء على أولئك المترددين على الأديرة ، يحملون لها الهدايا ظاهرا ، أو يلتمسون عندها المغفرة تمويها ، أما واقعا فلكى يرى الرجل صاحبته ، وتلقى المرأة حبيبها . وكان يطلق أيضا على خادمات الأديرة . وكن يسفرن بين الرهبان والراهبات . وكل طائفة تقيم فى دير منفصل . يترددن بالرسائل ، ويحملن الهدايا . ويحددن المواعيد ويوفقن بين المتنافرين ، وأصبحت الكلمة تعنى فى الأسبانية ما يعنية لفظ « القوادة » فى العربية ، ولو أن كلمة alcahuete وهى عربية الأصل كما أشرنا ، ظلت أكثر استخداما ودورانا على الألسنة ، وذكراً فى الأدب . ربما لأن الأولى تشير إلى معنى كانت الكنيسة تحول دون تنبيه الأذهان إليه ؛ وكما أن ابن حزم حدد صفات السفير الناجح ، وأخطاءه ومتاعبه ، كذلك صنع خوان رويث :

لتكن سفيرتك إليها من قرابتك ؛
وأن تكون وفية لك ، وليست خادماً لها ؛
وألا تعرف ذلك منيدتها ، حتى لاتكذب الأخرى ؛
ومن يتزوج رديئاً محال ألا يندم طويلا .

* * *

حاول ما استطعت أن تكون سفيرتك
لبقة ، فطنة ، ذات دربة وخبرة ؛
تعرف كيف تصبر وتصوغ الأكاذيب اللطيفة ؛

* * *

إذا لم تكن لك قريبة كهذه فعليك بالعجائز .
من اللائى يترددن على الكنائس ويعرفن الأزقة ،
يحفظن كثيرا من الحكايات والنصائح وفيهن رقة ،

معهن كتاب السحر لموسى ، وبه يفتن الأسماع :

* * *

يا لهن من عجائز معلمات ثرثارات ،
تلقاهن فى كل مكان : فى الميادين وفى الحارات ،
يتوجهن إلى الله بالحساب ، ويصلين دائما مستعدات ،
أى ، كم من خبائث يعرفن ، أولئك العجائز الصايعات ! :

* * *

أرسل عجائز فى السحر بالأعشاب ماهرات ،
يمضين من بيت إلى بيت ويزعمن أنهن قابلات :
بالمساحيق و الكحول والدهونات ،
ترمى الفتاة بنظرة فتعمى الفكر منها والمدركات :

* * *

و فتش عن سفيرة بين أولئك السودانيات الوادعات ،
من العاملات فى بيوت الرهبان والقسس و الراهبات :
إنهن مشاءات جيدات وبالأحذية جديرات :
فهؤلاء القوادات يقمن بالكثير والرخيص من المقايضات .

* * *

حيث يمضى أولئك النسوة تكون البهجة ،
فتيات قليلات يستطعن الإفلات منهن ،
ولكى لا يكذبن عليك تعلم كيف تلاطفهن ،
فلهن جاذبية ، ويعرفن جيداً كيف يعمينهن ؟

* * *

وبين أولئك العجائز جميعاً ، فإن هذه أفضلهن !
ارجوها ألا تكذبك ، وأظهر لها حبك خالصا ،
أن السمسار الماهر قادر على بيع الحيوان العاطب ،

وملابس كثيرة رديئة قد تخفى لحافاً جيداً (٢٠) .

* * *

ثم ماذا ؟ .. لقد وصلنا كتاب « الطوق » فى مخطوطة وحيدة عبثت بها يد الناسخ ، فحذف منه كل ما كان على غير هواه ، ولم يتردد فى أن يصرح بذلك آخر الكتاب ، ولا أحد يدرى ماذا حذف ، وإلى أين جرى به هواه . وجاءنا كتاب « الحب المحمود » فى مخطوطات ثلاث ، لم يكتب منها شىء بخط المؤلف ولا فى حياته ، وأقربها إلينا أكثرها شعرا ، أى أن الكتاب أيضاً لم يصلنا كما أراد له مؤلفه ، ولا أحد يدرى ما الذى سقط منه ، وما الذى غير فيه من ألفاظ وجمل ، ومع ذلك ففيه مما أخذ عن ابن حزم صفحات لو مضينا بها إلى النهاية لطالت ؛ وحسبنا ما أوردنا منها شاهدا ودليلا.

* * *

والكتاب الآخر الذى نلمح فيه « تأثير الطوق » مباشرة ، أو عن طريق « الحب المحمود » ، هو [مسرحية « لا ثلستينا La Celestina» وهو اسم البطلة]، ويطيب لى أن أترجمها بالمهنة التى تجسمت فيها والتى تدور حولها المسرحية وهى « القوادة » . وقد نشر فى مدينة برغش بعد سبعة أعوام من سقوط دولة الإسلام فى الأندلس ، بعنوان : المأساة اللاهية لكاليستو ومليبيا Tragicomedia de Calisto y Melibea » وأثارت الجدل حاداً فى عصرها ، بين راض وساخط ، ومؤيد ومعارض ، ثم أعيد نشرها فى إشبيلية ، مدينة طروب ومرحة وثرية ، عام ١٥٠١م وفى المدينة نفسها أعيدت طباعتها فى العام التالى ، وهو نجاح لا مثيل له بمقاييس النشر فى تلك الأيام ، وما أسرع ما تغير الاسم ليصبح كلمة واحدة : لا ثلستينا (٢١) .

وهى مسرحية رائعة ، فتنت أجيالا من القراء ، وتفتن الآن ، وستظل كذلك ، ربما لأجيال عديدة تأتى من بعد ، واعتبرت كشفاً أدبياً رائعاً ، وحملة أدبية موفقة إلى عالم المجهول ، وأصبحت محور الدرس

والتعليق فى الجامعات والمعاهد ، وكتب حولها الكثير ، وذاعت فى كل العالم الثقافى ، واعتبرت إحدى القطع الأدبية الخالدة التى يزهو بها الأدب الإسبانى فى مجال الأدب العالمى .

أما مؤلفها فرناندو دى روخاس Fernando de Rojas (ت ١٥٤١) فلا نعرف عنه إلا شيئاً قليلا ، وهذا الشيء القليل غامض ومضطرب وملىء بالألغاز ، رغم أن إبداعه العلمى يضعه إلى جانب القمم الأدبية فى العصر الوسيط : ملحمة السيد ، والحب المحمود ، ودون كيخوته . ولكن المجد سقط على الكتاب وتجاوز الكاتب ، فمعلوماتنا عن شخصه محدودة ، والوثائق المتصلة به نادرة ، وتاريخ وفاته أكيد ، وبعض الإشارات الخاصة بحياته وأسرته نلتقى بها متناثرة ومضطربة فى بعض وثائق العصور الوسطى . وهذه الإشارات رغم قصرها ترسم إطاراً تقريبياً للعالم الذى كانت تتحرك من خلاله شخصية المؤلف ، دون أن تقدم لنا معلومات دقيقة ومفيدة عن شخصيته نفسها . وكل ما نعلم عنه أكيداً أنه ولد فى قرية بويبلا ، من مقاطعة طليطلة ، فى تاريخ نجهله ، وأنه تركها ليصبح عمدة طلبيرة ، مدينة أكبر حجماً ، فى المقاطعة نفسها .

بقى علينا أن نتصور حياته من خلال الكتاب ، بدل أن نفسر إنتاجه فى ضوء حياته ، وحياة المؤلف مفيدة فى تفسير إبداعه وإلقاء الضوء عليه ، كما أن عمله الأدبى ضوء كاشف لما استتر من حياته ، أو انطوى فى خبايا صدره ، كلاهما يفسر ويفسر . يأخذ ويعطى ، أما هنا فنحن بإزاء جانب واحد فحسب ، أن نبنى حياة فرناندو دى روخاس .

ينتمى دى روخاس إلى قطاع عريض من المجتمع الإسبانى ، شغل القرن الخامس عشر الميلادى ومابعده ، ويعرف بالمسيحيين الجدد وهم أولئك الذين أرغموا على اعتناق الكاثوليكية من اليهود ، فاستجابوا لذلك رهبة أو نفاقاً ، بعضهم نسى معها أصوله تماماً ، واحتفظ الآخر بكل ميوله اليهودية فى أعماقه ، احتفظ بها لنفسه وأورثها خلفه من

بعده . وإن ظل فى ظاهره كاثوليكياً بالطبع ، ومنهم من أصبح تحت هذا الرداء من رجال الدين الكبار ، وبلغ مرتبة متقدمة بين أحبار الكنيسة . فأصبح مطراناً أو أسقف أو قديساً ، أو حتى من رجالات اللاهوت واللامعين . وكان هؤلاء المسيحيون الجدد يعتبرون فى إسبانيا العصر الوسيط مواطنين من الدرجة الثالثة ، يعيشون حياة قلقة ، فى جو خانق من الأرهاب والبؤس والتعاسة ، مواطنين بلا حرمات من أى لون ، وبلغ الذعر بينهم أن بعضهم كان يخاف البعض الآخر . وكل فرد يشك فى كل الآخرين ، ومن الممكن أن يقف الواحد منهم أمام محكمة التفتيش ، بكل ماتمثله من رعب وقسوة ، وأن يتعرض لألوان من التعذيب لأحد لها لمجرد لفظ يتفوه به ، يخرج من فمه عفواً دون قصد ، وكلمة عابرة يقولها فى بيته بين أفراد أسرته ، على مائدة الطعام ، يمكن أن تنتهى به إلى أعماق السجون المظلمة تحت الأرض :

من بين وثائق محاكم التفتيش التى نشرت عام ١٩٠٢ ما يتصل بمحاكمة أحد أقرباء دى روخاس ، لأنه قال عرضاً ، يشير إلى الآخرة : « أنا هنا بخير ، ولست أعرف ماهناك » . وقريبة له ، كانت وحدها ، وتفوهت بألفاظ شبيهة ، وخشيت أن يكون أحد الجيران قد سمعها ، ولم تره ، فيبلغ عنها ، فأسرعت إلى المحكمة بنفسها ، لتبرهن على حسن نيتها ، وقدمت اعترافها كاملا : « أنا إيزابيل لو بث ، زوجة فرانسيسكو لو بث ، قلت دون أن أتدبر ماقلت ، أو أعتقده : لا أستطيع أن أقول رأيى فى الآخرة ، لأنى لا أرى شيئاً مما يجرى هناك ، كمثل جار تعود الناس أن يتفوهوا به » . وعندما بلغ دى روخاس الثانية عشرة من عمره اعتقل والده وسجن وقدم لمحكمة التفتيش ، ولتفادى العذاب اعترف بكل التهم الموجهة إليه فحكمت المحكمة بإعدامه حرقاً فى حفل عام وفى العام الذى حرر فيه كتابه كانت هناك قائمة طويلة من أقاربه ، ومئات آخرين من أصدقائهم أو معارفهم أو جيرانهم ، تأخذ طريقها إلى محاكم التفتيش فى مدينة

طليطلة ، ورآهم يتلظون على النار أحياء ، ويواجهون العذاب ألوانا . وشاهد ما هو أقسى : رأى يهود طليطلة جميعاً . وقد خرجوا إلى حفل عام ، سنة ١٤٨٤ م يعلنون توبتهم ، ويلعنون دينهم القديم :

وفى عام ١٥٠١ م أتم دى روخاس تحرير مسرحيته « القوادة » . وله من العمر ٢٥ عاما ، ومنذ ذلك الوقت ، وحتى وفاته فى ٣ أبريل من عام ١٥٤١ . لا نعرف عنه شيئاً ، إلا عرضا فى وثيقة محاكمة حماه ، وقد رفض قاضى محكمة التفتيش أن يسمح له بأن يختار محاميه ، وعينت له المحكمة محاميا آخر ليس موضع شك منها ، وتضم الوثيقة قائمة بالكتب التى وجدت فى مكتبته وتعطينا صوره له بأنه كان برجوازيا مرموقا ، يهتم بتنمية ثروته ، دون أن يعطى الجانب الثقافى أية عناية جادة ، وفى هذا الجو كتب دى روخاس مسرحيته ، فجاءت تعبيراً عنه ، أو محاولة للتعبير ، سلبا وإيجابا ، ومن خلالها قدم لنا رأيه ملفوفا فى ما حوله ، وعما يعتمل فى أعماقه من مشاعر وأحاسيس .

* * *

محتوى المسرحية بسيط وعادى ، ككل الأعمال الأدبية الكبرى التى أبدعها الذكاء الإنسانى ، وإذا أسقطنا المناظر والمواقف والحديث المباشر عن الأبطال ، فهى تدور حول شاب فارس يدعى كاليستو ، دخل حديقة بيت صحبة بازله ، فرأى هناك مليبيا ، فتاة فى سن المراهقة ، فوقع أسير هواها فى الحال وحين أبدى لها حبه صدته فى عنف ، فعاد إلى بيته حزينا تعيسا صريع الخيبة والحسرة ، وتحدث بما جرى له إلى خادمه ، فأشار عليه هذا بأن يدعو امرأة عجوزا تساعده فى محنته ، « خبيرة بأمور النساء ، بائعة عطور ، أستاذة فى فن التزيين ، قوادة ، وساحرة إلى حدما » تدعى ثلستينا :

وجاءت ثلستينا سريعا وقبلت القيام بالمهمة ، واستطاعت أن تدخل بيت مليبيا ، تحت ستار أنها تبيع خيوط غزل ، واستطاعت أن تتحدث

إلى الفتاة . وأن تتغلب على مقاومتها العنيدة ، أخذت تعرف لها على فضائل العاشق ، شاب من أسرة نبيلة ، ذكي ومهذب ومرموق . واستطاعت بحيلتها ودهائها أن تقنع الفتاة بمقابلة الفتى إسرا ، بعيدا عن أبويها العجوزين ، وتلقت ثالستينا مكافأة طيبة على صنيعها ، وطالب خادما كاليستو جانبا منها بوصفهما وسيطين ، ورفضت العجوز أن تعطيهما شيئا مما أخذت فقتلاها ، فاقتصت العدالة منهما ، وذبحا فى ميدان عام .

وذهب كاليستو ليلا لموعد مع حبيبته ، لقيها فى حديقة البيت ، وهما فى لحظة صفاء عاطفى سمع كاليستو ضجيجا فى الشارع ، وصياحا من خدمه الذين تركهم يرقبونه ، فأسرع لنجدتهم ، فسقط به السلم الموصل إلى الحديقة فمات لتوه ، وعندما رأت الفتاة ما حدث لحبيبها لاذت بأعلى برج البيت ، وسجنت نفسها فيه ، وأسرت لوالديها بأنها فقدت شرفها ، ثم ألقت بنفسها من فوق البرج ، فسقطت ميتة ، وفوق جثتها وقف الأب والأم ، يندبان حظهما ، ويبكيان شيخوختهما وحيدين ، وقدما لنا من خلال الحوار الذى دار بينهما ، صورة قاتمة ومتشائمة للحياة الإنسانية بآثامها وأخطائها ومآسيها .

تقوم المسرحية على ثلاث شخصيات رئيسية : كاليستو العاشق ، ويعنى اسمه فى اللغة الإغريقية فتى رائع الجمال ، مرح بالطبيعة ، نبيل بالوراثة ضعيف أمام العواطف ، قوى فى غيرها : ومليبيا حبيبته ، ويعنى اسمها ذات الصوت العذب ، وتركت لنا المسرحية وصفا مفصلا لها ، فهى : ذات عينين خضراوين واسعتين ، وحواجب رفيعة ومرتفعة ، وأهداب طويلة ، وأنف أقنى ، وفم صغير ، تزينه أسنان بيضاء رقيقة ، وشفاه ممتلئة ، شقراء تضرب إلى الحمرة ، ووجه عريض ، وكف صغيرة ، وأصابع طويلة ، ملونة الأظافر ، شقراء وسط الماس ، وبشرة بضة حلوة . عذراء الروح ساذجة ، استجابت لإغراء القوادة مندفعة[٧] ، وعلى وجهها تتدافع مشاعر الخوف والرغبة . وقد أصبح الاسمان : كاليستو ومليبيا ،

توأمان في الأدب الإسباني ، على نحو ما عليه روميو وجوليت عند الإنجليز والشخصية الثالثة ، وحملت الرواية اسمها لأهميتها ، ثلستينا ، وقامت بدور الوسيط ، عجوز شريرة ، ذكية وذات حيلة ، وعلى معرفة واسعة بالحياة والناس . وقدرة ساحرة في العزف على أوتار القلوب ، مشعوذة تؤمن بالخرافات ، وماهرة في تحريك أدق المشاعر المنطوية في أبعد أغوار النفس ، واستخدامها لصالحها ، طماعة جشعة ، وهي نقيصة سوف تودى بها أخيرا .

حار النقاد في تصنيف العمل الذي قام به دي روخاس ، اعتبره بعضهم رواية لاتساع حجمه ، وكتابته نثرا ، وصعوبة عرضه مسرحيا دون تصرف ، ورأى آخرون أن غلبة الحوار عليه ، وتقسيمه إلى مواقف ودعوة المؤلف إلى قراءتها على مجموعة من السامعين ، ومراعاة الملامح والنغم في الإشارات والأصوات والحركات ، بما يناسب كل شخصية ، يومىء إلى أن المؤلف أراد بها شيئا آخر غير الرواية .

وإذا تجاوزنا الشكل إلى المحتوى فإن قراءة فاحصة للرواية ، أوالمسرحية إذا شئت ، تظهر لنا واقع كاتب قلق الضمير دينيا ، وأن العناصر المسيحية فيها ضئيلة للغاية ، في عصر كانت المسيحية كل شيء في واقع أهلها ، أو هي الحياة نفسها ، والقليل من هذه العناصر مفتعل وسطحي على نحو واضح في أغلب الأحوال . ويدعنا الممثلون نفهم من خلال مواقفهم ، أو عبر كلماتهم ، أنهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة ، وتحكم الجميع فلسفة أبيقورية واضحة . ثلستينا تنصح : « تمتع بشبابك ، وباليوم الجميل ، والليلة الحلوة ، والأكلة الشهية ، والشراب المعتق ، لا تدع ذلك ما استطعت إليه سبيلا . انفق واخسر ، ولا تبك الثروة الضائعة ، أنك لن تحمل معك من هذا العالم شيئا وتقول أليسيا ، والدة مليبيا : « نستمتع ما دام لدينا ما نأكله اليوم ، غدا لا يعنينا ، لن نعيش أبدا ، وقليلون هم الذين يبلغون مرحلة الشيخوخة ، والذين يبلغونها لم يحدث أن أحدا منهم مات من الجوع » .

ويشكو كاليستو لخادمه نار الجوى تجتاح داخله ، وحرارة الشوق يغص بها قلبه فيقول له الخادم فى بساطة : ولكن هذا يتعارض مع تعاليم المسيحية ! . فيهز كاليستو كتفيه بين مستغرب ومنكر ، فينزعج الخادم منه : ألست مسيحياً ؟ . فيرد عليه : أنا ؟ ... أنا عاشق مليبيا ، لها ولدت ، وفيها أموت ، وأعبدها مدى الحياة ! .

إنها باختصار رواية تسخر فى قسوة من الرأى العام على أيامها ، ومن القيم التى كان يقدسها وتستعبده ، ووضعت حدا فاصلا بين عصرين أدبيين ، وتستمد أهميتها من الواقعية الرائعة التى صيغت فيها ، ورسمت شخصياتها فى دقة ، ويرى العلامة الإسبانى مننديث أى بلايو : أنه لو لم يوجد ثرفانتيس ، مؤلف دون كيخوته ، لاحتلت المقام الأول فى أدب الإبداع الإسبانى . وفيها تلتقى البسمة والدمعة ، والبهجة واللذعة ، والموت والحزن ، شباب وجميلات ، ونبلاء وأغنياء ، ومن خلا بالهم من أى شىء ، ومخلوقات غادرة ، ومجرمون ، وشياطين . وإلى جانب الأفكار الفلسفية تقدم لنا صوراً من التقاليد والحياة الاجتماعية الإسبانية فى عصر النهضة ، رسمت فى عناية لا يعلى عليها ، وفى صدق لا يبلغ مداه . وهى غنية بالأمثال والجمل السائرة ، تأتى على لسان الخدم وعمار الناس ، وقد أثرت فى المسرح النثرى فى القرن السادس عشر الميلادى ، ومعها بدأ فن الحوار فى أوربا ، وتركت بصماتها واضحة فى قصص الشطار ، وفى الأعمال الأدبية التى تبحث بين الطبقات الدنيا عن مسرح لها . وكأى عمل أدبى إسبانى كتب فى تلك الأيام تضم الكثير من الألفاظ ذات الأصل العربى .

* * *

ونأتى إلى ما يعنينا من العرض السابق . فيم يلتقى ابن حزم ودى روخاس وفيم يفترقان ؟

منذ البدء ينبغى أن نشير إلى أن مظاهر الاختلاف بين شخصيهما أشد وأقوى من جوانب الاتفاق : كان ابن حزم فقيهاً ملتزماً ومتشدداً ، شاعراً

ومؤرخاً وفيلسوفاً، وعالماً بالأصول، وشارك في كل النشاطات الفكرية على أيامه، وكان ينتسب في بيت إن لم تكن له عراقة بعيدة فهو من الطبقة العالية الجديدة، التي شهدها آخر القرن العاشر، من أبناء الوزراء وكبار الموظفين، وأهلتهم مواهبهم وخبراتهم أن يتقدموا إلى مواطن الصدارة في وطنهم، سياسياً واجتماعياً، وأن يلعبوا دوراً هاماً في تقرير مصائره. وكان دي روخاس كاثوليكياً ينحدر من أصول يهودية قريبة، ملاحق ومضطهد، مغمور لا نعرف له تاريخاً، ولم يشارك في الحياة الثقافية على أيامه بغير هذه الرواية، ولا توحي معالجته لها بأنه كان في قرارة نفسه منسجماً مع العقيدة التي يرفع شعارها ظاهراً، ويعلنها تقية وخوفاً.

وعرف ابن حزم ما ترجم من الفلسفة اليونانية على أيامه، وأفاد منه، وقرأ الكتب المنزلة، وعرف عقائد أهلها، وناقشهم بعنف، ولكن لا نعرف أنه ألم بشيء من الأدب اللاتيني، أو انتبه إلى أدب المستعربين على أيامه، ولا تعكس كتاباته المختلفة شيئاً منها، على حين أن دي روخاس، وجاء مع توهج عصر النهضة، كان يعرف اللاتينية إلى جانب لغته القشتالية، وقرأ بترارك الإيطالى (١٣٠٤ — ١٣٧٤م)، وبخاصة في كتابه: « تدبير الثروة De Remediis utriusque Fortunae » ونقل جانباً من معارفه الإنسانية، وعنه عرف من الشعراء هوراس وجوفنال، وشعراء آخرين من اللاتين.

ويختلف شكل العمل الأدبي عند كل منهما: فابن حزم حرر كتابه في نثر راق، يجيء في الطبقة الأولى إيقاعاً وجزالة، ومزجه بأشعاره، وحلل عاطفة الحب وجوانبه، والتقط شواهده أحداثاً وقعت من حياته أو حياة صحبه، ولا يجيء الحوار عنده إلا نادراً، ولمواقف عارضة وقصيرة، ولم يدر بخلده أن يكتب رواية، فضلا عن مسرحية، ولا كان هذا الجنس الأدبي موقراً في مجتمعه، على حين اختبأ دي روخاس وراء عمله الأدبي، جاء خلقاً كله، في شخصياته وأحداثه، نعم لها معادل في واقع الحياة، ولكنها ليست حوادث أحد بعينه، واختار لها شكلا جديداً مستمداً من الآداب

اللاتينية ، يقع فى منطقة بين الرواية والمسرح ، وكتب نثراً كله ، وتعتمد على الحوار فى المقام الأول ، وترك الأحداث نفسها تتكلم ، ووضع بعض ما يريد أن يقول على لسان أبطاله ، حتى يهرب من المؤاخذة المباشرة والقريبة ، ولو أن ذلك لايعنى بالضرورة أنه كان حراً ، لأن محاكم التفتيش يمكن أيضاً أن تؤاخذ الكاتب بما يضعه على لسان الأبطال فى رواياته أو مسرحياته ، ولكن إدراك المراد جملة ، من عمل أدبى كامل ، فوق الطاقة الذهنية للقائمين عليها .

لكن ابن حزم أعطى دى روخاس الفكرة الرئيسية التى أدار حولها العمل الأدبى ، وهى فكرة « القوادة » ، وينبغى أن نشير بدءاً إلى أن هذا اللفظ لم يكن يعنى إذ ذاك ما نعنيه منه الآن ، أو الإسبان فيما بعد زوال دولة الإسلام ، فلم تكن تتاجر بالإثم ، وإنما تضطلع بدور الرسول بين المحبين فى مجتمع لم يكن يعرف البريد المنظم ، ولا الهاتف الموصل ، ولا التلاقى السهل ، فهى تذلل الصعاب ، وتنقل الأخبار ، وتحدد المواعيد ، وتؤدى الهدايا . ويسميها ابن حزم « السفير » فى طوقه ، ولم يرد عنده لفظ القوادة ولا مرة واحدة عبر الكتاب كله ، ولكن الاختلاف فى التسمية فحسب ، ذلك أن ابن حزم ، وكان مصقولا فى حياته ، راقياً فى تربيته ، اختار اللفظ الذى يتفق مع موضعه من المجتمع والحياة ، واختار آخرون كلمة « القوادة » ، وربما بعد عصره ، حين انحطت المهنة وتدهورت ، كأى شىء فى عهود الانحدار ، وشاعت على الأفواه وفى الكتب ، ودخلت اللغة الإسبانية فى صورة Alcahuete ، وتحت هذه الصورة التقينا بها مراراً فى كتاب الحب المحمود ، ومن قبله خصها الشاعر الأندلسى أبو جعفر بن سعيد بأبيات رقيقة ، لا تخرج فى محتواها عما وصفها به ابن حزم نثراً ، وأوجز خصائصها فى بيت واحد : « من لطف أحاديثها ، تجمع بين الماء والنار » .

وقد اختار دى روخاس « القوادة » بطلة لروايته ، وأدار حولهـا الأحداث كلها ، دون أن يستخدم اللفظ ولا مرة واحدة ، ولكنه ألبسها

كل الصفات التى أوردها ابن حزم فى كتابه عن « السفير » ، مهنة وأسلوباً واقتداراً ، والمثير أن للستينا فى الرواية ، أعنى القوادة ، تتحدث عن نفسها ، وتنعت مهنتها بأنها سفارة .

كان ابن حزم ، فيما أعلم ، أول من خص « السفير » بباب مستقل فى كتاب ، وجاء قصيراً نسبياً ، وما كان للطوق أن يخلو منه ، فهو يعالج قضية الحب ، وما كان للحب أن يشيع فى مجتمعات ما قبل وسائل الاتصال الحديثة ، دون وسيط يذلل صعابه ، ويقوى وشائجه ، ويحكم الصلة بين طرفيه ، وكانت القوادة ، أو السفير أو الرسول إن شئت ، هى هذا الوسيط . وكل الذين جاءوا بعد ابن حزم عالة عليه ، وصاحب « الحب المحمود » ، ورجحنا فيما سبق أنه عرف « الطوق » ، لا يتجاوز فى وصفه لها ما تحدث به أديب قرطبة ، ودى روخاس لا يكاد يخرج عن هذا الخط أيضاً . ويبقى هل تأثر بالطوق مباشرة أو عن طريق الحب المحمود ، أو عن طريق كتاب ثالث ألفه كاهن طلبيرة Arcipreste de Talavera (١٣٩٨ — ١٤٦٦ م) ، وأسماه : « كرباج Corbacho أو ذم الحب الطيارى » ويتحدث عن قضايا أربع خص كل واحدة منها بباب : الخطايا التى يؤدى إليها الحب المجنون ، وشرور ورذائل النساء ، والصلة بين الحب وأمزجة الرجال ، وتحديد فكرة الإرادة الحرة ، والباب الثانى من بينها أكثر واقعية ، وأشد ارتباطاً بالحياة ؛

وكلا الكتابين ، الحب المحمود وكرباج ، من مصادر دى روخاس فى روايته ، وكلاهما اتكأ على ابن حزم ، ومعهما لا أستبعد أن تكون عين مؤلف « القوادة » قد وقعت على كتاب « طوق الحمامة » ، وكان مؤلفه قد دخل مع ابن النغريلة اليهودى فى جدل عنيف ، حول ما بدر منه فى حق الإسلام والمسلمين ، وفى العقيدة اليهودية وما يتصل بها ، حوار استقر فى ذاكرة كل يهودى مثقف من جيله ، ومن الذين جاءوا بعده ، وربما حتى يومنا ، وتأثير ابن حزم لا يقف عند الفكرة فحسب وإنما يتجاوزه إلى الملامح الرئيسية لشخصية تلستينا ، وفى النظرة المتشائمة للحياة ، ومحاولة فتح باب الأمل

عريضاً وواسعاً أمام الراغبين فى رحمة الله من المخطئين، ولقد ينتهى بنا تحليل النص فى دراسة أكثر تأنياً إلى مشابهات أخرى، ولا أظن أن تأثير ابن حزم وقف عند هذين الكتابين: ومع دراسة أوسع للأدب الإسبانى الوسيط قد نقع على تأثيرات أخرى أشد وضوحاً، وأكثر عمقاً.

• الهوامش والتعليقات:

١ — ترجمت نص الملحمة إلى العربية، وقدمت لها بدراسة تفصيلية، فى كتابى: ملحمة السيد، أول ملحمة أندلسية كتبت فى اللغة القشتالية، وصدرت عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠

٢ — ملحمة السيد، ص ٩٨، الطبعة الأولى، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٠ م.

٣ — غرسية غومث مقدمة الترجمة الإسبانية لطوق الحمامة، ص ٧٧—٧٨، الطبعة الثالثة، مدريد ١٩٧١.

٤ — القشتالية أصلى لهجات الأندلس المسيحى فى العصر الوسيط، وهى كغيرها تفرعت عن اللاتينية، والتهمت اللهجات الضعيفة التى حولها، ولأن قشتالة موطنها قامت بالدور الأول فى حركة الاسترداد المسيحى، أصبحت لهجتها اللغة الرسمية، ولم تعرف كلمة الأسبانية إلا متأخراً. وقد استعصى عدد من اللهجات أو اللغات على الفناء، مثل القطلونية، ويتحدثون بها فى قطلونية، على البحر الأبيض، وعاصمتها برشلونة. والغاليسية ويتحدثون بها فى الشمال الغربى، أو لغة الباسك، وهى غير لاتينية، ويتحدث بها سكان مقاطعة الباسك فى الشمال، وهم يطالبون بالاستقلال.

٥ — وتسمى أيضاً قلعة بنى سعيد.

٦ — كان ابن حزم أول من استخدم فى طوق الحمامة تعبير «الحياة المجددة» أنظر ص ٩٠، وتعليقنا هناك، فى طبعتنا الكاملة والمحققة لطوق الحمامة، دار المعارف، طبعة ثانية، القاهرة، ١٩٧٧.

٧ — المدجنون: هم المسلمون الذين تخلفوا فى المدن التى سقطت فى يد المسيحيين، وظلوا على إسلامهم، وحافظوا على العربية لغة لهم.

٨ — الإحاطة لابن الخطيب، ج ١ ص ٢٢٢، ط الأولى، تحقيق محمد عنان — المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد، ج ٢ ص ١٦٦.

٩ — لا أعرف أحداً قبلى أشار إلى هذه الظاهرة.

١٠ — وردت هذه الكلمة فى مخطوطات «الحب المحمود» فى صور مختلفة: Çoda و Çadra و Açodra، وحار خوليو ثخادور محقق النص بإزائها، فليس لأى منها معنى فى اللغة الإسبانية، وأقرب كلمة إسبانية إليها Cidra، اسم ثمرة تشبه الليمونة، وهى أتفه من أن تهدى. فلم يجد بدأ من القول بأن أصلها عربى، واختار من الصور الثلاث

لفظ Çoda ، واحتال عليها فى تخريجات غير علمية ، وتأباها قوانين علم الأصوات، لينتهى بها إلى أن أصلها سعود . ولقد أسرف على نفسه كثيرا ، ذلك لأن اللفظ يجب أن يكون Çodra أو مع أدارة التعريف العربية açodra ، وهى صورة إسبانية لكلمة الصدرة (بضم الصاد) العربية ، ومعناها الثرب ، وما هو مايعنيه الشاعر فيما أرجح ؟ أنظر :

• Arcipreste de Hita : Libro de buen Amor , tomo II, P. 126 – 227 ; edicion y notas de Lulio Cejador , Clasicos Castillanos , Madrid 1954

• الصحاح للجوهرى ، والقاموس المحيط ، مادة : صدر

• دوزى : المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية ، ص ٢٠٥ الترجمة العربية للدكتور أكرم فاضل ، بغداد ١٩٧١ .

١١ — فى معظم الطبعات الإسبانية لكتاب «الحب المحمود» يوجد هذا اللفظ مرسوما على النحو التالى : alaud ، أى العود ، وترجمتها على هذا النحو ، عندما نشرت هذه الدراسة مقالا فى مجلة «آفاق عربية» العراقية ، ولكن خلال رحلتى صيف عام ١٩٧٦ إلى مدريد اطلعت على نسخة أخرى للكتاب ، فوجدت صورة اللفظ فيها على هذا النحو : ala wud ، أى على الود ، وهى أكثر احتمالا ، وانسجاما مع معنى البيت .

١٢ — طوق الحمامة ، بتحقيقنا ، ص ١٦ ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ ، وكل إشارتنا هنا إلى الطوق تنصرف إلى هذه الطبعة .

١٣ — كتون (٢٣٤ — ١٤٩ ق.م) خطيب رومانى شهير ، وداعية تقشف ، أدرك مبكراً أن ترف روما المبالغ فيه سوف يودى بها ، فحاول أن يقف فى طريقه . وإن يقلل منه ففشل ، وأصبح اسمه يطلق وصفاً على كل رجل ذى عادات متقشفة .

١٤ — الحب المحمود ، الدور رقم ٤٤ .

١٥ — الطوق ، ص ٢٨ .

١٦ — الحب المحمود ، الدوران رقم ١٥٦ ، ١٥٧ .

١٧ — الطوق ، ص ١١٥٤ .

١٨ — الحب المحمود ، الأدوار ١١٥ — ١٢٠ .

١٩ — باب السفير ، طوق الحمامة ، ص ٥٨ ، من طبعتنا .

٢٠ — الحب المحمود ، الأدوار رقم ٤٣٦ — ٤٤٣ .

كتب أخرى للمؤلف

١ – امرؤ القيس : حياته وشعره ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٧٥م

٢ – دراسة فى مصادر الأدب ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٧٧ ؛

٣ – ملحمة السيد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٧٠ (نفد ويعاد طبعه) ؛

٤ – مع شعراء الأندلس والمتنبي ، ترجمة كتاب المستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٤م .

٥ – بابلو نيرودا : شاعر الحب والنضال ، دار روز اليوسف ١٩٧٤ .

٦ – تحقيق طوق الحمامة لابن حزم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧٧ ؛

٧ – القصة القصيرة : دراسة ونماذج ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ١٩٧٧ ؛

٨ – الأدب المقارن : أصوله ومناهجه ، دار المعارف ١٩٧٧ ؛

تحت الطبع :

٩ – الشعر الأندلسي حتى نهاية القرن الحادى عشر ، للمستشرق الفرنسى هنرى بيريس .

١٠ – ابن حزم القرطبي ، المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس .

فهرس

مطابع سجل العرب

٩ شارع عماد الدين - ت ٩٣٢٧٠٦

رقم الإيداع ٢٥٤١ / ١٩٧٧

الترقيم الدولي ٣ ــ ٤٤ ــ ٧٢٣٦ ــ ٩٧٧ ISBN

هـذا الكتـاب

• يدرس عالما وكتابا . أما العالم فابن حزم القرطبى ، وكان على أيامه وما بعدها ملء السمع والبصر ، نضالا من أجل الحق ، وحرباً على من يسجد لغير الله من الخلق . وأما الكتاب فطوق الحمامة الشهير ، وعالج فيه فقيه قرطبة قضية الحب وألوانه وأهوائه ، ومصارعه وانحرافاته ، وفضل التعفف ، وقبح المعصية ، واعترافات صريحة بما وقع منه فى أيام حداثته وشبابه .

• يتناول الحياة فى قرطبة على أيام ابن حزم ، عمرانياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً ، ويقدم لأول مرة مخططا لما كانت عليه عاصمة الغرب الإسلامى فى القرن العاشر الميلادى .

• تتبع تاريخ ابن حزم ، أسرته ونشأته وأساتذته ، ونضاله السياسى والثقافى ومؤلفاته ، واصطدامه بفقهاء عصره ، ورفعه راية العصيان فى وجه الظلمة من الحكام على أيامه ، وما تعرضت له قرطبة من تدمير وتخريب خلال الفتن العاتية .

• تضمن ثلاثة أبحاث لثلاثة من كبار المستشرقين ، يعرض الأول لأصل ابن حزم ، أهو عربى أم إسبانى ، ونراه نحن مسلماً حنيفاً ، والثانى عن مكانة الطوق بين كتب الحب العالمية ، والثالث عن مكانة الطوق بين كتب الحب فى الأدب العربى .

• وعرض صورة لابن حزم بقلمه ، والمرأة فى قرطبة من خلال طوق الحمامة ، وتأثير هذا الكتاب فى الأدب الإسبانى .

• ومؤلف الكتاب ، ومترجم الأبحاث الإسبانية التى وردت الدكتور الطاهر أحمد مكى ، حصل على الدكتوراه بامتياز من جامعة مدري وأستاذ الأدب الأندلسى فى جامعة القاهرة ، وله غير هذا الكتا العديد من المؤلفات ، منها : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، وهو من مطبوعا مكتبة وهبة .

١٨٠ ص

